

فرانتس كافكا

القصر

ترجمة وتقديم

مصطفى ماهر

ميراث الترجمة



القصر

المركز القومي للترجمة

إشراف: جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة

المشرف على السلسلة: طلعت الشايب

— العدد: ١٣٤٣

— القصر

— فرانتس كافكا

— مصطفى ماهر

— ٢٠٠٩

هذه ترجمة رواية

Das Schloss

Franz Kafka

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة.

شارع الجبلية بالأوبرا — الجزيرة — القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ — ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

القصر

تأليف: فرانتس كافكا

ترجمة وتقديم: مصطفى ماهر



بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق
القومية

كافكا، فرانتس (١٨٨٣ - ١٩٢٤)
القصر؛ تأليف: فرانتس كافكا، ترجمة وتقديم: مصطفى
ماهر، القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٩م.
٣٥٨ ص؛ ٢٠ سم
١- القصص الألمانية
أ- ماهر، مصطفى (مترجم ومقدم)
ب- العنوان
٨٣٣

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/١٠٣٠٩
الترقيم الدولي: 2- 978-977-479-255
طبع بمطابع مصر للطيران

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

مقدمة

ولد فرانتس كافكا فى الثالث من شهر يولية عام ١٨٨٣ فى مدينة براغ التى كانت فى ذلك الوقت تجمع بين ثقافتين الثقافة الألمانية من ناحية والثقافة التشيكية من ناحية ثانية ، ويبدو أن الطبقة التى كانت تحمل الثقافة الألمانية كانت هى الطبقة المرموقة التى يتوق الناس الى الوصول اليها والاندماج فيها والسير على طريقها . وكانت أسرة كافكا أسرة فى أصلها رقيقة الحال ، كان الجد يعمل بالجزارة ويسعى هو وأولاده باللحم الى الزبائن ، أما الأب فقد رسم لنفسه طريقا للصعود الاجتماعى سلكه فى حزم عنيف ، فبدأ بالرحيل من القرية الى المدينة - براغ - وتزوج من واحدة من أصحاب الثراء من بين الأسر المتكلمة باللغة الألمانية ، وتمكن من احتراف التجارة وكسبه المال ، ودفع أولاده رغما عنهم الى الاتجاه الى قطاعات من التعليم والعمل كان يرى فيها دليلا على الرفعة والوجاهة ، وكان فى معاملته أولاده عنيفا شديدا العنف ، لا يكاد يدع لهم متنفسا فى حضرته ، فاضطربت نفس فرانتس كافكا منذ وقت مبكر بنار الثورة على أبيه ، واتجه بينه وبين نفسه الى الهروب من البيئة القاسية الى الأحلام أحلام اليقظة والى الخيال الابداعى بعد ذلك ، وربما تحملت شخصية فرانتس كافكا بشيء من العصائية التى كان بعض أفراد أسرة أبيه وأسرة أمه يعانون منها . ووجد فرانتس كافكا نفسه فى المدرسة الألمانية فى براغ ، فلما أتمها دفعه أبوه الى دراسة القانون حتى يتمكن من الانخراط فى سلك الموظفين ، والاندماج فى هذه الطبقة التى تدبر الأمور وتهيمن على المقدرات . أما فرانتس نفسه فكان يتمنى أن يدرس الفلسفة والآداب والفنون . . . وشتان ما بين الاتجاهين من ثباين ! وإذا كان فرانتس كافكا قد اضطر الى ارضاء أبيه بدراسة القانون ، فقد عرف فى الوقت نفسه كيف يرضى شغفه بالفلسفة والآداب والفنون ، فقرأ وحده ما استطاع واستمع الى كثير مما كان يلقي فى الجامعة من محاضرات فى هذه التخصصات . وأتم كافكا فى عام ١٩٠٦ دراسة القانون وحصل على الدكتوراه وتدرّب فترة فى المحاكم شاهد فيها بعينه كيف يتم التقاضى وعرف الصعوبات التى يتعرض لها أصحاب الحاجات فى متاهات القانون وكيف يساقون من مكتب الى مكتب

ومن دائرة الى دائرة ، يلقفهم هذا الموظف ، ثم ذاك المحامي ، ويقعون في براثن هذا المتعجرف أو ذاك الأفاق ، يرجون الوصول الى العدالة وكلما اقتربوا منها في ظنهم يدت عنهم في الواقع المرير . وانتقل بعد فترة التدريب هذه للعمل في شركة للتأمينات العامة ثم الى مؤسسة التأمين على العمال وظل بها حتى استقال لمرضه في عام ١٩٢٢ - وأتاحت له هذه السنوات الطويلة من العمل معرفة المزيد من أسرار العمل في الدواوين ، وتصور الانسان العصري سجيناً في أغلالها . وانتهى فرانتس كافكا ضحية السبل في الثالث من يونيه عام ١٩٢٤ وعمره يقل عن ٤١ سنة قليلاً .

وتتكون الأعمال الأدبية التي خلفها كافكا من مجموعة القصص التي نشرها في حياته ، ومجموعة الروايات التي نشرت بعد وفاته ثم طائفة من الرسائل واليوميات والمذكرات . وقد أخرجنا من قبل في مطبوعات « دار الكاتب العربي » ترجمة كاملة لرواية « القضية » ونقدم اليوم هذه الترجمة لرواية « القصر » ونرجو أن تتمكن من متابعة الترجمة حتى تصبح في متناول يد القراء العرب مجموعة الأعمال الكاملة لكافكا (١)

أحداث القصر :

في وقت متأخر من مساء يوم من أيام الشتاء يصل رجل اسمه ك (انطق « كا » مقحمة) الى قرية لا تعلم من اسمها الا « القرية » تقع عند أسفل التل الذي ترتفع عليه مباني القصر ، أتى بعد رحلة على الأقدام ليعمل موظفاً للمساحة بناء على دعوة يقول انه تلقاها من أصحاب الشأن . ويذهب الى حان الجسر بالقرية ويحاول أن يقضي الليلة في هدوء حتى يأتي الصبح ويجرى اتصالاته ويبدأ عمله ، ولكن أهل القرية يواجهونه بالشك والريبة ، ولا يشرکه صاحب الحان يبيت الا بعد اجراء اتصال تليفوني مع القصر يسمح بهذا المبيت . ويعتقد ك أن هذا التصريح بالمبيت يعني أن الأمور كلها تسير على أحسن وجه وأن الشك والريبة السابقين لايزيدان عن أن يكونا من قبيل الخطأ أو سوء الفهم . وك لا يعرف من أمر القرية والقصر الا القليل ، وهو يظن أن الجراف أو الأمير في القصر رجل عظيم يحسن تدبير كل شيء ، ويغطي الموظفين والعاملين لديه أجراً حسناً ، وكان ك يمتنى نفسه بشيء من الكسب يوفره ويعود به الى بلده . فلما أصبح

(١) انظر مقالنا « القضية » لكافكا في العدد ١١ من مجلة تراث الانسانية عام ١٩٧٧ ، وفيه عرض مفصل لحياة فرانتس كافكا وأعماله ، وكذلك كتابنا « وصفات خالدة من الادب الانساني » بيروت ١٩٧٠ وخاصة ص ٤٥٩ - ٤٨٠ و ٦٦٨ .

الصباح خرج الى القرية التي كانت تتوازي تحت الثلوج المتراكمة ، ونظر الى الافق فوجد القصر فوق التل لا يغطيه من الثلج الا القليل وتبين ان القصر يتكون من مجموعة من المباني التي توشك أن تكون مدينة صغيرة وان له برجاً واحداً لا يعلم الناظر اليه هل هو برج كنيسة أو مسكن . ثم أطل النظر فتيبين أن القصر الذي كان في البدايه يظنه منيفاً رائعاً لا يزيد عن أن يكون مدينة بائسة من الحجر الهش الذي يتساقط فئاته ويفقد طلابه . وتذكر ك بلدته فلم تكن تقل تقريباً عن هذا القصر المزعوم . وتبين ك حواليه في القرية كنيسة ومدرسة ، والتقى بمدرس حاول أن يتكلم معه عن القصر والجراف ، ولكن المدرس لفت نظرك الى وجود أطفال أبرياء بجانبهما لا يصح الحوض في هذا الأمر على مسمع منهم ! وسار ك يحاول أن يصل الى القصر ، ولكنه أحس بالتعب يملكه فجأة ، وتبين أن الطريق الى القصر لا تصل اليه ، وان كانت تصل الى مكان قريب منه ، وانها مع ذلك طويلة طولاً لا نهاية له . وانحرف ك عن طريق القصر واتجه الى بيوت القرية ، ودخل أحدها فوجد رجلين يستحمان في حوض كبير ، وأطفالاً يلعبون ونساء يغسلن ورأى امرأة باهتة اللون شاحبة علم انها تتصل بالقصر ، أو على خد تعبيره « بنت من القصر » ، وأخذته النعاس هناك ، فلما أفاق قيل له ان عليه أن ينصرف ، فخرج . وقابل رجلين متشابهين كل التشابه علم منهما انها مساعده ، عيتهما الديوان له ، على الرغم من أنه كان ينتظر وصول مساعديه الحقيقيين ومعهما أجهزة المساحة . واضطر الى قبول هذين المساعدين ، وعلم منهما ان الانسان لا ينبغي له أن يطمأ القصر الا بتصريح ، وكلفهما بالسعى للحصول على تصريح له فأبلغاه بأن القصر يرفض ، وحاول هو أن يتصل تلفونيا بالقصر فلم يفهم شيئاً . ثم التقى ك بشاب اسمه برناباس علم منه انه يعمل ساعياً بين القرية والقصر وانه يحمل اليه رسالة من رئيس الادارة العاشرة واسمه كلم ، يبلغه فيها بأن عليه أن يتصل برئيس القرية ليعرف منه تفصيلات مهمته ، ويبلغه فيه بأن برناباس وضع تحت تصرفه ليكون همزة الوصل بينه وبين الديوان . وسار ك معتمداً على ذراع برناباس ليتحدث معه في أمر الخطاب والرد عليه ، وطال السير حتى وصل الاثنان الى بيت برناباس ورأى ك هناك والدي برناباس وأخته أماليا وأولجا . وما ان تبين ك أن بيت برناباس لا يتصل بالقصر حتى غضب وأراد الانصراف ، وانتهاز فرصة ذهاب أولجا الى الحان لاحتضار شيء من البيرة ، فرافقها الى هناك . ولم يكن هذا الحان هو حان الجسر الذي نزل به في الليلة الماضية والذي أعطاه به حجرة الخادمة لينام بها حتى يصدر قرار بشأنه . كان هذا

الحان الجديد هو حان السادة . وعلم ك من صاحب حان السادة ان المبيت به مقصور على السادة الذين ينزلون من القصر الى القرية ، وان مبيته فيه ضرب من المستحيل . ورأى ك كيف أحاط الخدم بأولجا واسترسلوا معها في الرقص والعبث . وتعرف ك في قاعة الشراب أو خمارة الحان بفريدا خادمة الشراب التي جذبت انتباهه اليها بنظرتها التي عبرت بها عن تفوق شديد . وعلم منها أنها عشيقة كلم ، وأنها تستطيع أن تتيح له امكانية النظر اليه . وبالفعل رفعت سدادة بالباب ونظر ك من خلال ثقب فرأى رجلا جالسا : انه كلم ! واتفق ك مع فريدا على أن تمكنه من المبيت هنا . وكانت ليلة ارتبط فيها قلباهما بالحب . لقد امتلك ك فريدا وأصبح يعتقد انه يمتلك كل شيء بامتلاكه اياها ، وكان يعتقد فوق ذلك انه كسب من كلم شيئا عظيما بالغ العظمة . وكان على فريدا أن تترك عملها في حان السادة وأن تتبع ك الى مقره في حان الجسر . وسار الاثنان الى هناك ، وكان المساعدان يتبعانها خطوة خطوة ولا يرضيا بمفارقتهما لحظة ، حتى وصلا الى داخل الحجرة فلم يخرجها منها . كان ك يغلظ لهما ويرجو التخلص منهما أو على الأقل ابعادهما عن ملاحظته حيثما ذهب ، وكانت فريدا ترفق بهما وتحنو عليهما . ومهما يكن من أمر فقد أصاب ك بعض الراحة وأصبح يستطيع التفكير في الذهاب الى رئيس القرية ليعرف منه تفصيلات عمله . ولكنه كان في الوقت نفسه ، وربما بالدرجة الأولى ، مهتما بسبر أغوار القصر ومعرفة حقيقة كلم ، وقد جرى بين ك وبين صاحبة حان الجسر حديث طويل حول هذه الموضوعات من ناحية ، وحول علاقته بفريدا من ناحية ثانية . والرأى عند صاحبة الحان أن ك أضرب فريدا ضررا بليغا بإبعادها عن كلم ، وانه ارتكب حماقة بشعة بذهابه الى بيت برناباس ، وأنه يسعى سعيا سخيفا للقاء كلم ولدخول القصر ، وأنه قبل هذا كله جاهل شديد الجهل ، جاهل على نحو لا سبيل الى اصلاحه .

وذهب ك الى رئيس مجلس القرية فوجده مريضا يلزم الفراش ، وجرى بين الاثنين حديث طويل عن نظام عمل الدواوين وكيف يمكن أن يحدث أن يستدعى الى القرية موظف مساحة لا حاجة للقرية به ، وكان رئيس القرية يخشى أن يسبب شرحه المطول لروتين الحكومة الجرافية الملل لمحدثه ، وكان ك على العكس يجد حديث رئيس القرية مسليا . وكيف يمكن الا تكون القرية بحاجة الى ك موظفا للمساحة وقد تلقى من خطابا من كلم اعتبره تأكيدا لتعيينه في هذا المنصب ؟ ولكن رئيس القرية يرى ان هذا الخطاب خطاب خاص ليست له الصفة الرسمية ، وأن ك يستطيع الرحيل ان شاء . ولكن ك رفض الرحيل ، وأصر على نيل حقه ،

وكيف يمكنه العودة الى بلاده هكذا وقد خابت رحلته ، وتبددت آماله ، وضاع ماله ، واستحال عليه العثور على عمل مماثل وارتبط هنا بفتاة وعدها بالزواج ؟ وانصرف كغاضبا . وما ان وصل الى الحان حتى تبين ان صاحبة الحان قد قررت طرده من حانها وأنهما اضطرت الى سلازمة الفراش من فرط ثورتها عليه . فذهب اليها ليهدها ودار بينهما حديث طويل ، قصت في خلاله على ك قصة زواجها وحصولها على الحصان ، وارتباط هذا كله بكلم الذي كانت عشيقته له ، وصلاتها الكثيرة بأصحاب الحل والربط ، ووعدت ك بأن تحاول توصيل طلبه محادثة كلم بشرط أن يعدها هو بألا يفعل شيئا من تلقاء نفسه . وعندما غاد ك الى حجرته وجد فريدا مع المعلم الذي جاء ليلبغ ك بأن رئيس القرية يخشى أن يقوم ك بعمل متهور ، ولذلك فهو يعرض عليه أن يقبل وظيفة خادم المدرسة حتى تقرر الدواوين الأميرية شيئا نهائيا في مسألتة . ورفض ك العرض ثائرا عليه ، ولكنه اضطر في النهاية الى قبوله مؤقتا لأنه يتيح لفريدا وله مكانا يسكنان فيه ، ومصدرا للرزق . ولم يكن مكان السكن الجديد سوى حجرة من حجرتين تتكون منهما المدرسة ، سيسمح لفريدا و ك بالنوم فيها ليلا ، على أن يخليها مبكرين قبل حضور التلاميذ . وترك ك فريدا والمساعدين وهم يتأهبون للانتقال الى المدرسة ، وذهب هو يحاول الالتقاء بكلم . ذهب الى حان السادة . وهناك بحث عن الثقب الذي كان قد رأى كلم من خلاله بالأمس فلم يعثر له على أثر . والتقى ببببي خادمة الحمارة التي خلقت فريدا ، ودار بينهما حديث علم منه أن كلم ليس بالحجرة ، فليست هذه حجرته ، وانه يوشك على الرحيل الآن بالزحافة . وأسرع ك الى الخارج ، وذهب الى الفناء المغطى بالثلوج ، ورأى زحافة تقف فيه ورأى الحوذى وتكلم معه ، وعلم منه انه يستطيع التسلل الى الزحافة واستخراج زجاجة كونيكا منها لكي يشرب منها جرعة ، ويشرب منها الحوذى كذلك . ودفع البرد ك الى قبول النصيحة وركب الزحافة ونعم بما فيها من دفء ورفاهية ، وشرب شيئا من الكونيكا اشتدت به أوصاله . وفوجئ ك بالنور يضاء ورجل يأتي . ولكن هذا الرجل لم يكن كلم . ودار بين ك وبين هذا الرجل حديث علم منه أنه لن يلتقى بكلم بحال من الأحوال ، سواء انتظر أم لم ينتظر . وأصر ك على الانتظار ، فأمر الرجل الحوذى بأن يعيد الزحافة والحصانين الى الاسطبل . وأيقن ك من أن انتظاره لن يؤدي الى نتيجة ، فعاد أدراجه الى الحان وجلس في قاعة الشراب . وهناك سمع صوت انطلاق الزحافة : لقد رحل كلم بعد ان زالت العوائق من طريقه ونظفوا الفناء من آثار

الأقدام التي كانت قد ارتسمت فيه . وجاء اليه رجل اسمه موموس قدم نفسه على أنه سكرتير كالم في القرية . وطلب اليه أن يأتي ليستجوبه ، فرفض ك رفضاً قاطعاً على الرغم من أن صاحبة الحان - التي كانت حاضرة - نصحته بالقبول فلا يصل شيء الى كالم الا عن طريق سكرتيه . وقابل ك على الباب وهو يتأهب للانصراف ، صاحب الحان الذي لاهه على أنه لم يقبل أن يستجوبه موموس .

وخرج ك ليذهب الى المدرسة . وقابل في الطريق المساعدين ثم برناباس الذي جاء اليه بخطاب من كالم . وفتح ك فوجد أن كالم يتوجه اليه بالشكر على ما تم من أعمال الساحة ويحثه على أن تصل الأعمال الى نهايتها المرجوة . ودهش ك لمضمون الخطاب فهو أكثر الناس علماً بأنه لم يقم بشيء يمت الى المساحة بصلة . وتوقع ك أن يكون في الأمر خطأ ، ورجا برناباس أن يبلغ السيد المدير رداً على خطابه التماسه بالمثل بين يديه ولو لفترة صغيرة جداً . وسار ك طريقه الى المدرسة بين حائق على برناباس لأنه في تصوره لا يقوم بالعمل على ما ينبغي ، ومستميل له لأنه على أية حال الصلة الوحيدة بينه وبين القصر . ووجد ك فريدا في المدرسة وقد أعدت في أحد الفصلين مكاناً لسكنهما ، وكان الفصل يحتوي على أجهزة الرياضة البدنية . وتناول ك وفريدا معاً طعام العشاء ولم يكن ينقص على ك راحته شيء أكثر من وجود المساعدين معهما والتصاقهما بهما ، ومضايقتهما لهما . ولكن ك لم يكن يستطيع أن يفعل شيئاً للتخلص منهما ، وكان ينظر بدهشة الى حنو فريدا عليهما . وحين وقت النوم ، وكانت الحجرة باردة برودة لا سبيل الى احتمالها ، فحطم ك مخزن المدرسة بالبلطة وأخرج منه خشب الوقود وأوقد به المدفأة ، وتمدد وصاحبه على جوال مملوء بالقش ، وكلف المساعدين التناوب على ملاحظة المدفأة حتى لا تنطفئ وتبرد الحجرة في هذا الشتاء القارس . وهكذا انقضت الليلة لم يعكر هدوءها الا مرور قطع على فريدا أثناء نومها ، فصحت مفزوعة وقامت تبحث عنها فانتبه أحد المساعدين الفرصة وتمدد مكانها على جوال القش ولم يبرح الا بعد أن نهره ك . - فلما أصبح الصباح تواترت مشكلات هذه الحياة المؤقتة التي لا تقوم على مقومات صحيحة . فقد أتى التلاميذ مبكرين على عادتهم ، ولكن المدرسة لم تكن قد تهيأت بعد لبدء الدراسة ، فلم تتم أعمال النظافة ، ولم يحدث شيء من ترتيب ، وهذا فصل من الفصلين قد تحول الى حجرة نوم لا يصح من فيها ! وكانت المعلمة جيزا غاضبة لأن قطنها أصيبت بجرح - ربما

على أثر معركتها بالليل مع فريدا - ولم يهدأ غضبها الا بعد أن تكفل ك وفريدا بانعناية بالقطه الجريئة ، وكان المعلم نائرا لاضطراب حال المدرسة . وانتهى الأمر بالمعلم الى فصل ك من العمل ، ولكن ك رفض الفصل ، فجمع المعلم التلاميذ جميعا فى الحجرة الأخرى ، ونصح ك بأن يفكر فيما يفعل وألا يسترسل فى الحماقات . وبدأ ك يدبر أموره ، ففصل المساعدين اللذين كان سخطه عليهما قد تجاوز كل حد ، وطاردهما ما استطاع ، وتركهما خارج المدرسة يقفان وسط الثلوج المتراكمة . وتبين ك ان فريدا حزينة وانها بين أسفة على ترك عملها فى الحان وساعية الى دفعه الى أن يترك هذا المكان الصعب ويهاجرا الى جنوب فرنسا أو أسبانيا . ولكن ك كان مصمما على البقاء . وقرع الباب بعضهم ، فظنه ك أنه برناباس أتى اليه برد من كلم . ولكن القادم لم يكن برناباس بل كان صبيا من صبية المدرسة صعب عليه ما حدث فأتى ليواسى ك . واكتشف ك أن هذا الصبى هو ابن المرأة الواهنة التى كان ك قد رآها فى يومه الأول بالقرية والتى قيل له انها بنت من القصر ، وحاول ك بشتى الطرق المتلوية أن يحمل الصبى على تدبير مقابلة بينه وبين هذه المرأة حتى تمكنه من الاتصال بالقصر ، فاستجاب الصبى ووعده بأن يحاول . واشتد غضب فريدا من ك ، واتهمته بأنه يتجاهلها ، وبأنه يدعى أنه يريد الوصول الى كلم وهو فى الحقيقة يخفى نوايا خبيثة . ودافع ك عن نفسه ما استطاع وخرج يلتمس برناباس ، وذهب الى بيته على الرغم من تحذير فريدا اياه من آل برناباس . وكان ك فى الحقيقة يريد ان يسأل سؤالا واحدا وينصرف ، ولكنه لبث الساعات يتحدث مع أولجا أخت برناباس التى فتحت قلبها وقصت عليه قصة الأسرة والمصيبة التى حلت بها .

كانت الأسرة تتمتع بسمعة طيبة فى القرية وكان الناس يحبون أفرادها ويحترمونها حتى أقامت القرية احتفالا بفرقة المطافئ حضره أحد موظفى القصر واسمه سورتينى وما ان رأى أماليا أخت برناباس الأخرى حتى تعلق بها أشد التعلق ، وأرسل اليها فى الليلة نفسها الى البيت خادمه محملا بخطاب بذى يطلب اليها ان تاتى اليه فى حان السادة . فغضبت أماليا لكرامتها ومزقت الخطاب وألقته فى وجه الخادم . وانتشر الخبر فى القرية . ولم يكن الخبر الذى انتشر هو دفاع أماليا عن كرامتها وشرفها ، بل كان تجاسرها على اهانة خادم سورتينى وسورتينى نفسه لسبب ما لم يكن هناك من يريد أن يعرفه أو يهتم له . وأصبحت القرية

تري في فعلة أماليا بشاعة لا قبل لأحد بها ، فانصرف الناس عن أماليا وذويها ، وبارت تجارة الأب وتدهورت حالة الأسرة . وحاول الأب أن يتصل بالقصر ليصلح الأمر وليشكو من الظلم ولكنه خسر ماله وصحته ولم يصل الى شيء . وأخيرا فكرت أولجا في أن تحل المشكلة بطريقتها ، فاستسلمت لخدم القصر الذين ينزلون مع السادة الى القرية ويقيمون في حظيرة حان السادة . وتمكنت أولجا من الوصول ببرناباس الى العمل في القصر ساعيا ليست له صفة رسمية ، فهو يقف في الدواوين الساعات وربما الأيام حتى يجد رسالة يحملها الى القرية ، وكان الخطاب الذي جملة الى ك هو أول عمل يكلف به . وبينما أولجا وك يتحدثان ويتناقشان ويتبادلان الآراء ، دق بعضهم الباب فنظرت أولجا وتبينت أنه أحد المساعدين . وتناولك الخطاب وخرج من الباب الخلفي عبر الحديقة وتسلق الجدار ليفاجيء الرجل ويضربه . ولكنه لم يضربه بل دخل معه في حديث فهم منه أن المساعد الآخر قد ذهب الى القصر ليشكو من أن ك لا يفهم المزاج ، ولقد كانت المهمة التي كلفها بها القصر هي مصاحبة ك وتسليته . وعلم ك من هذا المساعد واسمه يريمياس ، انه التحق بالعمل خادما في حان السادة ، وإن فريدا كذلك قد تركت المدرسة وعادت الى عملها في الخبازة ، فلم تعد تحتل خيافة ك وذمابه الى بيت آل برناباس واتصاله بالبنيتين الفاجرتين . واتجه ك من قوره الى حان السادة وهو يظن انه سيتمكن من اصلاح مافسد من أمره مع فريدا . وفي الطريق التقى ببرناباس الذي أبلغه أن السيد ارلانجر ، أحد سكرتيري كلم الأوائل يريد مقابلته ، وأنه ينتظره في حجرته بالخان .

واتجه ك الى الممر الذي تطل عليه غرف السادة ، وهي غرف كثيرة متشابهة لا يستطيع الانسان أن يميز الواحدة عن الأخرى . وأشار الخادم الذي رافقه الى هناك الى واحدة منها ، وقال انها حجرة ارلانجر، وحضه على الانتظار حتى يصحو ارلانجر من النوم ويستدعيه لاستجوابه . وانتظر ك . وبينما ك ينتظر هناك رأى فريدا تحمل صينية فاتجه اليها ، وتكلم معها محاولا إعادة المياه الى مجاريها ، ولكن فريدا أصرت على اتهامه بخيانتها وإلى قطع كل صلة قامت بينهما ، وتركته وذهبت الى حجرتها التي كانت تقيم فيها مع يريمياس . وعاد ك الى غرف السادة وحاول التعرف على حجرة ارلانجر فلم يستطع ، ولم يكن هناك من يستطيع ارشاده اليها . ففكر في أن يفتح أى غرفة وينظر هل ارلانجر بداخلها ، فان لم يجده فقد يجد من يستطيع ارشاده . وساقته هذه الحيلة الى

حجرة سكرتير آخر هو السكرتير بوزجل الذى دعاه للدخول ، وأجلسه على حافة السرير وأخذ يتحدث معه عن الديوان وعن أعمال الموظفين وكيف تجزى حتى استبدل التعب بك واستغرق فى نوم عميق . وصحا ك على صوت يناديه . كان ارلانجر فى الحجرة المجاورة وعلم بوجودك ، فطلبه اليه ليتحدث اليه بسرعة قبل أن ينصرف فقد أرف موعدا انطلاقه الى القصر . وأسرع ك اليه فأبلغه ارلانجر بأن علاقته بفريدا قد تسببت فى تركها العمل فى الخمارة وقد أدى هذا الى شئ من الارتباك الذى ربما أثر على كلم ، ولهذا كان من الضروري أن تعود فريدا الى عملها على الفور . وانصرف ارلانجر . ووقف ك فى الممر يرقب توزيع الملفات على غرف الموظفين ، وكانت عملية تتم فى صعوبة بالغة لأن غرف الموظفين ظلت مغلقة أو شبه مغلقة ، وكان الخادم المكلف بالتوزيع لا يستطيع لهذا السبب التفاهم مع الموظفين فى أمر الملفات التى تخصهم . وفجأة دق جرس هناك دقا عاليا مستمرا وأتى صاحب الحان وزوجته مهرولين وكان كارثة حلت . وتبين ك أن وجوده فى هذا المكان فى هذا الوقت هو الذى تسبب فى كل هذه التعقيدات ، فلم يكن الموظفون يحتملون رؤية شخص مثله فى مطلع النهار ! واقتيد ك الى الخمارة حيث قضى الليلة نائما على لوح من الخشب . وفى الصباح جزى بينه وبين بيبي حديث طويل عن الفرق بينهما وبين فريدا ، وعن المحنة التى تردت هى اليها اذ ارتقت الى خادمة خمارة ثم انحطت بعد ذلك من جديد . الى مرتبة خادمة حجرات ، وكان رأيها أن ك هو السبب فى ذلك . ومهما يكن من أمر فقد جمعت الظروف السيئة بينهما ، فما أشبه ما يحدث له بما يجرى عليها ! واقتربت بيبي على ك أن يأتى حفية الى حجرة الخادمت ويعيش معهن دون أن يراه أحد ، فاذا جاء الريح وشاع الدفء وعثر ك على مكان أفضل فله ان شاء أن يفادر حجرة الخادمت ، ووضحت له أنه بذلك لا يفقد حريته ، كل ما سيكون عليه هو أن يختبئ عن الأعين وأن يطيع الخادمت فى كل أمر . فلما سأل ك عن الريح وموعده أجابت بيبي بأن الشتاء فى القرية طويل طولا مسرفا ، ولكن الريح سيأتى يوما ما ، فلكل فصل موعده الذى يحل فيه . وشرحت بيبي ل ك مكان الباب الموصل الى حجرة الخادمت واتفقت معه على الدقات التى ينبغى عليه أن يدقها حتى يعرفنه . وأتت صاحبة الحان فجأة وقطعت عليهما الحديث ، وتحدثت هى مع ك ثم اصططحته الى حجرة ملابسها ليرى الثياب الكثيرة التى تملكها لعله يتراجع عن الفكرة التى تظن أنه قد كونها عن هئامها . لقد كان على ما يبدو يتصور انها لا تحسن اختيار

ثيابها ، فإذا به يتبين أنها مغرمة بالثياب لا تشبع منها . وصحح ك الفكرة قائلا انه لم يقل من شأن هنداها ، بل ذهب الى أنها ليست صاحبة حان فقط ، فصاحبة الحان لا شأن لها بهذه الثياب ، ثم اشتد في التعبير فقال انه يعنى أنها تكذب . وكان ردّها عليه أنه كذلك يكذب ، فهو ليس مجرد موظف مساحة . وتنتهى الصفحات التى وصلتنا من الرواية بحكم صاحبة الحان على ك بأنه : اما مجنون أو طفل أو انسان شرير جدا ، خطير جدا .

حول « القصر » :

تتشترك هذه الرواية مع كثير من أعمال كافكا فى أنها نشرت بعد وفاته اعتمادا على مخطوطات لم يكن قد أعدها للنشر ، بل ولم يكن يعتقد أنها تصلح للنشر على حالتها : فقد كانت مفككة لم يحدد تتابعا لفصولها . . . وكانت تتضمن الكثير من المحاولات فى الموضع الواحد . . . وكانت تشتمل على فقرات كثيرة مشطوبة . . . وكانت مكتوبة فى أجزاء كثيرة منها باختزال خاص . ولكن الرواية كتب لها البقاء وظهرت مطبوعة لأول مرة فى عام ١٩٢٦ . وتوالت الطبعات بعد ذلك وقد أضيفت اليها زيادات قال الناشر انها من المخطوط . ولا تزال الشكوك قائمة الى الآن حول الصورة التى ينبغى ان تكون عليها الرواية ، وان كان من المستبعد ان يكون النص قد تناوله تحريف كبير .

والمعروف ان هذه الرواية نشأت فى الفترة بين عام ١٩٢١ و ١٩٢٢ . وكان كافكا قد تعرف فى عام ١٩٢٠ بميلينا يزينسكا ، ابنة أستاذ فى جامعة براغ ، وزوجة طالب - هو ارنست بولاك - لا يفرغ من دراسته أبدا . وكانت ميلينا شخصية فريدة ، عميقة الفهم ، مرهفة الحس ، ميالة الى المبالغة وتحطيم القيود فقد ثارت على أبيها فحبسها فى مصحة فهربت الى فيينا وسارت فى طريقها مستقلة تفعل ما يحلو لها . . . وعلى الرغم من أنها كانت متزوجة من ارنست بولاك فقد كانت تسعى الى الحب الجنونى ولا تجد فيه عيبا . وعلى الرغم من أن كافكا مال اليها وأحبها ، فقد سعى الى ردّها وكان مريضا بالسل وكان يكبرها بسنوات كثيرة (هو ٣٨ وهى ٢٥) وكان يعرف انه شخصية صعبة كثيرة الشكوى . ولكنه فى الوقت نفسه يعرف أنه لن يستطيع الاستغناء عنها فقد أصبحت له . واستمرت العلاقة بينهما وان ظلت فى أغلب الأحوال قاصرة على المراسلات ، ويبدو أنها أثرت على فكره وإبداعه تأثيرا كبيرا . وكانت

هى من أقدر الناس على حبر أغواره ، وهى التى قالت مستحضرة حاله :
 « أن الأمر ليبدو كأننا قادرون على الحياة ، لأننا لذنا ذات مرة بالكذب
 أو العنى أو الحماس أو الاقتناع أو التشاؤم أو غير ذلك . ولكنه هو لم
 يلد قط بملجأ واق ، فهو لا يستطيع مطلقا أن يكذب ، تماما كما أنه
 لا يستطيع أن يسكر . انه يقتصر الى الملجأ والمأوى . ولهذا فهو يتعرض
 لكل ما نحن بمنأى عنه ، مثل العريان بين المستورين . . . ان وجوده
 وجود محتوم فى أصله وجوهره وهو يقتصر الى كل العناصر التى كان
 يمكنها أن تعينه على تصوير الحياة على نحو ما جميلا كان أو بائسا . . .
 وهو زاهد زهدا عاريا عن البطولة . . ان البطولة فى نظره كذب وجبن
 . . . انه ليس انسانا يتخذ الزهد وسيلة الى هدف ، بل هو انسان
 اضطرت شفافيته الفظيعة وقاوته وعجزه عن قبول الحلول الوسط الى
 الزهد . . . انه على ما أعرف لا يرفض الحياة ، بل يرفض هذا النوع
 من الحياة » . - ويبدو ان الزهد الذى تحدث عنه ميلينا زهد من نوع
 الزهد الصينى الذى تقرأ عنه فى « الطريق والفضيلة » (١) .

وفى أواخر العام سافر كافكا الى مصحة المصدورين فى مالتيارى
 فى جبال تاترا العليا (بتشيكوسلوفاكيا) وظل بها عدة أشهر يلتمس
 الشفاء من مرضه الخطير . وكانت حالته المعنوية سيئة تضطرب بين
 اليأس والخوف ، الا من اشراقات عابرة قليلة . وعاد كافكا الى براغ فى
 سبتمبر ١٩٢١ دون أن يفيد من المصحة شيئا ، ودون أن تعنيه الاجازة
 على استجماع نفسه . ولكنه لم يكف عن الكتابة . حتى كانت بداية
 عام ١٩٢٢ فشرع يكتب رواية « القصر » . ليحبر بها عن ذات نفسه - وكانت
 فى بداية الأمر رواية ذاتية تبدأ بـ « أنا » ثم حولها الى صيغة الغائب
 بعد ذلك - . وليحبر بها عن مجموعة من مشكلات الانسان عامة ، وانسان
 عصرنا هذا خاصة . كان كافكا قد وصل فى تأملاته الذاتية الى أنه أفسد
 حياته وأضنى بدنه ولم يصل الى شيء ، وكان يكيل اللوم لنفسه قبل أن
 يصب غضبه على المؤثرات الخارجية فيها هو ذا يسجل فى يومياته :
 « . . . لقد لاح لى الأمر كأننى أوتيت مركز دائرة مثلى فى ذلك مثل كل
 انسان آخر ، وكأننى أوتيت نصف القطر الموصل الى المركز ، مثلى فى
 ذلك مثل كل انسان آخر . حتى أمير عليه ثم أخط المحيط الجميل

(١) انظر الطريق والفضيلة ترجمة دكتور عبد القفار مكاوى سلسلة الالف كتاب

لتكتمل دائرتى حولى . ولكننى كنت دائما لا أبدأ الخطو على نصف قطر الا لاقطعه وأبدأ على غيره حتى لم يعد هناك مكان لمحاولة جديدة ، لم يعد هناك مكان بسبب الشيوخوخة وضعف الأعصاب ، وان العجز عن المحاولة من جديد ليساوى النهاية . واصبحت لا أتقدم خطوة على نصف قطر الا لتسوء حالى بدلا من أن تتحسن . . . » ولعله صنع موظف المساحة فى القصر شاكلته ، فجعله انسانا يكثر المحاولة ويتنوعها ولا يصل فى النهاية الى هدف .

أما ان فرائنس كافكا صنع الرواية من حياته فأمر تشهد عليه العناصر المكونة للمشاهد الرئيسية فى « القصر » . منظر القرية فى القاع والقصر على الزبوة العالية ، منظر رآه كافكا فى تسيراو عام ١٩١٧ . . منظر الدواوين وما يجرى فيها منظر عرفه ك فى عمله سواء فى المحاكم أو فى مؤسسة التأمين . . منظر حان السادة اقتبسه كافكا من حانة كان بعض الأدباء يرتادونها فى فيينا وكانوا يسمونها فىما بينهم حانة الفاجرات . . ومنظر الثلوج والكنيسة والحديقة وغيرها كثير . وكذلك الشخصيات التى رسمها فى الرواية نقلها على طريقته عن شخصيات عرفها نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر : ارنست بولاك . . فيليمتسه باور . . ميلينا يزينسكا . . ولكن هذه العناصر الواقعية كانت تتحول على يديه الى عناصر تتجاوزها المتناقضات ويحيط بها التناقض والغموض .

وعكف كافكا على الكتابة عندما سافر الى شيندللوله فى فبراير سنة ١٩٢٢ فأتى فى أربعة أسابيع جزءا وفيرا منها ثم تناولها بعد ذلك عندما عاد الى براغ ، واستمر يكتب حتى شهر يونية ، وأخذها معه الى بلانا ولوشنييتس ليكملها ، فكتب وكتب ثم توقف فى سبتمبر ولم يعد اليها بعد ذلك .

ويختلف النقاد اختلافا كبيرا فى تفسير رواية « القصر » فى مجموعها ، ويختلفون اختلافا أقل فى تفسير عناصرها .

فهناك من ذهب الى أن هذه الرواية عمل فنى لا يقصد الى شيء آخر سوى الفن ، ولهذا لا محل فيها للأفكار الفلسفية أو المضامين الصوفية أو المفاهيم الاجتماعية . ويرى هذا الفريق من النقاد أن كافكا ابتكر هذا النوع من التأليف الفنى الذى يقوم على تحويل الأحلام الى كلام ، وأن القارئ يصيب اذا فهم الرواية على أنها حلم أو مجموعة من الأحلام ، ويخطئ اذا حملها غير ذلك .

وهناك من ذهب الى ان كافكا أراد أن يبين بأعماله الأدبية حدود التفكير الانساني ، وبين النقطة التي ينتهي فيها المعقول ويبدأ اللامعقول ، فهو يعرض بهذا مشكلة أساسية من المشكلات التي يعاني منها الانسان عندما يتورط لسبب أو آخر في الخلط بين المعقول واللامعقول ، أو يضطرب بصره فلا يميز بين الاثنين .

وهناك من تصور ان كافكا يريد أن يصور حيرة الانسان الذي تهفو نفسه الى المنة الالهية ، فهو ينظر اليها في عليائها ، ويتطلع اليها في أفقها البعيد ، ويجرب كل سبيل يعرض له عله أن يصل اليها ، ولكنه يتورط في الخطأ المرة بعد المرة ، وينساق تارة الى هذه الناحية وتارة الى تلك ، فلا يقترب من المنة ، بل يفوص في أعماق الحضيض ، وقد يهلك فيه ، وقد تتاح له فرصة حياة هي أدنى حياة .

وهناك من أبرز عنصر النقد الاجتماعي فرأى أن كافكا يصور السادة في القصر المنيف العالي والعامية في القرية المنخفضة البائسة والبلدة يستبدون بالأمر كله ، ويفعلون بالناس ما يحلو لهم ، ويعتمدون في ذلك على أجهزة خبيثة ، وموظفين لئام ، والعامية يعانون من الظلم والتجبر ويفقدون في المحنة كل شيء ، وقد تفسد ضماير بعضهم في هذا الجو القاتم فيصطنع لنفسه شيئا من السلطان يؤدي به مواطنيه الأبرياء .

وليس هناك شك في أن هذه الدراسات النقدية باتجاهاتها المختلفة قد ألقت الضوء على جوانب أدب كافكا فاتضح منه الكثير ، وهو أدب رمزي يحتاج الى كثير من الجهد للوصول الى فهمه لكي يرتاح له الانسان . والسؤال الأساسي الذي تقوم على اجابته كل محاولة لتفسير الرواية هو : من هو كلم ؟ ويرتبط بهذا السؤال سؤال آخر هو : من هو ك ؟

كلم رمز اتخذته كافكا ليعبر به عن « مقومات الحياة » . انه ذلك الشيء الذي لا يحتاج الانسان بالضرورة الى علم أو حرفة للوصول اليه ، ربما وصل اليه أناس لم يكلفوا أنفسهم مشقة التفكير الكثير ، والتعمق في أسرار الكون وغوامض البشر . وليس هذا الشيء واحدا بالنسبة للناس جميعا ، ولكنه جوهرى لا يكون للانسان كيان بين الناس الا به . فهذه صاحبة الحان تحلم بكلم أو تعشقه ، وبعبارة مجردة من الرمزية ، تحلم بمقومات حياتها ، وتجدها في زوج مطيع لها منضو لارادتها ، وحان تقوم على تدبيره وتحسن أمره . وصاحبة الحان امرأة بسيطة ، وكافكا يرمز الى بساطتها بالصورة الباهتة التي تحتفظ بها وتعرض عليها ،

واستى لا تمثل كلم بل تمثل الساعى الذى كان الصلة بين كلم وبينها .
فهى اذن تم ترتفع الى ذلك المستوى العكرى الذى يبحث فى مقومات
الحياة ونهها ، ويفيها انها احاطه بها على نحو ما ، وأن تتحقق بها .

أما ك فانسان أتى الى مجتمع قائم بحسناته وسيئاته ، بميزاته
وعيوبه ، ليحاول فى ستة أيام أن يقيم لنفسه حياة فيه . (والسته
أيام رمز استقاه كافكا من قصة الخليفة المعروفة فى الأديان السماوية
كلها : انها المدة التى يتكون فيها الكون . والخادمة يبنى ، وهى بنت
بسيطة مازالت تسعى لتحقيق مقومات حياة لها فى المجتمع ، تشير الى
هذه الفترة . فقد سنحت لها فرصة محببة الى نفسها ، وهى فرصة
العمل فى قاعة الشراب ، ولكنها لم تؤت الأيام الستة كاملة لتتم فيها
بناء كيانها ، ولهذا فشلت وعادت ادراجها) . أتى ك اذن الى المجتمع
القائم ليعيش فيه . ولكنه أخذ يحلق بفكره الى آفاق عالية لم يؤت
القدرة على التحليق فيها . لقد أتى ليعمل موظفا للمساحة ، ثم تبين أن
القرية لا تحتاج اليه ، فما باله يبقى ويصمم على البقاء ؟ وما هى هذه
القوة التى يعتمد عليها ليفرض نفسه ؟ لقد ذكروا له الأسباب المعقولة
التي تجعل من تعيين موظف مساحة بها ضربا من السخف ، فهى صغيرة ،
وأهلها لا يتنازعون على حدود ممتلكاتهم . ولكنه كان قد بدأ يعمل فكره
للتعمق فى مقومات الحياة فى هذه القرية ، فهو يسأل عن الجراف
(الأمير) ، وعن الديوان ، وهو يفرض نفسه بهيأته الحاملة المتألمة
الغريبة على البسطاء الذين لم يألوا هذا النوع من الناس . انه يندفع
الى نوع من السلوك لا طاقة له به : فهو انسان ضعيف البنية سريع
التعب ، يغلب عليه النعاس ، ويعجز عن المشى ، ويكاد يعتمد على الغير . .
وهو يظهر ما لا يبطن ويضم فى نفسه ما لا قبل لأحد على معرفته . . وهو
عند بغير ارادة . . وهو مكابر ينقض كل رأى ، ويدعى انه يعرف كل
شئ وهو لا يعرف شيئا . ولهذا فهو يتورط فى الخطأ بعد الخطأ ويضل
طريقه ، فبدلا من أن يندفع الى هدفه مباشرة يسلك السبل المتطرفة
فيحاول غواية فريدا ، ويحاول اصطيد كلم فى الفناء ، ويحاول الوصول
بطرق ملتوية الى بنت القصر ، ويحاول استغلال أسرة برناباس .

ولكن الرواية تحتمل تأويلات أخرى فنحن لا نعرف ك قبل وصوله
الى القرية ، وربما كانت تصرفاته المضطربة فى القرية نتيجة للظروف
التي تعرض لها . ومهما يكن من أمر ك ومن أمر شخصيته
المضطربة ، فان فساد الأحوال فى القرية ، وتعسف السادة فى حكمها

يظهران فى الصورة التى يرسمها كافكا فى الرواية على نحو يثير النفس ويحضر على الثورة . فهذا هو أحد السادة على سبيل المثال يعجب بوحدة من بنات الشعب فى القرية فلا يتورع عن دعوتها الى الفجور ، فلمسا امتنعت وأهانته ساعيه تعرضت للضر الشديد هى وأسرته ، وتجاهل الناس المشكلة الحقيقية ونظروا الى المشكلة الفرعية الثانوية وحدها وما كانت، الا دفاعا مشروعا عن النفس . الى هذا الحد وصل استبداد أهل القصر بأهل القرية . ولقد حاول الوالد أن يرد الحق الى نصابه وجرب الاتصال بأولى الشأن فى الديوان ذى القوانين واللوائح فضاع فى متاهاته ، وخسر صحته وماله ، واضطرت البنت الشريفة الى الصمت يقينا منها بأنه اذا لم يكن وراء السعى نفع فمن الفطنة ان يركن الانسان الى السكوت ، أما البنت الأخرى فقد هوت الى طريق الفجور تريد ان تصل عن طريقه الى رد شرف الأسرة !

وإذا لم يكن كافكا فى أعماله المختلفة يحدد طريق النجاة الذى يتصوره ، فانما يرجع ذلك الى أنه كان يؤثر أن يلقي الأسئلة لتستغل بها الأذهان وتحسن فهمها وتجد لها الحلول المناسبة ، ويؤثر أن يعبئ نفس القارئ بالثورة على الظلم والجهل والضلal . وكان كافكا بصفة عامة بعيدا عن التيارات السياسية ، ولكنه كان ينظر الى تقدم الاشتراكية فى العالم راضيا . ولقد روى بعض أصدقائه عنه تعليقا على الاشتراكية السوفيتية قال فيه : « ان الناس فى روسيا يحاولون إقامة عالم تسوده العدالة الكاملة » .

وفى عام ١٩٦٣ انعقد فى قصر ليبليس قرب ميلنك بتشيكوسلوفاكيا مؤتمر هام لدراسة كافكا وأعماله ومكانته ومكانتها فى البلاد الاشتراكية، وكانت أكاديمية العلوم التشيكية هى الداعية اليه . وقدم المشتركون دراسات مختلفة عبروا بها عن آرائهم وعن أثر أدب كافكا فى الأعمال الطليعية فى العالم المعاصر كله ، فقد كان طليعة للحرية على طريقته الضاحكة الباكية . وكان من رأى ارنست فيشر ، المفكر النمساوى الاشتراكى المعروف ، ان كافكا كان يميل الى تأويل الأشياء المرهونة بعامل الزمن تأويلا ميتافيزيقيا ، والى تجميد اللحظة التاريخية لتصبح بالنسبة للانسان حالة دائمة ، ولكن استطراده الجدل من كل اجابة الى سؤال جديد ، ومن كل قضية الى تقيضها كان يحطم هذا التجميد على الدوام .

دكتور مصطفى ماهر

الاسماء الواردة بالرواية

Gerstäcker	جيرشتيكر	Klamm	كلم
Erlanger	ارلانجر	Frida	فريدا
Artur	أرتور	Pepi	بيبي
Jeremias	يريمياس	Scharzer	شفارتسر
Sortini	سورتيني	Barnabas	برناباس
Sordini	سورديني	Gardena	جاردينا
Bürgel	بورجل	Hans	هانس
Westwest	فيستفيست	Momus	موموس
Fritz	فريتس	Vallabene	فلاينه
Friedrich	فريدريش	Brunswick	برونسفيك
Oswald	أوسفالد	Amalia	أماليا
Bartmeier	بارتماير	Laseman	لازيمان
Henriette	هنريته	Otto	أوتو
Emilie	إيميليه	Gisa	جيزا
		Olga	أولجا

الفصل الأول

كان الوقت ليلا عندما وصل ك . كانت القرية غارقة في ثلوج كثيفة ، ولم يكن الناظر الى التل الذى يقوم عليه القصر يرى شيئا ، فقد كان الضباب والظلام يحيطان به كل الاحاطة ، ولم يكن هناك شعاع من نور ، ولو خافت ، يظهر شيئا من ملامح القصر الكبير . ووقف ك طويلا على الجسر الخشبي الذى يصل من الطريق الزراعية الى القرية ، ورفع بصره الى أعلى ناظرا الى فراغ ما هو بفراغ .

ثم سار يبحث عن مكان يأوى اليه فى الليل . لم يكن الناس فى الحان قد انصرفوا للنوم بعد . ولم يكن لدى صاحب الحان حجرة يؤجره اياها ، ولكنه قد دهش واضطرب لمقدم الضيف فى هذا الوقت المتأخر ، عرض على ك أن ينام على جوال قش فى قاعة الحان . ووافق ك . كان هناك بعض الفلاحين يحتسون البيرة ، ولكن ك لم يشأ أن يذهب ليتسامر معهم ، وأحضر بنفسه جوال القش من حجرة الخزين فوق السطح ، وتمدد عليها قرب المدفأة . كان الجو دافئا ، وكان الفلاحون ساكنين ، فتفحصهم قليلا بعينيه المتعبتين ، ثم نام .

وبعد قليل أيقظه بعضهم . وكان هذا الذى أيقظه شابا يرتدى ملابس أهل المدن ، وجهه يشبه أوجه الممثلين ، وعيناه ضيقتان ، وحاجباه كثان ، وكان يقف مع صاحب الحان بجواره . وكان الفلاحون لا يزالون هناك ، وكان بعضهم قد أداروا كراسيهم حتى يروا ويسمعوا على نحو أفضل . واعتذر الشاب بأدب جم لايقاظه ك ، وقدم نفسه اليه على أنه ابن المشرف على القصر ثم قال :

— ان هذه القرية ملك القصر ، ومن يسكن هنا أو يقضى ليلته ، فهو كمن يسكن أو يقضى ليلته فى القصر . وما ينبغى لأحد أن يفعل هذا بدون تصريح من الجراف (١) . أما أنت فليس لديك مثل هذا التصريح أو أنت ، على الأقل ، لم تقدم هذا التصريح .

(١) لقب من ألقاب الامراء والنبلاء . المترجم

وكان ك قد هم بالعودة ، وضح على شعره ليسويه ، ونظر الى
الرجلين من أسفل الى أعلى وقال :

— ماهى هذه القرية التى ضللت السبيل اليها ؟ وهل هنا قصر ؟
فقال الشاب ببطء بينما أخذ الرجال يهزون رؤوسهم دهشة
لما فعله ك :

— طبعاً هنا قصر ، قصر السيد الجراف فيستيفيست .
وسأل ك وكأنما أراد أن يتأكد من أن المعلومات السابقة ليست
أضغاث أحلام :

— وعلى الانسان أن يحصل على تصريح بقضاء الليلة ؟
وكانت الإجابة :

— لا بد من الحصول على التصريح .
وانصبت السخرية على ك شديدة عندما مد الشاب ذراعه وسأل
صاحب الحان والجالسين هناك :

— أم هل ينبغي ألا يحصل الانسان على التصريح ؟
وقال ك متثابراً يبعد الغطاء عن جسمه وكأنه يريد أن يقف :
— اذن سيكون على أن أحصل على التصريح ؟
فسأل الشاب :
— ومن يا ترى ؟
فقال ك :

— من السيد الجراف . فلم يعد هناك مقر من ذلك .
فصاح الشاب وتراجع الى الوراء خطوة :
— الآن ، عنه منتصف الليل ، تريد أن تحصل على التصريح من
السيد الجراف ؟
فسأل ك بفتور :

— أليس هذا ممكناً ؟ فلماذا أيقظتنى اذن ؟

وهنا ثار الشاب ثورة فقد فيها التحكم فى أعصابه :
— يا لها من أخلاق الرعاع ! انبى المالك باحترام حكومة الجراف .
لقد أيقظتك لأبلغك بأنه ينبغي عليك أن تغادر أراضى الجراف على الفور .
وقال ك بصوت منخفض انخفاضاً واضحاً :
— كفى مهازل !
ورقد وسحب الغطاء على جسمه وأضاف :

— انك أيها الشاب تبالح • وسيكون لى غذا كلام فى كيفية تصرفك
حيالى • وصاحب الحان ، والسادة هناك شهود ، اذا كنت سأحتاج الى
شهود • ودعنى أقول لك اننى موظف المساحة الذى استقدمه الجراف •
وسياتى مساعدى غذا بالعربة ومعهما الأجهزة • ولقد سبقتهما لأننى
أحببت ألا تضيع منى فرصة السير فى وسط الثلوج ، ولكننى ضللت
الطريق عدة مرات ، ووصلت لهذا السبب متأخرا • أما أن الوقت متأخر
لايناسب الذهاب الى القصر والابلاغ بمقدمى ، فهو ماكنت أعرفه بمفردى ،
ودون ما حاجة الى تعليم منك • ولهذا اكتفيت راضيا بهذا المخذع ، الذى
أبت عليك وقاحتك — وهذه أخف عبارة يمكننى استعمالها — الا أن
تقضه • وبهذا أختم بياناتى ، تصبحون على خير ، يا حضرات السادة •

واتجه ك الى المدفأة • وسمع وراءه من يتساءل فى تردد :
... موظف المساحة ؟

ثم ساد سكون شامل • ولكن الشاب عاد قتما لك نفسه ، وقال
لصاحب الحان بصوت مكتوم ، يمكن القول بأنه كتمه مراعاة لك ، مسموع
لا يصعب عليه الالام به وفهمه :
— سأسأل تليفونيا •

كيف ذلك ؟ هل هناك تليفون فى الحان فى هذه القرية ؟ لقد كانوا
مجهزين تجهيزا ممتازا • كانت التفصيلات تثير عجب ك ولكنه كان قد
توقع بطبيعة الحال أن تكون الأمور فى مجموعها على هذا النحو • وتبين
ك أن التليفون مركب فوق رأسه تقريبا ، ولعله لم يلتفت الى ذلك من
قبل لأن النعاس كان يغلبه • وإذا كان على الشاب أن يتصل تليفونيا
فانه لن يستطيع ذلك دون أن يقلق نوم ك ، وهكذا أصبح الأمر رهنا ب
ك هل يتركه يستعمل التليفون أم يمنعه ، وقرر ك أن يسمح بذلك •
ولم يكن هناك ، والجال هذه ، معنى لتصنع النوم ، ولهذا عاد يرقد على
ظهره • ورأى الفلاحين ينكمشون فى رهبة ويتناقشون ، فلم يكن وصول
موظف المساحة بالشىء الهين • وكان باب المطبخ قد انفتح وملاّت زوجة
صاحب الحان بجسمها الضخم فتحة الباب ، واقترب منها صاحب الحان
على أطراف أصابعه ليبلغها • ثم بدأت المكالمة التليفونية • كان مدير القصر
نائما ، ولكن وكيل القصر ، أو على الأحرى أحد وكلائها ، رجل اسمه
السيد فريتس ، موجودا • وحكى الشاب ، الذى ذكر ان اسمه هو
شفارتسر ، كيف وجد ك ، ووصفه بأنه فى الثلاثينات ، وأنه يرتدى
الأسمال البالية ، وينام على جوال قش ، ويضع رأسه على حقيبة ضئيلة
من النوع الذى يحمل على الظهر ، ويضع عصا ذات عقد على مقربة من

يمناه حيث رقد . وقال انه أثار الشبهة بطبيعة الحال ، ولما كان صاحب الحان قد أهمل واجبه اهمالا جليسا ، فانه وجد ان من واجبه هو ، أى واجب شفارتسر ، أن يحقق فى الأمر تحقيقا دقيقا . وقال ان ك تلقى عملية الايقاظ من النوم ، والاستجواب ، والتهديد الواجب بالطرد من أراضى الجراف ، مغيفا ، ربما بحق ، كما اتضح فى النهاية ، عندما ذكر انه موظف المساحة الذى استقدمه السيد الجراف . وقال ان الواجب الشكلى يفرض بطبيعة الحال على الأقل التحقيق فى هذا الادعاء ، ولهذا فان شفارتسر يرجو السيد فريتس أن يستعلم من الادارة هل تنتظر بالفعل مقدم موظف مساحة ، وأن يبلغه بالاجابة على الفور تلفونيا .

ثم ساد سكون . كان فريتس يستعلم هناك ، وكان من هنا فى انتظار الإجابة . وبقي ك فى الوضع الذى اتخذه ، فلم يتحرك أدنى حركة ، ولم يبد عليه الفضول ، بل كان ينظر أمامه . ولقد أعطته رواية شفارتسر ، بما إختلط فيها من شر وحيطة ، صورة عن التكوين الديبلوماسى الذى أوتى اياه حتى الصغار من أمثال شفارتسر فى القصر . كذلك تبين أن ادارة القصر لا تفتقر الى النشاط ، يدل على ذلك انها تعمل بالليل كذلك وتجب على ما يبدو بسرعة . فها هو ذا فريتس يدق التليفون . ويبدو أن كلامه كان قصيرا جدا ، لأن شفارتسر ألقى السماعه مغضبا نائرا وضاح قائلا :

— هذا هو ما قلته . ليس هناك أصل على الاطلاق لموضوع موظف مساحة ، انه صعلوك دنىء كذاب ، ويبدو انه أشد خطرا .

وفكر ك لحظة ، وتصور ان الجميع ، شفارتسر ، والفلاحين ، وصاحب الحان ، وزوجة صاحب الحان ، سينقضون عليه . وزحف تحت الغطاء منكمشنا ليتفادى الهجمة الأولى على الأقل . وعاد التليفون يدق من جديد ، ويدق — على ما لاح لك — بقوة تفوق المألوف . وأخرج ك رأسه ببطء . وعلى الرغم من انه كان من المستبعد أن يكون لهذا الرنين علاقة بموضوع ك ، فان الجميع تسمروا فى أماكنهم ، وعاد شفارتسر الى التليفون . وسمع شفارتسر فى التليفون بيانا مفضلا مسهبا قال بعده بصوت منخفض :

— انه خطأ اذن ؟ هذا شئ يؤسفنى جدا . تقول أن مدير المكتب اتصل بنفسه ؟ شئ عجيب ، شئ عجيب . وكيف يمكننى أن أشرح ذلك للسيد موظف المساحة ؟

وأرهف ك السمع . اذن لقد عينه القصر موظفا للمساحة . ولقد كان هذا الخبر من ناحية فى غير صالحه ، لانه يدل على انهم فى القصر

يعرفون عنه كل ما ينبغي معرفته ، وانهم قدروا امكانياته وبدأوا النضال باسمين ، ولكنه كان من ناحية أخرى في صالحه ، لأنه يؤكد ، في رأيه ، أنهم لا يحفلون به ، وانه سينعم من الحرية بأكثر مما كان يرغب في يادى الأمر . واذا كانوا قد ظنوا أنهم يستطيعون ، بما يعرفونه عنه وعن عمله فى المساحة - وهى معرفة تعطىهم بكل تأكيد تفوقا فكريا عليه - أن ينزلوا الرعب به بصفة مستمرة ، فانهم واهمون ، كل ما حدث أن شيئا من الفزع حل به بسهولة .

وأشار ك الى سفارتسر الذى كان يقترب منه خجلا أن يبتعد ، ورفض الامتنال للاحاحه عليه بأن ينتقل الى حجرة صاحب الحان . ولكنه قبل شرايا منوما من صاحب الحان ، وقبل من صاحبة الحان طستا وصابونا ومنشفة ، ولم تكن به حاجة الى أن يطالب بإخلاء المكان ممن فيه ، لأن الرجال اندفعوا خارجين مشيحين بوجوههم حتى لا يكون فى مقدوره أن يتعرف عليهم فى الغد . وأطفيء المصباح ، ونعم ك أخيرا بالهدوء . ونام نوما عميقا حتى الصباح لم يعكر عليه راحته الا حفيف بعض الفيران مرة أو مرتين على مقربة منه ، ولكنه لم يكن أمرا ذا بال .

وبعد أن تناول ك افطاره ، الذى دفع القصر ثمنه ، كما تكفل بطعامه كله - على نحو ما علم من صاحب الحان - أراد أن يذهب من فوره الى القرية . ولكن صاحب الحان ، الذى لم يكن ك نتيجة لتصرفه بالأمس قد تكلم معه الا أقل القليل ، كان يحوم حوله برجاء صامت ، فأشفق عليه ، وسمح له أن يجلس اليه هنيهة .

وقال ك :

- أنا لم أتعرف على الجراف بعد ، ولقد سمعت أنه يدفع أجرا جيدا للعمل الجيد ، فهل هذا صحيح ؟ فان الانسان ، مثلى ، عندما يرحل بعيدا عن الزوجة والولد ، يرغب أن يعود بشئ الى الدار .

ورد صاحب الحان قائلا :

- ما ينبغي يا سيدى أن تخشى شيئا من هذه الناحية ، فلم نسمع من أحد شكاية من سوء الأجر .

فقال ك :

- ثم أنا لست من الذين يخجلون ، ويمكننى أن أقول رأيى حتى للجراف وان كان من الأفضل بطبيعة الحال أن ينهى الانسان أموره مع السادة وديا .

كان صاحب الحان يجلس في هواجها . على حافة مسطبة النافذة ، فلم يجزؤ على الجلوس جلسة يرتاح فيها أكثر من ذلك ، وكان ينظر إلى ك بيمينين واستتين دكتاوين خائفتين . وكان في بداية الأمر يقترب من ك اقترابا شديدا ، وإذا به يبدو كأنه يرجو لو استطاع أن يجري . هل كان يخاف أن يسأله ك عن الجراف ؟ هل كان يشك في اخلاص السيد . فقد كان يعتبر ك سييدا ؟ وكان على ك أن يسرى عنه وأن يلهمه . فنظر إلى الساعة وقال :

— مياي ، ساعداي عما قريب ، فهل سيكون في مقامورك أن تهين
لهما مكانا للنوم هنا ؟
فقال :

.. بكل تأكيد يا سيدي . ولكن لن نزل معك في القصر ؟
هل هكذا يضيع بهذه السهولة ، وبهذا الرضا النزلاء الذين
يعرضون له ، وبخاصة ك الذي أكد له ان مكانه القصر لا محالة ؟
وقال ك :

— لم يتأكد هذا حتى الآن ، ولا بد أن أرى أولا العمل الذي ينتظرني .
فإذا كان على أن أعمل هنا أسفل التل ، فسيكون الأصوب أن نقيم هنا .
هذا إلى أنني أخشى ألا تروق لي الحياة في القصر فوق التل . أنني أريد
أن أكون دائما حرا .

فقال صاحب الحان بصوت منخفض :

— أنت لا تعرف القصر .

فقال ك :

— هذا صحيح ، وما ينبغي على الانسان أن يتسرع في الحكم .
وأنا لا أعرف حتى الآن عن القصر إلا أن من به عرفوا كيف يختاروا العليم
بالمساحة . وربما كانت هناك ميزات أخرى .

ونفض ليخلص منه صاحب الحان الذي كان يعرض شفتيه من فرط
القلق . لم يكن من السهل اكتساب ثقة هذا الرجل .

وبينما ك يهم بالانصراف لفتت انتباهه صورة داكنة في اطار داكن
معلقة على الحائط . وكان ك قد لمحها من مرقد ، ولم يميز من البعد
تفصيلاتها ، وظن ان الصورة قد نزع من الاطار وأن ما تراه العين هو
الظهر الأسود . ولكنها كانت ، كما تبين الآن ، صورة نصفية
لرجل في نحو الخمسين من عمره . وكان الرجل يخفض رأسه على صدره

على نحو شديد لم يكد يكون من الممكن معه أن يرى الناظر شيئا من عينيه ، وبدا أن السبب الحاسم لخفض الرأس هو الجبهة المرتفعة الثقيلة والأنف الكبير الملتوى لأسفل . وكانت اللحية الكثنة ، التي انضغطت في الذقن نتيجة لوضع الرأس ، تبدو مبتعدة الى أسفل . وكانت اليد اليسرى تندس ، وقد تباعدت أصابعها ، في شعره الكثيف ، ولم يعد يستطيع أن يرفع رأسه .

وسأل ك :

— من هذا ؟ هل هو الجراف ؟

ووقف أمام الصورة ولم يلتفت حوله لينظر الى صاحب الحان .
وقال صاحب الحان :

— لا إنه ليس الجراف ، إنه مدير القصر .

وقال ك :

— ان لكم لمديرا جميلا في القصر ، هذه حقيقة . ولكن من المؤسف أن يكون له ابن سيء الخلق .

فقال صاحب الحان :

— لا .

وجذب ك الى أسفل قليلا وهمس في أذنه :

— لقد كان سفارتسر بالأمس يسالغ ، فليس أبوه سوى وكيل القصر ، بل أحد صغار الوكلاء .

وفي هذه اللحظة ظن ك صاحب الحان طفلا . وقال ك ضاحكا :

— التذل !

ولكن صاحب الحان لم يشترك معه في الضحك ، بل قال :

— ولكن أباه أيضا ذو سلطان .

فقال ك :

— هكذا ! أنك تظن أن كل شخص ذو سلطان ! فهل تراك تظنني ذا سلطان ؟

فقال في خجل ولكن بجذم :

— أنت ، أنا لا أعتبرك ذا سلطان .

فقال ك :

- اذن فانت تعرف كيف تحسن الملاحظة ، فالحقيقة - وهذا كلام بيني وبينك - اننى لست ذا سلطان . ويبدو اننى لاذى السلطان من الاحترام ما لا يقل عما تكن انت لهم ، ولكننى لست صريحا بمثلك ولا اعترف بذلك دائما .

وريت ك على خد صاحب الحان برفق ليواسيه وليجذب ميله اليه . فابتسم قليلا . لقد كان فعلا صبيا بوجهه الناعم الذى يوشك الا يكون له لون . كيف تزوج بهذه المرأة العريضة ، المسنة التى يراها الانسان وراء الطاقة المجاورة تعمل فى المطبخ وقد تباعد مرفقاها عن جسنها ؟ ولكن ك لم يشأ أن يستمر الآن فى سبر اغواره ، ولم يشأ أن يضيع الابتسامة التى ارتبست على شفثيه فى النهاية ، واكتفى بأن أعطاه اشارة أن يفتح له الباب ، وخرج الى الصباح الشتوى الجميل .

ورأى فوق التل المرتفع القصر واضح المعالم فى الجو الصافى ، يزيد وضوحا ذلك الثلج الذى تراكم فى كل مكان وكون طبقة رقيقة ، وعكس كل أشكالها . ولقد بدا أن فوق التل من ثلج أقل بكثير مما فى القرية ، حيث وجدك صعوبة فى السير لاثقل عن الصعوبة التى لقيها بالأمس على الطريق الزراعية . كان الثلج هنا يصل الى نوافذ الأكواخ ويثقل فوق الأسطح المنخفضة ، أما فوق التل فكانت الأشياء كلها تبرز مطلقة وخفيفة ، أو كانت على الأقل تبدو كذلك لمن يتطلع اليها من هنا .

وكان القصر - على قدر ما بدا من هنا - يوافق فى مجموعته ماتوقعه ك ولم يكن بناء جديدا منيفا ، بل كان منشأة ممتدة الأطراف تتكون من مبان قليلة من دورين وأخرى كثيرة متقاربة تقاربا شديدا . ولو لم يكن الانسان يعرف من قبل أنها قصر لظنها مدينة صغيرة . ورأى ك برجا واحدا ، ولم يتبين هل هو برج كنيسة ، أو برج مسكن . وكانت هناك أسراب من الغربان تحوم حوله .

وتقدم ك موجهة عينيه شطر القصر لا يهتم بشئ سواه . ولكنه عندما اقترب خيب القصر توقعاته ، فلم يكن سوى مدينة صغيرة بائسة أشد البؤس ، تتكون من بيوت قروية ، تتميز بميزة واحدة هى أنها تكاد تكون كلها من الحجر . ولكن الطلاء كان قد زال منذ زمن بعيد ، وبدأ الحجر هنا يثفت . وتذكر ك عابرا مدينته الصغيرة ، فلم تكن تثقل فى شئ تقريبا عن هذا القصر المزعوم . ولو كان ك قد أتى الى هنا لمشاهدة هذا القصر فحسب ، لكانت رحلته جهدا يرمى له ، ولكان الأصوب أن يزور وطنه القديم الذى طال غيابه عنه . وأخذ ك يقارن بين برج الكنيسة فى بلده وبين البرج الذى فوق التل . كان ذلك البرج ، يتجه بلا تردد الى

أعلى مستقيماً متصايباً ، عريض السطح ، منتهياً بالقرميد الأحمر ، بناء دنونيا بكل تأكيد - وهل يمكن أن يكون غير ذلك - ولكنه كان ذا هدف أسمى من عامة البيوت المنخفضة ، وتعبيراً أصفى من التعبير العادى العكر . كان البرج هنا فوق التل - البرج الوحيد الظاهر - برج مبنى سكتى كما اتضح لك ، ربما برج القصر الرئيسية - بناء مستديراً رتيباً يغطيه فوراً بعض أجزائه اللبلاّب حائياً عليه ، له نوافذ صغيرة ، كانت فى هذا الوقت ترسل أشعة وضاحة - وكان فى ذلك شئ من الجنون - . وكان البناء ينتهى من أعلى بسطح جدرانته مسننة تندس بشكل مضطرب مرتبك مفتت كأنما رسمتها يد طفل مهملة أو مرتاعة ، وكانت هذه الأطراف المسننة تندس فى السماء الزرقاء . وكان الناظر يحس كأنما أراد أحد السكان المختلين أن يحبس نفسه فى أبعد حجرة بالبيت ، فخرق السطح ، ونهض ليظهر أمام العالم .

ووقف لك ساكناً مرة أخرى ، وكأنما كانت قدرته على التحكم تزداد عندما يقف . ولكن شيئاً عكر عليه سكونه . فقد كانت هناك مدرسة ، خلف كنيسة القرية التى وقف بجانبها - والحقيقة انها كانت كنيسة صغيرة وسعوها على هيئة الشونة لتتسع للجُمهور الغفير . كانت تلك المدرسة بناء طويلاً منخفضاً يجمع على نحو عجيب بين صفة البناء المؤقت والبناء القديم العتيق ، وكانت تقع وراء حديقة مسورة تحولت الآن الى مساحة من التلوج . وفى هذا الوقت خرج منها الأولاد مع مدرّسهم . وكانوا يحيطون بالمدرس فى مجموعة متزاحمة وكانت عيونهم مركزة عليه وكانوا يثرثرون من كل ناحية فلا يكفون عن التثرثرة . ولم يفهم لك شيئاً من كلامهم السريع على الإطلاق . ولح المدرس لك من بعيد ، ولقد كان لك على أية حال الانسان الوحيد عدا مجموعة التلاميذ فى تلك المنطقة الواسعة المترامية الأطراف ، وكان المدرس شاباً فى مقتبل العمر قصيراً ضيق الكتفين وان لم يبد لذلك مشيراً للضحك . وبدأ لك - لأنه كان غريباً - بتحية الرجل القصير الذى كان يتصنع السلطان .

فقال لك :

- صباح الخير ، يا سيدي المدرس .
وسكت التلاميذ فجأة ، ولعل هذا السكون المفاجئ أعجب المدرس كتمهيداً لكلماته . وسأل المدرس لك على نحو أكثر رقة ممناً كان يتوقع ولكن بنبرة تنم عن أنه لا يرضى عما فعل لك :
- أنت تتطلع الى القصر ؟

فأجاب ك :

- نعم . فانا غريب على المكان لم أنزله الا بالأمس .

فسأل المدرس متسرعا :

- فالقصر لا يعجبك ؟

فرد ك بسؤال وقد اندهش قليلا :

- كيف هذا ؟

ثم أعاد السؤال بصورة مخففة :

- هل القصر يعجبني ؟ ولماذا تفترض أن القصر لا يعجبني ؟

فقال المدرس :

- انه لا يعجب الغرباء .

وحول ك موضوع الحديث حتى لا يتطرق بشيء لا يلقى ترحيبا ،

فسأل :

- لا شك أنك تعرف الجراف ؟

فقال المدرس :

- لا

وأراد أن ينصرف . ولكن ك لم يتراجع وعاد يسأل :

- كيف هذا ؟ ألا تعرف الجراف ؟

فقال المدرس بصوت منخفض :

- وكيف لي أن أعرفه ؟

ثم أضاف بصوت مرتفع باللغة الفرنسية :

- خذ في اعتبارك وجود أطفال أبرياء .

فاستقى ك من هذه العبارة حق توجيه هذا السؤال :

- هل يمكنني ، يا سيدي المدرس أن أزورك ؟ فسأبقى هنا مدة

ليست بالقصيرة ، ولقد بدأت منذ الآن أشعر بشيء من العزلة ، فانا

لا أنتهي الى الفلاحين ، ولا أنتهي بطبيعة الحال كذلك الى القصر .

فقال المدرس :

- ليس هناك فرق كبير بين الفلاحين والقصر .

فقال ك :

— ربما • ولكن هذا لا يغير من وضعي شيئا • هل يمكنني أن أزورك؟

فرد المدرس :

— أنا أسكن في حارة البجع عند الجزار •

كانت هذه العبارة أقرب الى بيان العنوان منه الى الدعوة ، ومع ذلك فقد قال ك :

— حسن • سأت •

وهذا المدرس رأسه واستأنف طريقة مع التلاميذ الذين عادوا الى التصايح • واختفوا بعد وقت قليل في حارة صغيرة منعزلة انحدارا شديدا •

كان ك مفتش افكر ، وكان الحديث قد أغضب • وأحسن لأول مرة منذ وصوله بتعب حقيقى • لم يكن قد أحس حتى الآن بأن الطريق الطويل قد أتعبه ، ولقد سار على قدميه أياما ، هادئا ، خطوة ، خطوة • أما الآن فقد ظهرت عواقب الاجهاد المفرط ، في وقت غير ملائم بطبيعة الحال • وأحسن دافعا ، لا سبيل الى التغلب عليه ، الى التعرف على الجديد ، ولكن كل معرفة جديدة كانت تزيد من تعب • وهو اذا استطاع اليوم في هذه الحالة أن يجبر نفسه على الوصول بمسيرته على الأقل الى مدخل القصر • فقد فعل أكثر مما يطيق •

وهكذا استأنف السير : ولكن الطريق كان طويلا • ولم يكن الطريق الرئيسى للقرية ، يؤدي الى تل القصر نفسه ، بل كان يؤدي الى مكان قريب منه ، ثم كان ينحنى — وكأنما كان ذلك عن قصد — وان لم يكن يبتعد عن القصر ، فلم يكن على أية حال يقترب منه • وظل ك يتوقع أن ينتهى به الطريق الى القصر ، وظل لهذا السبب يستمر فى السير ، ويبدو انه ، نتيجة لتعبه ، تردد فى ترك الطريق ، وتعجب فى الوقت نفسه لطول القرية طولا لا ينتهى الى نهاية • وتوالت عليه البيوت الصغيرة ، والنوافذ التى تكونت طبقة من الثلج على زجاجها ، والجليد ، ووحشة المكان — وأخيرا انتزع نفسه من هذا الطريق الذى استبد به ، وتلقفته حارة صغيرة ضيقة ، كان الجليد بها أكثر كثافة ، وكان اخراج الاقدام بعد غوصها فيه عملا صعبا ، وتصيب ك عرقا ، وفجأة وقف ، ولم يستطع الاستمرار فى السير •

ولم يكن ك وحيدا فى مكان مهجور ، كانت هناك عن يمينه وشماله أكواخ الفلاحين • وتناول شيئا من الجليد وصنع منه كرة ألقتها على أحد النوافذ • فانفتحت على التواب — كان هو أول باب يفتح طوال سيره فى

شوارع القرية - وظهر فيه فلاح مسن ، ودود ، ضعيف ، يرتدى سترة من الفراء ويميل برأسه الى ناحية . وقال ك :

- أسمح لي بأن أت اليكم قليلا ؟ اننى شديد التعب .

ولم يسمع ما قاله الرجل المسن ، وتقبل شاكرا اللوح الذى دفع به الرجل اليه وأنقذه به على الفور من الجليد ، وما سار الا بضغ خطوات ، حتى كان فى الحجرة .

كانت تلك الحجرة حجرة واسعة خافتة الضوء ، لا يرى الداخل فيها من الخارج فى أول الأمر شيئا . وترنح ك متعثرا فى اناء الغسيل ، فامتدت اليه يد امرأة وسندته . وأتى من أحد الأركان صخب شديد يصدره بعض الأولاد ، وتضاعف من ركن آخر دخان يتلوى ويحيل الضوء الخافت الى ظلام دامس . ووقف ك وكأنه فى وسط السحاب . وقال بعضهم :

- انه سكران بطبيعة الحال .

وضاح صوت نبرته نبرة أصوات السادة ، والظاهر أنه كان موجها الى الرجل المسن :

- من أنت ؟ لماذا أدخلته هنا ؟ أصبح أن يدخل الإنسان الى هنا كل شئ يجوس فى الحوارى ؟
أفقال ك :

- أنا موظف المساحة لدى الجراف .

وخاول على هذا النحو أن يدافع عن نفسه حيال أولئك الذين ظل حتى تلك اللحظة لا يراهم .
وقال صوت نسائى :

- آه انه موظف المساحة .

ثم أنت فترة سكون مطبق . وسأل ك :

- أنت تعرفيننى ؟

وقال الصوت ملتزما بالايجاز نفسه :

- مؤكد .

ولم يجد ك خيرا فى أنه هناك من يعرفه .

وأخيرا تبدد الدخان قليلا ، واستطاع ك أن يتبين الأمور شيئا فشيئا . ويبدو أن اليوم كان يوم الغسيل المعتاد . فقد كان هناك بجوار

الباب من يغسل : اما الدخان فكان يأتي من الركن الآخر ، وكان فيه اناء خشبي كبير لم يرك من قبل اناء خشبيا في حجمه - كان في حجم سريرين تقريبا - يستحم في مائه الذي يتصاعد بخاره رجالان . أما الركن الأيمن فكان أكثر مفاجأة ، وإن لم يكن ك يعرف بدقة كنه المفاجأة . كانت هناك فجوة كبيرة ، هي الفجوة الوحيدة في الحائط الخلفي للحجرة ، يدخل منها ، على الأرجح من الفناء ، ضوء جليدي باهت ، يضيء على ثوب امرأة كانت تجلس في أقصى الركن على كرسي وثير مرتفع ، وواهنة وكأنها ترقد ، مسحة كأنها مسحة الحرير . وكانت المرأة تحمل رضيعا الى صدرها . وكان هناك بعض الأولاد ، يدل منظرهم على أنهم من أولاد الفلاحين ، يلعبون حولها ، أما هي فقد بدا عليها انها ليست منهم ، لأن المرض والضعف يضيفان على الفلاحين بطبيعة الحال سمة الرقة .

وقال أحد الرجلين :

— اجلس .

كان هذا الرجل كثر اللحية ، وكان له علاوة على اللحية شارب ، وكان يفتح من تحته فمه دائما لاهنا ولا يقفله ، وكان منظره يثير الضحك ، وأشار بيده من فوق حافة الاناء الخشبي الى خزانة هناك ، ورش في هذه الاناء شيئا من الماء الدافئ على وجه ك كله . وكان هناك من يجلس فوق الخزانة ناعسا حالما ، انه الرجل المسن الذي أدخل ك . وكان ك راضيا شاكرا للسماح له بالجلوس . وهاهوذا يجلس ولا يهتم به أحد . كانت المرأة المشتغلة بالغسيل ، وهي امرأة شقراء الشعر ، في ريعان الصبا ، تغني بصوت منخفض أثناء العمل ، وكان الرجلان في الحوض يضربان بأرجلهم ويتلويان ، وكان الأولاد يريدون الاقتراب منهما ، ولكنهما كانا يردانهم برش ماء كثيف عليهم ، أما المرأة التي في الكرسي الوثير ، فكانت ترقد كالميتة ، ولم تكن حتى تنظر الى الطفل الذي تحمله الى صدرها ، بل كانت تنظر نظرة غير محددة الى أعلى .

ولا بد أن ك تطلع طويلا اليها ، الى هذه الصورة الجميلة الحزينة غير المتغيرة ، ولا بد انه استغرق بعد ذلك في النوم ، لأنه عندما أفرغه صوت عال من نومه ، كان يركن رأسه على كتف الرجل العجوز بجواره . كان الرجلان قد فرغا من الاستحمام ، وكان الأولاد قد نزلوا في الحوض وأخذوا يعيشون فيه ، والمرأة الشقراء تراقبهم . ووقف الرجلان يرتديان ملابسهما أمام ك . وتبين أن الرجل ذا اللحية الكثنة والصوت الصارخ هو أقل الرجلين شأنا . ذلك أن الرجل الثاني ، لم يكن أطول غامة من ذي اللحية الكثيفة ، وكانت لحيته أخف بكثير من لحية الآخر ،

كان رجلا هادئا ، ذا أناة في التفكير ، وكان عريض البدن ، عريض الوجه ، وكان يطأطيء رأسه . وقال :

.. يا سيادة موظف المساحة ، لا يمكن أن تبقى هنا . وأرجو ألا تؤاخذنى على قلة الأدب هذه .
وقال ك :

— وأنا لا أريد أن أبقي ، كل ما كنت أريده هو أن أرتاح . ولقد ارتحت ، وسأنصرف الآن .
وقال الرجل :

— يبدو انك تدهش لقلة اكرام الضيف ، ولكن اكرام الضيف ليس من عادتنا ، فنحن لسنا بحاجة الى ضيوف .

وفرح ك بهذه الكلمات الصريحة ، وكان النوم قد أنعشه قليلا ، وجعله أكثر قدرة على السمع من ذى قبل ، وإذا هو الآن يتحرك بمزيد من الانطلاق ، ويضع عصاه مرة هنا ، ومرة هناك ، ويقترّب من المرأة فى الكرسي الوثير ، وكان ك أطول من بالحجرة قامة .
وقال ك :

— مؤكد . فما حاجتكم الى الضيف ؟! ولكن الناس يحتاجون رغم ذلك من حين لآخر الى ضيف ، الى ، موظف المساحة . على سبيل المثال ، فقال الرجل بتؤدة :

— لا أعرف . وإذا كانوا قد استدعوك ، فلا بد ، على ما يبدو ، أنهم يحتاجون اليك . وهذه حالة استثنائية . أما نحن ، صغار الناس ، فنتمسك بالقاعدة ، وليس لك أن تؤاخذنا على ذلك .
فقال ك :

— لا . لا . بل أنا مدين لكم بالشكر ، لكم وللجميع هنا .
واستدار ك فجأة ، على غير انتظار من أى انسان ، وقفز قفزة فوقف أمام المرأة . ونظرت المرأة الى ك بعينين واهنتين زرقاوين ، وكان هناك منديل حريرى شفاف يتدلى من فوق رأسها الى منتصف جبينها ، وكان الرضيع ينام على صدرها . وسأل ك :
— من أنت ؟

وقالت وكأنها تقذف الاجابة قذفا ، ولم يكن واضحا هل تصب التحقير على ك أو على اجابتها هي :

— بنت من القصر .

حدث هذا كله في لحظة واحدة ، وإذا بالرجلين يقفان ، هذا الى يمين ك وذاك الى شماله ، صامتين ، كأنما لم تكن هناك وسيلة أخرى للتفاهم ، وجراه بكل قوة الى الباب . وفرح العجوز بشيء مافى هذا وصفق يديه . وكذلك الغسالة ضحكت وهى عند الأولاد الذين أحدثوا فجأة صخباً شديداً كأنما أصابهم جنون .

أما ك فكان قد وصل الى الحارة ، ووقف الرجلان بالباب يرقبانه . وكان الجليد قد عاد الى السقوط ، ومع ذلك فقد بدا كأن الضوء ازداد شيئاً من الوضوح . وصاح الرجل ذو اللحية الكثيفة وهو لا يطيق صبراً : — الى أين تريد الذهاب ؟ هذا هو اتجاه القصر ، وذاك اتجاه القرية . ولم يجب ك عليه ، بل اتجه الى الآخر الذى لاح له على الرغم من تفوقه أسهل فى المعاملة قائلاً :

— من أنت ؟ الى من أزعجى شكرى على الوقت الذى أمضيته هنا ؟
وكانت الاجابة :

— انا المعلم الدباغ لازيمان . وليس عليك أن تشكر أحداً .
وقال ك :

— حسن . ولعلنا نلتقى مرة أخرى .

فقال الرجل :

— لا أظن .

وفى هذه اللحظة صاح الرجل ذو اللحية الكثيفة رافعا يده :

— صباح الخير يا أرتور . صباح الخير يا يريغياس .

والتفت ك خلفه . معنى هذا أن هناك فى هذه القرية أناس يظهرون فى الحوارى . كان هناك شابان يأتیان من ناحية القصر ، كانا متوسطى القامة ، رشيقين ، يرتديان ملابس ضيقة ، وكان وجهاهما كذلك متشابهين تشابهاً شديداً . كانت بشرتهما بنية داكنة ، وكانت لهما لحية مدببة تبرز بسوادها الشديد فوق البشرة . وكانا يسيران على الرغم من أحوال الطريق بسرعة تشير الدهشة ، ويحركان ساقيهما الرشيقتين بايقاع منتظم . وصاح الرجل ذو اللحية الكثة :

— ماذا وراءكما ؟

ولم يكن من الممكن التفاهم معها الا بالصياح لأنهما كانا يسرعان ولا يتوقفان . وردا صائحين وهما يضحكان :

— عمل •

— أين ؟

— فى الحان •

وصاح ك فجأة بصوت أعلى من أصوات الآخرين جميعا ، فقد كانت حاجته كبيرة الى أن يأخذ الرجلان معها :
— وأنا كذلك ذاهب الى هناك •

ولم يكن ك ينتظر الكثير من وراء التعرف عليهما ، ولكنهما لاحا له رفيقين طبيين يبتان فيه النشاط فى الطريق • ولقد سمعا كلمات ك ، وأوما برأسهما ولكنهما مرا دون توقف •

كان ك لا يزال واقفا فى الجليد ، لا يجد رغبة فى رفع قدمه من الجليد ، ليدسها بعد قليل فى أعماقه • أما المعلم الدباغ ورفيقه ، وقد فرحا بالتخلص من ك ، فقد دفعا بنفسيهما ، وهما لا يزالان ينظران خلفيهما الى ك ، من خلال الباب المردود الى داخل البيت شيئا فشيئا ، وإذا ك يقف وحيدا يحيط به الجليد من كل جانب • وخطر بباله :
لولا وقوفى هنا مضادة ، وليس عن عمد ، لكان ذلك داعيا لشيء من اليأس •

وهنا انفتح فى الكوخ ناحية اليسار شباك صغير جدا ، كان لونه وهو مقفول أزرق شديد الزرقة ربما نتيجة لشدة بياض الجليد ، وكان ضئيلا حتى وقت فتحه ، لم يظهر وجه المظلة كله ، بل غينيهما الدكناوين الشائختين • وسمع ك صوتا نسائيا مرتعشا يقول :

— انه يقف هنا •

وقال صوت رجالي :

— انه موظف المساحة •

ثم أقبل الرجل الى النافذة وسأل على نحو ليس بالغليظ ، وأن نم عن أن الرجل مهتم بأن يكون كل شيء فى الشوارع أمام بيته على ما ينبغى له أن يكون :

— من تنتظر ؟

فقال ك :

— اننى أنتظر زحافة أستقلها •

فقال الرجل :

– ليس هذا طريق مواصلات •

فقال ك مستنكرا :

– ولكن هذا هو الطريق المؤدى الى القصر •

فقال الرجل بشيء من صلابة الرأى :

– ومع ذلك ، ورغم ذلك ، فليس هذا طريق مواصلات •

ثم صمت الاثنان • ويبدو أن الرجل كان يفكر فى شيء ، لأنه ظل فاتحا الشباك الذى كان الدخان يتصاعد منه • وقال ك ليساعده :

– انه طريق ردىء •

فلم يزد عن أن قال :

– نعم ، طبعاً •

ومع ذلك فقد قال بعد هنيهة :

– ان شئت أركبتك زحافتى •

فقال ك فرحا :

– أرجوك أن تفعل • ماذا تطلب ثمنا لذلك •

فقال الرجل :

– لا شيء •

وتعجب ك أشد التعجب • فاردف الرجل موضحا :

– انك موظف المساحة ، وتنتمى الى القصر • الى أين تريد أن

أنقلك بالزحافة ؟

فقال ك على عجل :

– الى القصر •

فقال الرجل على الفور :

– اذن قلن أنقلك •

فقال ك معيدا كلمات الرجل ذاتها :

– اننى انتمى الى القصر •

فقال الرجل فى صدور

– ربما •

فقال ك :

— اذن فخذني الى الحان •

فقال الرجل :

— حسن • سأأت حالا يزحقتي •

ولم يكن كل هذا يحمل طابع الود ، بل كان يبدو كنوع من السعى
الأناني الخائف الذى يوشك أن يكون متزمتا ، لابتعادك عن المكان الذى
وقف فيه أمام البيت •

وانفتح باب الفناء ، وخرجت منه زحافة صغيرة لنقل الأحمال
الصغيرة ، زحافة منخفضة ، بلا مقاعد ، يجرها حصان ضعيف ، وجاء
خلفها رجل ، مقوس الظهر ، خائر القوة ، يعرج ، وكان وجهه نحिला ،
محتقنا ، مصابا بالبرد ، وكان يبدو صغيرا جدا من أثر الشال الصوفى
الذى لفه الرجل لفا محكما حول رأسه • كان الرجل ظاهر المرض ولقد
خرج خاصة لينقلك • وعبرك عن هذا المعنى ، ولكن الرجل رده عن
ذلك بإشارة من يده • ولم يعرفك منه الا أنه الحوزى جير شتيكر ،
وأنه لم يختار هذه الزحافة المتعبة ، الا لأنها كانت جاهزة ، ولو أراد أن
يخرج أخرى ، لاحتاج الى وقت طويل • وقال وهو يشير بالسوط الى
مؤخر الزحافة :

— أجلس هنا •

فقالك :

— بل سأجلس بجوارك •

فقال جير شتيكر :

— سأسير أنا على قدمائى •

فسألهك :

— لماذا ؟

فعاد جير شتيكر يقول :

— سأسير أنا على قدمائى •

وأصيب الرجل بتزلة سعال رجته رجبا شديدا اضطر معه أن يثبت
ساقيه فى الجليد وان يعتمد بيديه على حافة الزحافة • فلم يقلك
شيئا غير الذى قاله وجلس على مؤخر الزحافة ، وهذا ما أصاب الرجل من
سعال شيئا فشيئا ، وسارت الزحافة •

وها هو ذا القصر فوق التل ، وقد احتواه فى هذا الوقت المبكر
ظلام عجيب ، يبتعد مرة أخرى ، وكانك يربو أن يصل اليه اليوم ،

فاذا هو الآن يودعه ، ويبدو أن الواجب كان يحتتم ألا يمر هذا الوداع المؤقت دون أية تضحية ، فدوى هناك رنين ناقوس ، يهتز بهجة ، ناقوس جعل القلب على الأقل للحظة ينتفض ، وكأنما انتفض القلب لأنه يهدده - ذلك أن هذا الرنين البهيج كان فى الوقت نفسه رنيناً مؤلماً - يهدده بتحقيق ما كان يتوق اليه فى غير اطمئنان . ثم سكنت هذا الناقوس الكبير بعد قليل ، وحل محله ناقوس صغير ضعيف رتيب ، لعله كان فوق التل ، ولعله كان فى القرية . وكان هذا الرنين يتفق على نحو أفضل بطبيعة الحال مع انزلاق الزحافة البطيئة والحوزى الذى كان يثير الأسى ويمثل فى الوقت نفسه الصلابة التى لا تلين .

وصاح ك فجأة :

- يا أنت !

كانا قد اقتربا من الكنيسة ، ولم يعد الطريق الى الحان بعيدا ، فسمح ك لنفسه بشيء من المخاطرة . وأردف ك يقول :

- اننى أدهش لأنك تجرؤ على السير بى هنا وهناك ، على مسئوليتك فهل لك أن تفعل هذا ؟

ولم يعبا جيرشتيكر واستمر يخطو خطاه الى جانب حصانه المسكين . وصاح ك :

- هيه .

وتناول شيئا من الجليد من الزحافة وكوره وأصاب به جيرشتيكر فى أذنه . وهنا وقف هذا والتفت خلفه ، فلما رآه ك عن قرب شديد - وكانت الزحافة قد تقدمت بعض الشيء - عندما رأى هذا الجسم المقوس ، الذى حل به الضر على نحو ما ، وهذا الوجه الأحمر الواهن الناحل بخديه اللذين يختلفان أحدهما عن الآخر على نحو ما ، فهذا منبسط وذاك أجوف ، وفمه المفتوح الذى يعبر عن التنبه والاصغاء ، والذى لم يعد به بضعة أسنان متفرقة ، اضطر الى أن يكرر العبارة التى قالها من قبل عن نية سيئة ، ويعيدها عن أسى ، متسائلا هل يحتمل أن يعاقب جيرشتيكر لنقله ك بالزحافة . فسأله :

- ماذا تريد ؟

سأل الرجل هذا السؤال على نحو ينم عن عدم التفهم ، ولم ينتظر تفسيراً ، بل صاح فى الحصان أن يسير ، واستأنفا طريقهما .

الفصل الثاني

عندما أوشكا على بلوغ الحان -وانما تبين ك ذلك من انحناء الطريق- كانت الدنيا ، لدهشته ، قد أظلمت كل الظلمة . فهل غاب مدة طويلة الى هذا الحد ؟ انه لم يغب على قدر حسابه سوى ساعة أو ساعتين ، ولقد خرج من الحان فى الصباح ، ولم يشعر بحاجة الى الطعام ، ولقد كان ضوء النهار يغمر الدنيا متسقا منذ وقت قصير ، واذا به يستحيل الى ظلمة حالكة . وقال ك فى نفسه :

— أيام قصيرة ! أيام قصيرة !

وانزلق من فوق الزحافة واتجه الى الحان .

وكان صاحب الحان يقف على أعلى السلم الأمامى الصغير ، واستحسن ك هذا أشد الاستحسان — وكان صاحب الحان يحمل مصباحا يرفعه الى أعلى ويضىء له السبيل . وتذكر ك الحوذى على نحو عابر ، فوقف ، واذا صوت سعال يتناهى اليه من الظلام : انه الحوذى . هه ، انه سيراه بطبيعة الحال فيما بعد . فلما وصل الى صاحب الحان الذى حياه بتواضع ، تبين أن هناك رجلين يقف كل منهما على أحد جانبي الباب . فتناول المصباح من يد صاحب الحان وأضاء الاثنين ، فاذا هما الرجلان اللذان قابلهما من قبل وناداهما البعض : أرتو ويريمياس . انهما يحييان الآن تحية عسكرية . وتذكر ك أيام الجندية ، هذه الأيام السعيدة ، وضحك ، ثم سأل وهو ينظر من هذا الى ذاك :

— من أنتما ؟

فأجابا :

— مساعدك .

وأكد صاحب الحان كلامهما قائلا :

— انهما مساعدك .

وسأل ك :

- كيف هذا ؟ أنتما مساعداى القديمان اللذان استدعيتهما ليلحقا
بى ، واللذين أنتظر وصولهما ؟

فأكدا ذلك • وقال ك بعد هنيهة :

- حسن • حسن أنكما وصلتما •

ثم قال ك بعد هنيهة أخرى :

- لقد تأخرتما تأخرا شديدا ، أنتما مهملان •

وقال أحدهما :

- لقد كان الطريق طويلا •

وقال ك مكررا الكلام نفسه :

- كان الطريق طويلا •• ولكننى قابلتكما وأنتما قادمان من القصر •

وقالا دون اضافة تفسير أو تبرير :

- نعم •

وسأل ك :

- وأين الأجهزة ؟

فقالا :

- ليس معنا أجهزة •

فقال ك :

- أين الأجهزة التى ائتمنتكما عليها ؟

فعادا يقولان :

- ليس معنا أجهزة •

فقال ك :

- آه ، هل انتما كسائر البشر • أففهمان شيئا فى المساحة ؟

فقالا :

- لا :

فقال ك :

- اذا كنتما مساعداى القديمين فلا بد أنكما تفهمان فى المساحة •

ودفعهما أمامه الى داخل البيت •

ثم جلس الثلاثة أقرب الى الصامتين فى قاعة الحان يحتسون البيرة

الى منضدة صغيرة • كان ك فى الوسط ، وكان المساعدان عن يمينه

وشماله • وكانت هناك منضدة أخرى يجلس اليها بعض الفلاحين مثل

الليلة الماضية • وقال ك وهو يقارن وجهيهما كما فعل من قبل مرارا :

— ان أمرى معكما لصعب • كيف يمكننى أن أفرق بينكما ؟ انكما لا تختلفان الا فى الاسم ، وانكما فيما عدا هذا متشابهان ••

وتعثر برغمه ، ثم عاد يقول :

— متشابهان كما تتشابه الحيات •

وابتسما وقالا مدافعين عن أنفسهما :

— ولكن الناس يفرقون بيننا عادة على نحو طيب •

وقال ك :

— أعتقد هذا • ولقد كنت شاهدا على ذلك ، ولكننى أرى بعضى

وأنا لا أستطيع بهما أن أفرق بينكما • ولهذا فأنا سأعاملكما كأنكما رجل

واحد وسأدعوكما أرتور ، فهذا اسم أحكما ، أليس كذلك ؟

وسأل أحدهما :

— ربما اسمك أنت ؟

فقال هذا :

لا • أنا اسمى بريمياس •

فقال ك :

— هذا ما لا يهمنى • سأدعوكما معا أرتور • فإذا أرسلت أرتور

الى مكان ما ، فعليكما بالذهاب معا ، واذا كلفت أرتور بعمل ، فعليكما

الاشتراك فيه معا ، وفى هذا ضرر كبير على ، لأننى لن أستطع أن

أستخدمكما فى عملين مختلفين ، ولكن فيه خير لى ، لأنكما ستحملان معا

مسئولية ما أكلفكما به من عمل • ولا يهمنى كيف تقسمان العمل

بينكما ، وما ينبغى على أى منكما أن يلقي التبعة على الآخر ، فأنتما فى

نظرى رجل واحد •

وفكرا فى هذا ثم قالوا :

— سيكون هذا ثقيلنا علينا •

فقال ك :

— لا يمكن الا أن يكون كذلك • سيكون هذا بطبيعة الحال ثقيلنا

عليكما • ولكن الأمر سيبقى كما قلت •

وكان ك قد لاحظ هنيهة أن أحد الفلاحين يحوم حول المنضدة ،

وأخيرا أجمع هذا أمره على شيء واتجه الى أحد المساعدين وهم أن يهمس

اليه بشيء • فقال ك :

- معذرة :
ثم ضرب على المنضدة بيده وهب واقفا وأردف يقول :
- هذان مساعداى ونحن الآن مشغولون بمناقشة . وليس لأحد الحق فى ازعاجنا .
فقال الفلاح خائفا : متأسف . آه . متأسف .
وعاد القهقرى الى جماعته .
وقال ك وقد عاد الى الجلوس :
- هناك شئ ينبغى عليكما أن تراعياه قبل كل ما عداه ، وهو أنه ليس لكما أن تتكلما مع أحد دون تصريح منى . فأنا هنا غريب ، واذا كنتما مساعدى القديمين فأنتما كذلك غريبان . ولهذا ينبغى علينا نحن الغرباء الثلاثة أن نتضامن . هيا نتعاهد على ذلك !
ومدا يدهما فى تهافت ولهفة الى ك . وقال ك :
- ليرجع كل منكما يديه ! ولكن امرى قائم . وسأذهب الآن للنوم ، وأنصحكما كذلك بالذهاب للنوم . لقد ضيعنا اليوم بلا عمل ، وينبغى علينا أن نبدأ غدا مبكرين . وعليكما أن تجهزا زحافة للانتقال الى القصر وأن تكونا مستعدين بها فى الساعة السادسة صباحا أمام البيت .
وقال أحدهما :
- حسن .
ولكن الآخر قاطعه :
- انك تقول حسنا ، مع أنك تعلم أن هذا مستحيل .
فقال ك :
- سكوت ! أنكما تريدان البدء فى الشجار .
ولكن أولهما عاد يقول :
- انه على حق ! من المستحيل أن يدخل غريب القصر بلا تصريح .
- وأين يطلب الانسان التصريح ؟
- أنا لا أعرف ، ولكنى أعتقد أن الانسان يطلبه من مدير القصر .
- اذن فلنطلب التصريح تليفونيا ، اتصلا فورا بمدير القصر .
فجريا الى التليفون وأجريا الاتصال - وكم كانا يتزاحمان على التليفون ! كانا يبديان مطيعين طاعة مضحكة - وسألا هل يصح أن يأتى ك معهما فى الغد الى القصر . وجاءت كلمة « لا » وسمعها ك وهو عند المائدة . ولكن الاجابة كانت مفصلة : « لا غدا ولا فى أى يوم آخر » .

فقال ك :

— سأتصل أنا تليفونيا .

وهب واقفا . وبينما كان ك ومساعداه — باستثناء حادثة الفلاح — لا يلفتون نظر الموجودين الا قليلا ، أثارت ملاحظته الأخيرة اهتمام الجميع . وإذا هم يهبون واقفين مع ك ، وعلى الرغم من أن صاحب الحان حاول أن يردهم ، فقد تجمعوا عند التليفون على هيئة نصف دائرة . وكان رأى الغالب بينهم أن ك لن يتلقى اجابة . واضطر ك الى أن يرجوهم التزام الهدوء مبينا انه لم يطلب سماع آرائهم .

وجاء من سماعة التليفون أزيز لم يعده ك من قبل عند استعمال التليفون ، وكان هذا الأزيز ، يلوح كأنما كانت تحدثه أصوات أطفال لا حصر لهم ، ولم يكن هذا الأزيز أزيزا بمعنى الكلمة بل كان غناء تؤديه أصوات بعيدة ، متناهية البعد ، ينطلق من بينها ، على نحو مستحيل ؛ وعلى خط مستقيم صوت واحد مرتفع وقوى يصفع الأذن ، وكأنه يريد أن يندس الى أعرق من السمع المسكين . وانصت ك دون أن يتصل ، وأسند ذراعه على متضدة التليفون ، واستغرق في الانصات .

ولا يعلم ك كم من الوقت مر عليه وهو يرهف السمع ولكنه ظل هكذا حتى شده صاحب الحان من سترته قائلا ان رسولا أتى اليه . وصاح ك غير متمالك نفسه .

— ابعـد !

ولعله صاح بهذا في التليفون ، لأن شخصا ما كان على الطرف الآخر . وجرى هذا الحوار .

— هنا أوزفالد . من هناك ؟

كان الصوت قاسيا ، متعجرفا ، فيه عيب صغير من عيوب النطق ، على نحو ما بدا ل ك ، حاول أن يعالجه بمزيد من القسوة . وتردد ك في ذكر اسمه ، فلم يكن يستطيع حيال التليفون أن يدافع عن نفسه ، وربما صرخ فيه الآخر صرخة مهلكة وربما ألقي السماعة ، فسد ك على نفسه سبيلا لعله لا يفتقر الى الأهمية . وأدى تردد ك الى غضب الرجل فعاد يقول :

— من هناك ؟

ثم أضاف :

— كم أتمنى ألا تكثر الاتصالات التليفونية من هناك ، فقد كانت هناك مكالمة منذ لحظة .

ولم يعلق ك على هذه الملاحظة بشيء ، وقدم نفسه بتصميم مفاجيء :

— هنا مساعد السيد موظف المساحة .

— أى مساعد ؟ أى سيد ؟ أى موظف مساحة ؟

وخطر ببال ك مكالمة الأمس ، فقال بإيجاز :

— اسأل فريتس .

ودهش ك لأن عبارته أدت الى نتيجة . ودهش أكثر للوحدة التي

تنتظم العمل هناك ، فقد جاءت الاجابة :

— لقد فهمت ! انه موضوع موظف المساحة الذي لا ينتهي الى نهاية

أبدا ! نعم ! نعم ! ثم ماذا ؟ وأى مساعد أنت ؟

فقال ك :

— يوزف .

وكانت همهمة الفلاحين خلف ظهره تسبب له شيئا من الاضطراب،

ويظهر أنهم لم يكونوا موافقين على تقديمه نفسه تقديما غير صحيح .

ولكن ك لم يكن لديه وقت للاهتمام بهم ، لأن المكالمة شغلته تماما . وعاد

الصوت يسأل من جديد :

— يوزف ؟ ان المساعدين هما ..

وصمت قليلا ، ويبدو انه كان يسأل آخر عن اسمى المساعدين .

— أرتور ويريمياس .

فقال ك :

— هذان هما المساعدان الجديدان .

— بل هما القديمان .

— انهما القديمان . أما أنا ، فالمساعد القديم ، وقد لحقت اليوم

بالسيد موظف المساحة .

وهنا صرخ الصوت :

— لا .

فسأل ك هادئا كما كان :

— فمن أنا اذن ؟

ومرت فترة سكون قال بعدها الصوت بعيب النطق نفسه ، وان

أصبح أكثر عمقا ، وأجدر بالاحترام :

— أنت المساعد القديم !

وأنصت ك الى نبرة الصوت وأوشك ألا يعي السؤال الذى تناهى الى سماعه :

— ماذا تريد ؟

ولكم ود لو وضع السماعه • فلم يعد يرجو شيئا من وراء هذه المكالمه • ولكنه سأل بسرعة سؤال المضطر :

— متى يمكن لسيدى أن يأتى الى القصر ؟

وجاءت الاجابة :

— لن يكون له هذا أبدا •

وقال ك :

— حسن •

وأعاد السماعه الى مكانها •

وكان الفلاحون من خلفه قد اقتربوا منه اقتربا شديدا • وكان المساعدان مشغولين ، وهما ينظران الى ك نظرات جانبية ، بحجز الفلاحين عنه • ويبدو انها كانت مجرد ملهاة ، فقد تراجع الفلاحون شيئا فشيئا ، راضين بنتيجة المكالمه • واذا رجل يشق مجموعة الفلاحين من الحلف بخطوات سريعة وينحنى أمام ك ويقدم اليه رسالة • وأمسك ك بالرسالة فى يده وتطلع الى الرجل الذى لاح له فى تلك اللحظة أكثر أهمية • وكان هناك شبه كبير بينه وبين الساعدين • كان رشيقا مثلهما ، ضيق الثياب مثلهما ، مرنا سريعا مثلهما ، ومع ذلك فكان يختلف عنهما اختلافا بينا • وكم ود ك لو كان هذا الرجل مساعدا له • ولقد ذكره قليلا بالمرأة ذات الرضيع التى رآها عند المعلم الدباغ • فقد كان يلبس ثوبا أبيض أو يكاد لونه يكون كذلك ، ولم يكن الثوب مصنوعا من الحرير ، بل كان ثوبا شتويا كالثياب الأخرى ، ولكنه كان يتسم بما يتسم به الثوب الحريرى من رقة ومهابة • وكان وجهه مشرقا وصريحا ، وكانت عيناه واسعتين • وكانت ابتسامته توجى بالأمل على نحو غير مألوف • ولقد مسح بيده على وجهه وكأنما أراد أن يطرد هذه الابتسامة ، ولكنه لم يوفق فى ذلك ، وسأله ك :

— من أنت ؟

فقال :

— أنا اسمى برناباس • وأنا أعمل ساعيا •

كانت شفتاه تنفتحان وتنقلان أثناء الكلام فى رجولة ولكن فى رقة
أيضا • وسأله ك :

— أيعجبك هذا ؟

وأشار ك الى الفلاحين ولم يكن اهتمامه بهم قد قل ، وكانوا يرفعون
نحوه وجوههم المعذبة •• لقد بدت جماجمهم كأنما كبست من أعلى
فتفرطحت ، وكانما تكونت قسماى وجوههم وسط آلام الضرب ، وهكذا
شفاههم الغليظة وأنفواهم المفقورة ، وكانوا ينظرون كانوا فى الوقت
نفسه لا يبصرون ، ذلك أن نظرتهم كانت أحيانا تتوه ، وتتركز ، قبل
أن تعود ، على أى شىء لا أهمية له • ثم أشار ك بعد ذلك الى مساعديه
اللذين كانا يتعانقان ويتسلمان وقد ألصق الواحد منهما خده بخد
صاحبه ، ولم يكن الانسان يعرف هل كانا يتسلمان فى تواضع أو فى
تهكم • أشار ك الى كل هذا ، وكانما كان يقدم اليه حاشية فرضتها عليه
ظروف خاصة ، وتوقع — كانت فى توقعه ثقة حرص عليها كل الحرص —
أن يميز بينه وبينهم • ولكن برناباس لم يتلقف السؤال فى براءة كاملة
بطبيعة الحال — وكان ذلك ظاهرا ، وترك السؤال يمر عليه عابرا ، كما
يفعل الخادم المهذب حيال كلمة من سيده لا تكون موجهة اليه الا فى
ظاهرها ، ولم يزد عن أن نظر حواليه اتباعا للسؤال ، وحيا بيده بعض
المعارف من بين الفلاحين وتبادل كلمات مع المساعدين ، وجرى هذا كله
فى حرية واستقلال ، دون أن يختلط بهم • وعاد ك الى الخطاب فى يده
فى خيبة — ولكن بدون خجل — وفتحه • كان الخطاب ينص على مايل :

« أيها السيد المحترم ،

انك ، كما تعلم ، قد قبلت للعمل فى الخدمة الأميرية • ورئيسك
المباشر هو رئيس مجلس القرية ، وهو الذى سيبلغك بكل تفاصيل
عملك وشروط الأجر ، وأنت مسئول أمامه • ومع ذلك فلن أبعد عينى
عنك • وسيقوم برناباس ، الذى يحمل اليك هذا الخطاب ، بسؤالك من
حين لآخر ، عن رغباتك ، وسيتولى نقلها الى • ولسوف تجدنى دائما
مستعدا ، على قدر الامكان ، للقيام بما يرضى • فأنا أحرص على أن يكون
عمالى راضين • »

ولم يكن التوقيع واضحا ، ولكن الاسم كان مطبوعا بجواره :
رئيس الادارة العاشرة •

وقال ك لبرناباس الذى انحنى أمامه :

— انتظر •

ونادى على صاحب الحان وطلب منه أن يقتاده الى الحجرة ، لأنه كان يريد أن ينفرد بالخطاب فترة من الوقت . وتذكر فى هذه الأثناء أن برناباس ، على الرغم من الميل الشديد الذى يميله اليه ، لا يختلف عن أن يكون ساعيا ، وأمر له بشئ من البيرة . وانتبه الى كيفية تقبله اياها . ولقد ظهر أنه تقبلها مرحبا ، وشرع على التو يشرب منها . ثم ذهب ك مع صاحب الحان ، ولم يكن هذا قد استطاع أن يدبر لك فى المبنى الصغير سوى حجرة صغيرة على السطح ، وحتى تدبير هذه الحجرة كان محفوف بالصعاب ، لأنه اضطر الى تدبير مكان آخر لخادمتين كانتا تنامان فيها . والحقيقة أن ما حدث لم يزد عن اخراج البنيتين من الحجرة ، فقد ظلت الحجرة على حالها لم يتناولها تغيير ، ولم يكن السرير الوحيد مكسوا بملادة ، بل كانت عليه بضع مخدات ، وغطاء ، تركت كما كانت فى الليلة الماضية . وكانت هناك على الجدران بعض صور القديسين ، وبعض الصور الفوتوغرافية لجنود . انهم لم يفعلوا شيئا بالحجرة ، حتى مجرد التهوية ، والظاهر انهم يرجون ألا يقيم الضيف الجديد طويلا ، ولهذا لم يفعلوا شيئا للتمسك به . ولكنك كان راضيا بكل شئ ، فلف نفسه بالغطاء ، وجلس الى المنضدة ، وبدأ يقرأ الخطاب مرة أخرى على ضوء شمع .

لم يكن الخطاب على وتيرة واحدة ، كانت به مواضع يدور فيها الحديث اليه ، كأنه رجل حر ، له ارادة معترف بها ، من هذه المواضع مطلع الخطاب ، والموضع الذى يتناول رغباته . ثم كانت هناك مواضع يعاملونه فيها ، بصراحة أو مواراة ، كأنه عامل صغير لا يكاد يلحظه أحد من مقر هذه الرئاسة ، ولسوف يبذل الرئيس الجهد لكى لا يبعد عينيه عنه . أما رئيسه فليس سوى رئيس مجلس القرية ، بل انه مسئول أمامه ، وربما لم يكن له من زميل فى هذا سوى شرطى القرية . لقد كانت تلك بلا شك متناقضات . وكانت واضحة للعين ، مما يدل على أنها كانت مقصودة . وخطرت ببالك فكرة جنونية عابرة تصور له أنه ربما كان السبب هو تردد الادارة فى هذا الأمر . لقد رأى خيارا يعرض له صريحا ، لقد ترك له أن يتصرف فى تعليمات الخطاب بما يريد : له أن يقرر أن شاء أن يصبح عاملا فى القرية وله امتياز الارتباط بصله ، لا تزيد عن أن تكون صلة ظاهرية ، بالقصر ، أو أن يصبح عاملا ظاهريا فى القرية يحدد علاقة عمله كلها بناء على أخبار برناباس . ولم يتردد ك فى الاختيار ، وما كان له أن يتردد بعد الخبرات التى أتاحت له حتى الآن . انه عندما

يكون عاملا فى القرية ، بعيدا قدر المستطاع عن السادة فى القصر ، فسيستطيع أن يبلغ شيئا فى القصر ، ذلك أن أهل القرية الذين كانوا يسلكون حياله مسلك الريبة ، سيبدعون فى الكلام ، عندما يصبح هو ، لا نقول صديقا لهم ، بل مواطننا مثلهم لا يختلف عن جيرشتيكر أو لازيمان . . . ولابد أن يحدث هذا بسرعة ، فكل شيء رهن به . . . عند ذاك تنفتح له بضربة واحدة ، وبكل تأكيد ، الطرق ، التى كانت ستظل الى الأبد لا مقللة فحسب ، بل مستترة ، ان ظل الأمر رهنا بالسادة فى عليائهم ، رهنا بتفضلهم . حقيقة ان ثمة خطرا كان قائما وكان مؤكدا فى الخطاب بما فيه الكفاية ، وهو انه سيكون عاملا . كان الخطاب مليئا ، بعبارات الخدمة ، الرئيس ، العمل ، شروط الأجر ، المسئولية ، العامل . . . وحتى ما كان الخطاب يحتويه غير ذلك من أمور أكثر شخصية ، كان قائما على وجه النظر هذه . اذا كان ك يريد أن يكون عاملا ، ففى استطاعته أن يكون عاملا ، بكل جد رهيب ، ودون أن يكون له أن ينصرف بنظره الى أى منصرف . وكان ك يعلم أنه لا يتعرض لتهديد باكره حقيقى ، ولم يكن يخشى الاكراه ، وبالذات هنا ، ولكنه كان يخشى قوة البيئة الميئسة ، قوة الاعتیاد على الحية ، وقوة المؤثرات غير الظاهرة فى كل لحظة ، ولكنه كان ينبغى عليه أن يجرؤ على منازلة هذا الخطر . ولم يكن الخطاب يخفى ، أن ك ، اذا وصل الأمر الى النضال ، سيكون عليه أن يجسر على الابتداء . كان الخطاب يعبر عن هذا بخفة ، وما كان ليلحظه الا ضمير قلق - ضمير قلق ، لا ضمير مثقل - يعبر عنه فى كلمتين هما « كما تعلم » عند الحديث عن قبوله فى الخدمة . كان ك قد تقدم للعمل ، ولقد علم ، على نحو ما جاء بالخطاب ، أنه قد قبل .

وأزاح ك صورة من الحائط وعلق الخطاب على مسمار . انه سيقیم فى هذه الحجرة ، وينبغى أن يعلق الخطاب هنا .

ثم نزل ك الى قاعة الحان . كان برناباس يجلس مع المساعدين الى منضدة صغيرة . وقال ك بغير مناسبة ، لا لسبب الا لأنه فرح برؤية برناباس :

— آه ، أنت هنا .

وانتفض برناباس واقفا من فوره . وما كان ك يدخل ، حتى نهض الفلاحون ليقتربوا منه ، فقد اعتادوا على أن يلاحقوه دائما . وصاح ك :

— ماذا تريدون منى ؟

ولم يغضب الفلاحون ، واستداروا عائدين الى أماكنهم . وقال

أحدهم على سبيل الشرح ، وهو يتعد ، ببساطة ، وبابتسامة
لا سبيل الى تأويلها ، اتخذها بعض الآخرين :

— ان الانسان يسمع دائما شيئا جديدا .

ولعق شفتيه وكأنما كان الشيء الجديد طعاما يؤكل .

ولم يقل ك شيئا يرمى الى التصالح ، فقد كان من الخير أن يلتزموا
حياله بقليل من الاحترام . ولكنه ما كاد يجلس الى برناباس حتى أحس
بتنفس أحد الفلاحين في قفاه ، أتى ، على حد قوله ، ليأخذ الملاحه ، ولكن
ك هب واقفا ، من فرط غضبه ، فجرى الفلاح بعيدا دون أن يأخذ الملاحه .
لقد كان من السهل فعلا النيل من ك ، كان يكفي مثلا ، تعريض الفلاحين
عليه ، ولقد لاح له هذا الاقبال العنيد عليه ، أكثر شرا من ادبار الآخرين
عنه ، ثم أن اقبالهم ليس الا ادبارا ، فلو أن ك ذهب ليجلس اليهم ، لما
ظلوا جالسين الى المائدة . ولم يمنح ك من احداث ضجة ، الا وجود
برناباس . ولكنه استدار نحوهم مهددا ، وكانوا هم كذلك قد استداروا
نحوه . فلما رأهم يجلسون هكذا ، كل في مكانه ، دون أن يتحدثوا ،
ودون أن يكون بينهم رباط ظاهر ، فلم يكن يربطهم بعضهم الى البعض
الا التحديق فيه ، ظن أن ما يجعلهم يلاحقونه ليس الشر على الاطلاق ،
ربما كانوا بالفعل يريدون منه شيئا ، ولم تكن لديهم القدرة عن التعبير
عنه ، وربما كانت تلك مجرد صبيانية متأصلة في هذا المكان . ألم يكن
صاحب الحان يتصرف تصرفا صبيانيا وهو يمسك بكلتا يديه كوب بيرة
كان المفروض أن يحمله الى بعض الجالسين ، ويقف ساكنا ، ينظر الى ك ،
ولا يتنبه الى نداء زوجته التي كانت تطل من طاقة المطبخ الصغيرة ؟

والفتت ك الى برناباس وقد ازداد هدوءا ، ولكم ود أن يبعد
المساعدين ، ولكنه لم يجد حجة يتذرع بها . ولقد كانا على أية حال
ينتظران صامتين الى البيرة أمامهما . وبدأ ك حديثه قائلا :

— لقد قرأت الخطاب . هل تعرف مضمونه ؟

فقال برناباس :

— لا .

وكانت نظرته تبدو أكثر تعبيرا من كلماته . وربما أخطأ هنا بالخير
كما أخطأ بالشر مع الفلاحين ، عندما تشبث بما في وجوده من طيبة .
وقال :

— ان الخطاب يتحدث عنك ، ذلك أنه ينبغي عليك من حين لآخر أن

تنقل الأخبار بينى وبين الادارة ، ولهذا السبب اعتقدت انك تعرف فحوى الخطاب .

وقال برناباس :

– لقد تلقيت أمرا بتوصيل الخطاب ، وبالاتظار حتى تتم قراءته ، وبالعودة برد شفهي أو تحريري اذا رأيت ضرورة لذلك .
فقال ك :

– حسن . ليست هناك حاجة الى الكتابة . أبلغ السيد الرئيس ، ما اسمه ؟ فأنا لم أستطع قراءة التوقيع .
فقال برناباس :
– كلم .

– اذن فأبلغ السيد كلم شكرى على قبوله ، وكذلك على وده الخاص ، الذى أعرف ، وأنا شخص لم يثبت جدارته هنا بعد بحال من الأحوال ، كيف أقدره قدره . ولسوف أتصرف على نحو يطابق مراميه كل المطابقة . وليست لدى اليوم رغبات خاصة .

وطلب اليه برناباس ، وقد أضغى بدقة ، أن يسمح له بأن يعيد عليه الرسالة ، وأعادها برناباس كلها بنصها لم يتبدل منه شيء . ثم نهض ليستأذن فى الانصراف .

كان ك قد ظل طوال الوقت يتفرس فى وجهه ، وها هو ذا يتفرس فيه مرة أخيرة . كان برناباس فى مثل طول ك تقريبا ، ومع ذلك فقد لاحظت نظرته كأنها تهبط من أعلى الى أسفل ، لتصل الى ك ، ولكن فيما يوشك أن يكون تواضعا ، فقد كان من المحال أن يخجل هذا الرجل أى انسان . حقيقة أنه كان ساعيا لا يزيد ، ولم يكن يعرف فحوى الخطابات التى يكلف بنقلها ، ولكن نظرته ، وابتسامته ، ومشيته كانت تلوح كرسالة . وان لم يكن يعرف من أمرها شيئا . ومد ك اليه يده مصافحا ، ويبدو أن تلك الحركة فاجأته ، فلم يكن يريد الا أن ينحنى .
فلما انصرف – وكان قد استند الى الباب بكتفه قبل أن يفتحه وشمل القاعة بنظرة لم يقصد بها شخصا بعينه – قال ك لمساعديه :

– سأحضر من الحجر رسوماتى ، ثم نتناقش فى العمل القادم .

وأرادا أن يذهبا معه . فقال :

– انتظرا .

ولكنهما ظلا يريدان الذهاب معه • فاضطر ك الى اعادة الأمر بمزيد من الحدة •

لم يكن برناباس فى المدخل • ولكنه لم يكن قد انصرف الا توا • ولم يره ك أمام البيت – وكان الجليد يتساقط من جديد • وأخذ ينادى :
– برناباس •

فلم يتلق اجابة • هل تراه لم يخرج بعد ؟ لم يكن هناك احتمال آخر • ومع ذلك فقد صاح ك بكل قوته هاتفا بالاسم • ودوى الاسم خلال الليل المطبق على المكان • وتلقى ك من بعيد ردا خافتا • اذن فقد ابتعدا بعدا شديدا • ونادى عليه ك أن يعود ، ثم ذهب للملاقاته ، والتقىا فى موضع لم يكن فى الامكان رؤيته من الحان •
وقال ك وهو لا يستطيع التغلب على رعشة صوته :

– يا برناباس • لقد أردت أن أقول لك شيئا آخر • ولقد لاحظت أن هناك سوء تدبير فى اعتمادى على مجرد قدومك مصادفة ، عندما أحتاج الى شيء من القصر • ولو لم ألق بك الآن مصادفة – وأنت تطير ، وكنت أظن انك ما تزال فى الحان – فمن يعلم كم من الوقت كنت سأنتظر حتى تأتى مرة أخرى •

فقال برناباس :

– يمكنك أن ترجو الرئيس أن أحضر اليك دائما فى أوقات معينة تحددتها أنت •
فقال ك :

– ولكن هذا لن يكفى ، فربما مر عام دون أن أحتاج الى ابلاغ شيء الى القصر ، وربما جد بعد انصرافك بربع ساعة شيء لا سبيل الى تأجيله •

فقال برناباس :

– هل أبلغ الرئيس انه ينبغى أن تقوم بينكما صلة أخرى غيرى ؟
فقال ك :

– لا ، لا • مطلقا • وأنا انما أشرت الى هذا الأمر اشارتى الى أمر ثانوى • ومن حسن الحظ اننى لحقت بك هذه المرة •
فقال برناباس :

– هل نعود الى الحان حتى تكلفنى بالمهمة الجديدة ؟

وخطا بالفعل خطوة الى هناك ، فقال ك :

— يا برناباس ، ليست هناك ضرورة لذلك ، سأسير معك شيئا من الطريق .

وسال برناباس :

— لماذا لا تريد الذهاب الى الحان ؟

فقال ك :

— لأن الناس هناك يزعموننى . ولقد رأيت بنفسك الحاح الفلاحين .
فقال برناباس :

— يمكننا أن نذهب الى حجرتك .
فقال ك :

— انها حجرة الخادومات ، حجرة قذرة مكتومة ، ولقد أردت أن أسير معك قليلا حتى لا أبقى فيها ...

وأضاف ك ليتغلب نهائيا على تردده :

— .. ولكن ينبغي عليك أن تدعنى أتعلق بذراعتك ، فأنت تسير أكثر اطمئنانا .

وتعلق ك بذراعه . وكان الظلام حالكا . ولم يرك وجهه ، ولم ير هيئته الا فى غير وضوح ، وكان قد حاول قبل هنيهة أن يتحسس ذراعه . واستجاب برناباس ، وابتعدا عن الحان . حقيقة أن ك أحس أنه لم يكن يستطيع ، رغم الجهد الذى بذله ، أن يسير بخطى برناباس ، وأحس بأنه يعرقل حركته الحرة ، وأن كل شيء سينتهى ، فى الظروف العادية ، الى الفشل نتيجة لشيء ثانوى من هذا القبيل ، عندما يسيران فى الحارات الجانبية ، وما هى الا مثل هذه الحارة التى غاص ك فى جليدها صباح اليوم ، ولم يكن ليخرج منها الا أن يحمله برناباس . ولكنه أبعد عنه هذه المخاوف ، وخفف عنه التزام برناباس الصمت . وإذا كانا سيسيران صامتين ، فان التقدم سيكون بالنسبة لبرناباس الهدف الوحيد لهما .

وسارا ، ولم يكن ك يعرف الى أين ، لم يكن يستطيع أن يتبين شيئا . لم يعرف حتى هل مرا على الكنيسة وتجاوزاها أو لا . ولقد أدى الجهد الذى سببه له المشى الى أنه لم يستطع أن يسيطر على أفكاره . فقد اضطربت أفكاره بدلا من أن تبقى مركزة على الهدف . كان الوطن لا يفتأ يخطر بباله ، وكانت ذكرياته تغمره . تذكر كنيسة كانت هناك فى

الميدان الرئيسى ، كانت تحوطها من ناحية المقابر القديمة ، وكان يحوطها من الناحية الأخرى جدار عال لم يتسلقه الا عدد قليل جدا من الصبية ، ولم يتمكن ك من تسلقه عندما كان صبيا . ولم يكن ما يدفع الصبية اليه فضول ، فلم تكن فى المقابر أسرار ، ولقد دخلوا اليها من خلال الباب الحديدى الصغير مرارا ، ولكنهم كانوا يريدون قهر هذا الجدار العالى الزلق . وذات صباح ، وكان الميدان الخالى الهادى يفيض بالنور - متى رآه ك من قبل أو من بعد وضاحا هكذا ؟ - تمكن ك من تسلقه بسهولة لم يعدها من قبل . لقد تسلقه فى موضع ارتد منه من قبل مرارا ، تسلقه دفعة واحدة ، وكان يحمل بين أسنانه علما صغيرا . وتدرج الحجر متساقطا ، ولكن ك كان قد وصل الى أعلى . وثبت العلم ، ونشرته الريح ، ونظر الى أسفل ، الى الجمع المصطف فى دائرة ، وتجاوز الاكتاف الى الصليبان المائلة الى الأرض . لم يكن هناك الى الآن من هو أكبر منه . وتصادف أن مر المدرس ، فنظر الى ك نظرة غاضبة أنزله بها من فوق الجدار العالى . وأصيب ك أثناء القفز ، بجرح فى ركبته ، ولم يصل الى البيت الا بشق الأنفس ، ولكنه كان قد وقف فوق الجدار . وتصور ك فى ذلك الوقت أن الاحساس بهذا النصر سيكون دعامة تستند عليها حياة طويلة ، ولم يكن هذا الذى لاح له آنذاك من قبيل السخف ، فها هو ذا يعود اليه بعد سنوات طويلة ، فى ليلة الجليد ، وهو يتأبط ذراع برناباس ، فيمده بالعون .

وتعلق بذراع برناباس على نحو أشد ، وكان برناباس يوشك أن يجره ، وظل الصمت قائما لا يقطعه أيهما بكلام . ولم يعرف ك عن الطريق الا ما تبينه من حالة الشارع ، وهو أنهما لم ينحرفا الى حارة جانبية . وقرر ألا يجعل صعوبة من صعوبات الطريق ، أو خشية من عدم التمكن من العودة ، تحول بينه وبين الاستمرار فى السير . وليس هناك شك فى أن قوته ستكونى لكى يستمر برناباس فى جره . ثم هل الطريق لا تنتهى الى نهاية ؟ ولقد لاح له القصر بالنهار هدفا يسيرا ، وليس من شك فى أن الساعى يعرف أقصر طريق اليه .

ووقف برناباس . أين كانا ؟ هل انقطع الطريق ؟ هل سيستأذن برناباس من ك فى الانصراف ؟ لن يتمكن برناباس من ذلك . فقد كان ك يتشبث بذراعه بقوة كانت تؤله هو نفسه . أم هل حدث الشئ الذى لا يمكن تصديقه ؟ هل هما الآن فى القصر أو أمام بواباته ؟ ولكنهما ، على قدر ما كان ك يعرف ، لم يصعدا مرتفعا . أم هل اقتاده برناباس فى

طريق تصعد على نحو غير ملحوظ ؟ وسأل ك بصوت منخفض ، وكأنما كان يسأله لنفسه أكثر مما كان يسأل برناباس :

— أين نحن ؟

فقال برناباس على النحو نفسه :

— فى البيت ؟

؟ فى البيت — والآن يا سيدى انتبه حتى لا تنزلق الى أسفل ، فالطريق منحدر .

— منحدر ؟

ثم قال برناباس :

— لم تبق سوى خطوات قليلة .

وها هو ذا يقرع بابا .

وفتحت الباب بنت ، ووقفا على عتبة حجرة كبيرة فى ظلمة توشك أن تكون جالكة ، فلم يكن هناك سوى مصباح بترولى ضئيل فوق مائدة فى مؤخرة المكان الى اليسار . وسألت البنت :

— من هذا الذى يأتى معك يا برناباس ؟

فقال :

— موظف المساحة .

وأعادت البنت الاجابة بصوت مرتفع متجهة الى المائدة . وهنا نهض شخصان متقدمان فى السن ، رجل وامرأة ، وكذلك بنت أخرى . وحيا الجميع ك . وقدم برناباس الجميع اليه ، كان هؤلاء والديه ، وأخيه أوجا وأماليا . ولم ينتظر ك اليهم ، أو يكاد ألا يكون قد نظر اليهم ، وخلع عنه بعضهم سترته المبتلة ليحففها عند المدفاة . وترك ك ذلك يحدث .

اذن فلم يكن الاثنان فى بيتهما ، لقد كان برناباس وحده فى بيته . ولكن لماذا كانا هنا ؟ وانتحى ك ببرناباس جانبا وسأله :

— لماذا ذهبت الى البيت ؟ أم هل تسكنون فى دائرة القصر ؟

وأعاد برناباس عبارة :

— فى دائرة القصر ؟

قالها وكأنه لا يستطيع فهم ك . فقال ك :

— انك يا برناباس كنت تريد الذهاب من الحان الى القصر .

فقال برناباس :

— لا يا سيدى ، لقد كنت أريد أن أذهب الى البيت . وسأذهب الى القصر فى الصباح المبكر ، فأنا لا أنام هناك مطلقا .
فقال ك :

— هكذا . أنت لم تكن تريد الذهاب الى القصر ، بل كنت تريد الحضور الى هنا .
ولاحظ ابتسامة برناباس ل ك واهنة ، ولاح برناباس نفسه له أكثر تفاهة . وقال ك :

— ولماذا لم تقل لى هذا ؟

فقال برناباس :

— انك يا سيدى لم تسألنى ، لقد كنت تريد أن تكلفنى بمهمة ، ولم ترد أن تكلفنى بها لا فى قاعة الحان ولا فى حجرتك ، ولهذا فكرت فى أنك تستطيع أن تكلفنى هنا بالمهمة فى بيت أهلى ، دون أن يقلبك مقلق . وسيخلى الجميع المكان عندما تأمر بذلك . ولك ، ان راقك المكان ، أن تبیت هنا . ألم أحسن التصرف ؟

ولم يستطع ك الاجابة . لقد حدث خطأ . اذن ، خطأ دنى وضعى . وكان ك قد أسلم نفسه اليه ووثق فيه كل الثقة . لقد ترك سترة برناباس الضيقة الحريرية اللامعة تخبى ليه ، تلك السترة التى أخذ الآن يفك أزرارها ، فظهر من تحتها قميص غليظ قدر رمادى كثير الرقع فوق صدر عبد قوى صارم البدن . وكان كل شىء حوله لا يطابق هذا فحسب ، بل يفوقه ، الأب العجوز المريض الذى يتقدم بيديه المتحسستين أكثر مما يتقدم بساقيه المتصلبتين الزاحفتين فى بطء — والآن التى تعقد يديها على صدرها ولا تستطيع لبدانتها أن تتقدم الا بخطى متناهية الضالة . ومنذ دخل ك تحرك الوالدان من ركنيهما نحوه ، ولم يصلا اليه بعد . أما الأختان ، وهما شقراوان تشبه الواحدة منهما الأخرى ، وتشبهان برناباس ، وان كانت تقاطيعهما أكثر حدة من تقاطيعه ، — فكانتا بنتين طويلتين قويتين ، ولقد وقفتا حول القادمين تنتظران كلمة تحية من ك . ولكنه لم يستطع أن يقول شيئا . ولقد كان ك يعتقد أن كل شخص فى القرية يتسم حياله بالأهمية ، ويبدو أنه كان مصيبا فى هذا الاعتقاد ، الا أن هؤلاء الناس بالذات كانوا لا يهتمونه على الاطلاق . ولو كان فى حالة يستطيع فيها أن يقطع الطريق وحده عائدا الى الحان ، لانصرف من فورده . ولم تكن امكانية الذهاب فى الصباح الباكر الى القصر مع برناباس تغريه . لقد كان يود أن ينفذ الى القصر الآن ، فى

الليل ، لا يلتفت اليه أحد ، ينفذ اليه وراء برناباس ، ولكن ذلك البرناباس الذى كان يبدو له حتى ذلك الحين أقرب الناس هنا الى نفسه ، والذى ظن أنه مرتبط بالقصر ارتباطا وثيقا يزيد زيادة كبيرة على رتبته الظاهرة . أما مرافقة ابن هذه الأسرة ، الذى ينتمى اليها كل الانتماء ، والذى جلس معها الى المائدة وتناول الطعام معها ، مرافقة هذا الرجل الذى لا يحق له حتى مجرد النوم فى القصر - وهذا شئ له دلالتة - مرافقته والتشبث بذراعه فى وضوح النهار ، كان يلوح له محاولة مضحكة لا أمل فيها .

وجلس ك على قاعدة احدى النوافد، مصمما على أن يقضى عليها الليلة، وعلى ألا يطلب من هذه الأسرة خدمة أخرى غير هذه الخدمة ، ولاح له أهل القرية الذين أبعدوه ، أو الذين خافوا منه ، أقل خطورة ، لأنهم فى واقع الأمر كانوا يحيلونه الى نفسه ، ويعينونه على جمع قواه . أما هؤلاء الذين يلوحون كأنهم يعينونه ، والذين لم يقتادوه الى القصر ، بل اقتاده فى حركة تنكيرية صغيرة الى أسرتهم ، فكانوا يشتمون انتباهه ، سواء عمدوا الى ذلك أو لم يعمدوا ، وكانوا يعملون على هدم قواه . ولم يحفل بالنداء الذى وجهوه اليه يدعونه الى مائدة الأسرة ، وظل جالسا على قاعدة النافذة مطاطيء الرأس .

وهنا نهضت أولجا ، أكثر الأختين رقة ، وكانت تبدي شيئا من خجل البنات ، وذهبت الى ك ، ورجته أن يأتى الى المائدة . وقالت ان الحبز وشحم الخنزير جاهزان ، أما البيرة فستذهب لاحضارها . وسأل ه :
- من أين ؟

فقالت :

- من الحان .

ولقى كلامها ترحيب ك الشديد . فرجاها ألا تحضر بيرة ، بل أن ترافقه الى الحان ، لأن لديه أعمالا مهمة هناك يريد أن ينجزها . وتبين أنها لا تريد أن تذهب الى الحان البعيد الذى ينزل فيه ، بل الى حان آخر قريب ، أشد القرب ، هو حان السادة . ومع ذلك رجاها ك أن تسمح له بمرافقتها ، وهو يفكر فى أنه ربما أتاحت له هناك فرصة للمبيت ، ومهما تكن ، فهى أفضل بكثير من النوم هنا فى أحسن سرير . ولم تحب أولجا على الفور ، بل نظرت خلفها الى المائدة . وكان أخوها قد نهض ، وهز رأسه بالموافقة وقال :

- اذا كانت تلك هى رغبة السيد .

ولقد أوشكت هذه الموافقة على أن تدفع ك الى أن يتراجع فى طلبه ، فلم يكن هذا الرجل ليوافق الا على أشياء عديمة القيمة : فلما تشاورا فى الأمر ، وهى سيسمح لك بدخول الحان ، وأبدوا جميعا شكهم فى ذلك ، أصر ك على الذهاب معها ، دون أن يبذل جهدا فى اختلاق سبب مفهوم يبرر به طلبه . كان على هذه الأسرة أن تقبله كما هو ، ولم يكن على نحو ما يحس حيالها بالحجل . ولم يكن هناك شئ يشككه فى ذلك الا أماليا بنظرتها الجادة ، المستقيمة ، الجامدة التى ربما اتسمت بشئ من البلادة .

وعلم ك وهو فى الطريق القصير الى الحان - وكان قد تعلق بذراع أولجا وتركها تجره أو تكاد ، كما فعل من قبل مع أخيها ، فلم يكن يستطيع غير ذلك - ان هذا الحان مخصص فى الحقيقة للسادة الذين يأتون من القصر لقضاء شئ فى القرية ، فهم يأكلون هناك ، ويبيتون أحيانا . وكانت أولجا تتكلم مع ك بصوت خفيض ، كأنه يعبر عن ود ، وكان ينعم بالسير معها ، كما نعم من قبل بالسير مع أخيها أو يكاد . وكان ك يصد الاحساس بالارتياح ، ولكنه كان موجودا فى نفسه .

كان الحان من الخارج يشبه أشد الشبه الحان الذى كان ك يقيم فيه . ويبدو انه لم يكن هناك على الإطلاق فروق كبيرة فى القرية ، ولكن ك بدأ يلاحظ الفروق الصغيرة : كان للسلم الأمامى حاجز ، وكان هناك مصباح جميل مثبت فوق الباب . وعندما دخلا هفهم قماش فوق رأسيهما ، وكان هذا القماش راية تحمل الألوان الجرافية . وقابلهما عند المدخل على الفور صاحب الحان ، ويبدو أنه كان يقوم بجولة تعدد القيام بها ، ونظر صاحب الحان بعينين صغيرتين متفحصتين أو ناعستين الى ك عابرا وقال :

— ليس للسيد موظف المساحة أن يذهب الا الى قاعة الشراب .

فقالت أولجا فى اهتمام بأمر ك :

— بكل تأكيد . انه انما يرافقنى لا أكثر .

أما ك فقد تنكر لجميل أولجا وتملص منها وانتحى بصاحب الحان جانبا . وانتظرت أولجا فى هذه الأثناء صابرة عند نهاية المدخل . وقال ك لصاحب الحان :

— اننى أود أن أبيت هنا .

فقال صاحب الحان :

— هذا للأسف مستحيل . ويبدو انك لم تعرف بعد ان هذا الحان خاص بسادة القصر دون سواهم .
وقال ك :

— ربما كانت تلك هي الأوامر . ولكن من الممكن بكل تأكيد أن تدعني أنام في ركن بأى مكان .
فقال صاحب الحان :

— كم كنت أود غاية الود أن أحقق لك رغبتك، ولكنها، بغض النظر عن صرامة الأوامر التي تتحدث أنت عنها حديث الغريب ، مستخيلة التحقيق لأن السادة حساسون الى أقصى حد . وأنا أوقن من أنهم عاجزون ، على الأقل بغير تمهيد ، عن احتمال منظر شخص غريب . فلو أننى تركتك تبيت هنا ، واكتشفت بطريقة المصادفة — والمصادفات دائماً فى صف السادة — فلن تكون النتيجة ضياعى أنا فحسب ، بل وضياعك أنت كذلك . ولقد يبدو هذا مضحكا ، ولكنه حقيقة .

كان هذا السيد الرفيع المتزمت ، الذى ضغط بإحدى يديه على الحائط ، ووضح الأخرى فى وسطه ، وصلب ساقيه ، وانحنى قليلا الى ك ، وتحدث اليه فى ود ، لا يكاد يبدو عليه الانتماء الى القرية ، وان كان ثوبه الاسمر لا يبدو الا ثوبا من التنوع الذى يرتديه الفلاحون فى المناسبات .
وقال ك :

— أنا أصدقك تماما ، وكذلك لا أقلل من شأن الأوامر وان كنت قد استعملت عبارات تفتقر الى الكياسة . ولكننى أريد أن ألفت نظرك الى شيء : ان لى علاقات لها قيمتها فى القصر ، وستكون لى مستقبلا علاقات أعظم قيمة ، وهى ستحميك من كل خطر قد ينشأ نتيجة مبيتى هنا ، وتضمن لك أننى قادر على الشكر كاملا غير ممنون على صنيح صغير تقدمه الى .

فقال صاحب الحان :

— أنا أعرف .

ثم عاد يقول :

— أنا أعرف هذا .

وكان من الممكن أن يلج ك فى طلبه ، ولكن اجابة صاحب الحان هذه شئت أفكاره ، ولهذا سأل فقط :

— هل يبيت الليلة هنا كثير من السادة ؟

فقال صاحب الحان يغريه على نحو ما :

— ان الوضع اليوم من هذه الناحية طيب ، فلم يبق هنا سوى سيد

واحد .

وظل ك عاجزا عن الالحاح ، وان ظل يرجو أن يكون صاحب الحان

قد قبله للمبيت ، ولهذا لم يسأل الا عن اسم السيد . فقال صاحب الحان

مقالة من يذكر شيئا ثانويا :

— كلم .

ونظر خلفه الى زوجته التى أتت ترتدى ثيابا قديمة مهلهلة على نحو

غريب ، كثيرة الثنيات ، والكشكشات ، من تلك الثياب ، الأنيقة التى

ترتديها نساء المدن . ولقد جاءت تطلب صاحب الحان ، لأن السيد الرئيس

كان يريد شيئا ما . وقبل أن ينصرف صاحب الحان ، التفت مرة أخرى

الى ك ، وكأنما كان القطع فى أمر المبيت من شأن ك ولم يعد من شأنه

هو . ولم يستطع ك أن يقول شيئا ، خاصة وأن وجود رئيسه هنا قد

أذهله . ولسبب ما ، لم يستطع أن يفسره لنفسه ، أحس ك أنه ليس

حرا فى مواجهة كلم كما كان فى مواجهة القصر . ولو اكتشفه كلم هنا

لما أدى هذا الى الرعب على النحو الذى تصوره صاحب الحان ، بل الى

سخف مؤسف ، وكان كمن يسبب باستهتاره ضرا لانسان ينبغى عليه

أن يقابله بالعرفان والشكر . وأحزنه أشد الحزن أن يرى وهو فى مثل

هذه الحيرة ما كان يخشاه من نتائج كونه تابعا عاملا وأن يتبين انه غير قادر

على التغلب عليها وقد بدت هنا واضحة جلية . وهكذا وقف ، وعض

شفتيه ولم يقل شيئا . وعاد صاحب الحان ينظر الى ك مرة ثانية قبل

أن يتوارى فى الباب . وتبعه ك بنظره ، ولم يتحرك من مكانه حتى أتت

أولجا وجرته بعيدا . وسألته أولجا :

— ماذا كنت تريد من صاحب الحان ؟

فقال ك :

— كنت أريد المبيت هنا .

فقالت أولجا مندهشة :

— ولكنك ستبيت عندنا .

فقال ك :

— نعم ، بكل تأكيد .

وترك لها مهمة تأويل الكلمات .

الفصل الثالث

كان هناك فى قاعة الشراب بالخان ، وهى حجرة كبيرة خالية الوسط تماما ، فلاحون يجلسون عند الحيطان الى براميل أو فوقها ، وكان هؤلاء الفلاحون يختلفون فى منظرهم عن الفلاحين الذين فى الخان الآخر حيث ينزل ك . كان هؤلاء أكثر نظافة وأكثر تشابها بما يلبسون من ثياب مصنوعة من قماش غليظ رمادى مائل الى الصفرة ، وكانت ثيابهم تتكون من سترة منفوخة وسراويل لاصقة بالسيقان . كان هؤلاء الرجال قصار القامة ، يبدون لأول وهلة متشابهين أكثر التشابه بوجوههم المنبسطة ذات العظام البارزة والحدود المستديرة . وكانوا جميعا هادئين ، لا يكادون يتحركون ، ولم يتابعوا الداخلين الا بنظرات أرسلوها فى بطاء وبلادة . ومع ذلك فقد أحدثوا ، لكثرتهم وهذوئهم ، تأثيرا ما على ك . فتناول من جديد ذراع أولجا ، ليبين على هذا النحو لهؤلاء الرجال سبب وجوده هنا . ونهض فى أحد الأركان رجل ، تعرفه أولجا ، وهم أن يتجه نحوها ، ولكن ك لفها بالذراع الذى كان يتعلق به ذراعها الى الناحية الأخرى . ولم يكن فى استطاعة انسان غيرها أن يلحظ ذلك ، ولقد سكنت عليه ونظرت الى جانب وهى تبتسم .

وكانت هناك فتاة اسمها فريدا هى التى تقدم البيرة الى الحاضرين ، وكانت فريدا هذه شقراء قصيرة القامة ، حزينة العينين هزيلة الحدين ، لا تجذب الانتباه ، ولكنها كانت تفاجئ الانسان بنظرة ذات تفوق خاص . وما أن وقعت هذه النظرة على ك ، حتى أحس كأنها أنجزت بهذه النظرة كل الأمور الخاصة به ، والتى لم يكن ك نفسه يعلم بوجودها ، ولكن النظرة كانت تقنعه بأنها موجودة . ولم يكف ك عن التطلع الى فريدا من الجانب حتى عندما كانت تتحدث مع أولجا . ولم يبد على أولجا وفريدا أنهما صديقتان ، فقد تبادلتا قليلا من الكلمات الفاترة . وأراد ك أن يحرك الحديث بشيء فسأل مباشرة :

— أتعرفين السيد كلم ؟

فانفجرت أولجا ضاحكة • وسأله ك غاضبا :

— لماذا تضحكن ؟

فقالت وهي تستمر فى الضحك :

— أنا لا أضحك •

فقال ك :

— لا تزال أولجا بنتا كثيرة العبث كالاطفال •

وانحنى فوق المنصة ليجذب نظر فريدا اليه مرة أخرى على نحو

شديد • ولكنها كانت تميل برأسها ، وقالت بصوت منخفض :

— أتريد أن ترى السيد كلم ؟

فرجاها ك أن تمكنه من ذلك • فأشارت الى باب الى يسارها مباشرة

وقالت :

— هنا ثقب صغير يمكنك أن تنظر من خلاله •

فسأل ك :

— وهؤلاء الناس هنا ؟

فمطت شفتها السفلى وجذبت ك الى الباب بيد ناعمة مقرطة النعومة •

وشمل ك بنظرته من خلال الثقب ، الذى يبدو أنه اتخذ لأغراض الملاحظة

والمراقبة ، الحجرة المجاورة كلها تقريبا •

كان السيد كلم يجلس الى مكتب فى وسط الحجرة ، فى كرسي وثير

مسديرة ، ينيره مصباح كهربائى منخفض انارة شديدة ، كان سيدها

متوسط الطول ، ممتلىء البدن ، ثقيل الظل • وكان وجهه لايزال ناعما ،

ولكن خذيه كانا يتدليان الى أسفل قليلا من أثر السن • وكان شاربه

الأسود يمتد الى الجانبين طويلا • وكانت هناك نظارة مركبة على أرنبة

أنفه ، مائلة ، تعكس الضوء ، وكانت توارى العينين • ولو جلس

السيد كلم الى المائدة يواجهها تماما ، لما استطاع ك أن يرى منه الا جانبه ،

ولكن كلم كان ملتويا ناحيته ، ولهذا رأى ك وجهه كاملا • كان السيد

كلم يركن مرفقه الأيسر على المائدة ، أما يده اليمنى التى كان يمسك بها

سيجارة فكانت ترتكن على ركبته • وكان هناك فوق المائدة كوب بيرة •

ولما كانت حافة المائدة عالية فإن ك لم يستطيع أن يرى على وجه الدقة هل

كانت هناك مطبوعات أو مكتوبات فوقها ، ولاحظ له المائدة خالية • على

أنه أثر الاطمئنان ، ورجا فريدا أن تنظر من خلال الثقب وتأتيه بالحبر

اليقين • ونظرا لأنها كانت فى الحجرة منذ قليل ، فقد استطاعت ، دون مشقة ، أن تؤكد له أنه لم يكن هناك على المائدة شئ من مطبوعات أو مكتوبات • وسأل ك فريدا هل ينبغى عليه أن ينصرف ، فقالت له انه يستطيع أن ينتظر ما شاء • وكان ك الآن وحده مع فريدا • لأن أولجا كانت ، على قدر ما تبين عابرا ، قد ذهبت الى الرجل الذى تعرفه ، وجلست على برميل وأخذت تطوح قدميها • وقال ك هامسا :

— يا فريدا ، هل تعرفين السيد كرم معرفة جيدة جدا ؟

فقالت :

— آه نعم • معرفة جيدة جدا •

ومالت الى جانب ك ، وأخذت تنظم بطريقة عابثة ، لففت نظر ك الآن ، بلوزتها الخفيفة ، ذات الفتحة الواسعة ، المصفرة اللون ، التى كانت تبدو غريبة على جسمها النحيل • ثم قالت :

— أتذكر ضحكك أولجا ؟

فقال ك :

— نعم ، البنت الشقية !

فقالت على سبيل التوفيق :

— آه ، لقد كان هناك سبب يدعو للصحك • لقد سألتنى هل أعرف كرم ، وأنا • •

وهنا اعتدلت قليلا فى غير ارادة منها ، ومرت نظرتها المظاهرة التى لا ترتبط بالكلام أى ارتباط من فوق ك ، ثم أكملت :

— وأنا عشيقته •

فقال ك :

— عشيقة كرم ؟

فاومأت برأسها • فقال ك مبتسما حتى لا يدع كثيرا من الجذ يقوم بينهما :

— اذن فأنت بالنسبة الى شخصية محترمة •

فقالت فريدا دون أن تتقبل ابتسامته :

— ليس فقط بالنسبة اليك •

وكان ك يمتلك وسيلة ضد تكبرها فاستعملها اذ سألها :

— هل كنت فى القصر ؟

فلم ترتبك لأنها أجابت :

— لا ، ولكن ألا يكفى أن أكون هنا فى قاعة الشراب ؟

ويبدو أن طموحها كان مسعورا وأنها كانت تريد أن تشفى غليله
فى ك • وقال ك :

— طبعاً هنا فى قاعة الشراب ، أنت تفهمين عمل الحمامة •
فقالت :

— بالضبط • ولقد بدأت بالعمل خادمة فى حظيرة حان الجسر •
فقال ك فيما يشبه التساؤل :

— بهاتين اليدين الناعمتين ؟

ولم يكن هو ذاته يعلم هل كان يتملقها أو كان بالفعل قد وقع تحت
سيطرتها • على أن يديها كانتا بالفعل صغيرتين رقيقتين • وإن كان فى
مقدور الانسان أن يقول انهما كانتا ضعيفتين تافهتين • وقالت :

— لم يلتفت الى ذلك أحد فى ذلك الوقت ، وحتى الآن ••

وتطلع إليها ك متسائلاً • ولكنها هزت رأسها ولم ترد الاستمرار
فى الكلام • فقال ك :

— إن لك بطبيعة الحال أسرارك ، ولا شك فى أنك لن تتكلمى عنها
مع شخص تعرفتى عليه منذ نصف الساعة ، ولم يؤت فرصة ليحكى لك
عن حاله •

لقد كانت تلك ملاحظة فى غير موضعها ، كما اتضح فيما بعد ،
لقد أيقظ بها فريداً من غفوة لم تكن فى صالحه • فتناوَلت من شنة
جلدية كانت تعلقها فى حزامها قطعة صغيرة من الحشب وسدت بها ثقب
الباب ، وقالت ل ك ، وهى تبذل جهداً واضحاً ، لكى لا يلاحظ أن تغييراً
طراً على فكرها :

— أما أنت فأنا أعلم كل شئ عنك ، أنت موظف المساحة •
ثم أضافت :

— والآن ينبغي على أن أذهب الى العمل •

وذهبت الى مكانها خلف مائدة الخدمة ، بينما نهض بعض الناس
هنا وهناك حاملين أكوابهم الفارغة الى فريدا يريدون أن تملأها لهم •
وكان ك يريد أن يعود الى الحديث معها على نحو لا يلفت النظر ، فأخذ
كوباً فارغاً من الرغف وذهب إليها ، وقال :

— ما زال هناك شيء أريد أن أسأل عنه يا آنسة فريدا • ان الارتقاء من خادمه فى حظيرة الى فتاة تقدم المشاريب فى حمارة ، كل شيء خارق للمألوف ، ويتطلب جهودا خاصة ، فهل يعنى هذا بالنسبة لانسان مثلك الوصول الى الهدف النهائي ؟ هذا سؤال أحق • ولكننى أرى فى عينيك — وأرجو ألا تسخرى منى — أن الغلبة ليست لنضال الماضى ، بقدر ماهى لنضال المستقبل • ولكن مقاومة العالم للانسان كبيرة ، وهى تزداد كبرا ، كلما كبرت الأهداف ، وليس من العيب أن يضمن الانسان المكافح مساعدة رجل صغير عديم النفوذ ، اذا كان هو كذلك مكافحا • وربما استطعنا ذات مرة أن نتحدث معا فى هدوء ، بعيدا عن هذه العيون الكثيرة التى تحملق فىنا •

وقالت :

— أنا لا أعرف ماذا تريد •

ولم تظهر فى نبرتها هذه المرة ، على غير ارادتها ، انحصارات حياتها ، بل ظهرت فيها أيضا ضروب خيبة لانهائية • وراحت تقول عاقدة يديها :

— هل تراك تريد أن تنتزعنى من كلم ؟ يا للسما !

قال ك ، وكأنه تعب من طول الريبة :

— لقد نفذت الى أعماقى ، ولقد كان هذا هو هدفى الذى أخفيت به أشد الاخفاء • عليك أن تهجرى كلم ، وأن تصبى عشيقتى • والآن يمكننى أن أنصرف •

ونادى ك :

— يا أولجا • هيا الى البيت •

وأطاعت أولجا ، وانزلت من فوق البرميل ، ولكنها لم تتخلص بسرعة من الأصدقاء الذين أحاطوا بها • وهنا قالت فريدا بصوت منخفض وهى تنظر نظرة تهديد الى ك :

— متى يمكننى أن أتكلم معك ؟

فسأل ك :

— هل يمكن أن أبيت هنا ؟

فقالت فريدا :

— نعم •

— هل يمكن أن أبقى الآن هنا ؟

— اذهب أولاً مع أولجا الى الخارج ، حتى أستطيع التخلص من الناس

هنا . ويمكنك أن تعود بعد هنيهة .

فقال لك :

— حسناً .

وانتظر ك أولجا نافذ الصبر . ولكن الفلاحين لم يتركوها ، تنصرف ،
لأنهم كانوا قد ابتكروا رقصة تدور حول أولجا . وكانوا يحيطون بها على
هيئة دائرية ، وكانوا يصدرون صيحة واحدة ، فيتقدم أحدهم الى أولجا ،
فيحيط خصرها بيده ويدور بها بضع مرات ، وكان دوران الراقصين
يشتد سرعة ، وكانت صيحاتهم المائعة ، المتحشجة تندمج معا شيئاً
فشيئاً فتكاد تصبح صيحة واحدة . أما أولجا ، التي كانت من قبل تريد
أن تخرج ضاحكة خارج الدائرة ، فكانت تتراجع بين هذا وذاك وقد تدلى
شعرها في كل ناحية . وقالت فريدا :

— انهم يبعثون الى هنا بعنق هؤلاء الناس !

وعضت في غضبها على شفتيها الرقيقتين . فسأل لك :

— ومن هؤلاء ؟

فقال فريدا :

— انهم خدمك كليم . لقد درج على اعضاء هؤلاء الناس الذين يسبب
لى وجودهم الاضطراب الشديد . انني لا أعرف ، يا سيادة ، موظفت
المساحة ، الكلام الذي قلته لك اليوم . فاذا كان ما قلته لك شيئاً قبيحاً
فأرجو أن تسامحني ، فان وجود هؤلاء الناس هو السبب . انهم أنزل
وامقت من عرفت ! وعلى مع ذلك أن أصيب البيرة في أكوابهم . ولكم
رجوت كلم ألا يأتي بهم ! فهل من واجبي أن أحتفل خدم السادة الآخرين ؟!
أكان يمكن أن يخفف عني ، ولكن رجائي لم يقد شيئاً ! انهم يندفعون ،
قبل قدومه بساعة ، الى هنا ، اندفاع البهائم الى الحظيرة . ولابد أن
يذهبوا الآن بالفعل الى الحظيرة التي ينتمون اليها . ولو لم تكن أنت
هنا ، لفتحت باب كلم عنوة ، ولكان على كلم أن يطردهم بنفسه .

فسأل لك :

— ولكن ألا يسمع ؟

فقال فريدا :

— لا ، انه نائم .

وصياحك :

— كيف هذا • تقولين إنه نائم ؟ ولكننى عندما نظرت الى الحجرة كان مستيقظا ، وكان يجلس الى المنضدة .

فقلت فريدا :

— إنه يجلس هكذا دائما • وعندما رأيته كان نائما • وهل كنت أدعك تنظر ، لو لم يكن نائما ؟ وهذا الوضع الذى رأيته هو الوضع الذى يتخذه عندما ينام • ان السادة ينامون كثيرا ، وهذا شيء لا يكاد الإنسان أن يفهمه • وهل كان يستطيع أن يحتمل هؤلاء الناس ، لو لم يكن قد نام كثيرا ؟ لابد أن أطردهم أنا الآن بنفسى •

وتناولت سوطا من أحد الأركان وقفزت قفزة واحدة عالية ، غير مطمئنة تماما ، وكأنها قفزة حمل صغير ، مندفع نحو الزواقيص • واتجهت فى بادئ الأمر نحوهم ، وكأنها كانت راقصة جليدية أنت اليهم ، وبدا عليها لحظة أنها توشيك أن تلقى السيوط بجانبها ، ولكنها رفعتها وصاحت :

— باسم كلم ، اذهبوا الى الحظيرة ! كلكم الى الحظيرة !

وتبينوا أن الأمر جد ، وشرعوا ، وقد تملكهم خوف لم يفهمه ك ، يندفعون الى المؤخرة ، وانفتح باب تحت ضغط أوائلهم ، فنفذ منهم هواء الليل ، واختفى الجميع مع فريدا ويبدو أنها كانت تدفعهم الى الحظيرة •

وسمع ك وسط السكون الذى خيم فجأة وقع خطي في المدخل • وقفز الى بعيد يلتمس على نحو ما شيئا من الأمن ، فاختفى وراء منضدة الخدمة وكانت تلك هى الإمكانية الوحيدة للاختفاء • حقيقة أنه لم يكن ممنوعا من البقاء فى قاعة الشراب ، ولكنه كان يريد أن يبيت هنا ، ولهذا كان يتحاشى أن يراه إنسان • فما أن انفتح الباب ، حتى انزلق تحت المنضدة • ولم تكن هناك خطورة فى اكتشافه هناك ، ولو تغلل بأنه اختفى من الفلاحين الذين استترسوا فى الضحى والعنف ، لما كان تغلله بعيدا عن التصديق • وكان القادم هو ضاحب الحان الذى صياح :

— يا فريدا •

وأخذ يقطع القاعة جيئة وذهابا عدة مرات •

ومن حسن الحظ أن فريدا أتت بعد قليل ولم تشم الى ك بشئ بل اشتكت من الفلاحين فقط ، وذهبت وراء المنضدة بحثا عن ك • واستطاع

ك أن يلمس قدمها ، وأحس عند ذاك بالأمن . ولما لم تشر فريدا الى ك
انتهى الأمر بصاحب الحان الى أن سأل هو عنه قائلا :

— وأين موظف المساحة ؟

وكان صاحب الحان بصفة عامة رجلا مهذبا اكتسب أدبا رقيقا من
مخالطته المستمرة الحرة لأصحاب الرتب الرفيعة ، ولكنه كان يتكلم مع
فريدا على نحو يتسم بمزيد من الاحترام ، وكان هذا الأسلوب يلفت النظر
لأن صاحب الحان كان صاحب العمل وكانت فريدا عاملة ، عاملة ممتازة
يجرة لا مراة فيها . وقالت فريدا :

— لقد نسيت موظف المساحة تماما .

ووضعت قدمها الصغيرة على صدر ك . وأكملت :

— لا بد أنه انصرف منذ مدة طويلة .

وقال صاحب الحان :

— ولكننى لم أره ، ولقد كنت طوال الوقت تقريبا فى المدخل .

وقالت فريدا ببرود :

— انه ليس هنا .

فقال صاحب الحان :

— لعله اختبأ . وإن الانطباع الذى أحدثه فى يجعلنى أتوقع منه

مثل هذه الأعمال .

وقالت فريدا :

— لا أظن أن لديه مثل هذه الجرأة .

وضغطت فريدا بقدمها على ك ضغطا أكثر شدة . لقد كان فى

كيانها شيء من المرح والانطلاق لم يلحظه ك من قبل . وما هو ذا يتجاوز

بها الحد بشكل خارق للمألوف فتقول فجأة ضاحكة :

— لعله يكون مختبئا هنا تحت المتضيدة !

وانحنى الى ك ، وقبلته قبلة عابرة ثم هبت واقفة وقالت آسفة :

— لا ، انه ليس هنا !

وكذلك صاحب الحان تصرف على نحو يثير الدهشة عندما قال :

— اننى متضايق جدا لأننى لا أعرف على وجه اليقين هل انصرف أم

لم ينصرف . فليست المسألة مسألة السيد كلم فجنب ، بل مسألة

الأوامر كذلك . والأوامر تشملك أنت أيضا يا آنسة فريدا كما تشملنى .
أنت مسئولة عن قاعة الشرب ، أما أنا فسأفتش بقية البيت . تصبحين
على خير . وأتمنى لك نوما هادئا .

ولم يكن صاحب الحان قد غادر القاعة بعد عندما أطفأت فريدا النور
الكهربى وذهبت الى ك تحت المنضدة . وقالت هامسة :

- حيبى ! حيبى الحلو !

ولكنها لم تلمس ك ، بل رقدت على ظهرها ، وكأنها أغفى عليها
من فرط الحب ، وبسطت ذراعيها ، فلا شك أن الوقت كان يبدو أمام
حبها السعيد طويلا طويلا لا نهاية له ، وأطلقت زفرات كانت أقرب الى
التنهد منها الى التغنى بأغنية صغيرة . ثم هبت مذعورة لأن ك ظل ساكنا
يفكر ، وشرعت تشده كما يفعل الأطفال ، وقالت :

- هيا بنا ! اننا نكاد نخنق هنا أسفل المنضدة !

وتعانقا ، وكان الجسم الصغير يحترق فى يدى ك ، وتدحرجا فى
غيبوبة حاول ك دائما أن ينجو بنفسه منها دون أن يتمكن ، تدحرجا بضغ
خطوات ، وارتطما ارتطاما مكتوما بباب كلم ، ووقدا فيما وقع على الأرض
من بقايا البيرة وغيرها من قاذورات . ومزت ساعات ، ساعات من التنفس
المشترك ، والنبض المشترك ، كان ك خلالها يحس بأنه يضل السبيل
أو أنه يتوغل فى الغربة توغلا لم يحدث لانسان من قبل ، يتوغل فى
غربة ليس فيها ما يشبه الوطن حتى الهواء فيها كان غريبا ، يكاد الانسان
من فرط غربته أن يخنق فيه . ولم يستطع ك من فرط المغريات
المجنونة أن يفعل شيئا أكثر من الاستمرار فى السير ، الاستمرار فى
الضلال . وهو لهذا لم يحس فى بداية الأمر بالفرع ، بل أحس بغشاوة
تحيطه بالسلى ، حتى جاءه صوت عميق ، فيه نبرة الأمر ونبرة
الاستهتار معا ، من حجرة كلم ينادى على فريدا . فتلقف ك الصيحة
وتقفها الى أذن فريدا قائلا :

- يا فريدا .

وهبت فريدا أن تهب ملبسة تستجيب فى ذلك لطاعة غريزية
شكلىة فى ذاتها ، ولكنها ما لبثت أن فكرت وتذكرت أين هى ، وتمددت ،
وضحكت فى سكون وقالت :

- لن يخطر ببالى أن أذهب اليه ، لن أذهب اليه أبدا .

وأراد ك أن يعترض على كلامها ، وأن يدفعها الى الذهاب الى كلم ،

وشرع يبحث عن بقايا قميصها ، ولكنه لم يستطع أن يقول شيئا ، فقد كان سعيدا غاية السعادة لامتناحه بفريدا بين يديه ، ولكنه كان سعيدا وخائفا معا ، لانه كان يتصور أن فريدا اذا ضاعت منه ، فسيضيع منه كل شيء لديه . وكأنها ازدادت فريدا بموافقة ك قوة ، فقبضت يدها ، وضربت بالقبضة على الباب وصاحت :

— أنا مع موظف المساحة ! أنا مع موظف المساحة !

وهنا لزم كلم السكون . ولكن ك نهض وركب بجوار فريدا ونظر اليها في ضوء الفجر المضطرب . ماذا حدث ؟ أين كانت آماله ؟ ماذا كان في استطاعته أن ينتظره من فريدا بعد ما انكشف كل شيء ؟ لقد ظل ليلة بطولها يتقلب هنا في بقايا البيرة على الأرض — وان رائجتها لتدور الآن بعقله — بدلا من أن يلتزم بالخير على قدر ضخامة العدو وضخامة الهدف . وقال بصوت خفيض :

— ماذا فعلت ؟ لقد ضعنا أنت وأنا .

وقالت فريدا :

— لا ، أنا وحدي التي وضعت . ولكنني كميتك . كن هادئا .
وانظر الآن كيف يضطرب الاثنان .

وقال ك :

— من ؟

والتفت خلفه . كان مساعده يجاسان على المنضدة ، وقد بدا عليهما السهر ، ولكنهما كانا فرحين . كان مرجهم هذا هو المرج الذي ينبع من تأدية الواجب باخلاص . وصاح ك فيهما وكأنهما كانا مسئولين عن كل شيء :

— ماذا تريدان هنا ؟

وبحث حوالبه عن السوط الذي كان مع فريدا في الليلة الماضية .
وقال المساعدان :

— كان عليتنا أن نبحث عنك لأنك لم تنزل إلينا في قاعة الحان .
ولقد بحثنا عنك عند برناباس وأخيرا وجدناك هنا . ولقد جلسنا هنا طوال الليل . فليست الخدمة بالأمر السهل .

فقال ك :

— انني أحتاج اليكم بالنهار ، لا بالليل . اغربا عنى .

ولكنهما قالا دون أن يتحركا :

— والوقت تهاز .

وكان الوقت بالفعل نهارا ، وانفتح ياب الفناء ، واندفع الفلاحون داخلين ومعههم أولجا التي كان ك قد نسيها تماما . كانت أولجا نشيطة كما كانت بالليل على الرغم من سوء حال ملابسها وشعرها . وما أن دخلت بالباب حتى بحثت عيناها عن ك ، وقالت والدموع تكاد تنهمر من مآقيها :

— لماذا لم تذهب معي الى البيت ؟

ثم قالت :

— من أجل بنت كهذه !

وكررتها مرارا . كانت فريدا قد اختفت لحظة ، واذا هي تعود معها صرة صغيرة بها بعض الملابس . وانتحت أولجا جانبا وقد تملكتها الحزن . وقالت فريدا :

— والآن يمكننا أن نذهب .

كان من البديهي أنها تعنى بالذهاب الى جان الجسر . وسار الركب : ك وفريدا وخلفهما المساعدان . وأظهر الفلاحون كثيرا من الاحتقار لفريدا ، وكان هذا شيئا بديها ، لأنها كانت حتى تلك اللحظة تسيطر عليهم . بل ان أحد الفلاحين تناول عصا وتظاهر بأنه يريد أن يمنعها من الانصراف الا أن تقفز من فوق العصا . ولكن نظرة منها كانت كافية لابعاده . وتنفس ك ملاء رثته في الخارج حيث الجليد . ولقد كانت سعادته بالمكان الطلق كبيرة مكنته من احتمال صعوبة الطريق وحده في هذه المرة . ولو كان ك وحده ، لسار أفضل من الآن . فلما وصل الى جان الجسر ذهب من فوره الى حجرته وركب في سريره ، وأعدت فريدا قريبا منه فراشا لها على الأرض . وكان المساعدان قد دخلا الحجرة ، فأخرجهما ك منها ، فعادا من خلال النافذة ، ولم يستطع ك لفرط تعبهما أن يطردهما مرة أخرى . وأنت صاحبة الحان خصيصا لتحية فريدا التي نادتها « أماء » ، وكانت التحية القلبية مصحوبة بقبلات وعناق طويل لم يفهم ك من أمرها شيئا . ولم يكن الهدوء في الحجرة الصغيرة هدوءا بمعنى الكلمة ، فكثيرا ما كانت الحادمتان تآتيان وتحسدان ضجة بأحذيتهم الرجالية الطويلة الثقيلة ، تريذان اما احضار شيء أو أخذ شيء . واذا

كانتا تحتاجان الى شئ من الأشياء الكثيرة المختلفة التى تكدست على سريرك ، فقد كانتا تشدانه من تحته دون مراعاة له • وكانت الخادمتان تحيان فريدا تحية الند للند • وعلى الرغم من هذا الصخب فقد لزمك السرير طوال النهار والليل • وكانت فريدا تعينه على الحاجات البسيطة • فلما نهض فى الصباح التالى أخيرا وقد انتعش كل الانتعاش ، كان ذلك هو اليوم الرابع فى إقامته بالقريّة •

الفصل الرابع

كان ك يود أن يسر الى فريدا يحدث ، ولكن المساعدين - وكانت فريدا تمزح وتضحك معهما أحيانا - كانا يعوقانه عن ذلك بوجودهما الذى يفرضانه فرضا • والحقيقة أنهما كانا يكتفيان بالقليل ، فقد جلسا على جلبابين قديمين من جلبيب النساء فى ركن من أركان الحجرة على الأرض • وكان ههما ، كما قال لفريدا ، ألا يقلقا السيد موظف المساحة ، وألا يشغلا الا أقل مكان ممكن ، وكانا يقومان من أجل هذا الهدف - بطبيعة الحال وهما يهمسان ويضحكان ضحكا مكتوما - بمحاولات مختلفة لضم أذرعهما وسيقانهما ، حتى تكورا معا ، ولم يكن ك يرى الا كرة كبيرة فى ظلام أحد الأركان • ومع ذلك فقد كان ك يعلم من خبراته فى وضح النهار ، أنهما يجيدان الملاحظة ، وأنهما دائما يحملقان فى ك ، فيصطنعان لعب الصبية ، وينظران من خلال أيديهما وكأنهما منظار مقرب أو ما شابه ذلك من اللعب ، أو يحملقان فيه ويلوحان كأنهما يصلحان من لحيتيهما وكانا يهتمان بهما اهتماما كبيرا ويقارنان بينهما مرات لا حصر لها من حيث الطول والكثافة ، ويحتكمان الى فريدا •

وكثيرا ما كان ك ينظر من سريره الى ما يفعله الثلاثة ولا يحفل به مطلقا •

فلما أحس بأنه أوتى من القوة ما يمكنه من مفادرة الفراش ، أسرع الجميع اليه لخدمته • ولكنه لم يكن قد بلغ من القوة ما يمكنه من رفض خدماتهم ، ولاحظ أنه انتهى بهذا الى نوع ما من التبعية اليهم ، يمكن أن تؤدى الى عواقب وخيمة ، ولكنه كان مضطرا الى ترك الأمور تسير سيرها • ولم يكن من المستقبخ على أية حال أن يجلس الى مائدة ويتناول قهوة جيدة أحضرتها فريدا ، ولا أن يتدفأ الى المدفأة التى حمتها فريدا ، ولا أن يرسل المساعدين المتجسنين المتعثرين صاعدين تازلين الدرج ليحضروا الماء والصابون والمشط والمرآة ، ثم ليحضروا كأسا صغيرة من خمر الروم طلبها ك بصوت منخفض ولكنه مفهوم •

وقال ك فى غمرة هذه الأوامر والخدمات ، يحفره المزاج المعتدل أكثر
مما يحفره الأمل فى النجاح :

- اذهبا الآن ، اذهبا كلاكما ، لم أعد الآن فى حاجة اليكما ، وأريد
أن أتكلم وحدى مع الآنسة فريدا .

فلما لم ير على وجهيهما مقاومة واضحة ، قال لهما على سبيل
التعويض :

- وسينذهب نبحى الثلاثة بعد ذلك لرئيسى مجلس القرية ، فانتظرانى
تحت فى القاعة . ومن الغريب أنهما انصاعا لأمره ، وإن قالا قبل أن
ينصرفا :

ب من الممكن أن ننتظر هنا .

وأجاب ك :

- أنا أعرف هذا ، ولكنى لا أريد .

وتفهما يق ك - أو الملك استجسنا على نصوصها غرغندنا جلست فريدا
على حجره بعد خروج الصاعدين مباشرة ، وقالت له :

- فيم غضبك يا حبيبى من السلعةين ؟ لا يتبقى أن يكون لنا أسرار
نخفيها عليهما . أنهما مختلفتان .

فقال ك :

- آه مختلفتان ! أنهما مختلفتان فى دائما ، وهذا شئ سخيف ،
ولكنه شئ بشيع .

فقالت :

- أظن أننى أنهمك .

وتعلقت بمرقبته ، وأرادت أن تقول شيئا ولكنها لم تستطع الاستمرار
فى الكلام . ولما كان الكرسى مجاورا للسريير فقد مالا ناحية وانقلبا فيه .
وهاهما هذان يرتقدان ولكنهما لم يكونا مستسلمين كما كانا بالليل . كانت
هى تبحث عن شئ ، وكان هو يبحث عن شئ ، فى عنف ، وكل منهما
يعقص أسأريزه ، ويدس رأسه فى صدر الآخر ، كانا يبحثان ، وكان
عناقهما ، وكان جسماهما المضطربان لا يجعلانهما ينسيان واجبهما ،
واجب البحث ، بل يذكرانهما به . كان ينشئان فى جسميهما ، كما
تنبش الكلاب اليااسة فى الأرض . وكانا يمزان بلسانيهما كل وجهه

الآخر التماسا لسعادة أخرى في يأسهما وعجزهما • حتى أسكنهما التعب وجعلهما يحسان بالامتتان أحدهما حيال الآخر • وصعدت الخادمتان اليهما ، وقالت احدهما للأخرى :

— أنترى كيف يرقدان !

وألقت عليهما ملاءة رافعة منها بهما •

فلما تخلص فيهما بعد من الملاءة ، ونظر حواليه ، وجد — ولم يدهش هو لما وجد — المساعدين قد عادا إلى ركنتهما ، وكان كل منهما يحض صاحبه ، وهو يشير بأصبع إلى ك ، على الحد ، وأداء التحية الواجبة • وكانت هناك كذلك ، صاحبة الحان تجلس ملتصقة بالسريير ، وتوفى جوربا ، وهو عمل صغير لم يكن يتناسب الا قليلا مع جسمها الهائل الذى أوشك أن يظلم الحجرة • وقالت وهى ترفع وجهها الذى ارتسمت فيه طيات الشيخوخة وان ظل فى مجموعته كتلة منبسطة ، ولعله كان فى زمانه وجها جميلا :

— اننى أنتظر منذ وقت طويل •

كانت كلماتها تحمل نغمة اللوم ، وكان لوما فى غير موضعه لأن ك لم يطلب اليها أن تأتى • ولهذا فقد أكد كلماتها بهزة من رأسه فقط ، ثم اعتدل فى الجلوس • وكذلك نهضت فريدا • وتوكلت ك واستندت إلى كرسي صاحبة الحان • وقال ك وهو يهوش الفكر •

— ألا يمكن تأجيل هذا الذى تريد السيدة صاحبة الحان قوله لى ، حتى أعود من عند رئيس مجلس القرية ؟ فهناك حديث هام أريد اجراءه هناك ؟

فقالت صاحبة الحان :

— هذا الحديث أكثر أهمية ، صدقنى ، يا سيادة موظف المساحة • ويبدو أن الأمر هناك أمر عمل ، أما الأمر هنا فأمر إنسان أمر فريدا ، خادمتى العزيزة •

فقال ك :

— آه ! طبعاً ! ولكنى لا أعرف لماذا تترك هذه المسألة لنا نحن •

فقالت صاحبة الحان :

— السبب هو الحب ، والاهتمام •

وجذبت رأس فريدا إليها ، وكانت فريدا وهي واقفة ، لا تصل
إلا إلى كتف صاحبة الحان وهي جالسة . وقال ك :

— ما دامت فريدا تثق فيك هذه الثقة ، فلا يمكن إلا أن أقف منك
نفس الموقف . ولما كانت فريدا قد قالت منذ قليل إن المساعدين
مخلصان ، فنحن إذن أصدقاء فيما بيننا . ولهذا يمكنني أن أقول لك ،
يا سيدتي صاحبة الحان ، أنني أعتقد أن أفضل شيء هو أن نتزوج ، فريدا
وأنا ، وفي أقرب وقت . وأنا للأسف لن أستطيع أن أعوض فريدا
عما فقدته يسمى ، أعني وظيفتها في حان السادة ، وصداقتها للكلم .

ورفعت فريدا وجهها وكانت عينها مليئين بالدموع ، ولم يكن
فيهما أي تعبير عن الانتصار .

وقالت :

— لماذا أنا بالذات ؟ لماذا وقع الاختيار على أنا بالذات ؟

وسأل ك وصاحبة الحان معا :

— ماذا تعنين ؟

وقالت صاحبة الحان :

— انها ، الطفلة المسكينة ، مرتبكة ! مرتبكة لالتقاء كثير من
السعادة مع كثير من التعاسة . وكأنما أردت فريدا أن تؤكد هذه الكلمات
فارتمت على ك وقبلته بعنف وكأنها لم يكن في الحجرة غيرهما ، ثم خرت
أمامه تبكي ، وتعانقه ، وهي راكعة . وبينما أخذ ك يدانها شعر فريدا
بيديه ، سأل صاحبة الحان :

— يبدو أنك ترين أنني على حق ؟

فقالت صاحبة الحان :

— أنك رجل شريف .

وكانت الدموع تحبس صوتها هي الأخرى ، وكانت تبدو واهنة
قليلا وتتنفس بصعوبة . ومع ذلك فقد وجدت لديها القوة لتقول :

— لا بد من التفكير الآن في الضمانات التي ينبغي أن تقدمها إلى
فريدا ، فانت ، على الرغم من احترامي الكبير لك ، رجل غريب ، لا يمكنك
أن تستشهد بأحد ، وظروفك العائلية غير معروفة هنا . ولهذا فان

الضمانات ضرورية ، وهذا شيء لا شك فى أنك تقدره ، يا سيادة موظف
المساحة ، ولقد أوضحت أنت نفسك مانقده فريدا نتيجة لعلاقتها بك .
وقال ك :

— بكل تأكيد . ضمانات ! بطبيعة الحال ! والأفضل تقديمها أمام
الموثق ، وربما تدخلت كذلك ادارات رسمية أخرى . ولكن هناك شيء
لا بد أن أنهيه قبل الزواج . لا بد أن أتكلم مع كلم .
فقالت فريدا :

— هذا محال !

ونهضت قليلا وضغطت نفسها قليلا الى ك ثم أضافت :
— يا لها من فكرة !

وقال ك :

— لا بد ! وإذا استحال على أن أقوم أنا بهذا ، فعليك أن تقومى
لى به .

وقالت فريدا :

— أنا لا أستطيع ، يا ك ، أنا لا أستطيع . لن يتكلم كلم معك أبدا .
وسأل ك :

— فهل يتكلم معك أنت ؟

فقالت فريدا :

— لا ! لا معك ولا معى ، هذه أمور مستحيلة استحالة تامة .

والتفت الى صاحبة الحان وقد بسطت ذراعيها وقالت :

— أترين يا سيدتى صاحبة الحان ماذا يطلب !

وقالت صاحبة الحان وقد أصبحت هيئتها مفرقة بعد أن اعتدلت
فى جلستها وباعدت بين ساقيهما وأبرزت ركبتها الضخمتين من الثوب
الرقيق :

— انك لعجيب الشأن ، يا سيادة موظف المساحة .

وسأل ك :

— ما هى علة الاستحالة ؟

وقالت صاحبة الحان :

— سأشرح لك .

وكانت نبرة صوتها تدل على أن هذا الشرح ليس آخر جميل تصنعه بل أول عقوبة تقدمها . قالت :

— سأشرح لك . حقيقة أنني لا أُنتمي الى القصر ، واننى لست
الا امرأة ، ولست الا صاحبة حان ، حان ضييع — وهو ليس وضيعا ،
ولكنه يوشك أن يكون وضيعا — ولعلك لهذا تقلل من شأن شرحى ،
ولكننى كنت فى حياتى يقظة مفتحة العينين ، ولقد خالطت الكثيرين ،
وحملت عبء الحان كله على كاهلى ، لأن زوجى ، وإن كان انسانا طيبا ،
ليس صاحب حان ، ولن يفهم أبدا معنى المسئولية . وأنت على سبيل
المثال مدين لاهماله — فقد كنت وأنا فى مساء ذلك اليوم خائرة القوى
أكاد أقع من فرط الاجهاد — بأنك الآن فى القرية ، وبأنك تجلس فى
السريـر هنا فى سلام وأمان .

رسأل ك وقد استيقظ من نوع لتشتت الذى كان قد تملكه وانفعل
من فرط الفضول أكثر مما انفعل من الغضب :

— كيف هذا ؟

فصاحت صاحبة الحان مرة أخرى وهى ترفع السبابه فى وجه ك :

— أنت مدين لاهماله وحده دون غيره .

وحاولت فريدا أن تهدئها . فقالت صاحبة الحان بحركة سريعة من
جسمها كله :

— ماذا تريدین ؟! لقد سألتنى السيد موظف المساحة ولابد أن
أجيب . والا كيف يفهم أمرا بديها لدينا ، وهو أن السيد كلم لن يكلمه
أبدا ، وأنا أقول لن يكلمه وينبغى أن أقول لن يستطيع أن يكلمه أبدا .
أسمع يا سيادة موظف المساحة ؟! ان السيد كلم سيد من القصر ، وهذا
فى حد ذاته يعنى ، بغض النظر عن وظيفة كلم الأخرى ، أنه رفيع الرتبة .
فمن أنت يا من تطلب بتواضع موافقتك على الزواج ؟ أنت لست من
القصر ، وأنت لست من القرية ، أنت لست شيئا . ولكنك للأسف مع
ذلك شيء ، أنت غريب ، أنت شخص زائد ، شخص فى الطريق ، شخص
تنشأ بسببه المتاعب ، شخص تخرج الحادمتان بسببه من حجرتهما ،
شخص لا نعرف نواياه ، شخص يقوى صغيرتنا العزيزة الحبيبة فريدا

ولا نستطيع أن نعطيه إياها زوجة • وأنا لا أوجه إليك اللوم فى الحقيقة بسبب هذا كله • أنت كما أنت • ولقد رأيت من قبل فى حياتى الكثير ، وأصبح فى استطاعتى أن أحتمل مثل هذا المنظر • ولكن تصور ماذا تطلب ! انك تطلب أن يكلمك رجل مثل كلم ! لقد سمعت فى ألم أن فريدا تركتك تنظر من ثقب الباب ، انك ، عندما فعلت هى ذلك ، كنت أنت قد أغويتها • فقل لى كيف احتملت منظر كلم ؟ لا ينبغي أن تجيب ، فأنا أعرف ، لقد احتملته جيدا جدا • فليس فى مقبورك أن ترى كلم فعلا ، وليس هذا غرورا منى ، فأنا نفسى لا أستطيع أن أراه • وأنت تقول انك تريد أن يتكلم كلم معك • انه لا يتكلم مع أهل القرية ، ولم يحدث قط أن تكلم مع أحد من القرية • ولقد نالت فريدا امتيازاً عظيماً ، امتيازاً سائلاً أفخر به حتى مماتى ، وهو أنه على الأقل اعتاد على أن ينادى اسمها ، وأنها كانت تستطيع أن تحدثه ما شاءت ، وأنها تلقت التصريح بثقب الباب ، ولكنه لم يتكلم معها • أما انه كان أحيانا ينادى فريدا ، فلا يعنى بالضرورة أنه كان يود الحديث إليها ، كل ما فى الأمر أنه كان ينادى اسم فريدا - وأين هذا الذى يعرف نواياه ؟ - وأما أن فريدا كانت تأتى بسرعة ، فهذا شأنها - وإذا كان لا يعترض على دخولها ، فما هذا الا لطيبته ، ولا يمكن لانسان أن يؤكد انه كان يناديها بمعنى الكلمة • ولقد انتهى هذا الذى كان الى الأبد ، انتهى نهائياً بطبيعة الحال ، وربما ظل كلم يهتف باسم فريدا ، هذا ممكن ، ولكنها ، البنت التى استسلمت لك ، لن يسمح لها بكل تأكيد بأن تدخل اليه • وهناك شيء لا أستطيع أن أفهمه برأسى المسكينة ، وهو أن بنتا ، يقولون عنها انها عشيقة كلم - وأنا شخصياً أعتبر هذه مبالغة شديدة - تدعك تلمسها مجرد اللمس -

فقال ك :

- هذا شيء عجيب عجيب بكل تأكيد !

وأجلس ك فريدا على حجره ، فانصاعت لذلك على الفور وان طأطأت رأسها • ثم راح يقول :

- ولكن هذا يثبت ، على ما أعتقد ، أن الأمور لا تسير كلها على النحو الذى تعتقدن أنها تسير عليه • فأنت مثلاً على حق فى قولك اننى بالقياس الى كلم لا شيء ، وإذا طلبت الآن أن أتكلم مع كلم ، ولم أراجع عن ذلك حتى رغم شروحك ، فليس معنى ذلك اننى أستطيع أن أحتمل منظر كلم بدون باب يفصل بيننا ، أو اننى لن أجرى خارجاً من الحجرة عند ظهوره • ولكن مثل هذا الخوف ، وإن كان له ما يبرره -

لا يعتبر في نظري سببا يمنعني من أن أجازف • فإذا تمكنت من أن أصمد له ، فلن تكون هناك ضرورة لكي يتكلم معي ، يكفي أن أرى الانطباع الذي تحدثه فيه كلماتي ، فإذا لم تحدث كلماتي انطباعا ، أو إذا لم يصنع اليها ، فقد كسبت شيئا وهو أنني تكلمت بحرية أمام واحد من أولى السلاطين • أما أنتما - أنت يا سيدتي صاحبة الحان بمعرفتكم العظيمة بالحياة والناس ، وأنت يا فريدا يا من كنت حتى أمس عشيقة كلم • • • • • ولست أرى سببا في التخلي عن كلمة عشيقة • • فيمكنكما بكل تأكيد أن تدبرا لي بسهولة فرصة الحديث مع كلم • وإذا لم تعرض طريقة أخرى لذلك إلا طريقة اللقاء في حان السادة ، فلا بأس ، ولعله لا يزال اليوم كذلك هناك •

وقالت صاحبة الحان :

- هذا محال ! وانتي لأرى أنك تفتقر الى القدرة على الفهم • ولكن قل لي عم تريد أن تتكلم معه ؟

فقال ك :

- عن فريدا بطبيعة الحال •

وتساءلت صاحبة الحان :

- عن فريدا ؟

« اتجهت الى فريدا وهي لا تصيب فهما :

- أسمع يا فريدا ، انه يريد أن يتكلم عنك مع كلم ! هو يتكلم

مع كلم !

فقال ك :

- آه ! انك يا سيدتي صاحبة الحان امرأة حاذقة ، تبشئ على الاحترام ، ولكنك تفرعين لكل صغيرة • انني أريد أن أتكلم معه عن فريدا ، وهذا شيء ليس بالهائل ، بل هو شيء بيدي • لأنك تخطئين إذا اعتقدت أن فريدا أصبحت عديمة الأهمية في نظر كلم ، منذ اللحظة التي ظهرت أنا فيها • انك تقللين من شأنه إذا ظننت هذا • انني أحس تمام الاحساس ، بأنني أتجاوز الحدود ان أنا أردت أن أعلمك شيئا في هذا الصدد ، ولكنني مضطر لذلك • لا يمكن أن تكون علاقة كلم بفريدا قد تغيرت بسببي • فاما أنه لم تكن هناك بينهما علاقة جوهرية - وهذا ما يقوله أولئك الذين يشرفون فريدا باسم عشيقته - فهي اليوم ليست

قائمة كذلك ، وإما أنه كانت هناك علاقة ، ولا يمكن فى هذه الحالة أن
تضطرب بسببى ، لأننى كما قلت ، والصواب فى جانبك ، لا شيء فى
نظر كلم . هذه أشياء يظنها الانسان فى اللحظة الأولى لفزعها ظنا ، ولكنه
عندما يفكر أقل تفكير ، لا يلبث أن يردّها الى الصواب . ولندع فريدا
تقول رأيها فى هذا .

وقالت فريدا وقد سبحت بنظرها الى بعيد ، ووضعت خدها على
صندرك .

— ان الأمر بكل تأكيد كما قالت الأم ، ان كلم لم يعد يريد أن
يعرف عنى شيئا . وليس السبب فى ذلك بطبيعة الحال هو أنك ،
يا جيبى أتييت ، فهذا أمر لا يمكن أن يهزه . لكنى أعتقد أن لقاءنا تحت
منضدة الحديقة كان من عمله ! تباركت تلك الساعة ولا لعنت !

كانت كلمات فريدا حلوة ، فأغمضت عينيه لحظات ليدع هذه
الكلمات تتغلغل فيه ، ثم قال ببطء :

— اذا كان الأمر كذلك ، وإذا كان الأمر على هذا النحو ، فهذا ادعى
الى ألا يكون هناك سبب للخوف من محادثة كلم .

فكانت صاحبة الحان وهى تنظر الى ك من أعلى الى أسفل :

— حقا ! انك تذكرنى أحيانا بزوجى ! انه عنيد وفج مثلك ! لم
يمض عليك فى المكان الا بضعة أيام ، وتدعى أنك تعرف كل شيء أجس
من أهله ، أحسن منى أنا المرأة المسنة ، ومن فريدا التى رأت وسمعت
الكثير فى حان السادة ! وأنا لا أنكر أن الانسان يستطيع أحيانا أن يحقق
شيئا ضد اللوائح وضد التقاليد القديمة ، ولكننى لم أشهد شيئا من هذا
القبيل ، هناك أمثلة على ذلك ، هذا محتمل . ولكن الانسان حتى فى
هذه الحالة ، لا يمكن أن يصل عن هذا الطريق الذى تسلكه أنت اذ تقول
دائما « لا » « لا » ، ولا تعتمد الا على مخك ، وتضرب صفحا عن النصائح
التي تصدر عن أطيب نية . فهل تظن أننى مهتمة بك ؟ هل اهتمت
بك عندما كنت بمفردك ؟ ولو أننى فعلت ذلك لكان خيرا ولجنبتك بعض
الأشياء . الشيء الوحيد الذى قلته انذاك بشأنك قلته لزوجى . لقد
قلت له : « ابتعد عنه ! » وكان الأخرى بى أن أفعل ذلك أنا الآن ، ولكن
فريدا جرتنى الآن الى مسألة يقوم عليها مصيرها . وأنت مدين لفريدا —
سواء أعجبك هذا أم لم يعجبك — بأننى أبدى لك اهتماما واحتراما .
وليس من حقك أن تطردنى بكل بساطة ، لأنك مسئول أمامى مسئولية

قاسية ، لأننى الوحيدة التى ترعى فريدا الصغيرة رعاية الأم الأولادها .
 من الممكن أن تكون فريدا على حق ، من الممكن أن يكون كل ما جرى
 يكون مشيئة كليم ، ولكنى لا أعرف عن كلم شيئا الآن ، وأنا لن أتكلم معه
 أبدا ، فوضولى إليه محيال ، أما أنت فجللس هنا ، وتحتجز عزيزتى
 فريدا ، وأنا كذلك - ولماذا أخفى عليك هذا ؟ - أحتجزك . نعم ، أنا
 أحتجزك . وما عليك إلا أن تحاول ، أيها الشاب ، إذا أخرجيك من
 البيت ، أن تجد سكنا فى أى مكان بالقرية ، حتى ولو فى عشة من عيشين
 الكلاب .

فقال ك :

- شكرا ، وهذه كلمات صريحة ، وأنا أصدقك تماما . إذن فوضعى
 يفتقر الى الاطمئنان كل الافتقار ، ووضع فريدا مرتبط كذلك بوضعى .

فقاطعت صاحبة الحان صائحة فى غضب :

- لا ، ان وضع فريدا لا علاقة له فى هذه الناحية بوضعك .
 ففريدا تقتضى الى بيتى ، وليس لانسان الحق فى أن يقول ان وضعها
 يفتقر الى الاطمئنان .

فقال ك :

- حسنا . حسنا . أنا أقر لك بأنك على حق فى هذا ، خاصة وأن
 فريدا ، لأسباب لا أعلمها ، تخاف منك خوفا مفرطا ، على ما يبدو ،
 ولا تستطيع أن تتدخل . لنبقى مؤقتا عند موضوعى أنا . ان وضعى
 يفتقر الى الاطمئنان الى أقصى حد ، هذا ما لا تنكره ، بل انك تجتهدين
 فى اثباته . وهذا الأمر مثله مثل كل ما تقولين ، أمر ليس صحيحا تمام
 الصيغة ، بل الى حد كبير فقط . فأنا على سبيل المثال أعرف مكانا طيبا
 جدا للبيت ، وهو تحت تصرفى .

وصاحت فريدا وصاحبة الحان فى وقت واحد وفى شغف شديد
 وكأنهما كانتا أميائهما واحدة :

- أين ؟ أين ؟

فقال ك :

- عند يرناباس .

وصاحت صاحبة الحان :

— الجينة ! الحثالة الأذال ! عند برناباس ! أسمعان !

وانتجعت الى الركن وكان المساعدان قد برزا منذ وقت طويل ،
ووفقا يتأبط أحدهما ذراع الآخر وراء صاحبة الحان ، التي بدت كأنها
تحتاج الى سند ، وأمسكت بيد أحدهما وقالت :

— أسمعان أين يعيث السيد ! فى بيت أسرة برناباس ! انه ينال
هناك بطبيعة الحال مكانا للمبيت ! ليته بات هناك ولم يبت فى حان
السادة . ولكن أين كنتما ؟

وقال ك قبل أن يشرع المساعدان فى الاجابة :

— سيدتى صاحبة الحان ، انهما مساعداى ، أنت تيعاملينيهما كأنهما
كانا مساعديك أنت ، وحارسين على . اننى مستعد لمناقشتك بكل أدب
فى كل أرائك ، الا فى رأيك فى مساعدى ، لأن المسألة واضحة كل
الوضوح . اننى لذلك أرجوك ألا تتكلمى مع مساعدى ، وإذا لم يجد
رجائى نفعا ، فسأمنع مساعدى من الاجابة .
فقالبت صاحبة الحان :

— إذن ليس لى أن أتحدث اليكما .

وضحك الثلاثة ، ضحكك صاحبة الحانة ساخرة ، ولكن أكثر رقة
مما توقع لك ، وضحك المساعدان بأصطوبهما المعهود الذى يعنى الكثير
ولا يعنى شيئا ، ويرقص كل مسئولية .
وقالت فريدا :

— لا ينبغى أن تغضب . بل عليك أن تفهم انفعالنا الفهم الصحيح .
أما اننا ينتمى أحدها الى الآخر الآن ، فأمر يرجع الفضل فيه ، ان شيئا ،
الى برناباس وحده . وأنا عندهما رأيك للمرة الأولى فى الخمار ، وكنت
داخلا تتأبط ذراع أولجا ، كنت لم تكن الشئ الوحيد الذى لا يثير
اهتمامى ، فقد كانت كل الأشياء تقريبا لا تثير اهتمامى . ولقد كنت
أنا آنذاك غير راضية على أشياء كثيرة ، وكانت هناك أشياء تغضبنى .
ولكن أى نوع من عدم الرضا ، وأى نوع من الغضب ؟! لقد أهاننى على
سبيل المثال أحد الزبائن فى الخمار — وكان الزبائن دائما يتعقبوننى
— ولقد رأيت أنت الرجال هناك ، وكان يأتى من هم أقبح منهم ، فليس
خدم كلم بأقبح الرجال — قلت ان أحد الزبائن أهاننى . فماذا كان معنى
ذلك بالنسبة الى ؟ لقد أحسست كأن هذا الذى يحدث قد حدث قبل

سنين عديدة ، أو كأنه لم يحدث لى على الإطلاق ، أو كأنى اسمع البعض يحكى لى عنه أو كأنى قد نسيته . ولكنى لا أستطيع أن أصوره ، ولا أستطيع حتى أن أتصوره ، فقد تغير كل شيء منذ أن هجرنى كلم . وقطعت فريدا روابتها ، ومالت برأسها حزينة ، وعقدت يديها على حجرها .

وضاقت صاحبة الحان :

— أرايت !

ولاح عليها كأنها لا تتكلم بلسانها بل بلسان فريدا ، وتقدمت ناحيتها حتى أصبحت تجلس بجانبها ، وراحت تقول :

أرايت يا حضرة موظف المساحة نتائج أفعالك على ! وعلى مساعديك كذلك ، ولم يعد لى أن أتكلم معهما ، أن يروا هم أيضا نتائج أفعالك ليتعظوا ! لقد انتزعت فريدا من أسعد حال أوتيته ، ولقد تمكنت من ذلك ، لأن فريدا لم تستطع ، لرقتها الصبيانية المفرطة ، أن تحتل النظر اليك متأبطا ذراع أولجا ، وقد بدا عليك أنك وقعت فى برائن العائلة البرناباسية . فأنتذرتك وراحت هى ضحية ذلك . والآن وقد حدث هذا ، بعد أن ضيعت فريدا كل ما كان لديها لقاء سعادة الجلوس على ركبتيك ، تأتى أنت وتمثل دور المنتصر ، فقد عرضت لك امكانية المبيت عند برناباس . ولعلك تريد أن تبرهن بذلك على أنك مستقل عنى . ولو قد بت عند برناباس ، لكنك قد أصبحت بكل تأكيد مستقلا عنى ، استقلالا كان سيحتم عليك أن تترك بيتى فى الحال ، بأقصى سرعة .

فقال ك :

— أنا لا أعرف خطايا أسرة برناباس .

وفى هذه الأثناء رفع فريدا بحذر ، وكأنها شيء لا حياة فيه ، وأجلسها ببطء على السرير ، ونهض هو نفسه واقفا ، ثم قال :

— ولعلك على صواب فى ذلك ، ولكنى كنت على صواب بكل تأكيد . عندما رجوتك أن تتركى مسألتنا ، مسألتى ومسائل فريدا ، لنا نحن وحدنا . لقد ذكرت من قبل شيئا عن الحب والاهتمام ، ولكنى لم أتبين منهما شيئا ، بل على العكس تبينت الكراهية والسخرية والطرود . فاذا كنت قد سعيت لفصلى عن فريدا ، أو لفصل فريدا عنى ، فليدأ أبديت .

مهارة كبيرة فى ذلك ، ولكنك ، على ما أعتقد ، لن توفقى فى ذلك ، وإذا حدث ونجحت فى ذلك فسوف - واسمحي لى هنا بتهديد غامض - تندمين ندما مريرا • أما فيما يختص بالمسكين الذى تمنحني إياه - ولا بد أنك تعين به هذا الجحر البشع - فليس من المؤكد بحال من الأحوال أنك تفعلين ذلك بمحض إرادتك ، ويبدو ان هناك أمرا بهذا الخصوص من ديوان الجرافية • وسوف أبلغها بأنك أندرتنى بالأخلاء ، وإذا ما حصلت على مسكن آخر ، فلعلك تتنفسين بارتياح ، أما أنا فسأتنفس من أعماقى • وسأذهب الآن من أجل هذه المسألة وغيرها من المسائل الى رئيس مجلس القرية ، وأرجو على الأقل أن تهتمى بفريدا وقد آذيتها بما فيه الكفاية بكلامك الذى تزعين أنه نابع من حنان الام •

ثم اتجه الى المساعدين وقال :

- هيا بنا •

وتناول خطاب كلم من المسبحار الذى كان قد علقه عليه وهم بالذهاب • وكانت صاحبة الحان تنظر اليه صامته ، فلما وضع يده على مقبض الباب قالت :

- يا حضرة موظف المساحة • ما زال هناك شئ أحب أن أزودك به فى طريقك ، فأنت ، مهما قلت من كلام ، ومهما أهنتنى أنا المرأة العجوز ، زوج فريدا فى المستقبل • وهذا هو السبب الوحيد الذى أقول من أجله انك حيال الظروف القائمة هناك جاهل جهلا بشعا ، وان الانسان ليفقد الوعى عندما يستمع اليك ، وعندما يقارن فى فكره ما تقوله وتراه بالوضع القائم فعلا • وان جهلك هذا الجهل لا يمكن اصلاحه دفعة واحدة يل ربما كان اصلاحه من المستحيل • ولكن هناك أشياء كثيرة يمكن أن تتحسن ، اذا صدقتنى وجعلت جهلك دائما نصب عينيك • عند ذاك ستصبح على سبيل المثال أكثر عدلا حيالى ، وستبدأ فى الاحساس بالفزع الذى حل بى - وما زالت نتائج هذا الفزع باقية - عندما تبين أن صغرتى الحبيبة قد تركت من يمكن تسميته بالنسر لتعصب عينيها بعصاة العمى ، وان العلاقة فى حقيقتها لأشد سوءا ، وانى لأحاول أن أنساها والا لما استطعت أن أتكلم معك كلمة هادئة آمه ها أنتذا تغضب مرة أخرى • لا ، لا تنصرف الآن ، اسمع هذا الرجاء قبل أن تنصرف : عليك ، فى كل مكان تذهب اليه ، أن تعى دائما أنك أجهل الناس هنا ، وعليك أن تأخذ نفسك بالحذر • انك هنا عندنا ، حيث يحميمك وجود فريدا ، تستطيع أن تثرثر بما يشغل قلبك ؛ هنا يمكنك

مثلا أن تظهرنا على نيتك فى التحدث الى كلم ، ولكنى أرجوك ، أرجوك ،
لا تفعل هذا فى الواقع .

ونفضت وكانت تترنخ من فُزط الانفعال ، وذهبت الى ك وأمسكت
يده ونظرت اليه متوسلة . فقال لها ك :

- اننى لا أفهم ، يا سيدتى صاحبة الحان ، لماذا تذلين نفسك
وتتوسلين الى من أجل مثل هذا الموضوع . اذا كنت تقولين انه من
المستحيل على أن أتكلّم مع كلم ، فأنا لن أصل الى ذلك ، سواء رجوتنى
أم لا . أما اذا كان من الممكن أن أتكلّم معه ، فلماذا لا أفعل ، خاصة وأن
سقوط اعتراضك الرئيسى سيجعل مخاوفك مشكوكا فيه جدا . وأنا
بطبيعة الحال جاهل ، وهذه حقيقة ستظل قائمة ، وفى هذا ما يحزننى
أشدّ الحزن . ولكن الجهل له فائدته ، فالجاهل يجرؤ على الكثير ، ولهذا
فاننى سأظل ، الى حين ، وعن طيب خاطر ، أحمل الجهل وتبعاته التى
لا شك فى أنها سيئة ، طالما كانت لدى القوة الكافية . وهذه التبعات
لا تمس فى جوهرها سوى ، ولهذا فأنا لا أفهم لماذا تتوسلين . وليس
هناك شك فى أنك ستظلين ترعين فريدا ، ولو اختفيت أنا كلبية من مجال
ابصارها ، فان هذا لا يمكن فى رأيك أن يعنى الا بسعادتها . فلماذا
تخافين ؟ انك لا تخافين .

- والجاهل يظن كل شيء ممكنا

وهنا فتح ك الباب ، وأكمل :

- انك لا تخافين على كلم ؟

وتابعته صاحبة الحان بنظرها صامثة وهو ينزل الدرج مسرعا ومن
خلفه المساعدان .

الفصل الخامس

لم يكن ك يحس تجاه الحديث الذي سيجرى بينه وبين رئيس مجلس القرية إلا بالقليل من القلق ، وكان يوشك هو نفسه أن يدهش لذلك . وحاول ك أن يفسر ذلك بأن التعامل الرسمي مع الدواوين الحكومية قد أصبحت ، بعد خبراته حتى ذلك الحين ، شيئا سهلا جدا بالنسبة إليه . وكان السبب في ذلك من ناحية أن هناك مبدأ مجددا على ما يبدو لمعالجة مسئلته وأنه من الناحية الظاهرية في صالحه جدا ، ومن ناحية ثانية أن العمل الرسمي يتسم هنا بتناسق مدهش يحس به الإنسان كاملا حتى في المواضيع التي لا يلوح فيها وجودا . ولم يكن ك ، إذا فكر في هذه الأشياء أحيانا ، بعيدا عن اعتبار وضعه مقبولا على الرغم من أنه كان دائما يقول لنفسه بعد أن تعثر به حالات الارتياح هذه أن الخطر إنما يكمن فيها دون سواها .

ولم يكن التعامل المباشر مع الدواوين بالعمل الصعب المفروض الصعوبة لأن الدواوين كانت - مهما حسن نظامها - تدافع باسم سادة بعيدين غير ظاهرين عن أشياء بعيدة غير ظاهرة ، بينما كان ك يناضل من أجل شيء حي قريب ، من أجل نفسه هو ، وكان علاوة على ذلك يناضل ، على الأقل في الوقت الأول ، بإرادته ، لأنه كان المهاجم . ولم يكن يناضل من أجل نفسه فقط ، ولكنه كان ، على ما يبدو ، يناضل من أجل قوة أخرى ، لم يكن يعرفها ، ولكنه كان يؤمن بها نتيجة لاجراءات الدواوين . ولكن الدواوين كانت بتساهلها الشديد في موضوعات ك غير الجوهرية - ولم تكن موضوعات ك حتى ذلك الوقت تزيد على ذلك - تجرم ك من إمكانية بلوغ انتصارات صغيرة خفيفة ، وتحرمه إلى جانب ذلك بما يتصل بهذه الامكانية من الرضا ، ومن الثقة التي تنبع منها والتي تقوم على أسس طيبة الثقة في مجازبة ضروب أوسع وأكبر من النضال ، لقد كانت الدواوين بدلا من هذا تترك ك ، في حدود القرية فقط ، يتحرك حيثما شاء ، وكانت تدله وتضعفه بذلك ، وتمنع كل نضال منعا أساسيا ، وتنقله إلى الحياة الغريبة العكرة ، الخارجة على نطاق الدواوين والتي يستحيل على الإنسان

الاحاطة بها كل الاستحالة . كان من الممكن ، والحال هذه ، ان لم يأخذ على الدوام حذره ، وعلى الرغم من تلفط الدواوين معه ، وعلى الرغم من وفائه بمهامه الوظيفية المفرطة للسهولة ، أن يتخدد بجميل يلوح له انه صنع به ، فيسير في حياته خارج نطاق الوظيفة سيرة لا احتياط فيها تنتهى به ذات يوم الى التحطم ، وتنتهى بالديوان الطريف اللطيف ، ضد ارادته الى حد ما ، ولكن باسم نظام عام غير معروف له ، الى الذهاب اليه والتخلص منه . وماذا كانت حياته خارج نطاق الوظيفة ؟ لم يرك من قبل فى أى مكان تداخل الحياة والوظيفة الى هذا الحد ، حتى انه كان يظن أحيانا أن الحياة والوظيفة قد تبادلا أماكنهما . فما هو ، على سبيل المثال معنى السلطة الشكلية التى كان كلم يمارسها على عمل ك ، اذا ما قورنت هذه السلطة بالسلطة التى كان كلم يمارسها حقيقة فى حجرة نوم ك ! ولهذا فالصواب أن يأخذ الانسان نفسه بأسلوب أخرق ، بنوع من الاسترخاء حيال الدواوين ، وان ظل الحذر الشديد والنظر الى كل الاتجاهات والتدقيق قبل كل خطوة ضرورة دائمة .

وتبين لك أن مفهومه عن الدواوين هنا صحيح عندما التقى برئيس مجلس القرية . كان الرئيس ، وهو رجل لطيف سمين حليق ، مريضاً يغانى من التقرس الحاد ، ولهذا استقبلك وهو فى السرير . وقال :

— اذن فهذا هو السيد موظف المساحة لدينا .

وأراد أن يقعد لتحيته ، ولكنه لم يستطع ، وألقى نفسه مرة أخرى فى فراشه ، وهو يشير معتذراً الى ساقيه . وأحضرت امرأة ساكنة ، بدت فى الضوء الخافت بالحجرة ذات النوافذ الصغيرة ، وألستائر التى تزيد من ظلمتها ، كأنها شبح ، كرسيا وثيرا قدمته الى ك ووضعته عند السرير . . . وقال الرئيس :

— اجلس ، اجلس ، يا حضرة موظف المساحة ، وقل ماذا تتمنى .

وطالع ك خطاب كلم ، وأضاف اليه بعض الملاحظات . وأحس مرة أخرى بالسهولة المارقة للمألوف فى التعامل مع الدواوين . كانت الدواوين تحمل كل عبء بمعنى الكلمة ، وكان فى استطاعة الانسان أن يحملها بما يشاء ، بينما يظل الانسان حراً لا يحمل شيئاً . وتلوى الرئيس فى فراشه متبرما ، وكأنه أحس بهذا على طريقته . وأخيرا قال :

— لقد عرفت ، كما لاحظت ياسيادة موظف المساحة ، بالمسألة كلها . أما أننى لم أأخذ اجراء حتى الآن ، فسيرجع أولا الى مرضى ، وثانيا الى أنك

لم تأت ، فظننت أنك صرفت النظر عن الموضوع . أما وأنت تكرمت وأتيت إلى بنفسك ، فلا بد أن أقول لك بطبيعة الحال الحقيقة الكريهة كاملة . لقد قلت انهم قبلوك موظفا للمساواة ، ولكننا للأسف لا نحتاج إلى موظف مساواة . فليس له أدنى عمل هنا . فحدود ممتلكاتنا الصغيرة معلمة ، وكل شيء مسجل تسجيلاً منظماً صحيحاً ، ولا يحدث إلا فيما ندر أن يتغير الملاك ، أما الصناعات القليلة على الحدود فانتا نسويها بأنفسنا . فما حاجتنا إلى موظف مساواة ؟

وعلى الرغم من أن ك لم يسبق له أن فكر في هذا من قبل ، فقد كان مقتنعاً في ذات نفسه بأنه كان يتوقع مثل هذا الخبر . ولهذا السبب قال من فوره :

— ان هذا ليفاجئني أشد المفاجأة . وانه ليحدث بكل حساباتي . وتقديراتي الاضطراب . وليس لي الا أن آمل أن يكون هناك خطأ .

فقال الرئيس :

— لا ، للأسف ، ان الأمر على نحو ما قلت لك .

فصاح ك :

— وكيف يمكن هذا ؟ اننى لم أقم بهذه الرحلة اننى لا نهاية لها ، لكي تعيدونى الآن من حيث أتيت .

فقال الرئيس :

— هذه مسألة أخرى ليس القطع فيها من شأنى ، ولكنى أستطيع أن أشرح لك على أية حال كيف أمكن حدوث هذا الخطأ . فمن الممكن فى ديوان كبير ، كالديوان الجرافى ، أن يأمر قسم ما بهذا ، وأن يأمر قسم آخر بذاك ، ولا يعلم قسم بشئ عما يجرى فى الآخر . والحقيقة أن التفتيش الأعلى لدقيق إلى أقصى حد ، ولكنه يأتى بطبيعته متأخراً ، ولهذا كان من الممكن أن تحدث اضطرابات بسيطة . وهذه الاضطرابات دائماً بطبيعة الحال صفائر متناهية الضلالة مثل حالتك على سبيل المثال . ولم يحدث أن نما الى علمى أن خطأ حدث فى الأشياء الكبيرة . ولكن الأخطاء التى تحدث فى الصفائر كثيراً ما تكون أخطاء مؤسفة . أما فيما يتعلق بحالتك ، فأنا أريد — دون أن أخفى أسرار الوظيفة — فأنا فى هذه الناحية لست موظفاً بما فيه الكفاية ، إنما أنا فلاح ، وسأبقى فلاحاً — أن أحكى لك خط سير الموضوع بصراحة . منذ وقت طويل ، ولم يكن قد مضى على فى رئاسة القرية إلا بضعة أشهر ، صدر أمر ، لا أذكر من أى قسم من الأقسام ،

جاء به على النحو القاطع المميز للسادة ، انه يتبعى اشتدعاء موظف مساحة
وان على مجلس القرية أن يعد مايلزم لعمله من خطط ورسومات ولا يمكن
أن يكون هذا الأمر مختصاً بك ، لأنه قد تم يزجج الى أعوام كثيرة مضت ،
ولو لم أكن مريضاً في الفراش لما كان لدى الوقت الكافى لتذكر مثل
هذه الأمور السخيفة غاية السخف .

وقطع كلامه فجأة مناديا زوجته :

— ميتسى .

وكانت تتحرك حركة خفيفة فى الحجره ، وتقوم بعمل غير مفهوم .
ثم قال الرئيس لزوجته :

— من فضلك ايجئى فى الدولاب هناك ، لعلك تعثرين فيه على الأمر .
ثم قال لك شاموفا :

— انه يرجع الى الفترة الأولى لعملى ، وكنت فى ذلك الوقت أحتفظ
بكل شىء .

وفتحت المرأة الدولاب على الفور ، وتطلع اليها كوالرئيس . كان
الدولاب يعج بالأوراق . فلما فتحتة تدرجت منه حزمتان من حزم الملفات
كانتا مربوطتين مدورتين كما تربط حزم الحطب ، فقفزت المرأة الى جانب
مرتاعة . وقال الرئيس موجها البحث فى فراشه :

— لابد أنه الى أسفل ، الى أسفل .

وأطاعت المرأة وألقت بالملفات ، ممسكة ايهاا بكلتا ذراعيها ، الى
خارج الدولاب لتصل الى الأوراق التى الى أسفل . وملأت الأوراق نصف
الحجرة . وقال الرئيس وهو يهز رأسه :

— هذا دليل على أن عتلتك كثير ، وما هذه الأوراق الا جزء صغير .
اما الكمية الرئيسية فانا أحتفظ بها فى الثنونة ، على أن الغالبية العظمى
من الأوراق ضاعت ، فمن هذا الذى يستطيع أن يحتفظ بكل هذه الأوراق
... ولكن الثنونة فى الكثير .

ثم اتجه الى زوجته مرة أخرى :

— هل تعتقدين انك ستجدين الأمر ؟ عليك أن تبخشى عن ملف
مكتوب عليه كلمة « موظف المساحة » وتحتها خط بالأزرق .

وقالت المرأة :

- الظلام هنا شديد ، سأذهب لاختصار شمعته .

وخرجت من الحجرة سائرة فوق الأوراق .

وقال الرئيس :

- أن زوجتى دعامة كبيرة لى فى هذا العمل الرسمى الصعب الذى يتبغى على أن أؤديه بجانبى على الأصل . حقيقة أن لى من يساعدنى فى الأعمال الكتابية ، أعنى المدرس ، ولكن انجاز كل شئ مستحيل ، وهناك الكثير الذى يبقى بلا انجاز ، مجموعا فى هذه الجزالة ..

وأشار الى دولاب آخر وقال وهو يرقده واهنا ، ولكن كان فخورا :

- وهو يزيد زيادة مسرفة عندما أكون مريضا .

وقال ك عندما عادت المرأة بالشمعة وركعت أمام الدولاب تبحث عن

الأمر :

- ألا يمكن أن أساعد زوجتك فى البحث ؟

وهن الرئيس رأسه مبتسما وقال :

- لقد قلت من قبل انك لست لى أمرلا فى نظيرتى أخفيها عليك

ولكننى لا أستطيع أن أصل الى حد تركك تبحث بنفسك فى الملفات .

وسهاد السكون الحجرة ، فلم يكن الإنيمان يسمح الا صوت خفيف

الأوراق ، بل ان الرئيس نعى قليلا . ودق بعضهم الباب فالتفت ك خلفه

فاذا هما بطبيعة الحال المساعدان . ولكنهما كانا على أية حال مهذبين قليلا

فلم يندفعا داخل الحجرة ، بل همسا من خلال الباب الذى كان مفتوحا

فتحة صغيرة :

- ان البرد شديد علينا من الخارج .

وسأل الرئيس مفرعا :

- من هذا ؟

فقال ك :

- انهما مساعداى ، ولا أعرف أين أدعهما ينتظراننى ، فالبرد شديد

فى الخارج ، وهما شخصان مزعجان لا مكان لهما هنا .

فقال الرئيس متلطفما :

— انهما لن يقلقاني ، دعهما يدخلان ، آه ، أنتى أعرفهما : انهما من معارفى القدامى •

فقال ك بصراحة :

— ولكنهما يقلقاني •

ونقل بصره من المساعدين الى الرئيس الى المساعدين ووجد الثلاثة يضحكون ضحكة واحدة • ثم قال على سبيل المحاولة :

— مادمتما هنا ، فأبقيا وساعدا السيدة زوجة الرئيس فى البحث عن ملف مكتوب عليه « موظف المساجة » وتحتها خط بالأزرق •

ولم يعترض الرئيس • لقد سمح للمساعدين بما منح ك من فعله ، فارتميا على الأوراق ، وكانا يقلبان فى التل أكثر مما كانا يبحثان ، وبينما كان أحدهما يتجهى كلمة ، كانا الآخر ينتزع الورقة من يده • أما المرأة فكانت تركز أمام الحزاة الفارغة ، ولم يعد يبدو عليها أنها تبحث وكانت الشمعة على أية حال بعيدة جدًا عنها •

وقال الرئيس وهو يبتسم ابتسامة تتم عن رضا ذاتى وكانما كانت الدنيا كلها ترجع الى أوامره هو دون أن يكون هناك انسان يستطيع أن يفهم ذلك حتى ولو على سبيل الظن :

— انك تقول إن المساعدين يقلقانك ، ولكنهما مساعداك أنت •

فقال ك بفتور :

— لا ، لقد ارتميا على هنا •

فقال الرئيس :

— كيف تقول ارتميا على ! انك تريد أن تقول انهم قد عينا لك •

وقال ك :

— آه عينا لى ، ويمكنك أن تقول أيضا سقطا على كما يسقط الجليد فقد كان تعيينهما يقتصر الى كل تدبير •

فقال الرئيس :

— لا يحدث شيء هنا عن غير تدبير •

ونسى كل شيء حتى ما فى قدمه من ألم وجلس معتدلا • فقال ك :

— لا شيء . . فما أمر استدعائي للعمل هنا ؟

فقال الرئيس :

— وكذلك استدعاؤك جاء بعد وزن وتدبير ، ولكن بعض الظروف
التأنيوية تدخلت وأحدثت اضطرابا ، وسأثبت لك ذلك بناء على الملفات .

فقال ك :

— ولكن أحدا لن يعثر على الملفات .

فصاح الرئيس :

— لن يعثر ؟ يا ميتسي ابحتى من فضلك بسرعة . ومع ذلك فإننا
استطيع أن أحكي لك الحكاية أولا بدون ملفات . لقد أجبتنا على الأمر الذي
حدثت عنه ، بالشكر ذاكرًا أننا لا نحتاج إلى موظف مساحة . ويبدو أن
هذه الإجابة لم تصل إلى القسم الأصلي ، ولأسميه (أ) ، بل وصلت خطأ
إلى قسم آخر ، ولأسميه (ب) . وظل القسم (أ) بلا إجابة ، وكذلك
القسم (ب) لم يتسلم إجابتنا كاملة للأسف ، إما لأن محتويات الملف
بقيت عندنا ، أو لأنها ضاعت في الطريق . ولكنها بكل تأكيد لم تضع
في القسم نفسه ، وأنا ضامن لذلك — المهم أن ما وصل إلى القسم (ب) لم
يكن سوى غلاف الملف ولم يكن مبينًا عليه سوى أن الملف الذي بداخله
يختص بموضوع موظف المساحة ، ولم يكن في الحقيقة موجودًا ، وكان
القسم (أ) ينتظر أن تصله إجابتنا . حقيقة أنه كان قد سجل مذكرات
بالموضوع ، ولكن ما حدث شيء يقع بطبيعة الحال من حين لآخر على الرغم
من الدقة في إنجاز الأعمال ، وهو أن الموظف المختص اطمأن إلى أننا سنجيب
على الخطاب ، وأنه إما أن يستدعي موظف المساحة أو ، إذا دعت الحاجة ،
يستمر في التراسل معنا بخصوص الموضوع . وكانت النتيجة أنه أهمل
المذكرات ، وأن الموضوع كله انطوى في النسيان . أما القسم (ب) فقد
وقع غلاف الملف فيه في يد موظف مشهور بدقته ، واسمه سورديني ،
وهو إيطالي ، وأنا ، العليم بالأمور ، لا أفهم لماذا يظل مثل هذا الرجل
بما له من كفاءات في هذه الوظيفة التي توشك أن تكون وظيفة من
الوظائف الدنيا . وبطبيعة الحال أعاد إلينا هذا الوردني غلاف الملف
الفارغ ليكمل . وكان قد انقضى على خطاب القسم (أ) الذي أشرت إليه
وقت طويل يقدر بالشهور بل بالأعوام ، والوضع البديهي هو أن الملف إذا
سار في طريقه الصحيح ، يصل عادة في اليوم نفسه على أكثر تقدير
ويتم إنجازه في اليوم نفسه . أما إذا ضل طريقة مرة — فعليه ، والنظام
على هذا الامتياز في الدقة ، أن يجتهد في العثور على الطريق الخطأ اجتهدا

شديدا والا فانه لن يجده - فان انجازه يحتاج الى وقت طويل بطبيعة الحال . فلما تلقينا مذكرة سورديني ، لم تكن تذكر الموضوع الاعلى نحو غير واضح ، وكان عبء العمل يقع في ذلك الوقت على اثنين فقط ، ميتسي وأنا ، فلم يكن المدرس قد عين لنا بعد ، ولم تكن تحتفظ بصور المكاتبات الا ما كانت له منها أهمية شديدة ، باختصار ، لم نستطع الا أن نجيب اجابة نفتقر الى التحديد كل الافتقار ، قائلين اننا لا نعرف شيئا عن هذا الاستدعاء ، اننا في غير حاجة الى موظف مسباحة .

وهنا قطع الرئيس كلامه ، وكأنما كان قد اندفع في الحساس الى حد أبعد مما ينبغي أو كأنما كان من الممكن على الأقل أن يندفع الى حد أبعد مما ينبغي :

- ولكن ألا تسبب لك الحكاية مللا ؟

فقال ك :

- لا ، انها تستليني .

فقال الرئيس :

- أنا لا أحكيها لك للتسلية .

فقال ك :

- انها تستليني بمعنى انها تتيح لي فرصة الابصار بالاضطراب المضحك الذي يقطع أحيانا في أمر وجود إنسان من البشر .

وقال الرئيس فجاءد :

- أنك لم تبصر شيء بعد . . . ويكفي الآن أن أستمع في قصتي .

لم يرض رجل كسورديني بطبيعة الحال بأجابتنا ، وأنا أعجب بهذا الرجل على الرغم من أنه يمثل في نظري العذاب كله . انه يشك في كل إنسان ، حتى الإنسان الذي أتاحت له فرص لا حصر لها ان يعرف عنه انه في غاية الجدارة بالثقة . تجده في الفرصة التالية يشك فيه كما لو كان لا يعرفه أو كما لو كان قد عرف عنه أنه نذل دنيء . وأنا أستصوب هذا الأسلوب وأرى أن الموظف ينبغي أن ينهج هذا المنهج . ولكني لا أستطيع أن أتبع هذا المبدأ ، فانه يتعارض مع طبيعتي . وأنت ترى مثلا ، كيف أعرض عليك ، أنت الاجتبي ، كل شيء بصراحة ، فأنا لا أستطيع أن أتصرف على نحو آخر . أما سورديني فقد تملكه الشك حيسال اجابتنا . ونشأت مراسلات كثيرة . كان سورديني يسأل لماذا خطر ببالي فجأة أنه لا ينبغي استدعاء موظف مسباحة ، وأنا أجيب مستعينا بذكرة ميتسي الممتازة بأن

الاقتراح الخاص بهذا الموضوع جاء من الديوان (وكنا قد نسينا بطبيعة الحال منذ مدة طويلة أنه جاء من قسم آخر غير قسم سوردينى •) وكان يعود فيسأل لماذا لم أذكر هذه المكاتبه الا الآن ، فأرد عليه بأننى لم أتذكر الا الآن ، فيكتب سوردينى بأن هذا عجيب جدا ، وأرد أنا بأن هذا ليس عجيبا مطلقا فى مسألة طالت هذا الطول ، فيعود سوردينى الى القول بأن هذا عجيب فعلا لأن المكاتبه التى تذكرتها لا وجود لها ، فأرد أنا قائلا انها بطبيعة الحال غير موجودة لأن الملف كله ضاع ، فيكتب سوردينى بأنه لا بد أن هناك مذكرة بخصوص المكاتبه الأولى • ولكن هذه المذكرة لا وجود لها • وهنا ترددت لآئننى لم أجرؤ على القول ، ولائننى لا أعتقد بأن القسم الذى يعمل فيه سوردينى يمكن أن يخطئ • ولعلك ، يا سيادة موظف المساحة ، تلوم سوردينى فى شرك ، لأنه لم يأخذ كلامى فى الاعتبار ، ولم يسأل على الأقل عن الموضوع فى الأقسام الأخرى • ولو أنك فكرت فى هذا ، لأخطأت ، وأنا لا أريد أن يعلق بهذا الرجل ، ولا حتى فى فكرك أى عيب • فهناك مبدأ يقوم عليه العمل فى الديوان ، وهو ألا نضسخ امكانية الخطأ فى حسابنا مطلقا • وهذا المبدأ له فى النظام الممتاز الشامل للديوان ككل ما يبرره ، وهو ضرورى اذا كان المطلوب هو الوصول الى أقصى سرعة فى انجاز الأعمال • لم يكن اذن لسوردينى أن يستفهم لدى الأقسام الأخرى ، ولو استفهم لديها ما أجابته ، لأنها كانت ستتبين أن الأمر يدور حول البحث فى امكانية حدوث خطأ • »

وقال ك :

— أرجو أن تسمح لى يا سيادة الرئيس أن أقاطعك بسؤال • ألم تذكر من قبل أن هناك ديوانا للتفتيش ؟ وان العمل على النحو الذى وصفته ليسبب للانسان الاضطراب والقلق ، اذا تصور انه ليس هناك تفتيشا •

فقال الرئيس :

— انك صارم جدا • ولكن ضاعف صرامتك ألف مرة • ومع ذلك فلن تكون شيئا بالقياس الى الصرامة التى يأخذ بها الديوان نفسه • ان هذا السؤال الذى ألقيته لا يمكن الا أن يصدر عن انسان غريب • هل هناك دواوين للتفتيش ؟ ليست هناك الا دواوين للتفتيش • وهى بطبيعة الحال ليست مختصة بالتوصل الى الأخطاء بمعناها الغليظ ، فهذه الأخطاء لا تقع ، وحتى اذا حدث مرة أن وقع خطأ ، كما فى حالتك ، فمن له أن يقول نهائيا ، انه خطأ •

فصاح ك :

— هذا شيء جديد على تماما .

فقال الرئيس :

— انه شيء قديم عندي جدا . وأنا لا أختلف عنك في الاعتقاد بأن خطأ وقع ، ولقد مرض سورديني نتيجة لحيرته في هذا الامر مرضا شديدا ، ولقد اكتشفت دواوين التفتيش الأولى التي يرجع إليها الفضل في اظهار أصل الخطأ ان المسألة فيها خطأ . ولكن من له أن يدعى أن دواوين التفتيش الثانية ستصل الى الحكم نفسه ، ثم الثالثة وما بعدها .. وما بعدها ؟

فقال ك :

— ربما . وأنا لا أريد أن أتدخل في مثل هذه الآراء ، وأنا اسمح للمرة الأولى عن دواوين التفتيش هذه ولا أستطيع بطبيعة الحال أن أفهمها ولكنني أعتقد أنه يجب هنا الفصل بين أمرين : أولا مايجرى في الدواوين وما يمكن على هذا النحو أو ذاك اعتباره من أمر الدواوين ، وثانيا أنا ، الشخص الواقعي ، أنا الذي أقف خارج الدواوين والذي يتهددني ضر من الدواوين ، ضر هو من الحق بحيث أنني لا أستطيع للآن أن أصدق مدى خطورته . أما الأمر الأول فينطبق عليه على ما يبدو ، هذا الذي قصصته على . يا سيادة الرئيس ، بمعرفة فنية خارقة للمألوف ، محيرة للألباب . وأما الأمر الثاني ، أنا ، فأرجو أن أسمع كلمة بشأنه .

فقال الرئيس :

— سأصل اليه أيضا . ولكنك لن تفهم ما سأقوله بهذا الشأن الا اذا ذكرت لك بعض الأشياء على سبيل التمهيد . والحقيقة أن اشارتي الآن الى دواوين التفتيش اشارة سابقة لأوانها . ولهذا أعود الى الخلافات مع سورديني . قلت ان مقاومتي بدأت تهن تدريجيا . ذلك أن سورديني اذا حقق أقل تقدم حيال أي انسان ، اعتبر نفسه منتصرا ، لأن انتباهه وطاقته وحضور بديته تزداد نتيجة لذلك ، ويصبح منظره فظيما بالنسبة لمن يهاجمه ، رائعا بالنسبة لأعداء من يهاجمه . ولما كنت أنا قد شهدت منظره في الحالة الثانية ، ولهذا فأنني أستطيع أن أحكي عنه ، كما أفعل الآن . ثم انني لم أتمكن قط من رؤيته رأى العين ، فهو لا يستطيع أن ينزل الى هنا ، لأنه يحمل عبء عمل مفرط في الضخامة ، ولقد وصفوا لي حجرته قائلين ، ان جدرانها كلها مغطاة بتلال من حزم الملفات الضخمة

المكومة بعضها فوق البعض ، وليست هذه الملفات سوى تلك التى يحتاج إليها فيما يقوم به فى ذلك الوقت من عمل ، ونظرا لأن الملفات تستخرج من التلال وترد إليها بلا انقطاع وبسرعة كبيرة ، فان هذه التلال لا تفتأ أن تنهار محدثة ضجة ، وهذا الضجيج المستمر المتتابع المتلاحق هو الميزة التى أصبحت تميز مكتب سوردينى . نعم ، أن سوردينى موظف نشيط ، وهو يهتم بأصغر حالة اهتمامه بأكبر حالة .

فقال ك :

— انك يا سيدى الرئيس ، تسمى حالتى دائما أصغر حالة ، ومع ذلك فقد شغلت موظفين كثيرين شغلا كثيرا ، هى اذا كانت فى أول الأمر صغيرة جدا ، فانها قد أصبحت نتيجة لحماس الموظفين من أمثال سوردينى حالة كبيرة . وهذا شئ يؤسف له ، وهو ضد ارادتى على خط مستقيم ، لأن طموحي لا يصل الى التسبب فى قيام وانهيار أعمدة من الملفات تختص بى ، بل الى أن أعمل فى هدوء موظفا للمساحة عند منضدة رسم صغيرة .

فقال الرئيس :

— لا . ليست حالتك حالة كبيرة . وليس هناك ، من هذه الناحية سبب يدعوك الى الشكوى ، ان حالتك واحدة من أصغر الحالات بالقياس الى الحالات الصغيرة . وليست كمية العمل هى التى تحدد رتبة الحالة ، انك ما تزال بعيدا عن فهم الديوان ان كنت تعتقد هذا الاعتقاد . وحتى اذا كانت كمية العمل هى التى تحدد الرتبة ، فان حالتك لن تزيد عن أن تكون واحدة من أضال الحالات ، فالحالات العادية ، أى الحالات التى ليس بها ما يسمى أخطاء ، تستدعى الكثير من العمل ، والكثير من العمل ألفيد بطبيعة الحال . ثم انك لا تعرف العمل الحقيقى الذى تسببت عنه حالتك وسأحكى لك الآن عنه . فى بداية الأمر أخرجنى سوردينى من الموضوع ولكن موظفيه كانوا يأتون الى هنا ، وشهد حان السادة الكثير من الاستجابات والمحاضر التى تعرض لها البارزون من أعضاء مجلس القرية . وكان الكثيرون منهم فى جانبى . أما الاضطراب الذى حدث لم يحدثه الا القلة . ومسألة المساحة مسألة قريية الى الفلاحين ، الذين ظنوا أن هناك اتفاقات سرية ومظالم ، ووجدوا علاوة على ذلك زعيما تزعمهم ، وكان أن اعتقد سوردينى ، اعتمادا على البيانات ، اننى لو كنت قد عرضت الأمر على مجلس القرية ، لما صوت الجميع ضد استدعاء موظف مساحة ، ولأدى هذا الى تحول الشئ البديهي — عدم الحاجة الى موظف مساحة — على الأقل الى شئ مشكوك فيه . وبرز فى هذا المقام خاصة رجل اسمه برونسفيك

أنت لا تعرفه طبعا - وهو ليس رجلاً رديشاً ، ولكنه غيبى ، يسرح فى
الخيال ، وهو نسيب لازيمان .

وسألك وهو يصف الرجل كثر اللحية الذى رآه عند لازيمان :

- نسيب المعلم الدباغ ؟

فقال الرئيس :

- نعم ، هو .

وقال ك ، وهو يوشك أن يلقى الكلام على عواهنه :

- وأنا أعرف أيضاً زوجته .

فقال الرئيس :

- هذا ممكن .

ثم صمت . وعاد ك يقول :

- انها جميلة ، ولكنها شاحبة بعض الشيء ومتوتكة . وهى من

القصر ؟ ..

وكان ك ينطق العبارة الأخيرة على نحو يوشك أن يكون سؤالاً ..

ونظر الرئيس الى ساعته وسكب شيئاً من دواء فى ملعقة وتجرعه مسرعاً :

وعاد ك يسأل فى غلظة :

- يبدو أنك لا تعرف من القصر الا الدواوين ؟

فأجاب الرئيس بابتسامة تجمع بين السخرية والامتنان :

- نعم . وهى الأهم . أما فيما يتعلق ببرونسفيك ، فإننا اذا

استطعنا أن نخرجه من جماعتنا ، لئنا جميعاً سعداء ، ولما كانت سعادة

لازيمان نفسه بأقل من سعادتنا . ولكن برونسفيك اكتسب فى ذلك

نقوداً ، حقيقة انه ليس خطيباً ، ولكنه يصرخ بصوت عال ، وهذا يكفى

البعض ، وهكذا انتهى الأمر بى الى أن اضطررت الى طرح المسألة على مجلس

القرية ، وكان ذلك هو النجاح الوحيد الذى حققه برونسفيك ، لأن مجلس

القرية لم يكن ، بأغلبية كبيرة ، يريد أن يعرف شيئاً عن موظف المساحة .

وهذه الحادثة كذلك ترجع الى زمن بعيد ، ولكن المسألة لم تترك بمرور

الوقت الى الهدوء ، من ناحية بسبب دقة سوردينى الذى حاول أن يكشف

عن دوافع الأغلبية والمعارضة بإجراء بحوث غاية فى الدقة . ومن ناحية

أخرى بسبب غباء وطموح برونسفيك الذى كانت له صلات خاصة مختلفة

بالدواوين فاستطاع باختراعات جديدة من محض خياله أن يحركها . ولم

يدع سوردينى برونسفيك يخدعه - وأنى لبرونسفيك أن يخدع سوردينى ؟
 - لكنه ، كى لا يخدع ، كان بحاجة الى دراسات جديدة ، وكان اذا أوشك
 على الفراغ منها ، ابتكر برونسفيك شيئا جديدا - فبرونسفيك كثير الحركة
 وهذه ناحية من نواحي غيائه . وأصل الآن الى صفة خاصة من صفات
 جهاز الدواوين عندنا . فهو ، بقدر ما هو دقيق ، حساس الى أقصى حد .
 فعندما يطول بحث مسألة من المسائل ، يحدث أحيانا - ودون أن تكون
 الدراسات الخاصة بها قد انتهت - أن ينطلق انجازا لها فجأة كالبرق من
 جهة لم يكن أحد يتوقع الانجاز منها ، ولا يمكن فيما بعد تحديدها ، وغالبا
 ما يكون الانجاز صحيحا ، وان ظل على أية حال متعسفا . ان ذلك ليحدث
 وكأنما لم يعد جهاز الدواوين يحتمل التوتر الذى ظلت تثيره فيه مسألة
 واحدة ، قد تكون قليلة الأهمية ، السنين الطوال ، فاتخذ هو القرار ،
 دون معاونة من الموظفين . وليس معنى ذلك بطبيعة الحال أن معجزة حدثت
 فلا شك أن موظفا ما أنجز المسألة بخطاب دونه ، أو أنجزها دون كتابة
 خطاب ، المهم أننا لانستطيع على الأقل من هنا ، ولا حتى من الديوان ، أن
 نعرف الموظف الذى اتخذ القرار فى هذه المسألة ، ولا الأسباب التى
 انبنى عليها قراره . ولا تبين ذلك الا دواوين التفتيش فيما بعد ، ونحن
 لا نعرف شيئا عما تصل اليه هذه الدواوين من نتائج ، وهى نتائج لا يكاد
 يكون هناك من يهتم بها . وهذه القرارات ، كما قلت ، ممتازة فى غالبية
 الأحيان ، وليس فيها ما يسبب الضرر الا شئ واحد ، وهو أن الانسان
 لا يعلم عنها بطبيعة الحال الا متأخرا ، فى وقت يكون فيه مستمرا فى
 التشاور والنشيط بشأنها بينما هى قد أنجزت منذ وقت طويل . وأنا
 لا أعرف ، هل صدر قرار من هذا النوع فى موضوعك أم لا - هناك ما يوحى
 بالايجاب ، وهناك ما يوحى بالسلب - فاذا كان القرار قد صدر ، فمعنى
 هذا ان طلب الاستدعاء قد أرسل اليك ، وانك قد قمت بالرحلة الطويلة
 الى هنا ، وضاع فى هذا وذاك الوقت الكثير ، بينما ظل سوردينى يعمل
 فى معالجة المسألة حتى حل به الأعياء ، وظل سوردينى يحبك المؤامرات
 وبقيت أنا أتعرض للعذاب من الجانبين . وأنا أشير الى هذه الامكانية مجرد
 اشارة ، ولكنى أعرف عن يقين ما يل : ان أحد دواوين اكتشاف أن
 سؤالا خرج من القسم (أ) قبل سنوات عديدة الى مجلس القرية بخصوص
 موظف مساحة دون أن ترد اليه اجابة . ولقد سألونى مؤخرا ، واتضح
 المسألة كلها ، واكتفى القسم (أ) باجابتي التى قلت فيها أننا لا نحتاج
 الى موظف مساحة ، وأصبح على سوردينى أن يقر بأنه لم يكن المختص
 بهذه المسألة ، دون ما ذنب بطبيعة الحال ، وانه بذل جهدا كثيرا ، مهلكا
 للأعصاب دون ما فائدة . لم ينهمر علينا من كافة الجهات كالمعتاد ، سيل

جديد من العمل ، لم تكن حالتك حالة صغيرة - ويمكن القول أنها أصغر حالة بين الحالات الصغيرة - ولكننا قد تنفسنا الصعداء جميعا ، حتى سوزدينى نفسه على ما أعتقد ، الا برونسفيك فقد ظل يغمغم ، ولكن ما فعله كان مضحكا ، والآن تصور ، يا حضرة موظف المساحة ، مدى خيبة أملى ، عندما أجذك الآن ، بعد أن انتهت المسألة نهاية سعيدة - ولقد انقضى منذ ذلك الحين وقت كثير - تظهر فجأة ، ويبدو الأمر كأن المسألة ستعود من أولها . وأظن انك تفهم اننى مصمم تصميميا عنيدا على ألا أسمح بذلك بحال من الأحوال مادام الأمر فى مقدورى .

فقال ك :

- بلا شك . ولكننى أفهم شيئا آخر فهما أفضل ، وهو اننى أتعرض هنا لاستغلال بشع ، بل تتعرض له كذلك القوانين نفسها . ولسوف أعرف كيف أقاومه فيما يتعلق بشخصى .

فسأل الرئيس :

- وماذا تريد أن تفعل

فقال ك :

- لا يمكن أن أكشف عنه .

فقال الرئيس :

- وأنا لا أريد أن ألع ، ولكننى ألفت نظرك لشيء وهو أنك تجد فى - لا أقول صديقا ، فنحن غريبان تماما ، ولكن - زميلان أو نحو ذلك . . أما أن تقبل هنا موظفا للمساحة ، فأمر لن أسمح له . ويمكنك فيما عدا هذا أن تلجأ الى دائما فى ثقة ، بطبيعة الحال فى حدود سلطتى وهى ليست كبيرة .

فقال ك :

- انك دائما تتحدث عن قبولى موظفا بالمساحة ، ولكن قبولى قد تم فعلا وهذا هو خطاب كلم .

فقال الرئيس :

- خطاب كلم . انه قيم وجدير بالاحترام لتوقيع كلم عليه . وهو توقيع يبدو سليما من التزوير ، وفيما عدا ذلك فأنا لا أجرؤ أن أعبر عن ذلك وحدى . . يا ميتسى .

هكذا نادى زوجته . ثم صاح قائلا :

— ماذا تعملون ؟

ويبدو أن المساعدين وميتسى ، وقد انحسر عنهم الانتباه مدة طويلة لم يجدوا الملف المطلوب ، فأعادوا كل شيء إلى الدولاب ، وأرادوا إغلاقه فلم يتمكنوا من ذلك لأن الملفات وقد أُلقيت بغير انتظام برزت إلى الخارج برورا مفرطا . ففكر المساعدان في فكرة نفاذاها . . وهى انهما أرقدا الدولاب على ظهره ، وحشرا فيه الملفات حشرا ثم جلسا على بابه وجلستا معهما ميتسى وحاول ثلاثتهم كبسه إلى أسفل شيئا فشيئا .

وقال الرئيس :

— انهم لم يعثروا على الملف . . هذا شيء يؤسف له . ولكنك تعرف الحكاية الآن ، ونحن فى الحقيقة لم نعد فى حاجة إلى الملف ، ولاشك اننا سنجده ، ولعله عند المدرس ، فلديه ملفات كثيرة . . والآن تعالى ياميتسى إلى هنا بشمعتك وطالعى على هذا الخطاب .

وأقبلت ميتسى وبدأت الآن أكثر حلقة وأكثر غموضا مما كانت عندما كانت تجلس على حافة السرير وتستند إلى الرجل القوي الملىء بالحياة والذي كان يحيطها بذراعه . لا وجهها الصغير فقد أصبح الآن فى ضوء الشمعة يلفت النظر بخطوطه الواضحة القوية التى كان وهن الشيخوخة يخفف من حدتها . وما كادت تنظر إلى الخطاب حتى عقدت يديها قليلا وقالت :

— انه من كلم .

تم قرأ معا الخطاب ، وتهامسا وأخيرا — وبينما كان المساعدان يصيحان « عظيم » . . لأنهما كانا قد كبسا باب الدولاب وأغلقاه بعد طول جهد ، وكانت ميتسى تنظرون ممتونة اليهما — قال الرئيس :

— ان ميتسى ترى رأيى تماما ، يمكننى الآن أن أجرؤ على الانصاح عنه . هذا الخطاب ليس مكاتبة رسمية ، بل هو خطاب خاص . وهذا شيء يتضح من عبارة « أيها السيد المحترم » التى يبدأ بها . هذا علاوة على أنه لم تأت به كلمة واحدة تعنى أنك قبلت موظفا للمساحة ، كل ما فيه حديث عام عن الخدمة الأميرية ، هو ليس صريحا ملزما ، فهو يقول فقط انك قبلت ، كما تعلم ، وعبارة كما تعلم تعنى أن مهمة اثبات قبولك لمقابلة على عاتقك . وفى الحتام أحلت على ، من الناحية الرسمية ، أنا وحدى ، رئيس القرية ، باعتبارى رئيسك المباشر ، الذى عليه أن يبلغك بكل التفاصيل ، وهو ما قد فعلت معظمه . وهذه كلها أمور

واضحة مفردة الوضوح بالنسبة لمن يعرف كيف يقرأ المكاتبات الرسمية ويعرف نتيجة لهذا كيف يقرأ المكاتبات غير الرسمية ويفهمها فهمها أحسن . أما أنت ، كغريب ، لاتتبين ذلك ، فهو ماثير عجبى ، والخطاب لايعنى فى مجموعه شيئا آخر سوى ان كلم ينوى أن يهتم بك شخصيا فى حالة قبولك فى الخدمة الأميرية ..

فقال ك :

- أنك يا سيادة الرئيس تجيد تأويل الخطاب .. بحيث تحيله الى توقيع على ورقة خالية ألا تتبين أنك بفعلك هذا تحط من قدر اسم كلم الذى تدعى أنك تجله ؟ ..

فقال الرئيس :

- هذا خطأ . اننى لا أنكر أهمية الخطاب ، وأنا لا أحط من شأنه يتأويل ، بل على العكس . ان خطابا خاصا من كلم ليكتسى بطبيعة الحال من الاهمية أكثر مما تكتسى المكاتبة الرسمية . ولكن الاهمية التى تنسبها أنت له ، هى بالضبط ما ليس له .

وسأل ك :

- أتعرف شفارتسر ؟

فقال الرئيس :

- لا . هل تراك تعرفينه أنت يا ميتسى ؟ وهى لا تعرفه . .
لا نحن لا نعرفه ..

فقال ك :

هذا شيء عجيب . انه ابن أحد وكلاء القصر .

فقال الرئيس :

- يا عزيزى موظف المساحة ، كيف يمكننى أن أعرف أبناء جميع وكلاء القصر .

فقال ك :

- حسنا . اذن فعليك أن تصدقنى : انه ابن أحد وكلاء القصر .
ولقد حدث بينى وبين هذا الشفارتسر يوم وصولى بالذات احتكاك سخيف ، فاتصل تليفونيا بوكيل للقصر اسمه فريتس ليستعلم ، فعلم منه اننى قد قبلت موظفا للمساحة . فكيف تفسر هذا يا سيادة الرئيس ؟

وقال الرئيس :

— هذا شيء يسير جدا . انك لم تتعامل من قبل مع دواويننا . وجميع التعاملات معها لا تزيد ولا تنقص عن أن تكون ظاهرية ، وأنت لجهلك بالأحوال تعتبرها واقعية . أما فيما يتعلق بالتليفون . فيمكنك أن تجول ببصرك عندي ، أنا الذى أتعامل كثيرا مع الدواوين ، فلن تجد تليفونا . أما في الحانات وفيما شاربها ، فيمكن أن يؤدى التليفون خدمات طبية ، مثل جهاز الموسيقى الأوتوماتيكي ، وهو لا يزيد عنه فى شيء . هل استعملت التليفون هنا مرة ؟ نعم ؟ اذن فلعلك تفهمنى . ويبدو أن التليفون يعمل فى القصر على نحو ممتاز ، ولقد حكى لى البعض أنهم فى القصر لا يكفون عن الاتصال تليفونيا ، وهذا من شأنه بطبيعة الحال ، التعجيل بانجاز الأعمال . ونحن نسمع هذه الاتصالات التليفونية التى لا تنتهى هنا بتليفوناتنا المحلية على هيئة شوشرة وغناء ، ولا شك أنك سمعت هذا . وهذه الشوشرة وهذا الغناء هما الشيء الوحيد الصحيح الجدير بالثقة الذى تنقله الينا التليفونات هنا ، وكل ما عدا ذلك خداع . وليس هناك اتصال تليفونى مباشر مع القصر ، وليس هناك سنترال ينقل مكالماتنا التليفونية ، فاذا اتصل الانسان من هنا بالقصر ، دقت الأجراس فى كل التليفونات بالأقسام الدنيا ، أو على الأصح ، فى كل التليفونات ، الا اذا أوقفت أجراسها — وهذا ما أعرفه يقينا — ويحدث من حين لآخر أن يحتاج بعض الموظفين المنهكين الى شيء من التسلية ، وخاصة فى المساء أو الليل ، فيشغل الجرس ، وهنا نتلقى اجابة ، ولكن هذه الاجابة لاتزيد عن أن تكون مزاحا . وهذا شيء بديهي جدا . فأين هذا الذى يطالب بأن يكون له حق الاتصال التليفونى بشأن موضوعات شخصية صغيرة وسط الأعمال البالغة الأهمية التى تسير بسرعة جنونية متزايدة ؟ وأنا لأفهم كيف يمكن حتى لغريب أن يعتقد أنه عندما يتصل مثلا بسوردينى ، فان سوردينى هو فعلا من يرد عليه . ان الذى يرد عليه هو على الأحرى كاتب صغير من قسم آخر . كذلك من الممكن أن يحدث فى ساعة محظوظة أن يريد الانسان الاتصال بكاتب صغير ، فاذا بسوردينى هو الذى يجيب . ولهذا فانه بطبيعة الحال من الأفضل أن يبتعد الانسان عن التليفون . قبل أن تصدر عنه أول نبذة .

فقال ك :

— لم أعتبره على هذا النحو ، فلم أكن أعرف هذه التفصيلات . والحقيقة أننى لم أكن أثق فى هذه الاتصالات التليفونية كثيرا ، وكنت

أعرف أن الشيء الوحيد الذى له أهمية فعلية هو أن يعرف الانسان شيئا
من القصر مباشرة أو يصل فيه هو الى شيء .
فقال الرئيس معلقا على احدى الكلمات :

— لا . ان هذه الاتصالات التليفونية لها أهمية فعلية ، وكيف يمكن
ألا تكون كذلك ؟ كيف يمكن أن تكون المعلومات التى يعطيها موظف من
القصر مجردة من الأهمية ؟ ولقد أشرت الى ذلك بالنسبة لخطاب كلم . كل
ما فى الأمر أن هذه التصريحات ليس لها أهمية رسمية . فاذا أنت أضفت
عليها أهمية رسمية ، أخطأت . أما أهميتها الخصوصية من ناحية الصداقة
أو العداوة فهى كبيرة جدا ، وربما كانت أكبر من أى أهمية رسمية اطلاقا .
وقال ك :

— حسنا . اذا قبلنا جدلا بأن الأحوال على هذا النحو ، فمعنى هذا
أن لى عددا كبيرا من الأصدقاء الطيبين فى القصر . فنظرة دقيقة الى
الموضوع تدل على أن الخاطر الذى طرأ قبل سنتين طويلة على ذلك القسم
ياستدعاء موظف مساحة ، كان عملا وديا خياليا ، ثم تتابع الأعمال فى
الفترة التالية الواحد تلو الآخر ، حتى انتهت الى نهاية سيئة ، هى
اجتذابى الى هنا ثم تهديدى بالرمى .
وقال الرئيس :

— هناك حقيقة ما فى مفهومك . وأنت على صواب فى أن تعبيرات
القصر لا ينبغي أن تؤخذ حرفيا . والحذر ضرورى فى كل مقام ، ليس
هنا فقط ، وهو يزداد ضرورة كلما ازداد تعبير القصر أهمية . أما ما قلته
عن اجتذابك الى هنا ، فأنا لا أستطيع أن أفهمه . ولو أنك تتبعت شروحي
على نحو أفضل ، لعلمت أن مسألة استدعائك الى هنا مسألة أصعب من أن
نجيب عليها فى أثناء محادثة صغيرة هنا .
فقال ك :

— وهكذا تظل النتيجة هى أن كل شيء مبهم مستعص على الحل
الى أن أرمى .
وقال الرئيس :

— ومن الذى أراد أن يجرو على رميك يا سيادة موظف المساحة ؟
ان غموض الأسئلة المبدئية الموجهة اليك يعنى معاملتك بغاية الأدب ،
ولكن يبدو أنك مفرط الحساسية . ليس هناك من يمنعك من الرحيل ،
ولكن هذا لا يعنى رميك .

فقال ك :

— آه يا سيادة الرئيس ! هأنتمذا تعود فترى بعض الأشياء بوضوح مسرف . واننى ذاكرك الآن بعض الأشياء التى تمنعنى من الرحيل من هنا : التضحية التى تحملتها عندما تركت دارى ورحلت — الرحلة الطويلة الشاقة — الآمال التى عقدتها على قبولى هنا — وكانت كلها آمالا لها ما يبررها — افتقارى الكامل الى المال — استحالة عثورى الآن على عمل مماثل فى بلدى — وأخيرا ، وليس هذا أقل الأسباب ، عروسى وهى من أبناء هذا المكان .

وقال الرئيس دون أن يفاجأ بحال من الأحوال :

— آه ، فريدا . أنا أعرف . ولكن فريدا لا شك ستتبعم حيثما ذهبت . أما فيما يتعلق بالموضوعات الأخرى فهناك تدابير معينة تدعو إليها الضرورة ، وأنا سأكتب تقريرا أبعث به الى القصر . فاذا أتى قرار أو اذا كانت هناك ضرورة قبل صدوره لاستجوابك مرة أخرى ، فسأستدعيك . هل أنت موافق على ذلك ؟

فقال ك :

— لا ! مطلقا ! اننى لا أريد منة من القصر ، أنا أريد حقى .
وقال الرئيس لزوجته التى كانت لا تزال جالسة ملتصقة به وكانت تعبت تائهة خاملة بخطاب كلم الذى صنعت منه مركبا ، فأخذه ك منها مفزوعا :

— يا ميتسى ! يا ميتسى ! لقد عادت ساقى تؤلمنى ، لابد أن نجدد الكمادات .

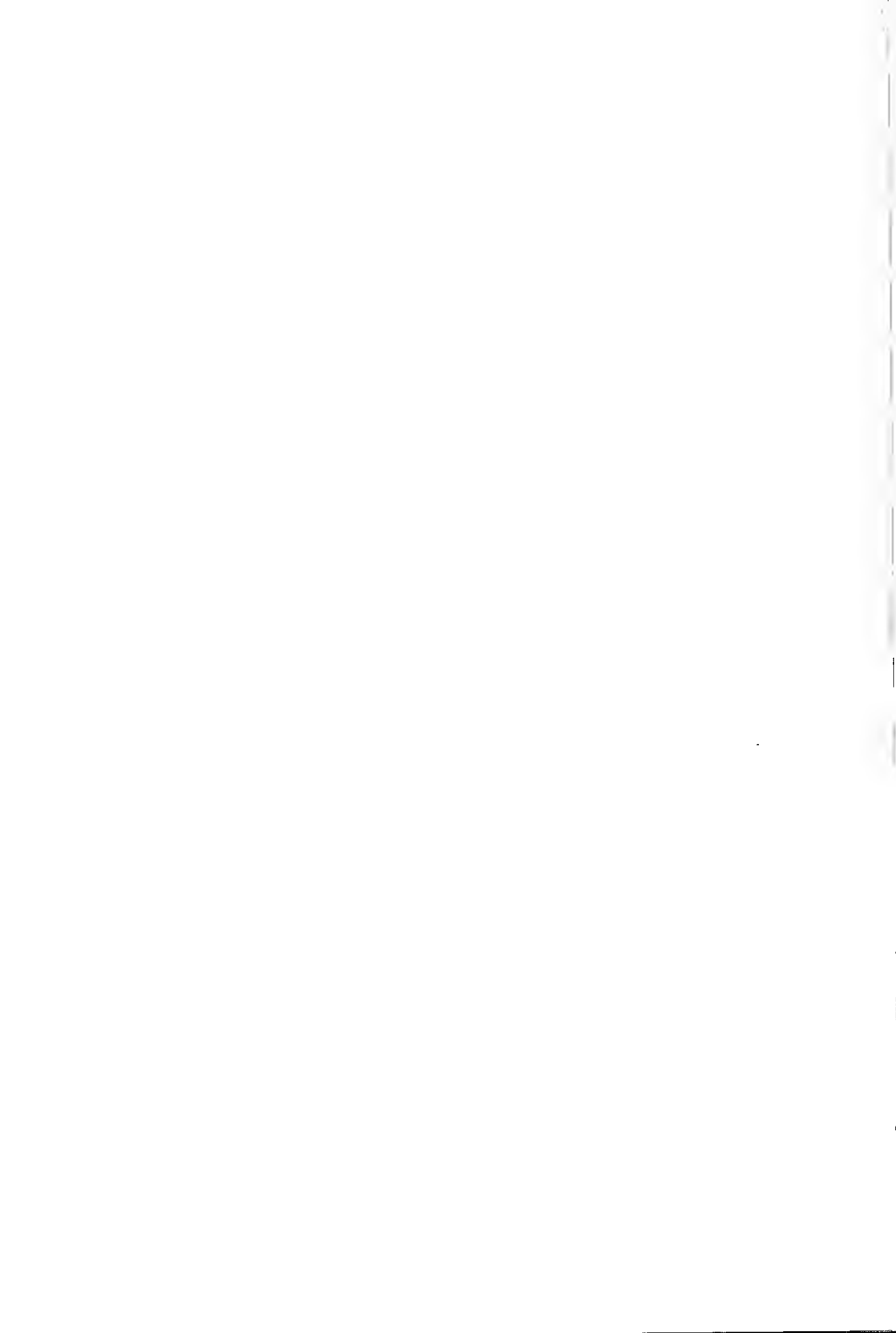
ونهبض ك واقفا وقال :

— فأستأذن أنا فى الانصراف .

وقالت ميتسى وكانت قد أعدت مرهما :

— نعم ، فتيار الهواء شديد .

والتفت ك خلفه ، واذا بالمساعدين ، وقد أخذهما حماسهما فى العمل ، وما كان قط حماسا فى موضعه ، قد فتحا ، عند سماعهما ملاحظة ك ، مصراعى الباب . ولم يستطع ك — لحرصه على حماية حجرة المريض من البرودة المندفعة إليها اندفاعا شديدا — الا أن ينحنى أمام الرئيس . اتجناه عابرة . ثم جرى ، جاذبا المساعدين معه ، خارج الحجرة وأسرع باقفال الباب .



الفصل السادس

كان صاحب الحان ينتظره أمام الحان . وما كان صاحب الحان
ليجروا على الحديث اليه ان لم يسأله هو ، ولذلك سأله ك عما يريد .
فسأله صاحب الحان وهو ينظر الى أسفل :

— هل وجدت سكنا جديدا ؟

فقال ك :

— انك تسأل بتكليف من زوجتك . فهل أنت تابع لها الى هذا

الحال ؟

فقال صاحب الحان :

— لا ، أنا لا أسأل بتكليف منها . ولكنها ثائرة جدا ، وتعيصة
بسببك ، فهي لا تستطيع العمل ، بل ترقد في السرير وتتنهد وتشكو
بلا توقف .

وسأل ك :

— هل ينبغي أن أذهب اليها ؟

فقال صاحب الحان :

— أرجوك أنه تفعل . ولقد كنت أريد أن أستدعيك وأنت عند
الرئيس ، وتصنعت على الباب ولكنكما كنتما تتحادثان ، ولم أشأ أن أسبب
لكما ازعاجا ، وكذلك كنت قلقا على زوجتي ، فجريت عائدا اليها ،
ولكنها لم تسمح لي بالدخول اليها ، فلم يعد أمامي من شيء أفعله سوى
انتظار قدومك .

فقال ك :

— اذن فهيا بنا ، بسرعة ، وسأهدئها على الفور .

وقال صاحب الحان :

— ليتك تتمكن من تهدئتها !

وسارا خلال المطبخ الصغير ، كانت هناك ثلاث أو أربع خادومات ، كل واحدة بعيدة عن الأخريات ، فتجمدن في العمل الذي كن يقمن به مصادفة ، عندما رأيْن ك . وكان تنهد صاحبة الحان يسمع في المطبخ ، وكانت ترقد في تحويطة بلا نوافذ ، لا يفصلها عن المطبخ سوى جدار خشبي خفيف . ولم يكن بالتحويطة مكان يتسع الا لسريز مزدوج كبير ودولاب . وكان السريز موضوعا بحيث كان يمكن النظر منه الى المطبخ كله ومراقبة العمل .

ولم يكن في استطاعة من بالمطبخ أن يرى شيئا تقريبا مما في التحويطة ، فقد كانت مظلمة تماما ، لا يظهر منها الا بريق مفرش السريز الأبيض - الأحمر . ولم يكن الانسان يستطيع أن يتبين التفاصيل الا بعد أن يدخل وتتعود عيناه على الظلمة .

وقالت صاحبة الحان واهنة :

وأخيرا أتيت !

كانت ترقد على ظهرها ممددة الأطراف، ويبدو أن التنفس كان يسبب لها آلاما ، وكانت قد أزاحت اللحاف بعيدا . وكانت وهي في السريز تبدو أكثر شبابا منها وهي في كامل ثيابها ، ولكنها كانت تضع على رأسها طاقيّة من نسيج الدنتيلا الرقيق ، أصغر من رأسها صغرا مفرطا ، تتأرجح على شعرها المصفوف ، وكانت تلك الطاقيّة تجعل ما بالوجه من تدهور يبدو مثيرا للشفقة . وقال ك برقة :

— وكيف كان يمكنني أن آتي ؟ انك لم تبعثي الى بمن يستدعيني .

وقالت صاحبة الحان بعناد المرضى :

— ما كان ينبغي عليك أن تتركني أنتظر هذا الوقت كله .

ثم قالت مشيرة الى حافة السريز :

— اجلس .

وقالت للأخرين :

— أما أنتم فانصرفوا .

وكان المساعدان ، علاوة على الخادومات ، قد اندفعا الى التحويطة . —

وقال صاحب الحان :

— وأنا كذلك أريد أن أنصرف يا جاردينا .

وسمع ك لأول مرة اسم المرأة . وقالت صاحبة الحان ببطء :

— طبعاً .

ثم أضانت تائهة وكأنها مشغولة كانت بأفكار أخرى :

— ولماذا كنت تبقى أنت بالذات ؟

فلما تراجع الجميع الى المطبخ — ومن بينهم المساعدان فى هذه المرة — كانا يلاحقان احدى الخادمت — كانت جاردينا من التنبه بحيث وعت أن من بالمطبخ يستطيع أن يسمع كل شئ يقال هنا لأن التحويلة لم يكن لها باب ، ولهذا أمرت الجميع بأن يتركوا المطبخ كذلك • وأطاعوا على الفور •

ثم قالت جاردينا :

— من فضلك يا حضرة موظف المساحة • هناك فى مقدمة الدولاب مباشرة شال معلق ، أرجوك أن تناولنى اياه ، فأنا أريد أن أغطى به ، اننى لا أحتمل اللحاف نظرا لضيق صدرى •

فلما أحضر ك اليها الشال قالت :

— انظر ، انه شال جميل ، أليس كذلك ؟

ورأى ك أنه شال صوف عادى ، فتحسسه مرة أخرى ارضاء لها ولكنه لم يقل شيئا • وقالت جاردينا وهى تلتف به :

— نعم ، انه شال جميل •

وهكذا استلقت مطمئنة ، ولاحث كأن كل ما بها من ألم قد تبدد ، بل ان شعرها الذى كان قد اضطرب نتيجة رقادها خطر ببالها ، فقعدت هنيهة وأحسنّت من تصفيفه قليلا حول الطاوية • وكانت جاردينا غزيرة الشعر •

ولم يطق ك صبرا فقال :

— لقد كلفت من سألنى عما اذا كنت قد اتخذت سكنا جديدا •

فقالت صاحبة الحان :

— أنا كلفت من سالك ؟ لا ، هذا خطأ •

— لقد سألنى عن ذلك زوجك منذ قليل •

فقالت صاحبة الحان :

— هذا ما يمكننى تصديقه • لقد تضاربت معه • لقد أبقاك هنا فى الوقت الذى لم أكن فيه أريدك هنا ، أما الآن وقد سعدت بوجودك هنا ، فانه يدفعك الى الرحيل • هكذا يتصرف دائما •

فقال ك :

— اذن فأنت قد غيرت رأيك فى هذا التغيير الشديد ؟ فى ظرف ساعة أو ساعتين ؟

وقالت صاحبة الحان بصوت أكثر ضعفا :

— أنا لم أغير رأيى • هات يدك • هكذا • والآن عدنى بأن تكون صريحا كل الصراحة معنى وأنا أريد أن أكون صريحا كل الصراحة معك •
فقال ك :

— حسنا • ولكن من الذى سيبدأ ؟

فقالت صاحبة الحان :

— أنا •

ولم يكن يبدو عليها أنها تريد أن تهون على ك الأمر ، بل كان يبدو عليها أنها متلهفة على أن تكون هى البادئة بالكلام •

وأخرجت من تحت المرتبة صورة فوتوغرافية وقدمتها الى ك وقالت فى أسلوب الرجاء :

— انظر الى هذه الصورة •

وتقدم ك خطوة ناحية المطبخ ليتمكن من رؤيتها على نحو أفضل ، ولكنه لم يكن من السهل حتى هناك التعرف على شئ فى الصورة ، التى كانت قد بهتت وتشتت وتعفصت وتيقعت تحت وطأة السنين • فقال ك :

— انها للأسف ليست فى حالة جيدة •

فقالت صاحبة الحان :

— للأسف ! للأسف ! ولكن عندما يحمل الانسان صورة معه أينما ذهب عاما بعد عام فانها تصبح على هذه الحالة • ولكنك اذا دقت النظر فيها ، فستبين كل شئ ، بكل تأكيد • ثم اننى أستطيع أن أساعدك ، قل ماذا ترى فى الصورة ، اننى أفرح دائما عندما أسمع شيئا عن الصورة • ماذا ترى ؟

فقال ك :

— أرى شابا •

فقالت صاحبة الحان :

— بالضبط • وماذا يعمل ؟

— انه يرقد ، على ما أظن ، على سرير ، ويتمطى ويتثائب .
فضحكت صاحبة الحان ، وقالت :
— هذا خطأ كله .

وصمم ك على وجهة نظره قائلا :
— ولكن هذا هو السرير ، وها هو ذا يرقد هنا .
فقال صاحبة الحان مغضبة :
— دقق النظر . هل هو يرقد فعلا ؟
وهنا قال ك :

— لا ، انه لا يرقد ، انه يهيم ، وأنا أتبين الآن أن هذا الشيء ليس
خشب السرير ، بل هو على ما يبدو خيط ، والشاب يقفز قفزة عالية .
فقال صاحبة الحان مسرورة :
— نعم ، انه اذن يقفز . وهكذا يتمرن السعاة الرسميون . لقد
كنت أعرف أنك ستبين ما فى الصورة . أترى كذلك وجهه ؟
فقال ك :

— اننى لا أرى من الوجه الا القليل . يبدو أنه يبذل جهدا كبيرا لأن
القم مفتوح ، والعينين مطبقتا . والشعر هفهاف .
فقال صاحبة الحان معبرة عن تقديرها :
— عظيم جدا . لا يمكن لانسان لم يره من قبل أن يتبين من الصورة
أكثر من ذلك . ولكنه كان شابا جميلا . ولقد رأيته أنا مرة واحدة رؤية
عابرة ، ولكنى لن أنساه أبدا .
فسأل ك :

— ومن هذا ؟

— فقلت صاحبة الحان :

— الساعى الذى استدعانى كلم عن طريقه اليه للمرة الأولى .

ولم يستطع ك أن يصغى بدقة ، فقد شتت صوت قرع على الزجاج
إنتباهه . وما لبث أن اكتشف سبب الاقلاق . كان المساعدان يقفان فى
الفناء فى الخارج ، وكانا يقفزان متنقلين من قدم الى أخرى . وتصنعا
السعادة لرؤية ك مرة أخرى ، وكان كل منهما يريه لصاحبه من فرط
السعادة ، وكانا فى أثناء ذلك لا يكفان عن القرع على شباك المطبخ .

وأشار ك اليهما اشارة تهديد ، فكفا عن فعلتهما على الفور ، وحاول كل منهما أن يدفع صاحبه الى الخلف ، ولكنهما كانا يتماسكان من جديد ، وإذا هما عند النافذة من جديد . وأسرع ك الى التحويلة التي لم تكن أنظار المساعدين تصل اليها من الخارج والتي لم يكن يضطر وهو فيها الى النظر اليهما . ولكن الدق على الزجاج على نحو يعبر عن التوسل والرجاء ظل يلاحقه هناك مدة طويلة .

وقالت صاحبة الحان ملتزمة له العذر وهي تشير الى الخارج :

— المساعدان مرة أخرى .

ولكنها لم تكن منتبهة اليه . كانت قد أخذت منه الصورة ونظرت اليها وسوتها ودستها مرة أخرى تحت المرتبة . كانت حركاتها قد ازدادت بطئا ، لا نتيجة للتعب ، ولكن تحت وطأة الذكرى . كانت تريد أن تحكى لك ، ولكن الحكاية أنستها اياه . وأخذت تعث بشرايب الشال وظلت كذلك برهة ، رفعت بعدها نظرها الى أعلى ، ومسحت بكفها على عينيها وقالت :

— وهذا الشال كذلك من كلم . وكذلك الطاقية الصغيرة . الصورة والشال والطاقية هي الذكريات الثلاث التي لدى عنه . وأنا لست شابة مثل فريدا ، ولست طموحة مثلها ، ولست رقيقة الحس مثلها ، فانها رقيقة الحس جدا . اننى باختصار أعرف كيف أسير فى الحياة ، ولكن لا بد أن أعترف ، بأننى لو لم أكن أملك الأشياء الثلاثة ، لما كنت قد احتملت البقاء هنا هذه المدة الطويلة ، بل لما كنت ، على الأرجح ، احتملت البقاء هنا يوما واحدا . وربما بدت لك الأشياء الثلاثة قليلة ، ولكن انظر : ان فريدا التي كانت على صلة بكلم لفترة طويلة جدا لا تمتلك شيئا واحدا للذكرى ، ولقد سألتها ، ولكنها حاملة طماعة . أما أنا ، التي ذهبت الى كلم ثلاث مرات فقط — فلم يعد يرسل فى طلبى ولا أعرف لماذا — فقد أخذت هذه الأشياء للذكرى ، وكأنى كنت أتوقع أن وقتى معه سيكون قصيرا . وينبغى على الانسان بطبيعة الحال أن يهتم هو بهذه الأمور ، لأن كلم نفسه لا يعطى شيئا ، ولكن اذا ما رأى الانسان شيئا مناسباً عنده ، ففى الامكان أن يرجوه وأن يناله .

وأحس ك بعدم الارتياح حيال هذه القصص على الرغم من أنها كانت

تمسه جدا .

وسأل ك وهو يتنهد :

— متى كان هذا كله ؟

فقال صاحب الحان :

— قبل أكثر من عشرين سنة ، أكثر من عشرين سنة بكثير .

فقال ك :

— الى هذا المدى يستمر الاخلاص لكلم . ولكن ألا تتبينين ياسيدتى
صاحبة الحان ، انك بمثل هذه الاعترافات تسببين لى قلقا شديدا عندما
أفكر فى زواجى المستقبل ؟

ووجدت صاحبة الحان أنه من غير اللائق أن يحاول ك أن يندس
هنا بمسائله ، فنظرت اليه من الجانب غاضبة . فقال ك :

— لا تغضبى ، ياسيدتى صاحبة الحان . اننى لا أقول كلمة واحدة
ضد كلم ، ولكنى بتأثير قوة الأحداث دخلت فى علاقات ما مع كلم . وهذا
شئ لا يمكن لأكبر معجب بكلم أن ينكره . المهم . أن النتيجة هى أننى
فى كل مرة يأتى فيها ذكر كلم ، لابد أن أفكر فى نفسى . هذا شئ لا يمكن
تغييره . وأنت يا سيدتى صاحبة الحان ..

وهنا أمسك ك بيدها المترددة ، وراح يكمل :

— أنت تذكرين كيف انتهت محادثتنا الأخيرة نهاية رديئة ، ونحن
نريد هذه المرة أن ننتهى من المحادثة فى وئام .

فقال صاحبة الحان وهى تطأطئ رأسها :

— أنت على حق . ولكن لا تعرضنى لما يسوءنى . وأنا نسبت أكثر
حساسية من الآخرين ، بل على العكس ، ولكن كل انسان له جوانب
حساسة ، وهذا هو الجانب الحساس عندى .

وقال ك :

— وهو للأسف أيضا الجانب الحساس لدى ، ولكنى سأتحكم فى
نفسى بكل تأكيد . والآن اشرحى لى ، ياسيدتى صاحبة الحان ، كيف
يمكننى بعد الزواج أن أتحمل هذا الاخلاص البشع حيال كلم ، على فرض
أن فريدا تشبهك فى هذه الناحية ؟

وأعادت صاحبة الحان غاضبة :

— الاخلاص البشع ؟ هل هذا اخلاص ؟ اننى مخلصه لزوجى ، أما
كلم ؟ فلقد جعل منى ذات مرة عشيقه له ، وهل فى امكانى أن أفقد هذه
الرتبة أبدا ؟ وكيف يمكنك أن تحتمل هذا مع فريدا ؟ آه ، يا حضرة موظف
المساحة ، من أنت حتى تجرؤ على السؤال هكذا ؟

فقال ك محذرا :

— ياسيدتي صاحبة الحان !

وقالت صاحبة الحان منصاعة أنا أعرف ، ولكن زوجي لم يسأل مثل هذه الأسئلة . ولست أعرف من التي تسمى تعييسة ، أنا في ذلك الوقت ، أو فريدا الآن . فريدا التي تركت كلم عمدا ، أو أنا التي لم يعد يستدعيها . ربما فريدا وان لم يبد عليها أنها تعرف ذلك تماما . ولكن أفكاري كانت دائما تحت سيطرة نحسى دون ما سواء ، لأننى كنت لا أكف عن التساؤل ، وما زلت فى الحقيقة لا أكف الآن عن التساؤل : لماذا حدث هذا ؟ لقد استدعاك كلم ثلاث مرات ، ثم لم يستدعك مرة رابعة ، ولم تأت المرة الرابعة مطلقا . وهل كان هناك فى ذلك الوقت شيء يشغلنى أكثر من هذا ؟ وفى أى موضوع ، غير هذا ، كان يمكننى أن أتكلم مع زوجي ، الذى تزوجته بعد ذلك بقليل ؟ لم يكن لدينا أثناء النهار وقت ، لأننا كنا قد أخذنا الحان فى حالة بانسة ، وكان علينا أن نجتهد فى تحسينها . وفى الليل ؟ لقد ظلت أحاديثنا لأعوام طويلة تدور حول كلم وحده ، وحول أسباب تغير فكره . وعندما كان زوجي ينعس أثناء هذه الأحاديث ، كنت أوقظه لنستمر فيها .

وقال ك :

— والآن ، اذا سمحت ، سأسألك سوألا شديد الغلظة .

وصمتت صاحبة الحان .

فقال ك :

— اذن فليس لى أن أسأل . وهذا يكفينى .

فقالت صاحبة الحان :

— بطبيعة الحال ، هذا يكفيك ، وهذا بالذات . انك تسيء تأويل

كل شيء ، حتى الصمت . انك لا تستطيع الا أن تتصرف على هذا النحو . ولكننى أسمح لك بالسؤال .

فقال ك :

— اذا كنت أسيء تأويل كل شيء ، فلعلى أسيء التأويل حتى سوألى

نفسه ، ولعله ليس شديد الغلظة . لقد كنت أريد أن أعرف كيف تعرفت بزواجك وكيف وصل هذا الحان الى حوزتك ؟

وقطبت صاحبة الحان جبينها ولكنها قالت بنفس الروح :

— تلك قصة بسيطة جدا . كان أبى حدادا ، وكان هانس ، زوجي

الحالى ، سايسا للخيل عند مزارع كبير ، وكان يأتى كثيرا الى أبى . وكان

ذلك بعد لقائى الأخير مع كلم ، وكنت تعيسة جدا ، وإن لم يكن لى أن أتردى الى التعاسة الشديدة ، لأن الأمور كلها كانت تسير على ما يرام ، وكان بعدى عن كلم بناء على قرار منه ، أى كان أمرا صحيحا . ولكن أسباب قراره كانت غامضة . . ولم يكن لى أن أبحث فيها ، ولكنه لم يكن لى أن أتردى الى التعاسة . المهم اننى كنت تعيسة ، واننى لم أكن أستطيع العمل ، وأننى كنت أجلس النهار كله فى الحديقة الصغيرة أمام دارنا . وهناك رآنى هانس ، وكان يأتى الى ويجلس الى أحيانا ، ولم أشك له ، ولكنه كان يعرف الأمر ، ولما كان صديبا طيبا ، فقد حدث ذات مرة أن يكى معى . ولما مر صاحب الحان القديم على حديقتنا الصغيرة ذات مرة ، وكانت زوجته قد توفيت ، واضطر لذلك الى ترك هذه الحرفة - ثم انه كان مسنا - ورآنى جالسة فيها ، وقف وعرض علينا مباشرة أن نستأجر الحان ، ولم يكن يريد شيئا مقدما ، لثقتة فينا ، وكذلك جعل الايجار منخفضا جدا . ولم أكن أريد أن أكون حملا ثقيل على أبى ، وكان كل شيء عدا ذلك هينا ، وهكذا قدمت يدي الى هانس وأنا أفكر فى الحان وفى العمل الجديد الذى كان يمكن أن يأتينى بشيء من النسيان . هذه هى الحكاية .

وساد السكون هتية . ثم قال ك :

— لقد كانت طريقة صاحب الحان فى التصرف جميلة ، ولكنها لم تكن حذرة ، أم هل كانت لديه أسباب خاصة للثقة فيكما ؟
وقالت صاحبة الحان :

— لقد كان يعرف هانس جيدا ، لأنه كان عمه .
فقال ك :

— هو ذاك اذن . وهل بدا على أسرة هانس أنها كانت مهتمة اهتماما كبيرا بالاقتران بك ؟

فقالت صاحبة الحان :

— ربما . لا أعرف . وأنا لم أهتم قط بمعرفة ذلك .

فقال ك :

— لابد أن الأمر كان كذلك ، اذا كانت الأسرة مستعدة للتضحية الى هذا الحد ووضع الحان فى يديك دون ما ضمان .

فقالت صاحبة الحان :

— لم يكن ذلك حمقا منها ، على ما تبين فيما بعد . فقد وضعت كل

ثقل في العمل ، وكنت قوية ابنة حداد ، ولم أكن بحاجة لا الى خادمة ولا الى خادم ، وكنت أعمل في كل مكان ، في الخمار ، في المطبخ ، في الحظيرة ، في الفناء ، وكنت أجيد الطهي لدرجة أنني طردت بعض الزبائن الى حان السادة ، لأنهم لم يجتمعوا في الظهر في قاعة الحان - وأنت لا تعرف زبائن الظهر عندنا ، وكانوا في ذلك الوقت أكثر من الآن ، وهرب منهم الكثيرون بعد ذلك . ولم يقف ما تمكنا من انجازه عند حد دفع الایجار في مواعده ، بل تجاوزته الى أن تمكنا بعد سنوات قليلة من شراء كل شيء ، وأصبح الحان لنا خالصا من كل دين . ثم حدث شيء هام آخر بعد ذلك ، وهو انني بطبيعة الحال تحطمت وأصابت بمرض القلب وأصبحت امرأة عجوز . ولعلك تظن أنني أكبر من هانس بسنوات كثيرة ، والحقيقة انه لا يصغرنى الا بسنتين أو ثلاث سنوات ، ولكن الشيخوخة لم تظهر عليه أبدا ، لأن العمل الذي يقوم به - تدخين الغليون والاستماع الى الزبائن ثم تنظيف الغليون من بقايا التبغ واحضار القليل من البيرة أحيانا - عمل لا يبلغ بأحد الشيخوخة .

فقال ك :

- ان جهودك لجديرة بالاعجاب ، هذا شيء لاشك فيه . ولكننا تكلمنا عن الوقت السابق على زواجكما ، ولقد يبدو من الغريب أن تكون أسرة هانس ألححت على أن يتم الزواج مع هذه التضحية المالية أو على الأقل مع تحمل هذه المخاطر الجسيمة التي يعينها تتمثل في التنازل عن الحان ، في وقت لم يكن فيه من أمل سوى طاقتك على العمل ، ولم تكن تلك الطاقة للأسرة معرفة بها ، وطاقة هانس على العمل ، ولا بد أن الأسرة كانت تعرف أنها غير موجودة .

فقالت صاحبة الحان واهنة :

- آه ، اننى أعرف الهدف الذى ترمى اليه ، والى أى حد يجانبك الصواب . لا ، لم يكن لكلم أى أثر في هذه الأمور كلها . ولماذا كان يتكفل بى ، أو على الأصح كيف كان يمكنه أن يتكفل بى ؟ انه لم يعد يعرف أى شيء عنى . انه لم يعد يبعث فى طلبى ، وكانت تلك علاقة تدل على أنه قد نسيتنى . انه عندما يكف عن استدعاء شخص ما اليه ، فهذا يعنى أنه نسيه نسيانا تاما . وأنا لم أرد أن أتحدث بشيء من هذا أمام فريدا . وليس هذا مجرد نسيان ، انه أكثر من ذلك . فان الشخص الذى ننساه ، يمكن أن نذكره ثانيا . ولكن هذا مستحيل لدى كلم . ان الشخص الذى يكف عن استدعائه ، شخص قد نسيه تماما لا بالنسبة للماضى فحسب ،

ولكن بالنسبة للمستقبل أيضا وعلى نحو قاطع • وأنا عندما أبذل الكثير من الجهد أستطيع أن أتبع سبيل أفكارك ، أفكارك التى لا معنى لها هنا ، وبالتى ربما كانت فى الغربة التى أتيت منها أفكارا نافذة لها صلاحيتها • ومن الممكن أن تصل بأفكارك الى الجنون الذى يحملك على الاعتقاد فى أن كلم قد أعطاني هانس زوجا حتى لا يصبح لدى ما يعوقنى عن الذهاب اليه اذا ما استدعاني اليه فى المستقبل • وأين هذا الرجل الذى يمكن أن تكون له القدرة على معنى من الجرى الى كلم اذا لوح الى ؟ هذه حماقة • حماقة مطبقة • وأن الانسان ليضطرب أشد الاضطراب اذا خالجه هذه الحماقة •

وقال ك :

— لا ينبغي أن نبلغ هذا الاضطراب الشديد ، وأنا لم أذهب بأفكارى الى هذا المدى الذى تقترضين أنتى وصلت اليه ، وإن كنت — والحق يقال — قد سلكت السبيل اليه • كل ما فى الأمر اننى اندهشت مؤقتا لأن الأسرة عقدت كثيرا من الآمال على هذه الزيجة ، وأن آمالها تحققت بالفعل ، وإن كلفك هذا قلبك وصحتك • والحقيقة ان فكرة وجود علاقة بين كل هذه الوقائع وكلم كانت تفرض نفسها على ، ولكنها لم تكن قد وصلت ، أو لم تكن قد وصلت بعد ، الى هذه الوقاحة التى تصورين بها الأمور ، وتقصدين من ورائها على ما يبدو الى الاغلاظ لى ، لأنك تجدين فى ذلك متعة • فلك هذه المتعة ! ولكن فكرتى كانت تتلخص فيما يلى : ان كلم كان على ما يبدو هو الدافع الى الزواج • فلو لم يكن كلم ، لما كنت قد ترديت الى التعاسة ، ولما كنت قد جلست ساكنة فى الحديقة الصغيرة أمام الدار ، ولو لم يكن كلم لما رآك هانس هناك ، ولو لم تكونى حزينة لما تجاسر هانس الخجول على التوجه اليك بحديث ، ولو لم يكن كلم لما وجدت نفسك وهانس تذرغان الدموع ، ولو لم يكن كلم لما رآكما العم الطيب صاحب الحان تجلسان فى وئام معا ، ولو لم يكن كلم ، لما استهزت بالحياة ، ولما كانت النتيجة زواجك بهانس • كل هذه أمور فكرت أن لكلم بها شأن ليس بالقليل • ولكن فكرتى لا تنتهى عند هذا الحد ، بل تصل الى أبعد منه • فلو أنك لم تسعى الى النسيان ، لما كنت قد عملت فى الحان دون اعتبار لصحتك ، ولما كنت قد نهضت به • وهذه ناحية أخرى نجد فيها كلم كذلك • ثم ان كلم ، بغض النظر عن ذلك ، هو السبب فى مرضك ، لأن قلبك كان قبل الزواج يعانى من الانهاك نتيجة للحب «الفاشل • وتبقى مسألة وخيدة هى الشيء الذى اجتذب أهل هانس الى هذا الزواج على نحو شديد • لقد ذكرت أنت نفسك أن الوصول الى درجة

عشيقه للكلم وصول الى رتبة لا سبيل الى فقدانها . ولعل هذا هو السبب الذى اجتذبهم . هذا الى أننى أعتقد أن طالع السعد الذى ساقك الى كلم - هذا على فرض انه كان طالع سعد ، ولكنك أنت تؤكدين ذلك أنه - منك لك ، وأنه لذلك يبقى معك ، ولا يتركك بسرعة وفجأة كما فعل بك كلم .

وسألت صاحبة الحان :

- هل أنت جاد فى هذا كله ؟

وقال ك : بسرعة :

- نعم جاد . ولكننى أعتقد أن أسرة هانس لم تكن فيما ذهبت اليه من آمال على حق تماما ، ولم تكن على خطأ تماما ، وأعتقد كذلك اننى أعرف الغلطة التى ارتكبتها . فكل الأمور تبدو من الناحية الظاهرية ناجحة ، بالنسبة الى هانس ، فقد تحققت له رعاية طيبة ، وقد تزوج امرأة جسيمة ، ووصل الى سمعة طيبة ، وأصبح الحان بلا ديون . ولكن الأمور ليست كلها فى الحقيقة ناجحة ، فليس من شك فى أنه كان سيجد سعادة أكثر لو أنه تزوج بنتا بسيطة أحبها وكان أول حب كبير فى حياتها . وإذا كان هو - وعلى ذلك تلومينه كثيرا - يقف فى قاعة الحان أحيانا كالثالث فما ذلك الا لأنه يحس بنفسه فعلا كالثالث - دون أن يكون لهذا السبب تعيسا ، بكل تأكيد ، فأنا أعرفه الآن معرفة تمكننى من الحكم بذلك - وليس من شك أيضا فى أن هذا الشاب الجميل الفطين كان يمكن أن يكون أكثر سعادة مع امرأة أخرى ، وأعنى بأكثر سعادة : أكثر استقلالا وأكثر نشاطا وأكثر رجولة . وأنت كذلك ، لست بكل تأكيد سعيدة ، ولقد قلت ، انك ما كنت تستمرين فى الحياة ، لو لم تكن لديك الذكريات الثلاث ، ثم أنك مريضة بالقلب . هل معنى هذا أن الأسرة كانت فيما ذهبت اليه من آمال على خطأ ؟ لا أظن ذلك . لقد كانت البركة دائما فوقك ، ولكن أحدا لم يفهم كيف يستنزلها .

وسألت صاحبة الحان وكانت تتعمد على ظهرها وتنظر الى السقف :

- فما الذى كان ينبغي عليهم فعله ولم يفعلوه ؟

فقال ك :

- أن يسألوا كلم .

فقالت صاحبة الحان :

- وبهذا نكون قد وصلنا مرة أخرى اليك .

فقال ك :

— أو اليك • فموضوعاتنا متصلة الحدود •

فسألت صاحبة الحان :

— ماذا تريد اذن من كلم ؟

كانت صاحبة الحان قد قعدت ، ونفضت المخذات حتى تستطيع أن تستند اليها قاعدة ، وأخذت تنظر في عيني ك محدقة فيهما • وأردفت :

— لقد حكيت لك موضوعي بصراحة ولعلك كنت تستطيع أن تتعلم منه شيئا • فقل لي الآن بصراحة مماثلة : عما تريد أن تسأل كلم ؟
والحقيقة أنني لم أستطع الا بكل جهد أن أقنع فريدا بأن تصعد الى حجرتها وأن تبقى بها ، فقد كنت أخشى ألا تتكلم في حضرتها بصراحة كافية •

فقال ك :

— ليس لدى ما أخفيه • وأنا أريد بادئ ذي بدء أن أوجه انتباهك الى شيء • لقد قلت ان كلم ينسى على الفور ، وهذا أولا يبدو لي بعيدا عن التصديق ، وهو ثانيا غير قابل للاثبات ، وما هو علي ما يبدو الا أسطورة تفتقت عنها قرائح البنات التي كن ينعمن بالحظوة لدى كلم • وأنا أدهش لأنك تصدقين أسطورة سخيفة الى هذا الحد •

فقالت صاحبة الحان :

— ليست أسطورة • انها خلاصة الخبرة العامة •

فقال ك :

— انها بدعة من الممكن دحضها ببدعة أخرى • وهناك فارق آخر بين حالتك وحالة فريدا • فالقول بأن كلم لم يعد يستدعى فريدا اليه ، قول بشيء لم يحدث على الاطلاق • فهو قد استدعاها ولكنها لم تتبعه • بل انه من المحتمل أن يكون في انتظارها دائما •

وصمتت صاحبة الحان وأخذت تلاحظ ك بنظرة تروح بها وتجيء ،

ثم قالت :

— اننى أريد أن أنصت الى كل ما تنوى قوله هادئة • وأن نتحدث بصراحة ، خير من أن تخفي شيئا خوفا على • وليس لي الا رجاء واحد • وهو ألا تستعمل اسم كلم • سمه « هو » أو ما شئت ، ولكن لا تسمه بإسمه •

فقال ك :

— لك ما تريد من طيب خاطر • ولكن الشيء الذى أريده منه شيء يصعب التعبير عنه • اننى أريد أولا أن أراه عن قرب ، ثم أريد بعد ذلك أن أسمع صوته ، ثم أريد أن أعرف موقفه من زواجنا • أما الطلب الذى قد أتوجه به اليه فمرهن بسير الحديث • وقد يتناول الحديث أموراً مختلفة ، ولكن أهم شيء بالنسبة الى هو أن أقف أمامه • فانا لم أتكلم حتى الآن مع موظف حقيقى مباشرة • ويبدو أن الوصول الى هذا أصعب مما كنت أتصور • أما الآن فقد أصبح لى الحق فى أن أتكلم معه على اعتبار انه شخص عادى ، وهذا فى اعتقادى أسهل تحقيقاً • فمن حيث هو موظف ، لا يمكننى أن أكلمه الا فى مكتبه الذى قد يكون بعيد المنال ، أو فى القصر ، وهو مكان الوصول اليه أمر مشكوك فيه ، أو فى حان السادة • أما من حيث هو انسان عادى ، فيمكننى أن أكلمه فى كل مكان ، فى البيت ، فى الشارع ، حيثما تمكنت من الالتقاء به • أما أننى فى هذه الحالة سأكون واقفاً فى مواجهة موظف أيضاً ، فأمر يطيح لى الرضا به ، وان لم يكن هو هدفى الأول •

وقالت صاحبة الحان وهى توارى وجهها فى المخدات وكأنها تقول :
شيئا لا حياء فيه :

— حسنا • اذا كنت سأسطيع بفضل اتصالاتى وعلاقاتى توصيل طلبك بمحادثة كلم فهل تعدنى بالأ تفعل شيئاً من تلقاء نفسك حتى تتنزل الاجابة ؟

فقال ك :

— هذا ما لا يمكننى أن أعدك به على الرغم من أننى أحب أن أحقق لك كل رغبة ونزوة • ولكن الأمر ملح ، وخاصة بعد النتيجة غير الطيبة التى انتهى اليها حديثى مع الرئيس •

فقالت صاحبة الحان :

— وهذا اعتراض لا اعتبار له ، لأن الرئيس شخص تافه تماماً • ألم تلاحظ ذلك ؟ وما كان يمكنه أن يبقى يوماً واحداً فى مركزه لو لم تكن هناك زوجته التى تدبر كل شيء •

وسأل ك :

— ميتسى ؟

فأومأت صاحبة الحان برأسها • وقال ك :

— لقد كانت حاضرة •

وسألت صاحبة الحان :

فقال ك :

— لا ، ثم اننى لم أحس بأنها يمكن أن تعبر عن رأى •

فقالت صاحبة الحان :

— هه ، هكذا تخطيء فى تقدير كل شىء هنا • المهم : أن ما قرره الرئيس بشأنك لا أهمية له ، وسأتكلم مع المرأة عندما تسنخ فرصة • وإذا أنا وعدتك الآن بأن اجابة كلم ستأتى فى غضون أسبوع على أكثر تقدير ، فهل ينتفى كل سبب لديك كان يدعوك الى عدم الاذعان لى ؟

فقال ك :

— ليس هذا كله حاسما • ولقد قر قرارى ، وسأحاول أن أنفذه اذا أتت اجابة بالرفض • وما دامت لدى هذه النية مقدما ، فلا يمكننى أن أكلف من يرجو لى محادثة • وان مسعاى الذى قد يعتبر — بدون هذا الرجاء — محاولة جريئة — ولكن طيبة النية — ليتحول اذا اصطدم الرجاء بالرفض الى ثورة صريحة • وهذا بطبيعة الحال أشد سوءا •

فقالت صاحبة الحان :

— أشد سوءا ؟ انها ثورة على أية حال • والآن افعل ما تريد •

ناولنى الثوب •

وارتدت الثوب دون أن تكثرث بـ ك وأسرعت الى المطبخ • وكانت أصوات تنم عن القلق قد تناهت الى السمع من ناحية قاعة الحان منذ وقت ليس بالقصير • وكان بعضهم قد دق على الطاقة • وكان المساعدان قد دفعوا للطاقة مرة وصاحا من داخلها بأنهما جائعين • ثم ظهرت فيها بعض الوجوه الأخرى • وتناهى الى الأذن غناء خفيض اشتركت فيه أصوات كثيرة •

كان حديث ك مع صاحبة الحان قد عطل طعام الغذاء بطبيعة الحال عطلا شديدا • ولم يكن الطعام قد أعد ، وكان الزبائن قد اجتمعوا • على أن أحدا لم يجرؤ على عصيان أمر صاحبة الحان بمنع الدخول الى المطبخ • فلما أبلغ أولئك الذين نظروا من الطاقة بأن صاحبة الحان مقبلة ، جرت الخدمات الى المطبخ ، وعندما دخل ك الى قاعة الحان ، اندفعت جماعة غفيرة تثير كثرتها الدهشة ، تزيد على العشرين ، من النساء والرجال ، يرتدون ملابس تدل على انهم من الأقاليم وان لم تكن ملابس الفلاحين ،

عائدة من الطاقة حيث تجمعت ، الى الموائد ليضمن كل لنفسه مكانا . الا
فى ركن من القاعة كان زوجان يجلسان مع بعض الأولاد ، ومال الرجل ،
وكان رجلا لطيفا أزرق العينين أشيب الرأس واللحية منفوش الشعر ، على
الأولاد وأخذ يرق بسكينه ايقاع أغنية يغنيها الأولاد ، وكان يبذل بغير
انقطاع محاولات ليكتم الغناء ، ولعله كان يريد بالغناء أن ينسى الأولاد
ما بهم من جوع . واعتذرت صاحبة الحان للجماعة بكلمات ألقتهما فى
استهتار ، ولم يوجه اليها أحد لوما . وتلفتت تبحث عن صاحب الحان ،
الذى كان قد لاذ منذ وقت طويل بالفرار على ما يبدو نتيجة لدقة الموقف .
ثم سارت متباطئة الى المطبخ . ولم تعد تنظر الى ك الذى أسرع الى حجراته
لللقاء فريدا .

الفصل السابع

وفى الحجرة التقى ك بالمعلم . وكانت فريدا قد نشطت فى اعداد الحجرة حتى كاد ألا يعود من الممكن التعرف عليها . فأحسننت تهويتها ، ونظمت السرير ، وأبعدت حاجيات الخادمتين - تلك الكراكيب المقيمة ، بما فيها من صور - وفرشت على المنضدة مفرشا أبيض اللون مشغولا ، وكانت تلك المنضدة ، بقرصها الذى كونت القذارة عليه طبقة صلبة ، تحمق فى الانسان أينما ذهب . أما الآن فقد أصبح من الممكن استقبال الضيوف . الا أن ملابس ك الداخلية القليلة ، التى يبدو أن فريدا قد غسلتها ، ونشرتها الى المدفأة لتجف ، كانت تسيء الى رونق الحجرة قليلا . كان المعلم وفريدا يجلسان الى المنضدة ، ونهضا واقفين عندما دخل ك . وحيث فريدا ك بقبلة ، أما المعلم فقد انحنى قليلا . واعتذر ك ، وكان تائه الفكر مضطرب النفس بعد الحديث مع صاحبة الحان ، لأنه لم يستطع أن يزور المعلم حتى الآن ، وكأنه افترض أن المعلم قد فرغ صبره لعدم زيارة ك له ، فأتى يزوره بنفسه . أما المعلم فيبدو أنه تذكر شيئا فشيئا ، بطريقته الكريمة ، أن شيئا يشبه الزيارة قد جرى الاتفاق بينهما عليه ذات مرة . فقال ببطء :

- انك أنت ، يا حضرة موظف المساحة ، الغريب الذى تكلمت معه قبل بضعة أيام فى ميدان الكنيسة .
فقال ك باختصار :

- نعم .

لقد أصبح عليه أن يرضى هنا فى حجرته بما كان قد سكت عنه قديما فى عزلته . وتحول الى فريدا وتشاور معها فى أمر الزيارة الهامة التى كان يريد أن يقوم بها من فوره والتى كان يريد أن يذهب اليها وهو يلبس أحسن ما يمكن أن يلبسه . ونادت فريدا فى الحال ، ودون أن تسأل ك المزيد ، على المساعدين ، وكانا مشغولين بتفحص المفرش المشغول ، وأمرتهما بأن ينظفا ثياب ك وحذائه الطويل تنظيفا متقنا فى

الفناء السفلى ، وكان ك قد بدأ يخلعها . أما هي فقد أخذت قميصا من الغسيل المنشور على الحبل وأسرعت الى المطبخ لتكويه .

وأصبح ك الآن وحده مع المعلم الذى كان يجلس هادئا الى المنضدة وتركه ينتظر قليلا ، وخلع القميص ، وبدأ يغتسل عند الحوض . وبدأ ، وهو يوليه ظهره ، يسأله عن سبب قدومه .
وقال المعلم :

— لقد أتيت بتكليف من رئيس مجلس القرية .

وكان ك مستعدا للاستماع الى التكليف الذى أتى به المعلم . ولما كانت كلمات ك لا تصل الى المعلم واضحة نتيجة لانهمار الماء ، حتى صعب عليه فهمها ، فقد اضطر المعلم الى الاقتراب والارتكان الى حائط قرب ك . واعتذر عن اغتساله ، وعن اضطرابه ، مبررا ذلك بأن الزيارة التى ينوى القيام بها ملحة . وعبر المعلم على هذا الكلام تعبيراً وقال :

— لقد كنت قليل الأدب حيال السيد رئيس مجلس القرية ، وهو الرجل المسن الجليل صاحب الأفضال كثير الخبرة .

فقال ك وهو يجفف نفسه :

— لا أعرف أنتى كنت قليل الأدب حياله . أما اتنى كنت مضطرا للتفكير فى أشياء أخرى غير السلوك المذهب ، فهذا صحيح ، لأن الموضوع كان يدور حول وجودى الذى تهدده تدبيرات ذنيئة تسترسل فيها الدواوين ولا حاجة بى الى ذكر تفصيلاتها أمامك فانت عضو عامل فى هذه الدواوين . — هل شبكا رئيس القرية من مسلكي ؟

فقال المعلم :

— ولن يشكو ؟ وحتى لو كان هناك من يشكو له ، فهل يمكن أن يشكو رئيس القرية ؟ كل ما فى الأمر أننى كتبت محضرا صغيرا عن محادثتك — اعتمادا على ما أملأتى من بيانات — ومنه علمت غير قليل عن طيبة السيد الرئيس وعن نوع اجاباتك .

وقال ك ، وهو يبحث عن المشط الذى لا بد أن فريدا وضعته وهى ترتب الحجرة فى مكان ما غير الذى كان به :

— كيف هذا ؟ ما هذا المحضر ؟ أهكذا يقوم شخص لم يكن موجودا أثناء المحادثة بكتابة محضر فى غيابي ويجرى ذلك بعد انتهاء المحادثة ؟ هذا شيء جميل . ولماذا المحضر ؟ هل كان هذا اجراء رسميا ؟

فقال المعلم :

— لا ، أنه اجراء نصف رسمى ، أنه أيضا نصف رسمى • ولقد كتبناه لأن كل شيء لدينا يسير فى نظام دقيق • والمهم أن المحضر موجود ، وأنه لا يشرفك •

وقال ك على نحو أكثر هدوءا ، وكان قد انزلق الى السرير ، ووجد المشط الذى طال بحثه عنه :

— ليكن المحضر موجودا • فهل أتيت لتخبرنى بذلك ؟

فقال المعلم :

— لا ، ولكنى لست آلة أوتوماتيكية ، ولهذا أتيت لأقول لك رأى • أما التكليف الذى أتيت به ، فهو دليل آخر على طيبة السيد الرئيس • وأنا أؤكد أن هذه الطيبة من الأمور التى لا أستطيع فهمها ، واننى لا أنفذ التكليف الا تحت ضغط مركزى واجلالى للسيد الرئيس •

وكان ك قد فرغ من الاغتسال وتمشيط شعره ، وجلس الى المنضدة ينتظر قميصه وثيابه ، ولم يكن مشتاقا لمعرفة ما أتى المعلم به اليه ، وكان متأثرا برأى التحقير الذى عبرت عنه صاحبة الحان حيال الرئيس • وقال ك وهو يفكر فى المشوار الذى اعتزم عليه :

— يبدو أن الوقت تجاوز الظهر ؟

ثم أصلح التعبير وقال :

— لقد كنت تريد أن تبلغنى شيئا من الرئيس •

فقال المعلم وهو يهز كتفيه وكأنه ينقض عن كاهله كل مسئولية ذاتية :

— نعم • ان السيد الرئيس يخشى ، اذا تأخر حسم مسألتك ، أن تقوم بنفسك بعمل متهور • وأنا ، عن نفسى ، لا أفهم لماذا يخشى هذا • والرأى عندى أن الأفضل أن تفعل ما تريد • فنحن لسنا حفاظا عليك ، وليس علينا واجب الجرى وراءك ووراء مساعيك • النهاية • السيد الرئيس يرى رأيا آخر • ان القرار الحاسم لمسألتك ، قرار من شأن الدواوين الأميرية ، وهو بطبيعة الحال لا يستطيع استعجاله • ولكنه يريد أن يتخذ ، فى اطار صلاحياته ، قرارا مؤقتا ، كريما بحق ، ولك أنت وحدك أن تقبله • انه يعرض عليك مؤقتا وظيفة خادم مدرسة •

ولم يكد ك يهتم فى أول الأمر بما عرض عليه ، ولكنه رأى أن مجرد عرض شىء عليه شىء لا يتجرد من الأهمية . أن ذلك يدل على أنه ، حسب رأى الرئيس ، يستطيع فى سبيل الدفاع عن نفسه أن يفعل أشياء ينبغى على مجلس القرية أن يبذل جهودا معينة حيالها ليقى نفسه . وانه ليدل على الاهتمام بالموضوع . ولا بد أن المعلم ، الذى انتظر هنا طويلا ، والذى كتب قبل ذلك المحضر ، قد أتى الى هنا يدفعه الرئيس الى ذلك دفعا . وما أن رأى المعلم انه قد حمل ك على التفكير حتى استمر فى حديثه قائلا :

— ولقد اعترضت أنا على ذلك . فأشرت الى انه لم تكن هناك حتى الآن حاجة الى خادم للمدرسة ، فالسيدة زوجة خادم الكنيسة تنظم المدرسة من حين لآخر تحت اشراف الآنسة جيزا المعلمة . وأنا ألقى العذاب مع الأولاد ، ولا أريد أن يتسبب لى تعيين خادم للمدرسة فى مزيد من الفوضى . وأجاب السيد الرئيس بأن المدرسة قدرة جدا . فرددت عليه قائلا ان الحقيقة توجب علينا أن نقرر أن القذارة ليست شديدة . وأضفت : وهل سيتحسن الحال عندما نعين رجلا خادما للمدرسة ؟ لا ، بكل تأكيد . فبغض النظر عن أنه لا يفهم فى هذه الأعمال ، تكون المدرسة فصلين اثنين كبيرين ، بلا حجرات اضافية ، ومعنى هذا أن خادم المدرسة سيقوم بالضرورة مسح عائلته فى أحد الفصلين فيكون فيه النوم وربما الطبخ ، ولا يمكن بطبيعة الحال أن يؤدي هذا الى مزيد من النظافة . ولكن السيد الرئيس أشار الى أن هذه الوظيفة نجدة لك فى المحنة وأنت ستبذل كل جهد لتحسين القيام بها . وأشار الرئيس كذلك الى أننا سنكسب معك كذلك جهود زوجتك ومساعدتك مما سيؤدي الى أن المدرسة بل وحديقة المدرسة كذلك ستكونان فى نظام مثالى . ولكنى نقضت هذا الرأى بسهولة . وأخيرا لم يستطع السيد الرئيس أن يذكر شيئا آخر فى صالحك ، وضحك وقال انك موظف مساحة وانك ستتمكن لذلك من تخطيط الأحواض فى الحديقة تخطيطا مستقيما جميلا . وليست هناك بطبيعة الحال وسيلة للاعتراض على النكت ، ولهذا خرجت محملا بالتكليف اليك .

فقال ك :

— انك يا حضرة المعلم تسبب لنفسك هما لا داعى له ، فلا يمكن أن يخطر ببالى أن أقبل هذه الوظيفة .
فقال المعلم :

— عظيم ! عظيم ! انك ترفض بلا تحفظ .
وتناول المعلم القبة وانحنى وانصرف .

وأنت فريدا بعد قليل ترسم الحيرة على وجهها ، وأعادت القميص دون كى ، ولم تجب على أسئلة ك . وأراد ك أن يسرى عنها فحكى لها عن المعلم والعرض الذى أتى به . وما كادت تسمع ذلك حتى ألفت القميص على السرير وانصرفت مرة أخرى . ثم عادت ، عادت بصحبة المعلم الذى كان يبدو غاضبا ولم يسلم . ورجته فريدا أن يأخذ نفسه بشئ من الصبر - ويبدو انها كانت قد توجهت اليه بالرجاء نفسه عدة مرات وهما فى الطريق الى هنا - ثم جرت ك من خلال باب جانبي لم يكن ك يعرف عنه شيئا الى سطح مجاور وحكت له ، وقد انتهى أمرها الى الانفعال وضيق التنفس ، عما حدث لها . فقد غضبت صاحبة الحان لأنها أذلت نفسها باعترافاتها ل ك ، وأكثر من ذلك باستسلامها له فى موضوع تدبير مقابلة مع كلم ، ثم لم تصل بذلك كما قالت ، الى شئ ، وتعرضت فوق ذلك لصدود فاتر ولثيم ، وقررت ألا تستمر فى قبول وجود ك فى دارها . وقالت له اذا كانت له صلات بالقصر فليقد منها اليوم بسرعة ، لأن عليه أن يترك الدار اليوم ، بل الآن ، ولن تعود صاحبة الحان الى قبوله للسكنى لديها الا بأمر رسمى وكرام مباشر . وقالت انها تأمل ألا يصل الأمر الى هذا الحد لأنها هى أيضا لها صلاتها بالقصر وستعرف كيف تجعلها تتصرف . وأضافت أنه انما نزل فى الحان نتيجة لاهمال صاحب الحان ثم انه تشدق صباح اليوم امامها بأن هناك مكانا للنوم جاهزا تحت تصرفه . أما فريدا فلها أن تبقى بطبيعة الحال ، وانها - أى صاحبة الحان - ستكون تعيسة تعاسة عميقة اذا خرجت فريدا مع ك ، وستظل هى الآن المرأة المسكينة التى تعاني من مرض القلب ، فى المطبخ تفكر وتبكي خائفة بجانب الفرن . ولكن كيف يمكنها أن تتصرف على نحو آخر والأمر ، على الأقل فى تصورهما ، يمس كرامة ذكرى كلم مباشرة ؟ هذا هو موقف صاحبة الحان . أما هى ، فريدا ، فستتبع ك حيثما ذهب فى الثلوج الهائلة والجليد المتراكم ، وما يحتاج هذا بطبيعة الحال الى تأكيده بكلام ، ولكن وضعها على أية حال وضع سيئ جدا ، لهذا فقد استحسنت عرض المعلم ورحبت به بفرح كبير ، واذا كانت الوظيفة غير مناسبة ل ك ، فقد جاء فى العرض بوضوح انها وظيفة مؤقتة ، ما عليهما الا أن يكسبا الوقت ، وسيجدا بسهولة امكانية أخرى حتى اذا جاء القرار النهائى الحاسم فى غير صالح ك . وأخيرا صاحبت فريدا وقد تعلقت برقبة ك : - واذا اضطررنا فلنهاجر ، فماذا يستبقينا فى القرية ؟ وعلينا يا حبيبى أن نقبل العرض مؤقتا . ولقد أعدت المعلم قفل له « موافق » لا أكثر ، ولننتقل الى المدرسة .

وقال ك :

- هذا شيء قبيح !

ولم يقصد ما قاله بجد تام لأن موضوع السكن لم يكن يهمه إلا قليلا ، وكان الى جانب هذا يرتعد من شدة البرد وهو فى ملبسه الداخلية فقط على هذا السطح الذى كان يتعرض دون ما ساتر من حائط أو شبك الى ريح باردة قارسة . ثم أكمل :

- لقد أحسنت ترتيب الحجرة الآن ، ثم نضطر الآن الى تركها ! اننى لا أستطيع أن أقبل هذه الوظيفة الا كارها ، كارها ، وان ضعتنا الحالية أمام هذا المعلم الصغير لتحز فى نفسى ، ولسوف يصبح هذا رئيسى . ليتنا نستطيع أن نبقى هنا هنيئة ، فلعل وضعى يتغير عصر اليوم . واذا كان من الممكن أن تبقى أنت على الأقل هنا ، فيمكننا الانتظار ويمكننا أن نعطي المعلم اجابة غير محددة . أما أنا فسأجد مكانا أنام فيه ، وان احتاج الأمر ، عند برنا ..

وهنا سدت فريدا فمه بيدها وقالت خائفة :

- الا هذا ! لا تقل هذا مرة أخرى ! اننى أتبعك فى كل شيء الا هذا ! سابقى ، اذا أردت ، هنا وحدى ، وان كان هذا يحزننى أشد الحزن . واذا أردت فلنترفض الطلب وان كنا بذلك نتصرف ، فى رأى ، تصرفا شديدا خطأ . ذلك انك اذا وجدت امكانية أخرى ، وليكن ظهر اليوم ، فلنا بطبيعة الحال أن نترك المدرسة ، ولن يمنعا أحد . أما فيما يخص بضعتنا أمام المعلم ، فدعنى أتصرف حتى لا تكون كذلك ، وسأتكلم أنا معه ، وقف أنت صامتا بجانبنا ، ولن يكون عليك فى المستقبل أن تتصرف حياله على نحو آخر ، لن يكون عليك ، أن لم نشأ ، أن تكلم معه ، وسأكون أنا فى الحقيقة العاملة تحت امرته ، بل لن أكون حتى أنا ، لأننى أعرف نواحي الضعف فيه . وهكذا فاننا لا نخسر شيئا ان قبلنا الوظيفة ، بل اننا لنخسر الكثير اذا رفضناها ، فانك لن تجد ، ولا حتى لك وحدك ، مكانا للنوم فى القرية ، مكانا للنوم لا أحجل منه باعتبارى زوجتك فى المستقبل . واذا أنت لم تجد مكانا تنام فيه ، فهل يمكن أن تطلب منى أن أنام هنا فى الحجرة الدافئة ، بينما أنا أعلم أنك تهيم على وجهك فى الليل والبرد ؟

وقال ك الذى كان يضع ذراعيه متقاطعتين على صدره ويضغط بكفيه على ظهره التماسا لقليل من الدفء :

— اذن فليس أماننا الا أن نوافق • تعالى •

فلما دخلنا الحجرة أسرع الى المدفأة ، ولم يهتم بالمعلم الذى كان
يجلس الى المتضدة ثم أخرج ساعته وقال :

— لقد تأخر الوقت •

فقالت فريدا :

— ولكننا اتفقنا تماما الآن يا حضرة المعلم • اننا نقبل الوظيفة •
فقال المعلم :

— حسن • ولكن الوظيفة معروضة على السيد موظف المساحة •
وينبغى عليه هو أن يتكلم •
وساعدت فريدا ك قائلة :

— طبعاً • انه يقبل الوظيفة • انك تقبلها يا ك ؟

وهكذا استطاع ك أن يحصر تعبيره عن رأيه فى مجرد كلمة « نعم »
التي لم يوجهها الى المعلم بل الى فريدا • وقال المعلم :

— بقى هناك شيء ، وهو أن أوضح لك واجباتك فى الوظيفة حتى
ينتهى اتفاقنا مرة واحدة • عليك ، يا حضرة موظف المساحة ، يومياً
أن تنظف فصل المدرسة ، وأن تدفئها ، وأن تقوم بالإصلاحات الصغيرة
فى المبنى وفى معدات التعليم والرياضة بنفسك ، وأن تخلى
الطريق خلال الحديقة من الجليد ، وأن تقوم بالمشاوير التى أكلفك بها أو
تكلفك بها الآنسة المدرسة وأن تتولى فى وقت الدفء أعمال الحديقة كلها ،
ولك نظير ذلك ، الحق فى أن تسكن فى أحد الفصولين حسب اختيارك ،
ولكن ينبغى عليك ، اذا لم يكن الفصلان مشغولين ، وكان الفصل الذى
تسكن فيه هو بالذات المطلوب للتدريس ، أن تغادره وتقيم فى الفصل
الآخر • وليس مسموحاً لك بالطبخ فى المدرسة ، وسيتكفل مجلس القرية
بطعامك وطعام أسرته فى الحان • أما أنه عليك أن تسلك سلوكاً يتناسب
مع كرامة المدرسة ، وانه لا يصح أن يشاهد التلاميذ من حياتك المنزلية
مناظر نابية فشى لا أذكره الا بصفة ثانوية ، فأنت رجل متعلم ولا بد أن
تعرف هذا من تلقاء ذاتك • وأحب أن أشير فى هذا المقام الى أنه ينبغى
عليك أن تجعل علاقتك بالآنسة فريدا فى أقرب وقت ممكن علاقة شرعية •
وسوف يحرر عقد يشمل هذه الأمور كلها وبعض الأمور الصغيرة الأخرى
وسيكون عليك أن توقعه عندما تنتقل الى المدرسة مباشرة •

ولاح هذا كله فى نظرك غير ذى أهمية وكأنما لم يكن فيه ما يعنيه
أو على أية حال ما يربطه . وكانت عجرفة المعلم هى الشئ الذى أثاره ..
وقال ك بغير اكتراث :

— نعم ، هذه هى الواجبات العادية .

وأرادت فريدا أن تمحو شيئا من أثر هذه الملاحظة فسألت عن
المرتب . فقال المعلم :

— أما مسألة دفع مرتب فلن يبدأ التفكير فيها الا بعد انقضاء فترة
اختبار مدتها شهر .

وقالت فريدا :

— سيكون هذا صعبا علينا . أنتزوج بغير مال تقريبا ؟ أنخلق من
العدم ما نحتاج اليه فى حياتنا ؟ ألا يمكننا ، يا حضرة المعلم ، أن نتقدم
بمذكرة الى مجلس القرية نرجو فيها صرف مرتب صغير عاجل ؟ أتصحنا
بذلك ؟ ..

فقال المعلم وكان يوجه كلامه دائما الى ك :

— لا ، ان مثل هذه المذكرة لا يمكن أن تؤدى الى نتيجة الا اذا أوصيت
أنا بذلك ، وأنا لن أوصى . وما تقديم الوظيفة اليك الا جميل وما ينبغي
أن يبالغ الانسان فى صنع الجميل اذا أراد أن يظل واعيا بالمسئولية العامة .
وهنا تدخل ك قائلا :

— أما فيما يختص بصنع الجميل ، يا حضرة المعلم ، فأنا أعتقد أنك
تخطئ ، فصانع الجميل هو أنا .

فقال المعلم مبتسما لأنه اضطر ك الى الكلام :

— لا . وأنا أعرف الأمر أدق المعرفة . ان حاجتنا الى خادم المدرسة
مثل حاجتنا الى موظف المساحة ان خادم المدرسة وموظف المساحة كلاهما
ثقل معلق فى عنقنا . ولسوف أجهد فكرى اجهدا كبيرا لاتوصل الى
أسباب أبرر بها هذه المصروفات أمام مجلس القرية . والأفضل والأقرب
الى الحقيقة أن ألقى بالطلب على المنضدة أمام المجلس وألا أبرر شيئا .
وقال ك :

— وهذا هو رأى الذى أراه أنا أيضا . ينبغي عليك أن تقبلنى ضد
إرادتك . ينبغي عليك أن تقبلنى على الرغم من أن ذلك يتسبب لك فى

كثير من التفكير العسير . وإذا كان هناك انسان يضطر الى قبول آخر ،
وإذا كان هذا الآخر يسمح بأن يقبل ، فانه هو الذى يصنع الجميل .

فقال المعلم :

— شئ غريب . وما هذا الذى يمكن أن يضطرونا الى قبولك ؟ .
ان قلب الرئيس الطيب ، المفرط فى الطيبة هو الذى يضطرونا . واننى
لا أرى يا حضرة موظف المساحة ، انه ينبغى عليك أن تنصرف عن بعض
الحالات قبل أن تصبح خادما نافعا للمدرسة . ومثل هذه الملاحظات التى
تتقدم بها لا يمكن أن تؤدى بطبيعة الحال فيما يتعلق بمنحك مرتب الى
خلق الجو المناسب الا قليلا . هذا الى أننى أثبتن للأسف أن سلوكك
سيستسبب لى فى المتاعب . فانت تتباحث معى طوال الوقت وأنت لاتلبس
سوى الملابس الداخلية — واننى لأنظر اليك هكذا المرة تلو المرة ولا أكاد
أصدق .

فقال ضاحكا وهو يصفق :

— نعم . ما أبشع المساعدين . . ! أين هما ؟

وأسرعت فريدا الى الباب . وتبين المعلم أنه لم يعد من الممكن الحديث
الى ك ، فسأل فريدا متى ستنتقل للسكنى فى المدرسة . فقالت :

— اليوم .

فقال المعلم :

— اذن فسأحضر صباح الغد مبكرا للتفتيش .

ولوح بيده للتحية وأراد أن يخرج من الباب الذى فتحتسه فريدا
لتخرج هى منه فاصطدم بالحادمتين اللتين أتيتا بحاجياتهما للاقامة من
جديد فى الحجرة . واضطر المعلم الى أن يتفقد من بينهما ، فما كانتا لترتدا
مهما كان من يواجههما ، وتبعته فريدا . وقال لهما ك وكان فى هذه المرة
راضيا عنهما كل الرضاء :

— انكما على عجل . اننا لا نزال هنا ، ومع ذلك فأنتمما تأتيان
بحاجياتكما لتقيما فى الحجرة ؟ فلم يجيبا وحركتا صرتى الحاجيات
مضطربتين ورأى ك الأسمال القدرة المعروفة تتدلى منهما . وقال :

— انكما على ما يبدو لم تغسلا ملابسكما من قبل قط .

ولم يقل ك هذا الكلام غاضبا ، بل قاله على نحو فيه شئ من العاطفة

ولاحظت الخادمتان منه ذلك وفتحتا فى وقت واحد فمهما القاسى وأبرزتا أسنانهما الجميلة القوية الحيوانية وضحكنا بلا صوت • وقال ك :

— ادخلا ، ورتبا أشياء كما فى الحجره ، فهى حجرتكما •

ولكنهما كانتا مترددتين — ولعل الحجره بدت لهما متغيرة تغير شديدا — فأمسك ك أحدهما بذراعها ليقتاها • ولكنه تركها من فوره ، لشدة الدهشة التى ارتسمت على نظرتيها التى ركزتاها — بعد تفاهم سريع بينهما — على ك ولم تحولاها عنه • وقال ك وهو يحاول أن يرد عنه احساسا كريها :

— لقد نظرتما الى بما فيه الكفاية •

ثم تناول الثياب والأحذية الطويلة التى أحضرتها فريدا ، ومن ورائها المساعدان يتبعانها فى خجل • وكان ك لا يفهم ولم يفهم فى هذه المرة أيضا ، لماذا تعامل فريدا المساعدين بهذه الأناة • وكانت فريدا قد وجدت المساعدين بعد طول بحث ، يجلسان هادئين ويتناولان طعام الغداء ، وكان المفروض أن ينظفا الثياب ، ولكنهما كوراهما على حجرتهما ، وأصبح عليهما أن تنظف هى كل شئ بنفسها • وعلى الرغم من ذلك فلم تتشاجر فهى التى تعرف كيف تتحكم فى نفسها مع الرعاع ، وأخذت تحكى ، فى وجودهما ، عن أهمالهما ، وكأنها تحكى عن نكتة ، بل انها ربتت على خد أحدهما ربتا رقيقا وكأنها تداعبه • وقرر ك أن يوبخها على ذلك فى أول فرصة ، أما الآن فكان وقت الانصراف قد أوف • وقال ك :

— على المساعدين أن يبقيا هنا ليساعداك على الانتقال •

ولم يكن المساعدان موافقين على ذلك ، لقد كانا بعد الشبع والبهجة يرجوان القيام بشئ من الحركة ، وقالت فريدا :

— ستبقيان هنا بكل تأكيد •

فانصاعا لها ، وسأل ك :

— أتعرفين الى أين أنا ذاهب ؟

فألت فريدا :

— نعم •

فقال ك :

ـ ومع ذلك فانت لا تمنعيني .

فقالت :

ـ ستلقى الكثير من العقبات . وهل تفيد كلماتي ؟

وقبلت ك مودعة ، وأعطته ربطة فيها خبز وسجق كانت قد أحضرتهما معها من أسفل لأنه لم يكن قد تناول طعام الغداء ، وذكرته بأنه ينبغي عليه أن يعود الى المدرسة مباشرة ، ورافقته واضعة يدها على كتفه حتى خرج من الباب .

الفصل الثامن

كان ك فى بداية الأمر مسرورا لأنه تخلص من تراحم الحادمتين والمساعدين فى الحجرة الحارة . وكذلك كانت درجة حرارة الجو دون درجة التجمد ، فكان الجليد أكثر صلابة ، وكان السير عليه أكثر سهولة . وكان الظلام قد بدأ بطبيعة الحال فى الحلول ، فأسرع ك الخطى .

وكان القصر ، الذى بدأت خطوطه تتحلل ، يقع فى السكون كحاله دائما ، ولم يكن ك قد رأى قط أقل اشارة تدل على أن الحياة تتصل فيه ، ولعله لم يكن من الممكن أن يتبين الناظر من هذا البعد شيئا ، ولكن العينين كانتا تلتصمان ذلك ولم تكونا تريدان الرضا بهذا السكون . وكان ك أحيانا عندما يتطلع الى القصر يحس كأنه يتطلع الى شخص يجلس هناك هادئا ينظر أمامه لا غارقا فى التفكير متصرفا عن كل شئ ، بل حرا طليقا غير عابئ ، وكأنه وحده لا ينظر اليه أحد ، وان اضطر الى تبين أن هناك من ينظر اليه ، ولكن ذلك لم يكن يؤثر أدنى أثر فى هدوئه ، والحقيقة - ولم يكن أحد يعلم ان كان ذلك سببا أو نتيجة - أن النظرات لم تكن تثبت عليه بل كانت تنزلق من فوقه . ولقد اشتد هذا الانطباع قوة نتيجة للظلام المبكر . كان ك كلما أطال النظر قل ما يتبينه ، وازداد انغماس كل شئ فى الظلام عمقا .

وعندما وصل ك الى حان السادة ، وكان مظلمًا لم يوقد به نور ، انفتحت نافذة فى الدور الأول وأطل منها شاب بدين حليق الوجه يرتدى سترة من الفراء وظل بالنافذة وحياء ك ، فلم يبد عليه أنه رد التحية حتى ولا بأقل ايماء من رأسه . ولم يلتق ك لا فى مدخل الحان ولا فى قاعة الحمامة ، وكانت رائحة البيرة المتروكة أقبح من المرة الماضية ، وهذا شئ لم يعهد ك مثله فى حان الجسر . وذهب ك من فوره الى الباب الذى كان قد تطلع من خلاله مؤخرا الى كلم ، وضغط باحتراس على المقبض ، ولكن الباب كان مغلقا . فحاول أن يتحسس الموضع الذى كان به الثقب ، ولكن السدادة كانت محكمة الصنع بقدر الثقب على ما يبدو ، لدرجة أنه

لم يستطع أن يتوصل الى مكان الثقب ، ولهذا أشعل عود ثقاب . وهنا أفرغته صيحة . وإذا ببنت شابة تجلس متكورة على نفسها فى الركن بين الباب ومنضدة الشراب قريبا من المدفأة ، وكانت تحمق فى ضوء عود الثقاب بعينين ناعستين فتحتهما بجهد شديد . ويبدو أنها كانت خليفة فريدا . وما لبثت أن تماسكت نفسها ، وأضاءت النور الكهربائى وبدأ تعير وجهها غاضبا ، وهنا تعرفت على ك . وقالت مبتسمة :

— آه السيد موظف المساحة

ومدت اليه يدها وقدمت نفسها بقولها :

— أنا اسمى بيبي .

كانت قصيرة القامة ، حمراء البشرة ، بادية الصحة ، وكانت تضم شعرها الكثيف الفارع الأشقر المائل الى الحمرة فى ضفيرة قوية ، وكان شعرها علاوة على ذلك يتجمع حول وجهها ، وكانت ترتدى فستانا لا يناسبها ، فستانا مسترسلا مصنوعا من قماش رمادى لامع ، وكان بعضهم قد ضمه من أسفل على نحو صبيانى فج مضطرب بشريط حريرى ينتهى بحلقة ، حتى ضاق الفستان عليها وعرقها . وسألت عن فريدا وهل ستعود عما قريب . لقد كان السؤال يوشك أن يصل الى حد الإيذاء ثم قالت :

— لقد استدعوني ، بعد ذهاب فريدا ، الى هنا على عجل ، فليس من الممكن استخدام كل من هب ودب فى هذا العمل ، ولقد كنت حتى الآن خادمة خصوصية ، وليس هذا تغييرا طيبا بالنسبة لى . فالعمل بالمساء والليل هنا متعب جدا ، ولا أكاد أستطيع احتماله ، ولست أدهش لترك فريدا اياه .

فقال ك ليبن أخيرا ما بين فريدا وبينهما من فرق تتغافل عنه :

— لقد كانت فريدا هنا راضية جدا .

فألت بيبي :

— لاتصدق هذا ، ولكن فريدا تستطيع أن تتحكم فى نفسها على نحو لا يستطيع كل انسان بسهولة . فهى اذا أرادت ألا تعترف بشئ ، تستطيع أن تمتنع عن الاعتراف به ، ولا يكون فى مقدور انسان أن يتبين أن لديها شيئا ينبغى أن تعترف به . ولقد خدمت هنا عدة سنوات معها ، وكنا دائما ننام معا فى سرير واحد ، ولكنى لم أكن موضع سرها ، ولا شك

أنها لا تفكر الآن فى • ولعل صديقتها الوحيدة هى العجوز صاحبة حان
الجسر ، وهذا شئ له مغزاه •

فقال ك وأخذ فى الوقت نفسه يبحث عن مكان الثقب فى الباب :
— فريدا خطيبتى •

فقالت بيبي :

— أنا أعرف هذا ، ولذلك حكيت لك ما حكيت • ولو لم أكن أعرف
هذا لما كان لكلامى معنى •

فقال ك :

— لقد فهمت • انك تريد أن تقولى انه ينبغي على أن أفخر بأننى
ربحت فتاة كتومة الى هذا الحد •

فقالت :

— نعم

وضحكت راضية كأنما استمالها ك الى اتفاق سرى حول فريدا •
ولم تكن كلماتها فى الحقيقة هى التى شغلت ك وألهته قليلا عن
البحث ، وانما كان الذى شغل ك وألهاه عن البحث هو ظهورها ووجودها
فى هذا المكان • والحقيقة انها كانت أصغر سنا كثيرا من فريدا ، تكاد
ألا تكون قد تجاوزت سن الطفولة ، وأن ثيابها كانت تثير الضحك ، ويبدو
أنها اتخذتها لتناسب تصورها المبالغ فيه عن أهمية خادمة الحماره وكانت
على حق فى تصورها هذا ، لأن تلك الوظيفة — التى لم تكن مناسبة لها
مطلقا قد أعطيت لها ، دون أن تتوقعها ودون أن تكون خليقة بها ،
بصفة مؤقتة فقط ، فلم تحصل حتى على الحقيبة الجلدية الصغيرة التى
كانت فريدا تحملها دائما فى حزامها ولم يكن ماتدعيه من عدم الرضا
بالوظيفة شيئا آخر سوى التكبر • ومع ذلك فيبدو انها ، على
الرغم من سداجتها الصبانية • كانت على علاقة بالقصر ، فقد كانت
— ان لم تكن قد كذبت — تعمل خادمة خصوصية • ولم تكن تعي ماتملك،
بل كانت تضيق الأيام نائمة هنا ، ولو أن ك عانق هذا الجسم الصغير
البدن ذال الظهر المستدير قليلا ، لما كان من الممكن أن يؤدى هذا الى
تجربدها مما تملك • كان ك يستطيع أن يمس هذا الجسم فينشط للطريق
الصعب • اذن فلعل أمرها لا يختلف عن أمر فريدا ؟ آه ، لا ، بل
يختلف • وما على الانسان أن يتذكر نظرة فريدا ليفهم هذا الاختلاف •
وما كان ك ليقرب بيبي بحال من الأحوال • ولكنه اضطر الآن الى أن
يغطفى عينيه هنيهة لما استبد به من شره وهو ينظر اليها •

وقالت بيبي :

— ما ينبغي أن يظل النور مضاء

وأطفأت النور ، ثم قالت :

— لقد أضأته لأنك أفزعتنى أشد الفزع . ماذا تريد هنا ؟ هل نسيت

فريدا شيئا ؟

فقال ك وهو يشير الى الباب :

— نعم ، فى هذه الحجرة المجاورة ، نسيت مفروش منضدة ، أبيض

اللون مشغولا .

فقالت بيبي :

— آه ، مفرشها ، اننى أذكره ، لقد أحسنت شغله ، ولقد ساعدتها

أنافيه ، ولكنه لا يكاد يمكن أن يكون فى هذه الحجرة على ما أظن .

فقال ك :

— ولكن فريدا تعودت ذلك . ومن الذى يسكن فى هذه الحجرة ؟

فقالت بيبي :

— لا أحد . انها حجرة السادة . فيها يشرب السادة وفيها يأكلون ،

أعنى انها مخصصة لهذا الغرض ولكن غالبيتهم يبقون فى حجراتهم فى

الدور العلوى .

فقال ك :

— لو علمت أنه ليس بالحجرة الآن أحد ، لوددت جدا أن أدخل

وأبحث عن المفروش . ولكننى غير متأكد من ذلك . فكلّم على سبيل المثال

اعتاد على أن يجلس فيها كثيرا .

فقالت بيبي :

— كلم ليس فيها الآن بكل تأكيد ، فهو يوشك على الانصراف ،

والزحافة تنتظره فى الفناء .

وغادر ك قاعة الشراب من فوره وبدون أن يقدم أى تفسير ، وكان

وهو يسير فى المدخل ينظر الى داخل الدار بدلا من أن ينظر الى باب الخروج

وما هى الا خطوات حتى كان قد وصل الى الفناء . يا لسكون وجمال هذا

المكان ! كان الفناء مربعا يقوم المبنى على ثلاثة من أضلاعه ، وكان الضلع

الآخر يطل على شارع — شارع فرعى لم يكن ك يعرفه — يفصله عنه جدار

مرتفع أبيض وبوابة كبيرة ثقيلة كانت عند ذاك مفتوحة . وكان المبنى يبدو من ناحية الفناء أكثر ارتفاعا مما يبدو من ناحية الواجهة . وكان الدور الأول على الأقل مكتمل البناء تماما ، وكان مظهره عظيما ، لأنه كان محاطا ببهو خشبي مغلق الى مستوى العينين الا شقا صغيرا . ورأى ك - وكان ينظر الى الفناء من مكانه فى الجناح الأوسط من المبنى ، من الزاوية التى يتصل بها بالجناح الجانبى المقابل - مدخلا للمبنى ، مفتوحا بلا باب . وكان هناك أمامه زحافة مظلمة مقفلة علق بها حصانان . ولم يكن هناك سوى الحوضى الذى توقع ك على البعد وجوده فى الظلام وان لم يكده تبينه .

وسار ك واضعا يديه فى جيبيه ، حريصا يتلفت ، قريبا من الجدار ، فقطع ضلعي الفناء حتى وصل الى الزحافة . وكان الحوضى - وهو أحد الفلاحين الذين كانوا مؤخرا فى قاعة الحان - قد رآه غارقا فى الفراء فأنرا وهو يقترب ونظر اليه كما ينظر الانسان الى سير احدى الققط . وكذلك عندما وقف ك عنده وحياء ، بل عندما اضطرب الحصانان قليلا لظهور انسان من وسط الظلام فجأة ، ظل الحوضى بليدا لايعبأ بشيء البتة . ولقى هذا المسلك من ك أشد ترحيب . فلما وصل الى الجدار أخرج الطعام وذكر فريدا بالامتنان لحسن رعايتها اياه ، وأخذ فى أثناء ذلك يختلس النظرات الى داخل المبنى . كان هناك درج مربع مفتوح يؤدى الى أسفل حيث يتعامد عليه ممر منخفض يبدو أنه كان عميقا . وكان كل شيء نظيفا مطليا باللون الأبيض وكان كل شيء محدد المعالم واضح الخطوط .

واستمر الانتظار أكثر مما اعتقد ك . كان قد فرغ منذ مدة من طعامه ، وأصبح البرد يؤذيه ، وكان الظلام قد استحال الى حلقة دامسة ، ولم يكن ك قد ظهر . وقال صوت خشن انطلق فجأة قريبا من ك قربا شديدا حتى ارتعدت فرائصه :

— قد يطول طولا شديدا !

كان المتحدث هو الحوضى الذى كان يتمطى ويتثائب بصوت عال وكأنه صحا لتوه من النوم وسأله ك :

— ما هذا الذى قد يطول طولا شديدا ؟

ولم يكن ك غاضبا للازعاج لأن السكون المستمر والتوتر الدائم كانا قد ثقلا عليه . وقال الحوضى :

— الى أن تنصرف .

ولم يفهم ك مقصده ، ولكنه لم يسأله ، واعتقد أن هذه هي أفضل وسيلة لدفع هذا الرجل المتكبر الى الكلام . لقد كان السكوت عن الإجابة هنا في الحلقة الدامسة شيئا يوشك أن يكون حافزا على الكلام . وهذا هو بالفعل ما حدث ، فقد سأل الحوذى بعد هنيهة :

— أتريد شيئا من الكونياك ؟

فقال ك دون أن يفكر فقد أغراه العرض اغراء شديدا وهو يرتعد :

— نعم .

فقال الحوذى :

— اذن فافتح الزحافة ، وستجد في الحقيبة الجانبية بعض الزجاجات

فتناول إحداها واشرب ثم ناولنى اياها . ان الفراء الذى أرتديه يجعل من الصعب على أن انزل .

وتضايق ك لاضطراره الى تأدية أعمال من هذا النوع ، ولكنه ، وقد

تبسط مع الحوذى ، أطلع على الرغم مما كان فى ذلك من خطر ، فقد كان من الممكن أن يقاغه كلم عند الزحافة . وفتح الباب العريض ، وكان يمكنه أن يستخرج على الفور الزجاجات من الحقيبة المركبة على الناحية الداخلية من الباب ، ولكن الباب المفتوح أغراه بالدخول فى الزحافة ، فلم يستطع أن يقاوم الاغراء . وكان يريد أن يجلس بداخلها لحظة . وتسلسل الى الداخل . كان الدفء فى داخل الزحافة خارقا للمألوف ، وظل على حالته لم يتغير على الرغم من أن الباب ظل مفتوحا على سعته فلم يجزؤ ك على اغلاقه . ولم يعرف ك وقد جلس ، هل كان هذا الذى جلس عليه مقعدا ، فقد غرق فى أغشية ومخدرات وفراء ، وتبين أن الجالس يستطيع أن يتحرك فى كل الاتجاهات وأن يتمدد ما شاء ، فما يزداد الا تمتعا بالنعومة والدفء . ومد ك ذراعيه ، وسند رأسه على المخدات التى كانت تعرض له فى كل ناحية ، ونظر من الزحافة الى المبنى المظلم . لماذا يتأخر قدوم كلم الى هذا الحد ؟ وتمنى ك ، وكان الدفء قد خدره بعد طول وقوفه فى الجليد ، أن يأتى كلم بعد طول الانتظار . ولم يحظر ببالة ، ان الأفضل ألا يراه كلم فى هذا الوضع ، الا على نحو مبهم . ولقد ساعده على هذا النسيان مسلك الحوذى الذى كان يعرف أنه فى الزحافة وتركه فيها ، دون أن يطلب منه حتى الكونياك . كان هذا المسلك من الحوذى فيه تأدب حيال ك ، ولكن ك كان يريد أن يخدمه . ومد ك يده فى تناقل ،

دون أن يغير وضعه ، الى الحقيبة الجانبية ، ولكنه لم يمدها الى الحقيبة المركبة فى الباب المفتوح - فقد كان هذا الباب بعيدا - بل عدها خلفه ، الى حقيبة الباب المقفل ، ولم يغير هذا من الأمر شيئا ، فقد كانت هناك فى هذه الحقيبة كذلك زجاجات • وأخرج منها واحدة وفتح السدادة وشم ما بالزجاجة ، فابتسم رغما عنه ، لأن الرائحة كانت حلوه ، ناعمة أحس حيالها باحساس الانسان عندما يسمع من شخص يحبه حبا شديدا مدحا وكلمات طيبة دون أن يعلم الموضوع الذى تدور حوله ودون أن يريد أن يعلم عنه شيئا ، سعيدا بأن الذى يقولها هو هذا الشخص • وتساءل ك مرتابا :

أيمكن أن يكون هذا كونياك ؟

وتذوق بدافع من الفضول • عجبيا ! لقد كان كونياك ، وكانت له حرارة وكان يبعث دفئا • ما أغرب تغيره • عندما يشرب الانسان منه ! انه يتحول من مشروب ذى رائحة شديدة حلوة ، الى مشروب لا يليق الا بالحوزية • وسأل ك نفسه وكأنما كان يلوم نفسه :

أيمكن هذا ؟

وشرب جرعة أخرى •

وهنا أضاء المكان - وكان ك فى تلك اللحظة يتجرع جرعة طويلة - وظهر نور كهربائى فى داخل الدرج والممر والمدخل وفى الخارج فوق الباب • وتناهى الى السمع صوت خطى تنزل الدرج ، فسقطت الزجاجة من يد ك وسال ما فيها على الفراء ، فقفز ك خارجا من الزحافة ، وتمكن فى عجزانه من اغلاق بابها ، فصدت عن ذلك ضجة عالية ، وخرج بعد قليل أحد السادة من المبنى وسار ببطء • وكان الشئ الوحيد الذى طابت له نفس ك هو أن هذا الرجل لم يكن كلم ، أو هل كان هذا بالضبط هو الشئ الذى أسف ك له ؟ كان القادم هو السيد الذى كان ك قد رآه فى نافذة الدور الأول • كان رجلا فى مقتبل العمر ، ذا حسن مفرط ، وبشرة بيضاء مشربة بحمرة ، وكان يبدو جادا عابسا • وكذلك تطلع ك اليه عبوسا ، ولكن ك كان يقصد نفسه بهذه النظرة العبوسة • كان الأخرى به أن يرسل مساعديه الى هنا ، فهما أيضا قادران على التصرف على النحو الذى تصرف هو عليه • وقف أمامه السيد صامتا ، وكأنما لم يكن يجد لما كان يريد أن يقوله نفسا كافيا فى صدره العريض المفرط فى العرض • ثم قال السيد :

- هذا شيء بشع .

ثم دفع القبة قليلا عن جبهته . كيف هذا ؟ يبدو أن السيد لم يكن يعلم شيئا عن وجود ك فى الزحافة ، ولكنه مع ذلك كان يجد شيئا ما بشعا ؟ هل يقصد يا ترى أن ك نفذ حتى الفناء ؟ وسأل السيد بصوت أكثر انخفاضاً ، مطلقاً زفرة ، مستسلماً لما لا سبيل الى تغييره :

- كيف أتيت الى هنا ؟

يا لها من أسئلة ! ويا لها من أجوبة ! هل ينبغي يا ترى على ك أن يعبر للسيد بنفسه تعبيرا صريحا يؤكد به أن الطريق الذى بدأه بكثير من الأمانى والآمال كان بلا جدوى ؟ واتجه ك الى الزحافة ، بدلا من أن يجيب ، وفتحها وأخرج قبعته التى كان قد نسيها بداخلها . ولاحظ أثناء ذلك أن الكونياك كان يتساقط على سلم الزحافة .

ثم اتجه مرة أخرى الى السيد . لم يعد الآن يخشى أن يبين له أنه كان فى الزحافة . ولم يكن هذا الأمر هو أسوأ الأمور . وكان ينوى ، اذا سئل ، واذا سئل فقط ألا يخفى أن الحودى هو نفسه الذى دفعه على الأقل الى فتح الزحافة . أما أسوأ الأمور حقا فقد كان مفاجأة السيد له بحيث لم يكن لديه وقت ليختبئ منه حتى يستطيع أن ينتظر مقدم كلم دون أن يشوش عليه مشوش ، أو لعله كان افتقاره الى أن البديهة الحاضرة التى كان من شأنها أن تملى عليه أن يظل فى الزحافة ويقفل الباب وينتظر جالسا على قراء كلم حتى يأتى أو ينتظر طالما كان هذا السيد قريبا . ولكنه لم يكن بطبيعة الحال يعلم من الذى سيأتى ، فربما كان القادم هو كلم نفسه ، وفى هذه الحالة ، كان الأفضل بطبيعة الحال أن يستقبله وهو خارج الزحافة . نعم ، كانت هناك أشياء كثيرة كان لابد من تدبرها ولم يعد هناك الآن معنى لتدبرها ، لأن كل شيء قد انتهى .

وقال السيد :

- تعال معى

ولم يكن يتكلم بأسلوب الأمر ، ولكن الأمر ، وإن لم تنطو عليه الكلمات ، كان فى حركة من اليد . أتى بها صغيرة مستهترّة مقصودة صاحب بها كلماته . وقال ك :

- اننى انتظر هنا شخصا

ولم يكن بذلك يعبر عن أمل فى نجاح ، بل عن مجرد مبدأ . وعاد

السيد يقول مصمما تمام التصميم ، وكأنما أراد أن يبين انه لم يشك قط فى أن ك ينتظر أحدا :

— تعال .

وقال ك بانتقاضه من جسمه كله :

— اننى اذا ذهبت معك فلن أقابل من انتظرته .

وكان ك على الرغم من كل ما حدث يجلس بأن ما توصل اليه حتى الآن نوع من الاستحواذ لا يتمسك به الا تمسكا ظاهريا ، ولكنه لا يفرض فيه بناء على أمر أى أمر . وقال السيد بطريقة فيها تعبير صارم عن رأيه ، وفيها فى الوقت نفسه انصياع واضح لتفكيرك :

— انك لن تقابله على أية حال سواء انتظرت أو انصرفت .

فقال ك عنيدا ، فما كان بكل تأكيد ليرضى بأن تصرفه من هنا مجرد كلمات نطق بها هذا الشاب :

— اذن فأنا أفضل ألا أقابله بعد أن أكون قد انتظرته .

وهنا أغلق السيد عينيه هنيهة مائلا برأسه الى الخلف على نحو مترفع وكأنما أراد أن يعود من غباء ك الى عقله هو ، ومر بطرف لسانه على شفتيه وكان فمه مفتوحا قليلا ، ثم قال للحوذى :

— فك الحصانين .

واضطرب الحوذى ، مطيعا للسيد ، ناظرا الى ك من جانب نظرة غاضبة ، الى أن ينزل برغم الفراء الذى كان يلبسه ، وشرع ، فى تردد شديد . وكأنما كان ينتظر لا أن يصدر السيد أمرا مضادا ، بل أن يغير ك فكره . يقود الحصانين بالزحافة الى الخلف قريبا من الجناح الجانبى الذى كان يبدو أن الاسطبل متخذ فيه وراء بوابة كبيرة . ورأى ك نفسه يبقى بمفرده ، كانت الزحافة تبتعد من ناحية ، ومن الناحية الأخرى كان السيد الشاب يتبعد سالكا الطريق الذى كان ك قد أتى منه ، وكان الاثنان يتحركان ببطء شديد ، وكأنما كانا يريدان أن يبينا ل ك أنه ما زال يحتكم على سلطة استرجاعهما .

وربما كانت له هذه السلطة . ولكنها لم تكن لتفيده بشئ . ان استعادة الزحافة تعنى أن يطرد نفسه بنفسه من هنا . وهكذا بقى وحده ساكنا ، الوحيد الذى تمسك بالموقع ، ولكن النصر الذى حققه كان نصرا لا فرح فيه . أخذ ينقل بصره بين السيد والحوذى على التوالى . كان السيد قد بلغ الباب الذى كان ك قد ولج الى الفناء من خلاله ، ونظر

السيد خلفه مرة أخرى ، وظن ك أنه رآه يهز رأسه من فرط العناد ثم التفت الى الناحية الأخرى بحركة قصيرة حاسمة تنطوي على التصميم واتجه الى المدخل واختفى فيه . أما الحوذى فقد بقى مدة أطول فى الفناء ، لأن الزحافة كانت تتطلب الكثير من العمل ، وكان عليه أن يفتح بوابة الاسطبل الثقيلة ، وأن يعيد الزحافة الى مكانها سائرا بها الى الحلف ، ثم كان عليه أن يفك الحصانين وأن يسوقهما الى الزريبة ، وكان الحوذى يقوم بهذه الأعمال كلها جادا ، عاكفا على نفسه تماما ، دون أن يراوده أمل فى خروج قريب بالزحافة . وكانت حركات الحوذى الصامتة التى لم تصحبها نظرة الى هذه الناحية أو الى تلك تلوح لك تائيبا أكثر عنفا من تصرف السيد حياله . فلما انتهى الحوذى من عمله فى الاسطبل ، وسار فى خط منحرف خلال الفناء ، بخطوات بطيئة مترنحة ، وأقفل البوابة الكبيرة ، ثم عاد . وكان يؤدي هذا كله ببطء شديد دون أن يرفع بصره عن آثار أقدامه فى الجليد . ثم أقفل على نفسه باب الاسطبل وأطفأ كل الأنوار الكهربائية - فلم تضىء ؟ - ولم يبق من النور سوى ما انبعث من الشق فى البهو الخشبي وكان لا يفتأ يشد اليه النظرة الزائغة ، بدا لك كأنهم جميعا قطعوا جميع الروابط بينهم وبينه ، وكأنه أصبح الآن بطبيعة الحال أكثر حرية من أى وقت مضى ، وكأنه يستطيع أن ينتظر فى هذا المكان - وهو المكان المحرم - كما يحلو له وكأنه كسب هذه الحرية على نحو لا يكاد يستطيعه آخر ، وكأنه لا يوجد انسان يحق له أن يمسسه أو يطرده أو حتى أن يكلمه . ولكنه كان مقتنعا اقتناعا لا يقل قوة بأنه ليس هناك فى الوقت نفسه شيء أكثر سخفا ويأسا من هذه الحرية ، من هذا الانتظار ، من هذه الحرمة .

الفصل التاسع

وانتزع نفسه وعاد الى المبنى ، ولم يسر فى هذه المرة بجذاء الجدار بل اجتاز الجليد ، وقابل فى المدخل صاحب الحان الذى حياه صامتا وأشار له الى باب قاعة الخمار ، فاتبع ك اشارته لأنه كان يرتعد من شدة البرد ، ولأنه كان يريد أن يرى أناسا ، ولكنه أصيب بخيبة شديدة لأنه لم ير هناك سوى السيد الشاب يجلس الى منضدة صغيرة يبدو انها وضعت خصيصا له ، لأنهم كانوا يكتفون فى الحان عادة بالبراميل ، وكانت صاحبة حان الجسر تقف أمامه . وكانت بيبي معتزة بنفسها ، تميل برأسها الى الخلف ، وتبتسم ابتسامتها المعهودة تعي كرامتها وعيا لا نقض له ، وتهز ضفيريها فى كل حركة تأتي بها ، وكانت تسرع وتسرع ، لتأتى بالبيرة ثم بالحبر والريشة ، لأن السيد كان قد بسط أمامه أوراقا وأخذ يقارن البيانات التى كان يجدها تارة فى هذه الورقة وتارة فى تلك الورقة عند نهاية المنضدة ، وكان فى هذه اللحظة يريد أن يكتب شيئا . أما صاحبة الحان فكانت تنظر من عليائها هادئة ، تمط شفتيها قليلا كأنها تلتمس الراحة ، فتشمل ببصرها السيد والأوراق جميعا وكأنها قد قالت كل ما كان ينبغى أن تقوله وكأنه لقي الترحيب . فلما دخل ك قال السيد رافعا بصره قليلا اليه ثم خافضه بعد ذلك ليغرق فى الأوراق :

— ها هو ذا السيد موظف المساحة أخيرا .

وكذلك عبرت صاحبة الحان على ك بنظرة غير عابثة لا يظهر فيها شيء من الاندهاش . أما بيبي فيبدو انها لم تلاحظ ك الا عندما ذهب الى منضدة المشروبات وطلب شيئا من الكونياك .

واستند الى المنضدة ووضع يده على عينيه ولم يهتم بأى شيء . ثم ارتشف رشفة من الكونياك وأعاده لأنه لم يستسغه . وقالت بيبي باختصار :

— السادة كلهم يشربونه

وسكت البقية ، وغسلت الكأس ووضعتها على الرف • فقال ك :
السادة لديهم أفضل منه
فقالت يبيي :

— ربما • أما أنا فليس لدى غيره

وبهذا فرغت من خدمة ك ، وعادت الى خدمة السيد الذى لم يكن
يحتاج الى شيء ، فأخذت تسير خلفه جيئة وذهابا على هيئة قوس ، وتحاول
على نحو مقبول أن تلقى نظرة من فوق كتفيه الى الأوراق • ولكن فضولها
وتصنعها كانا بلا معنى واستنكرتهما حتى صاحبة الحان التى قطبت
حاجبيها •

وفجأة أرهفت صاحبة الحان السمع ، وحملت فى الفراغ وهى
مندمجة فى الاصغاء كل الاندماج • والتفت ك حواليه ، فلم يسمع شيئا
غريبا ، ولم يبد على الآخرين انهم يسمعون شيئا ، ولكن صاحبة الحان
جرت على أطراف أصابعها بخطوات كبيرة الى الباب فى المؤخرة — ذلك
الباب الذى يؤدى الى القناء — وأطلت من خلال ثقب المفتاح ، ثم اتجهت
الى الآخرين بعينين فاغرتين ، ووجه محتقن ، وأشارت اليهم بأصبعها أن
يقبلوا ، وأخذوا يتناوبون النظر من خلال الثقب ، واختصت صاحبة الحان
بطبيعة الحال بأكبر نصيب ، وكذلك يبيي نالت نصيبا كبيرا أما السيد
فكان يبدو بالنسبة اليهم أكثر فتورا • وعادت يبيي وعاد السيد بعد
قليل ، الا صاحبة الحان فقد ظلت تنظر من الثقب وتبذل الجهد الكثير ،
منحنية انحناء شديدة وتوشك أن تركع على الأرض ، وكان الناظر اليها
يظن انها تتوسل الى ثقب المفتاح أن يتيح لها أن تنفذ من خلاله ، اذ ليس
من شك فى انه لم يعد هناك شيء يرى • فلما نهضت أخيرا ومسحت على
عينها بيديها ، وسوت شعرها ، وتنفست نفسا عميقا ، واضطرت
عينها على ما يبدو الى الاعتياد من جديد على القاعة والناس ، وما فعلت
ذلك الا كارهة قال ك :

— هل رحل كلم اذن ؟

ولم يقل هذا ليتأكد من شيء يعرفه ، بل قاله ليسبق هجوما كان
يتوقع حدوثه ، فما أشد ما أصبح الآن عرضة للاصابة • ومرت عليه
صاحبة الحان صامتة ، ولكن السيد قال وهو يجلس الى منضدته :

— نعم ، بكل تأكيد • لقد تخلّيت عن موقع المراقبة ، فأصبح فى
مقدور كلم أن يرحل • ان السيد حساس بدرجة تثير الدهشة • لقد
لاحظت ، يا سيدتى صاحبة الحان كيف كان كلم ينظر حواليه فى قلق ؟

ويبدو أن صاحبة الحان لم تلاحظ هذا واستمر السيد فى كلامه :
- ومن حسن الحظ انه لم يعد هناك شىء تراه عينه ، فقد مسح
الحوذى كل شىء حتى آثار الأقدام فى الجليد .
فقال ك :

- ان السيدة صاحبة الحان لم تلاحظ شيئا
ولم يكن يعبر بهذا عن أمل ما ، ولكنه كان قد ثار للدعاء الذى ادعاه
السيد وأراد له أن يتخذ نبرة نهائية لا سبيل الى وصفها . وقالت
صاحبة الحان :
- لعل لم أكن عند ثقب المفتاح آنذاك
وكانت تقصد بذلك حماية السيد أولا وكانت تقصد ثانيا الى اعطاء
كلم حقه ، وأضافت :

- ولكنى لا أعتقد أن حساسية كلم شديدة الى هذا الحد . انما
نحن الذين نخشى عليه بطبيعة الحال ، ونحاول أن نحميه ونبدأ بافتراض
أنه على حساسية مفرطة . وفى هذا خير ، ولا شك أن تلك هى ارادة كلم .
أما حقيقة الأمر فلا علم لنا بها . ولا شك فى أن كلم لن يتكلم أبدا مع
شخص لا يريد أن يتكلم معه ، مهما بذل هذا الشخص من الجهد ومهما
الج وبلغ ما لا يمكن احتماله من حدود ، ولكن هذه الحقيقة - أعنى أن
كلم لن يكلمه أبدا ولن يدعه يظهر أمامه - تكفى ، فلماذا نذهب الى أنه
لا يستطيع فى الواقع احتمال منظر أى شخص ! ؟ وهذا على الأقل شىء
لا يقوم عليه برهان لأنه لم يتعرض لتجربة .
وهز السيد رأسه بحماس وقال :

- هذا رأى فى أساسه بطبيعة الحال رأى أنا كذلك ، وإذا كنت
قد عبرت عنه بأسلوب آخر ، فليس ذلك الا لأننى أردت أن يكون مفهوما
للسيد موظف المساحة . والمؤكد على أية حال أن كلم عندما خرج الى الحلاء
كان يتلفت حواله مرارا فى نصف دائرة .
فقال ك :

- ربما كان يبحث عنى .
- فقال السيد :
- ربما . وأنا لم أقع على هذا .
وضحك الجميع . كانت بيبي ، التى لم تفهم من الأمر كله شيئا ،
أكثرهم ضحكا .

وهنا قال السيد :

— ما دمنا قد اجتمعنا الآن في هذا الجو المرح ، فأننى أرجوك
ياحضرة موظف المساحة أشد الرجاء أن تكمل ملفاتى ببعض البيانات •

فقال ك وهو ينظر من بعد الى الملفات :

— انكم تكتبون هنا كثيرا •

فقال السيد وهو يضحك مرة أخرى :

— نعم • تلك عادة قبيحة • ولكن لعلك لا تعرف من أنا • أنا
موموس سكرتير كلم فى القرية •

وساد القاعة كلها بعد هذه الكلمات جو من الجد • وعلى الرغم من
أن صاحبة الحان وببى تعرفان السيد بطبيعة الحال ، فقد جمدتا عندما
سمعتا الاسم والوظيفة • بل ان السيد نفسه ، وكأنما قال أكثر
مما تحتمل قدرته على الاستيعاب ، أو كأنما أراد على الأقل أن يهرب من
كل رهبة قد تستتبع كلماته أو تكمن فيها ، اندمج فى أوراقه وبدأ
يكتب ، حتى لم يعد من بالحجرة يسمعون سوى ريشته • وسأل ك بعد
هنيهة :

— ما معنى سكرتير القرية ؟

فقالت صاحبة الحان ، بدلا من موموس الذى لم يعد يجد من الملائم
أن يقدم بنفسه إيضاحات بعد أن قدم نفسه :

— السيد موموس سكرتير لكلم مثل أى سكرتير آخر من سكرتيرى
كلم ، ولكن مقر وظيفته وكذلك ، ان لم أكن قد أخطأت الفهم ، ومجال
صلاحيته الوظيفية ••

وهنا هز موموس أثناء الكتابة رأسه هزا شديدا ، فصححت صاحبة
الحان :

— ولكن مقر وظيفته فقط ، وليس مجال صلاحيته الوظيفية ،
محصور فى القرية • والسيد موموس يقوم لكلم بالأعمال الكتابية التى
تدعو اليها الضرورة فى القرية وهو أول من يتلقى الطلبات التى تصدر
من القرية موجهة الى كلم •

فلما نظر ك الى صاحبة الحان بعينين فارغتين ، ولم يبد أى تأثر
بهذه الكلمات ، أضافت فى شيء من الاضطراب :

— هذا هو النظام ، كل سادة القصر لهم فى القرية سكرتيريون •

وقال موموس لصاحبة الحان ، وكان ينصت اليها باهتمام أكثر مما فعل ك :

— وغالبية السكرتيرين فى القرية يعملون فى خدمة سيد واحد ،
أما أنا فأخدم سيدين هما كلم وفالابينه .

فقالت صاحبة الحان وقد تذكرت الموضوع موجهة الكلام الى ك :

— نعم . السيد موموس يخدم سيدين ، كلم وفالابينه ، فهو اذن
سكرتير قرية مضاعف .

فقال ك :

— سكرتير مضاعف .

وأوماً برأسه الى موموس كما يومئ الانسان برأسه الى طفل سمح
البعض يمدحونه ، وكان موموس قد وقع الآن بصره اليه كلية وأوشك
أن يميل ناحيته الى الأمام . واذا كان تعبير ك ينطوى على نوع من التحقير،
فلعل أحدا لم يلحظه ، ولعله كان مطلوبا . انهم يعددون أمام ك بالذات ،
وهو الذى لم يصب من الجدارة حتى القدر الذى يتيح له أن يراه كلم
مصادفة ، ميزات رجل من المحيطين بكلم ، المقربين اليه ، ويهدقون فى غير
مواربة الى الحصول على مدحه وتقديره . ولكن ك لم يكن يعى هذا الأمر
الوعى الصحيح . فلم يكن ، وهو الذى اجتهد بكل طاقته أن ينال نظرة
من كلم ، يقدر على سبيل المثال مركز موموس الذى كان له أن يعيش
تحت بصر كلم تقديرا عاليا ، وكان بعيدا عن أن يحس حياله بالاعجاب
أو الحسد ، لانه لم يكن يصبو الى ما هو قريب من كلم ، بل كان يصبوا
الى الوصول برغباته هو ، لا رغبات غيره ، الى كلم ، ثم الى تجاوزه
— لا البقاء لديه — والتقدم ليلوغ القصر .

ونظر ك الى ساعته وقال :

— والآن ينبغى أن أذهب الى البيت .

وهنا تغير الموقف من فوره لصالح موموس الذى قال :

— نعم بطبيعة الحال ، ان واجبات الوظيفة فى المدرسة تدعوك
ولكن ينبغى عليك أن تمنحنى لحظة أخرى . فلدى بضعة أسئلة قصيرة .

فقال ك وهم أن يذهب الى الباب :

— لست ميالا لذلك .

فضرب موموس بملف على المنضدة ونهض واقفا وقال :

– اننى أطلبك باسم كلم بأن تجيب على أسئلتى •

فأعاد ك الكلمات :

– باسم كلم ؟

ثم قال :

– هل تهمة شئونى ؟

فقال موموس :

– هذا أمر لا أستطيع أنا القطع فيه ، ولا أنت بطبيعة الحال ، وعلينا أن نتركه له ونقر عينا • ولكنى أطلبك استنادا الى المركز الذى نصبنى فيه كلم بأن تبقى وأن تجيب على أسئلتى •
وتدخلت صاحبة الحان :

– يا حضرة موظف المساحة ، اننى أحترس من الاستمرار فى تقديم المشورة اليك ، فلقد لقيت منك ، عندما تقدمت اليك بما تقدمت به اليك من نصح حتى الآن ، وهو أخلص النصيحة ، الصدود الذى لم يسبق له مثيل ، ولقد أتيت الى هنا الى السيد السكرتير – وليس هنا ما أخفيه – لأحيط الديوان علما بما ينبغى أن يعلمه من مسلكك ومقصدك ، ولأمتنع فى كل وقت عن قبول انزالك للقامة فى حانى مرة أخرى • هذه هى العلاقة التى بيننا ، ولن يتغير من أمرها شيء ، وإذا كنت أنا أقول الآن رأى فلا أريد بذلك أن أساعدك ، وانما لأسهل على السيد السكرتير المهمة الصعبة ، مهمة التباحث مع رجل مثلك ، بعض التسهيل • ومع ذلك فيمكنك – بفضل صراحتى الكاملة ، وأنا لا أستطيع أن أتعامل معك الا بصراحة ، وهذا شيء رغما عنى – أن تستخرج من كلماتى نفعا لك ان شئت • وفى هذه الحالة ألفت نظرك الى أن الطريق الوحيد الذى يؤدى بك الى كلم يمر هنا بمحاضر السيد السكرتير • ولكننى لا أريد المبالغة ، فلعل الطريق ينقطع قبل أن يصل الى كلم بكثير ، وهذا أمر يقطع فيه تقدير السيد السكرتير • وهذا الطريق هو على أية حال الطريق الوحيد أمامك فى اتجاه كلم • فهل تريد أن تتخلى عن هذا الطريق الوحيد لا لسبب الا العناد ؟

فقال ك :

– آه ، يا سيدتى صاحبة الحان ، ليس هذا الطريق هو الطريق الوحيد الى كلم ، وما هو بأفضل من غيره قيمة • وأنت ، يا حضرة السكرتير ، تقطع فيما اذا كان ما أقوله هنا يصل الى كلم أم لا ؟

فقال موموس وهو ينظر بعينين خفضهما فى اعزاز الى اليمين والى اليسار دون أن يكون هناك شئ ينظر اليه :

— طبعا • والا فما فائدة عملى كسكرتير •

فقال ك :

— انك ترين يا سيدتى صاحبة الحان اننى لا أحتاج الى طريق الى كلم بل الى السيد السكرتير أولا •

وقالت صاحبة الحان :

— ولقد أردت أن أفتح لك هذا الطريق • ألم أعرض عليك فى الصباح أن أنقل رءاءك الى كلم ؟ وما سبيل ذلك الا السيد السكرتير • أما أنت فقد رفضت ، وليس هناك أمامك من طريق سوى هذا • وان كانت فرصة النجاح قد قلت الآن عن ذى قبل بطبيعة الحال بعد ما فعلته اليوم ، أعنى بعد محاولتك الهجوم على كلم • ولكن هذا الأمل الأخير الضئيل أشد الضلالة — أو غير القائم ، ان أردنا الحقيقة — هو أملك الوحيد •

وقال ك :

— كيف تعللين ، يا سيدتى صاحبة الحان ، انك حاولت فى البداية أشد المحاولة أن تصرفينى عن التقدم الى كلم ، ثم اذا بك الآن تحملين رجائى محمل الجد الشديد ويظهر عليك كأنك تعتبرينى مفقودا ضائعا أو نحو ذلك اذا فشلت مخططاتى ؟ اذا كنت قد نصحتنى بنية خالصة أن أنصرف عن السعى للوصول الى كلم ، فكيف يمكن أن تدفعينى الآن — بالاخلاص نفسه على ما يبدو • الى سلوك الطريق اليه حتى وأنت تقترضين أنه لا يوصل اليه ؟

فقالت صاحبة الحان :

— هل أدفعك ؟ أهذا دفع لك الى الأمام عندما أقول لك ان محاولتك لن تجدى نفعا ؟ ان هذه لهى فى الحقيقة غاية الجراءة أن تحاول على هذا النحو أن تقلب على مسئولية عليك أن تحملها أنت نفسك • وربما كان وجود السيد السكرتير هو الذى يغريك بذلك • هه ؟ لا ، يا حضرة موظف المساحة ، اننى لا أدفعك الى شئ • الا أن هناك شيئا واحدا أعترف لك به وهو أنني عندما رأيته لأول مرة ربما رفعتك فوق قدرك • فقد أفرغنى انتصارك السريع على فريدا ، ولم أكن أعرف ما يمكنك أن تأتى

به من أمور غير ذلك ، فأردت أن أحول دون حدوث مصائب أخرى ، واعتقدت أنني لا أستطيع أن أصل الى تحقيق ذلك الا بأن أحاول هزك بالرجاء والتهديد . ثم عرفت بعد ذلك كيف أفكر في الأمر كله تفكيراً أكثر هدوءاً . ولك أن تفعل ما يحلو لك . وقد تترك أفعالك في جليد الفناء آثار أقدام عميقة ، ولكنها لن تزد عن ذلك . فقال ك :

— لا أرى أن التناقض قد اتضح تماماً ، ولكنني راضٍ بالتنبيه اليه . والآن أرجوك يا حضرة السكرتير أن تقول لي هل الرأي الذي رأيته السيدة صاحبة الحان صحيح ، وهو أن المحضر الذي تريد فتحه لي يمكن أن يؤدي في نتائجه الى السماح لي بالمثل أمام كلم . فإذا صح هذا ، فأنا مستعد حالاً للاجابة على أسئلتك كلها . بل انني في هذه الحالة مستعد لكل شيء .

فقال موموس :

— لا ، ليست هناك مثل هذه الارتباطات . كل ما أريده بالمحضر هو أن أحتفظ لسجلات كلم في القرية بوصف دقيق لعصر يومنا هذا . ولقد تم الوصف ، وهناك ثغرتان أو ثلاث ثغرات ينبغي عليك أن تكملها ، احققاً للنظام . وليس هناك غرض آخر ، ولا يمكن الوصول الى هدف آخر .

ونظر ك الى صاحبه الحان صامتاً . فسألته :

— لماذا تتطلع الى ؟ هل قلت غير ذلك ؟ انه دائماً هكذا ، يا حضرة السكرتير ، انه دائماً هكذا . انه يزيّف المعلومات التي يقدمها الانسان اليه ، ثم يدعى أنه تلقى معلومات مزيفة . لقد قلت له دائماً ، اليوم وفي كل يوم ، انه ليس هناك أدنى أمل في أن يستقبله كلم . وإذا لم يكن لديه أمل ، فلا يمكن أن يأتيه هذا المحضر بأمل . هل يمكن أن تكون الأمور أوضح من ذلك ؟ ثم انني أقول علاوة على ذلك ، ان هذا المحضر هو الرابطة الرسمية الوحيدة الحقيقية التي يمكن أن تربطه بكلم . وهذا كلام واضح أيضاً ولا يعلوه الشك . فإذا لم يكن يصدقني الآن — وأنا لا أعرف السبب ولا الهدف — وظل يأمل في التقدم الى كلم — فلا يمكن اتباعاً لطريقته في التفكير — أن يساعده شيء سوى الرابطة الرسمية الوحيدة التي تربطه بكلم ، ألا وهي هذا المحضر . وأنا لم أقل سوى هذا ، ومن يدعى غير هذا فهو يحرف الكلمات عن سوء نية .

فقال ك :

— اذا كان الأمر كذلك ، يا سيدتى صاحبة الحان ، فأنا أعتذر لك ،
فقد أسأت فهمك • لقد اعتقدت ، خطأ — كما اتضح الآن — أن لى أن
أستشف من كلماتك السابقة أن هناك أملا ضئيلا جدا •

وقالت صاحبة الحان :

— بكل تأكيد • وهذا هو على أية حال رأيى • وهأتذا تحرف كلماتى
مرة أخرى ، وتنتج الآن تلك الوجهة المضادة • هناك مثل هذا الأمل ،
فى رأيى ، وهو لا يقوم الا على أساس هذا المحضر • ولكن الأمر لا يسير
هكذا ، بأن تتهجم على السيد السكرتير بسؤالك : هل يسمح لى بالثول
أمام كلم اذا أجبت على الأسئلة ؟ ولو أن طفلا سأل هذا السؤال لضحكنا
منه ، أما اذا سأل انسان بالغ ، فتلك اهانة للديوان ، ولقد تستر السيد
السكرتير برقة اجابته عليها كرما منه • أما الأمل الذى أعنيه فهو انك
تتخذ عن طريق المحضر نوعا من الصلة ربما نوعا من الصلة بكلم •
أليس هذا أملا كافيا ؟ فاذا سأل الانسان عن أفضالك التى تجعلك
جديرا بمنة الأمل هذه ، فهل يمكنك أن تذكر أى شيء ؟ وليس من الممكن
بطبيعة الحال ذكر شيء أكثر دقة عن هذا الأمل ، وبخاصة السيد السكرتير
لن يستطيع أن يشير اليه أبدا ولا بأبسط اشارة • انما الأمر بالنسبة
اليه ، كما قال ، أمر وصف عصر اليوم تطبيقا للنظام ، ولن يقول أكثر
من ذلك حتى اذا سألته الآن أسئلة تتصل بكلماتى •

وسأل ك :

— وهل سيقراً كلم ، يا حضرة السكرتير ، هذا المحضر ؟

فقال موموس :

— لا • لماذا ؟ ان كلم لا يستطيع أن يقرأ كل المحاضر ، بل انه
لا يقرأ أى محضر • انه يقول لنا دائما « ابعدوا عنى بمحاضركم » !

وقالت صاحبة الحان شاكية :

— يا حضرة موظف المساحة ، انك تنهك قواى بأسئلتك • هل من
الضرورى ، أو من المرغوب فيه ، أن يقرأ كلم هذا المحضر وأن يحاط علما
بتفاهات حياتك كلمة كلمة • أليس الأفضل بك أن ترجو متواضعا ومتذللا
أشد التواضع والتذلل أن يخفوا المحضر على كلم ، وهو رجاء أحق مثل
الرجاء الآخر — فأين هذا الذى يستطيع أن يخفى شيئا على كلم ؟ — ولكنه

سينم عن خلق أكثر لطفا . وهل هذا ضرورى بالنسبة لذلك الذى تسميه أملك ؟ ألم تعلم أنت بنفسك أنك ستكون راضيا اذا نلت فرصة المثل أمام كلم حتى وان لم ينظر ، وان لم ينصت اليك ؟ ألا تصل عن طريق هذا المحضر على الأقل الى هذا وربما الى أكثر من هذا ؟

وسأل ك :

- أكثر من هذا ؟ وكيف ؟

فصاحت صاحبة الحان :

- بالآ تلج دائما كالطفل فى أن يقدم اليك كل شئ على الفور فى صورة مستساغة . فمن هذا الذى يستطيع أن يجيب على مثل هذه الأسئلة ؟ ان المحضر سيذهب الى سجلات كلم فى القرية ، كما سمعت ، ولا يمكن بكل تأكيد أن يقال لك أكثر من هذا . ولكن هل تعرف الأهمية الكاملة للمحضر وللسيد السكرتير ولسجلات القرية ؟ أتعرف معنى استجواب السيد السكرتير لك ؟ لعله - أو يبدو أنه - هو نفسه لا يعرف . انه يجلس هنا هادئا ويؤدى واجبه ، كما يقضى النظام ، على حد قوله . ولكن لا تنس أن كلم هو الذى عينه ، وانه يعمل باسم كلم ، وان ما يفعله يحظى بموافقة كلم مبدئيا ، وان لم يصل قط اليه . وكيف يمكن أن يحظى شئ بموافقة كلم ان لم يكن يفيض بروح منه ؟ وأنا لا أريد التملق للسيد السكرتير على نحو غليظ ، وهو نفسه يرفض مثل هذا المسلك كل الرفض ، ولكنى لا أتكلم عن شخصيته الخاصة ، بل أتكلم عنه اذ ينال موافقة كلم ورضاه ، كما هى الحال الآن : انه يكون اذ ذاك أداة عليها يد كلم والويل لمن لا يطيع .

ولم يخش ك تهديدات صاحبة الحان ، ولقد سئم الآمال التى حاولت أن تمسكه بها . لقد كان كلم بعيدا . ولقد شبهته صاحبة الحان ذات مرة بالنسر ، وبدا التشبيه لك مضحكا آن ذاك ، أما الآن ، فلم يعد يبدو له كذلك . وفكر ك فى بعده ، وفى مقره الذى لا سبيل الى بلوغه ، وفى صمته الذى قد لا تقطعه الا صرخات لم يسمعها ك ، وفى نظراته النافذة المتجهة الى أسفل والتى لا سبيل الى اثباتها ولا الى نقضها ، وفى دوائره التى لا سبيل الى تحطيمها انطلاقا من العمق الذى يكمن فيه ك ، والتى يرسمها هو فى أعاليه حسب قوانين لا سبيل الى فهمها والتى لا تبدو الا فى لحظات . كانت تلك أشياء مشتركة بين كلم والنسر . ولا شك فى أن هذا المحضر لم يكن له شأن بها ، هذا المحضر الذى أخذ موموس يفتت فوقه سميطة يأكلها مع البيرة ، فتناثر الملح والكمون فوق الأوراق كلها .

وقال ك :

— طابت ليلتكم ، اننى أنفر من كل استجواب •

وذهب بالفعل الى الباب • فقال موموس لصاحبة الحان بلهجة توشك أن تكون لهجة الخوف :

— انه اذن يذهب •

فقالت صاحبة الحان :

— انه لن يجرؤ على ذلك •

ولم يسمع ك أكثر من ذلك لأنه كان قد وصل الى المدخل • كان الجو باردا وكانت الريح تهب عاتية وتنفض اليه • وأتى صاحب الحان من باب مقابل ، ويبدو أنه كان يراقب المدخل من خلال ثقب هناك • وكان عليه أن يلف طرفى سترته حول جسمه حتى لا تعبث بهما الريح • وقال صاحب الحان :

— انك اذن ذاهب يا حضرة موظف المساحة ؟

فسأله ك :

— هل تدهش لذلك ؟

فقال صاحب الحان :

— نعم • ألم يستجوبك ؟

فقال ك :

— لا ، لم أدعه يستجوبنى •

فسأل صاحب الحان :

— ولم لا ؟

فقال ك :

— لا أعرف لماذا أدعه يستجوبنى ، لماذا أنصاع لنكتة أو نزوة من جانب الدواوين • وربما أوافق فى مرة أخرى ، موافقة من قبيل النكتة أو النزوة أيضا ، ولكن ليس اليوم •

فقال صاحب الحان :

— بكل تأكيد •

وكانت موافقته صادرة عن أدب لا عن اقتناع • ثم قال :

– لابد أن أدع الخدم يذهبون الى قاعة الشراب ، فقد حل موعدهم
هنا وقت طويل • ولكنى لم أشأ أن أشوش على الاستجواب •
فسأل ك :

– أكنت ترى له هذه الأهمية ؟

فقال صاحب الحان :

– نعم •

وقال ك :

– أما كان ينبغي أن أرفض ؟

فقال صاحب الحان :

– لا •

ثم أضاف :

– ما كان يصح أن ترفض •

فلما سكنت ك ، عاد يقول ، اما ليواسى ك أو لينصرف بسرعة :

– مه ، ولكن لا ينبغي أن يعنى هذا بالضرورة أن السماء ستمطر

كبريتا •

فقال ك :

– لا ، فان حالة الطقس لا تدل على ذلك •

وتفرقا وهما يضحكان •

الفصل العاشر

وخرج ك وهبط الدرج الذى كانت الريح العاتية تهب عليه من كل جانب ونظر الى الظلمة الدامسة . كان الجو رديئا رديئا . وخطر بباله على نحو يتصل بهذا الجو اتصالا ما كيف بذلت صاحبة الحان الجهود لتحمله على قبول المحضر وكيف وقف صلبا لا يلين . ولم تكن جهودها صريحة ، فقد كانت فى سرها تشده بعيدا عن المحضر . وأخيرا لم يكن يعرف هل قد وقف صلبا لا يلين أو قد لان واستجاب . تلك طبيعة تنطوى على التأمر ، يبدو أنها تعمل بلا معنى مثل الريح ، حسب قوانين بعيدة غريبة لا يستطيع انسان أن يبصر بها .

وما كاد يخطو بضع خطوات على الطريق الزراعى حتى رأى فى البعد نورين يتأرجحان . وفرح بهذه الاشارة التى تدل على الحياة ، واتجه نحوها مسرعا ، وكانت هى تحوم مقتربة منه . ولا يعلم لماذا أحس بالخيبة عندما تبين أنهما المساعدان . لقد أقبلوا نحوه ، ويبدو أن فريدا أرسلتهما . وكان المصباحان اللذان خلصاه من الحلقة على ما يبدو ملكه ، ومع ذلك فقد أحس بالخيبة ، لأنه كان ينتظر بعض الغرباء ، ولم يكن ينتظر هذين الشخصين المعروفين اللذين كانا ثقلا عليه . ولم يكن المساعدان وحدهما ، فقد برز من بينهما من وسط الظلام برناباس . وصاح ك وهو يمد يده ناحيته :

— برناباس . هل تأتى الى ؟

وأدت مفاجأة اللقاء به بادىء ذى بدء الى نسيان النكد الذى كان برناباس قد سببه له . وقال برناباس بأسلوبه الودى المعهود الذى لم يتغير :

— نعم ، وأحمل اليك خطايا من كلم .

فقال ك ملقيا رأسه الى الخلف :

— خطايا من كلم .

وأخذه بسرعة من يده وقال للمساعدين اللذين التصقا به من اليمين
واليسار رافعى المصباحين :
- أضيئنا .

واضطرك الى أن يطوى الورقة الطويلة طية صغيرة حتى يحميها من
الريح . ثم قرأ :

السيد موظف المساحة - حان الجسر ،

ان اعمال المساحة التى قمت بها حتى الآن تلقى تقديرى . وكذلك
أعمال المساعدین جديرة بالمدح ، وانك لتعرف كيف تحسن حملهما على
العمل . لا تدع حماسك يفتر . وانتہ بالأعمال الى نهاية طيبة ، وان
طراً أى تعطيل فسأغضب . أما فيما عدا هذا فقرعينا ، وسيتم حسم
مسألة المرتب عما قريب . وان عينى لتتابعك .

ولم يرفع ك عينيه عن الخطاب الا بعد أن صاح المساعدین - وكانا
أبطأ منه فى القراءة - فرحين بالأخبار الطيبة « عظيم » ثلاث مرات وهزا
المصباحين . فقال لهما :

- الزما الهدوء .

ثم قال لبرناباس :

- هناك خطأ .

فلم يفهمه برناباس . وعاد ك يقول :

- هناك خطأ .

وعاوده تعب عصر اليوم ، ولاح له الطريق الى مبنى المدرسة بعيدا ،
وتصور من خلف برناباس عائلته تهب واقفة ، وظل المساعدان يلتصقان
به حتى اضطرا الى دفعهما بمرفقيه . لماذا أرسلتهما فريدا اليه وقد أمر
بأن يبقيا لديها ؟ لقد كان فى مقدوره أن يجد الطريق الى البيت بسهولة ،
وبسهولة أكثر لو كان بمفرده ، ولم تكن هذه الجماعة حوله . وكان أحد
المساعدین قد لف حول رقبته منديلا كانت أطرافه تتطاير فى الهواء ولفحت
وجه ك عدة مرات ، وان كان المساعد الثانى قد حرص على أن يبعد هذه
الأطراف عن وجه ك بأصابعه الطويلة المدببة التى كان لا يكف عن العبث
بها ، ولم يكن يحقق بهذا من الأمر شيئا . ويبدو أن الاثنين قد وجدا
علاوة على ذلك متعة فى هذه الحركات المتكررة وكانت الريح ورجفة
الليل تثيران حماسهما - وصاح ك :

— ابعدا • اذا كنتما قد أتيتما لمقابلتي فلماذا لم تأتيا بعصاي ؟
فكيف أستطيع بدونها أن أسوقكما الى البيت ؟ فانكمشوا وراء برناباس ،
ولكنهما لما كانا خائفين وما لبثا أن وضعا المصباحين على كتفى سيدهما
يمينا ويسارا فدفعهما هو بطبيعة الحال بعيدا عنه •

وقال ك :

— يا برناباس •

وانقبض قلبه لأن برناباس على ما يبدو لم يفهمه ، وكانت سترته
فى الأوقات الهادئة تلمع لمعانا جميلا ، أما اذا جد الجد ، فلم يكن يجد
لديه العون بل يجد لديه مقاومة صامتة ، ولم يكن فى مقدوره مناهضتها ،
لأنه كان هو ذاته أعزل ، يبتسم ابتسامته البراقة ، ولكن هذه الابتسامة
لم تكن تعين على شيء ، مثل النجوم العالية التى لم تعين على شيء اذا هبت
الريح العاصفة • وعاد ك يقول وهو ينشر الخطاب أمام عيني ناباس :

— انظر ، أترى ما كتبه السيد الى • ان المعلومات التى وصلت اليه
خاطئة فانا لا أقوم به ، لايمكننى ان أحدث به تعطيلًا بطبيعة الحال ،
ولا أستطيع أن أنسبب فى غضب السيد ، فكيف يمكن أن استحق
تقديره ؟ كذلك لا يمكنى أبدا أن أقر عينا •

وقال برناباس الذى كان ينحرف دائما ببصره عن الخطاب والذى
ما كان ليستطيع أن يقرأ منه شيئا لأن ك قربه من عينيه حتى لصقه
بوجهه :

— سأبلغ هذا

فقال ك :

— آه ، انك تعدنى دائما بأنك ستبلغ ما أقول ، ولكن هل يمكننى
أن أصدقك فعلا ؟ وان حاجتى الآن الى رسول جدير بالثقة لأكبر من
حاجتى اليه فى أى وقت مضى •

وعض ك شفتيه من فرط تعجله • وقال برناباس وهو يميل
برقبته ميلا رفيقا كاد أن يغرى ك بالعودة الى تصديق برناباس :

— يا سيدى • سأبلغه بكل تأكيد •

فصاح ك :

— كيف ؟ ألم اتبلغه بعد ؟ ألم تذهب فى اليوم التالى الى القصر ؟

فقال برناباس :

- لا . ان أبى رجل هرم ، ولقد رأيته أنت نفسك ، وتصادف أن كان العمل لدينا كثيرا واضطرت الى مساعدته ، ولكنى سأذهب عما قريب مرة أخرى الى القصر .

وصاح ك وهو يضرب جبهته بكفه :

- وماذا تفعل أيها الانسان الذى يعصى الفهم على الاحاطة به ؟! ألا تفوق شئون كلم فى الأهمية كل الشئون الأخرى ؟ انك تشغل المنصب الرفيع ، منصب الساعى ، وهأنتذا تتصف على هذا النحو المزرى ؟ ومن الذى يهتم لأعمال أبىك ؟ ان كلم ينتظر أن تصله أخبار ، وبدلا من أن تسرع اليه حتى تنكفىء على وجهك من شدة الاسراع ، تفضل أن تكنس الروث من حظيرتكم .

وقال برناباس فى غير اضطراب :

- ان أبى صانع أحذية ، وقد تلقى تكليفا من برونسفيك بصناعة بعض الكميات ، وأنا مساعد أبى .

فصاح ك مغيظا وكأنما كان يخرج كل كلمة الى الأبد من حيز الاستعمال :

- صانع أحذية - تكليف - برونسفيك . ومن الذى يحتاج هنا الى أحذية طويلة فى هذه الطرق الحالية أبدا من البشر ؟ وفيما تهمنى صناعة الأحذية كلها ؟ لقد كلفتك برسالة ، لا لكى تنساها وتتلغها وأنت جالس على مقعد صناعة الأحذية ، وانما لتذهب بها من فورك الى السيد .

وهذا ك قليلا عندما خطر بباله أن كلم على ما يبدو لم يكن طوال الوقت فى القصر ، بل كان فى حان السادة ، ولكن برناباس أثاره من جديد عندما بدأ يتلو رسالة ك الأولى ليبرهن على انه حفظها أحسن لحفظ . فقال ك :

- كفى .

فقال برناباس :

- لا تغضب منى يا سيدى

وكانما أراد برناباس أن يعاقب ك ، فأشاح عنه ببصره ، وطأ من عينيه ، ولكنه انما فعل ذلك على الأحرى لذهوله من صياح ك . وقال ك :

— أنا لست غاضبا منك •

وتحول قلقه الى ذاته • وأردف :

— اننى لست غاضبا منك ، ولكن هناك ضررا كبيرا على فى أن يكون لدى ساع من هذا النوع فقط للأشياء ذات الأهمية البالغة •
وقال برناباس ، وبدا عليه كأنما نطق — دفاعا عن شرفه كساعى —
بأكثر مما ينبغى :

— ان كلم لا ينتظر الأخبار ، بل انه يغضب عندما أذهب اليه •
ولقد قال لى ذات مرة « مزيد من الأخبار الجديدة ؟ » ، وكثيرا ما يهب واقفا عندما يرانى عن بعد مقبلا ، ويذهب الى حجرة جانبية ولا يستقبلنى •
ثم انه لا يتعين على أن أذهب بكل رسالة ، ولو كان الأمر كذلك لذهبت من فوري بطبيعة الحال ، ولكن ليس هناك شىء معين فى هذا الشأن ، ولو أننى كفت عن الذهاب نهائيا ، لما لامنى على ذلك أحد • اننى عندما أبلغ رسالة ، أبلغها متطوعا •

فقال ك :

— حسنا •

وكان يحملق فى برناباس ويشيح بوجهه عمدا عن المساعدين اللذين كانا يظهران ببطء من خلف كتفى برناباس وكانهما يطفوان من منخفض ثم يتواريان بسرعة مطلقين صفيرا خفيفا يقلدان به الريح وكانهما فزعا لرؤية ك ، واستمرا على هذا العبت حينما • وقال ك :

— انا أعرف الأحوال لدى كلم • وأنا أشك فى أنك تستطيع أن تعرف كل شىء هناك معرفة دقيقة ، وحتى اذا كنت تستطيع ، فنحن لا نستطيع أن نصلح هذه الأمور • ولكنك تستطيع أن تبلغ رسالة ، وأنا أرجوك أن تفعل •• انها رسالة قصيرة جدا • هل يمكنك أن تبلغها غدا مباشرة ، وأن تاتينى غدا مباشرة بالاجابة ، أو على الأقل تصف لى الاستقبال الذى لقيته ؟ هل تستطيع هذا وهل تريد أن تفعله ؟ اننى أعلق على ذلك أهمية كبيرة • ولعل أجد فرصة أشكر فيها الشكر المناسب ، أو ربما كانت لديك الآن رغبة أستطيع أن أحققها لك •
فقال برناباس :

— سأقوم بالمهمة بكل تأكيد •

وقال ك :

– وهل تريد أن تجتهد فى القيام بالمهمة على أحسن ما تستطيع ،
فتبلغ الرسالة الى كلم نفسه ، وأن تحصل لى منه هو على الاجابة ، وأن
تفعل هذا توا ، تفعل هذا كله توا ، غدا فى الصباح ، هل تريد أن
تفعل هذا ؟

فقال برناباس :

– سأبذل قصارى جهدى ، وهذا هو ما أفعله دائما •

وقال ك :

– لا نريد العودة الى التشاحن فى هذا الموضوع ، والرسالة التى
اكلفك بها هى :

موظف المساحة ك يرجو السيد المدير أن يسمح له بالمثل بين يديه
شخصيا ، وهو يقبل مقدما كل شرط يمكن أن يرتبط بمثل هذا التصريح
وهو مضطر الى التقدم بهذا الرجاء ، لأن الوسطاء جميعا فشلوا حتى الآن
بأقل عمل من أعمال المساحة ، وانه – حسب ما ذكره رئيس مجلس
القرية – لن يقوم بشئ من هذا أبدا ، ولهذا فقد قرأ الخطاب الأخير
الوارد من السيد المدير بخجل يائس ولن يفيد فى هذا الأمر سوى مثوله
شخصيا أمام السيد المدير • وموظف المساحة يعرف ضخامة ما يرجوه
وهو لهذا سيجتهد فى أن يجعل ما يسببه حضوره من أطلاق للسيد
المدير أقل ما يمكن ، وهو يرضى بكل تقييد زمنى ، ويرضى بما قد يبدو
ضروريا من تحديد عدد الكلمات التى يصرح له بقولها فى المقابلة ، ويعتقد
أن عشر كلمات تكفيه • وانه لينتظر بمزيد الاحترام وغاية الشوق
قراركم •

وكان ك قد تكلم ناسيا نفسه وكأنما كان يقف بباب كلم ويتكلم

مع بوابه • ثم قال :

– لقد طالت الرسالة عما كنت أنوى ، وعليك أن تبلغها شفها ،
فليست أريد أن أكتب خطابا ، لأنه سيسير فى الطريق اللانهاى الذى
تسير فيه المكاتبات •

ولهذا كتبه ك بخط سريع على قطعة من الورق أسندها على ظهر
أحد المساعدين ، بينما كان المساعد الآخر يضىء له ، وكان ك يكتب
تعبا لاملأء برناباس الذى كان قد حفظ الرسالة ، وأخذ يتلوها بدقة
على رقة التلامذ ، دون أن يحفل بالتلقين الخاطيء الذى كان المساعدين
يد سانة عليه • وقال ك :

— ان ذاكرتك خارقة للمألوف ؟

وأعطاه الورقة وأردف :

— وعليك أن تبين أنك خارق للمألوف في ناحية أخرى • وماذا عن رغباتك ؟ أليست لديك رغبات ؟ اننى أقول لك بصراحة اننى ساحس بشيء من الارتياح حيال مصير رسالتى اذا كانت لديك رغبات ؟

وظل برناباس فى بداية الأمر ساكنا ثم قال :

— أختاى تبعثان اليك بالتحية •

فقال ك :

— آه البنتان الطويلتان البدينتان

فقال برناباس :

ترسلان اليك التحية ، وبخاصة أماليا ، وهى التى أحضرت اليوم هذا الخطاب اليك من القصر •

وتشبت ك بهذه العبارة قبل غيرها وسأل :

— ألا يمكنها أن تحمل رسالتى الى القصر ؟ أو لعلكما تستطيعان الذهاب معا وليجرب كل منكما حظه ؟

وقال برناباس :

— ليس لأماليا أن تنفذ الى الدواوين ، والا لرحبت كل الترحيب بالقيام بالمهمة •

وقال ك :

— لعلى أحضر اليكم غدا ، وتعال أنت أولا الى بالرد • وسأنتظرك فى المدرسة • وبلغ سلامى الى أختيك •

وبدا وعد ك كأنه أسعد-برناباس لأنه لمس كتف ك عابرا بعد أن تصافحا للوداع • وعادت الى وجدان ك صورة من الماضى ، عندما دخل برناباس لأول مرة بهيئته البراقة بين الفلاحين الى قاعة الحان وأحس ك بهذه اللمسة — ولكن وهو يبتسم كأنها تكريم وارتاح ك نفسا وترك المساعدين فى طريق العودة يفعلان ما حلا لهما •

الفصل الحادى عشر

ووصل ك الى المدرسة وقد تجمدت أوصاله من شدة البرد ، وكانت الحلقة مطبقة فى كل مكان ، فقد فرغت الشمعتان فى المصباحين ، وأخذ المساعدان اللذان كانا يعرفان المبنى جيدا بيد ك ، حتى وصل متحسسا الطريق الى أحد الفصول . وقال ك للمساعدين مشيرا الى خطاب كلم :

— هذا هو أول عمل جدير بالمدح تقومون به !

وصاحت فريدا من أحد الأركان وهى بين اليقظة والنعاس :

— دعا ك ينام . لا تزعجناه .

الى هذا الحد كان ك يشغل فكرها حتى عندما يغلبها النعاس ولا يكون فى مقدورها ان تتوقع قدومه . ثم أضىء النور . لكنهم لم يستطيعوا أن يشعلوا المصباح عاليا ليعطى نورا كافيا لأن البترول كان قليلا جدا . هكذا كان البيت الجديد يتعثر وكانت فريدا قد أوقدت المدفأة ، ولكن الحجرة الكبيرة ، التى كانت تستعمل كذلك للرياضة البدنية — ودانت أجهزة الرياضة فائمه هنا وهناك وكان منها ما يتدلى من السقف — قد استهلكت كل الخشب ، وكانت — كما علم ك — قد نعمت بدفء لذيذ ، ولكنها للأسف بردت بعد ذلك تماما . وكان هناك خشب كثير فى المخزن ، ولكن هذا المخزن كان مقفلا ، وكان المفتاح مع المعلم ، الذى لم يكن يسمح بصرف الخشب الا للتدفئة أثناء الحصص ونو كانت هناك فرش يلودون بها من البرد لكان الأمر محتملا ولم يكن هناك سوى جوال واحد من القش كانت فريدا قد بسطت فوقه ملاءة من الصوف على نحو جميل يستحق التقدير ولم يكن هناك لحاف بل كان هناك غطاءان غليظان جامدان لا يكادان يحدثان شيئا من الدفء وحتى هذا الجوال الملىء بالقش كان المساعدان ينظران اليه مشوقين ، ولكنهما بطبيعة الحال لم يكونا يأملان فى أن يرقدا عليه . ونظرت فريدا الى ك مشوقين ، ولكنهما بطبيعة الحال لم يكونا يأملان فى أن يرقدا عليه . ونظرت فريدا الى ك خائفة . لقد برهنت فى حان السادة على أنها تستطيع

خائفة • لقد برهنت في حان السادة على انها تستطيع أن تفرش أى حجرة ، حتى ولو كانت أكثر الحجرات فقرا ، وتجعلها صالحة للسكنى ، أما هنا فلم تستطع أن تفعل شيئا ، لأنها كانت تقتقر تماما الى الوسائل • وقالت وهى تضحك بجهد جهيد والدموع تنهمر من مآقيها :

— ليس هناك شئ تزدان به حجرتنا سوى أجهزة الرياضة البدنية •

أما فيما يتعلق بعيوب المكان الشديدة وامكانية النوم غير المرضية والتدفئة غير الكافية فقد وعدت فريدا وعدا مؤكدا بأن تجد حلا تستعين به في اليوم التالي ورجت ك أن يلتزم بالصبر حتى ذلك الحين • ولم تبس كلمة أو لمحة أو تعبيراً من وجهها يمكن أن يعنى انها تحمل في قلبها أقل غضاضة ناحية ك على الرغم من انه هو — كما حدث نفسه — قد انتزعها قديما من حان السادة ثم من حان الجسر بعد ذلك • ولهذا اجتهد ك في أن يجد كل شئ محتملا ، ولم يكن هذا صعبا عليه ، لأن أفكاره كانت سارحة مع برناباس ، ولأنه كان يستعيد على نفسه الرسالة كلمة كلمة ، ولم يكن يستعيدها على النحو الذى سلمها لبرناباس عليه ، وانما على النحو الذى كان يعتقد انها ستبدو عليه أمام كلم • هذا الى أنه كان فرحا أخلص الفرح بالقهوة التى عكفت فريدا على اعدادها فوق الموقد الكحولى ، وكان يتابع وهو مستند على المدفأة التى تزايدت برودتها الحركات السريعة الخيرة التى اصطنعتها فريدا وهى تبسيط المفروش الأبيض المعهود على المنصة وتضع قدحا مزدانا بصور الزهور ، وبجانبه شيئا من الخبز وشحم الخنزير بل وعلبة سردين • وفرغت من كل شئ بسرعة ، ولم تكن فريدا قد أكلت هى الأخرى بعد ، بل أثرت أن تنتظر حتى يأتى ك • وكان هناك كرسيان وثران فجلس ك وفريدا فيهما الى المائدة ، وكان المساعدان يقبعان الى قدميهما عند قاعدة المنصة ، ولكنهما لم يخلدا قط الى السكون بل استرسلا فى الازعاج حتى أثناء الأكل • وعلى الرغم من أنهما نالا من كل شئ نصيبا كبيرا فانهما لم يشبعا ، وكانا ينهضان من حين لآخر ليتبيناهل مازال هناك طعام كثير على المنضدة وهل مازال لهما أن يتوقعا الحصول على مزيد • ولم يعبأ ك بهما ، ولم يلتفت اليهما الا عندما ضحكك فريدا • ووضع يده على يدها فوق المائدة مداعبا وسألها بصوت خفيض لماذا تحيطنهما بهذا الكلف الشديد وتقبل سخافاتهما متلطفة • وقال انها لن يتخلصا منهما على هذا النحو أبدا ، وانهما لن يتخلصا منهما الا اذا عاملاهما معاملة خشنة

الى حد ما تناسب فعلا سلوكهما ، اما بتأديبهما أو - وهو الأفضل والأقرب احتمالا - بجعل البقاء أصعب من أن يحتمله لينتهيان الى الانصراف فرارا . وقال ان اقامتهما فى المدرسة لا يلوح عليها أنها ستكون اقامة لطيفة ، ولكنها لن تستمر طويلا ، ولو لم يكن المساعدان هنا ، وكانا هما وحدهما فى مكان هادىء فلعلهما لم يكونا سيتنبهان الا أقل التنبه الى مافيه من عيوب كثيرة . وسألها هل تلاحظ أن المساعدين يزدادان وقاحة يوما بعد يوم ، وأنهما يتشجعان فى وجود فريدا ويأملان فى أن ك لن يتصرف معهما أمامها بالشدة التى يتصرف بها عادة . وقال لها انه ربما كانت هناك وسائل بسيطة جدا للتخلص بها منهما دون تعب، ولعلها - فريدا - تعرفها ، فهى تعرف الظروف القائمة معرفة جيدة . ولعل من يطرد المساعدين يقدم نهما صنيعا ، فليست الحياة التى يحبونها هنا بالحياة الرغدة العظيمة ، خاصة وانهما سيضطران هنا الى التخلي عن الكسل الذى نعما به حتى الآن ، على الأقل جزئيا ، وسيضطران الى العمل، وسيكون على فريدا أن ترتاح بعد اضطراب الأيام الماضية ، وسيكون هو مشغولا بالبحث عن مخرج من المحنة . وقال انه اذا انصرف المساعدان، سيحس بالراحة وسيسهل عليه أن يقوم بأعمال خادم المدرسة الى جانب الأعمال الأخرى .

وداعبت فريدا ، التى أنصتت اليه باهتمام ، ذراعه ، وقالت ان هذا كله هو رأيها أيضا ، ولكنه ربما بالغ فى وصف سخافات المساعدين، فهما ولدان مرحان فيهما شيء من السذاجة ، وهما يعملان لأول مرة فى خدمة أحد الغرباء ، وهما قد بعدا عن الأدب الصارم القائم فى القصر ، ولهذا فهما منفعلان دائما بعض الشيء ، مندهشان ، وهما يرتكبان فى هذه الحالة أحيانا بعض السخافات ، من الطبيعى أن يغضب الانسان منها ، وان كان الأقرب الى التعقل أن يضحك الانسان عليها . وقالت انها لا تستطيع فى بعض الأحيان أن تمنع نفسها عن الضحك وهى رغم هذا متفقة مع ك تماما فى أن أفضل شيء هو ابعادهما وأن يكونا هما معا وحدهما . واقتربت من ك وأخفت وجهها فى كتفه . وقالت وهى فى هذا الوضع على نحو عسير الفهم ، حتى ان ك اضطر الى أن ينحنى قريبا منها ، انها لا تعرف وسيلة للتخلص من المساعدين وانها تخشى أن تؤدي كل الاقتراحات التى اقترحها ك الى الفشل وانها تعرف من أمرهما أن ك هو نفسه الذى طلبهما ، ولقد حصل عليهما وسيكون عليه الاحتفاظ بهما ، وان أفضل شيء هو أن يتقبلهما ببساطة ، وهذه هى أفضل وسيلة لتحمل البسطاء ، وما هم الا من عامة البسطاء .

ولم يُكن ك راضيا على الأجابة ، وقال فى لهجة بين المزاج والجد ،
انه يبدو انها متحالفة معهما ، أو انها على الأقل تميل اليهما ميلا شديدا ،
وانهما لشابان جميلان ، وليس هناك انسان لا يمكن التخلص منه بشئ
من العزم ، وسيبرهن لها على ذلك فى أمر المساعدين •

وقالت فريدا انها ستكون شاكرة له ممتنة اذا نجح فى هذا •
وقالت انها من الآن فصاعدا لن تضحك منهما ، ولن تتكلم معهما كلمة
أكثر مما تدعو اليه الضرورة ، فليس من الهين أن يكون هناك رجلان
يحملقان فيها دائما ، ولقد تعلمت أن تنظر اليهما بعينيه هو • وارتعدت
بالفعل عندما نهض المساعدان تارة للتأكد من كمية الطعام الموجودة ،
وتارة لكشف سر التهامس الذى اتصل بين ك وفريدا •

وانتهز ك هذه الفرصة ليجعل فريدا تكره المساعدين ، فضمها
اليه ، وختما الطعام ملتصقين أحدهما بالآخر • وحان وقت النوم ، وكان
الجميع متعبين أشد التعب ، بل ان أحد المساعدين نام أثناء الأكل ،
وسر الآخر بهذا سرورا عظيما وأراد أن يحمل سيديه على التطلع الى الوجه
الغيبى النائم ، ولكنه لم يوفق الى ذلك ، فقد جلس ك وفريدا عاليا رافضين
صادين • وتردد الجميع فى الذهاب للنوم فى هذا البرد المتزايد ،
وأخيرا أعلن ك أنه ينبغي تدفئة الحجرة ، والا فانه لن يكون فى امكانهم
أن يناموا • وبحث عن بلطة ، وكان المساعدان يعرفان موضع بلطة ،
فأحضراها اليه ، وذهب ثلاثتهم الى مخزن الخشب • وما مر الا وقت
قليل حتى كان الباب الخفيف قد كسر ، وأخذ المساعدان - وكانا مبتهجين
وكانهما لم يريا من قبل شيئا جميلا كهذا - وهما يتدافعان ويتلازمان ،
ينقلان الخشب الى الفصل حتى تكونت كومة كبيرة هناك ، وأوقدت
المدفأة ، وتكوم الجميع حولها ، وحصل المساعدان على غطاء ليلتها فيه ،
وكان كافيا لهما ، فقد تم الاتفاق على أن يظل واحد منهما بالتبادل يقظا
ليغذى النار بالخشب ، ثم ما لبثت الحرارة ان اشتدت ، حول المدفأة حتى
لم تعد بأيهما حاجة الى الغطاء ، وأطفئ المصباح وتمدد ك وفريدا للنوم
سعيدين بالدفء والسكون •

وصحا ك فى الليل على أثر ضجة ما ومد يده فى أول حركة
مضطربة يتحسس فريدا ، فتبين أن أحد المساعدين ينام بجانبه بدلا
من فريدا • وكان الفزع الذى أحس به - ربما نتيجة للآثارة التى
صاحبت الصحو المفاجئة - أشد فزع عرفه فى القرية حتى الآن •
ونهض نصفا فأطلق ، صرخة ، ولكم المساعد فى غير وعى لكمة جعلته

يُبْغَى . وما لبث الأمر كله أن اتضح . كانت فريدا قد صحت فجأة لأن أو هكذا لاح لها على الأقل - حيوانا كبيرا ، وربما قفزا فجأة فوق صدرها ، ثم هرب من فورهِ . فقامت وفتشت مستعينة بالمصباح عن الحيوان في كل الحجرة . واثتهز أجد المساعدين الفرصة ليتمتع هنيهة بالرقاد على جوال القش وكان أن دفع ثمن هذه المتعة غاليا . أما فريدا فلم تعثر على شيء ، ومسحت وهي عائدة - وكأنها نسيت محادثة الأمس - على شعر المساعد الذي انكمش على نفسه مولولا لتواسيه . ولم يقل ك شيئا . الا أنه أمر المساعدين بأن يكفوا عن التدفئة ، لأن الدفء كان قد زاد عن الحد وكان كوم الحشب قد فرغ كله تقريبا .

الفصل الثاني عشر

ولم يستيقظ الجميع فى الصباح الا عندما كان التلاميذ المبكرون قد حضروا وأحاطوا شغوفين بالمكان الذى رقدوا فيه . وكان هذا أمرا كريها لأنهم كانوا نتيجة للحرارة الشديدة التى تحولت الآن فى الصباح الى بروده محسوسه - قد خلعوا ملابسهم كلها الا القميص ، وما أن بدعوا يرتدون ملابسهم حتى ظهرت المعلمة جيزا بالباب ، وكانت فتاة شقراء الشعر ، طويلة القامة ، جميلة التقاطيع ، وان كانت تتصف بشئ من الجمود . ويبدو انها كانت تهيأت لاستقبال خادم المدرسة الجديد، وتلقت من المعلم قواعد السلوك التى ينبغى عليها اتباعها حياله ، لأنها قالت ولما تتجاوز العتبة بعد :

- هذا ما لا يمكننى السكوت عليه . ما أجمل هذه الأحوال ! انك لم تنل الا تصريحاً بالنوم فى الفصل ، أما أنا فعلى واجب التدريس فى حجرة نومك . ما أقبح عائلة خادم المدرسة التى تظل تتقلب فى السراير حتى الظهر ! أف .

وفكر ك فى أنه يستطيع أن يرد ببعض الاعتراضات وخاصة فيما يتعلق بالعائلة وبالسراير ، وأخذ فى الوقت نفسه هو وفريدا - فلم يكن المساعدان ليفيدا بشئ ، فقد رقدوا على الأرض واسترسلا فى التعجب من المعلمة والتلاميذ - يزحزان المتوازيين والحصان بأقصى سرعة ، ثم غطيا الجهازين بالبطاطين فنشأ مكان أصبح فى استطاعتهم أن يرتدوا فيه ملابسهم فى مأمن من نظرات التلاميذ على الأقل . ولم يستمر الهدوء لحظة فقد تشاجرت المعلمة أولا لأنها لم تجد فى الحوض ماء جديدا ، وكان ك قد فكر فى اللحظة ذاتها فى أن يأتى بهذا الحوض ليغتسل فيه هو وفريدا ، وتخلي عن الفكرة مؤقتا حتى لا يثير المعلمة اثارة مفرطة ، ولكن تخليه عن الفكرة لم يفد بشئ فقد دوت ضجة كبيرة بعد قليل ، ذلك انهم كانوا قد أغلقوا ، لسوء الحظ ، تنظيف منضدة الفصل من بقايا العشاء ، فأبعدت المعلمة كل الأشياء بالمسطرة ، فتطايرت على

الأرض ، وسال زيت السردين وما بقى من قهوة ، وتحطم الابريق ، ولم
تعباً المعلمة بشئ من هذا لأن خادماً المدرسة سرتب كل شئ . ونظر
ك وفريدا وهما مستندين الى المتوازيين ، ولم يكونا قد فرغا بعد من
ارتداء كل ثيابهما ، كيف يتحطم متاعهما القليل . أما المساعدان ، ويبدو
أنهما لم يفكرا فى ارتداء ثيابهما قط ، فقد ظلا راقدين ينظران من بين
ثنائيا الأغطية وكان الأولاد يجدون فى ذلك متعة أى متعة . وكان أكثر
ما تتألم له فريدا بطبيعة الحال هو خسارة الابريق ، فلما واساها ك
وأكد لها انه سينذهب توا الى رئيس مجلس القرية ويطالبه بتعويض
ويناله ، تماكنت نفسها وجرت من التحويطة ، وليس عليها من الثياب
سوى القميص ، لتحضر البطانية على الأقل حتى تقيها من مزيد من
القدارة . وتمكنت بالفعل من ذلك على الرغم من أن المعلمة كانت تضرب،
بقصد افزاعها ، بالمسطرة على المنضدة كالشاكوش باستمرار وعلى نحو
يثير الأعصاب . فلما فرغ ك وفريدا من ارتداء ملابسهما ، كان عليهما
أن يحثا المساعدين اللذين كانا مأخوذين مما تعاقب من احداث ، على
ارتداء ملابسهما ، واستعاننا على ذلك بالأمر واللکم ، بل وقاما هما ذاتهما
بالباسهما جزءا من الثياب . فلما فرغ الجميع وزع ك الأعمال التالية :
كان على المساعدین أن يحضرا خشبا وأن يوقدا المدفأة ، وأن يكون البدء
بالفصل الآخر الذى كانت أخطار جسيمة تلوح فى أفقه اذ لابد أن المعلم
موجود به منذ بعض الوقت . . وكان على فريدا أن تمسح الأرضية .
وأخذ ك على عاتقه احضار الماء وانجاز ماعدا ذلك من أعمال التنظيم
والترتيب . ولم يكن هناك مؤقنا مجال للتفكير فى تناول طعام الافطار .
وآراد ك أن يخرج هو أولا ليكتشف مزاج المعلمة بصفة عامة ، وكان
على الآخرين أن يتبعوه عندما ينادى عليهم ، ولقد اتخذ ك هذا التدبير
لأنه كان من ناحية لا يريد للموقف أن يسوء منذ البداية نتيجة لحماقات
المساعدین ، ولأنه كان من ناحية أخرى يريد أن يخفف عن فريدا
ما استطاع الى ذلك سبيلا ، لأنها كانت طموحة ولم يكن هو كذلك ،
وكانت حساسة ولم يكن هو كذلك ، وكانت تفكر فى البشاعات الصغيرة
الحاضرة فقط ، بينما كان هو يفكر فى برناباس والمستقبل . واتبعت
فريدا تعليماته كلها بدقة ، ولم تنصرف عنه بعينيهما الا نادرا . وما كاد
ك يدخل الفصل حتى صاحبت المعلمة بين ضحكات من التلاميذ لم تتوقف
بعد ذلك مطلقا :

ولما لم يعرف ذلك التفاتا ، فلم يكن ذلك سؤالا بمعنى الكلمة ،
وانطلق الى الحوض مباشرة ، سألته المعلمة :

— ماذا فعلتم بميتسه ؟

كانت هناك قطرة كبيرة عجوز جسيمة ترقد معددة في خمول على
المنصة ، وكانت المعلمة تفحص قدمها التي يبدو أنها كانت مصابة بشيء
من الجراح . . . اذن فقد كانت فريدا على حق . ولم تكن هذه القطرة قد
قفزت فوقها فلم تكن تستطيع القفز ولكنها كانت قد زحفت من فوقها
وفزعت من وجود الناس في مكان كان في المعتاد خاليا ، فتوارت بسرعة
وأصيبت بجرح وهي تسرع سرعة لم تألفها . وحاول ك أن يشرح ذلك
للمعلمة في هدوء ، ولكن المعلمة لم تكن تهتم الا بالنتيجة ، قالت :

— نعم ، لقد جرحتموها ، وبهذا بدأت هنا .

وقالت :

— انظر .

ونادت ك أن يأتي الى المنصة ، وأرته الرجل المصابة ، وقبل أن
يتفحصها ، أحدثت بمخالب القطرة على ظهر يده خمشة . حقيقة أن
المخالب لم تكن حادة ، ولكن المعلمة ضغطت عليها بعنف — دون ما مراعاة
للقطرة في هذه المرة — حتى تقجر الدم منها . وهنا قالت وهي تنحنى
على القطرة :

— والآن اذهب الى عملك .

وصرخت فريدا مفزوعة عندما رأت الدم . وبسط ك يده للتلاميذ
وقال :

— لقد فعلت هذا بى قطرة شريرة لثيمة .

وهو لم يقل هذا بطبيعة الحال من أجل الأولاد الذين كان صراخهم
وضحكهم قد أصبح بديها فلم يكن بحاجة الى دافع أو حافز ، ولم يكن
في مقدوره كلمة أن تنفذ اليه وتؤثر فيه . ولما لم ترد المعلمة على الاهانة
بأكثر من نظرة مستهترة ، وظلت مشغولة بالقطرة ، نادى ك فريدا
والمساعدين وبدأ العمل .

وحمل ك دلو الماء القذر وألقى به بعيدا وأحضر ماء نظيفا ، وشرع
يكنس الفصل ، وهنا تقدم صبي في الثانية عشرة من عمره من مقعده
ومس يد ك وقال شيئا غير مفهوم وسط الضجيج الشديد وفجأة توقف
الصخب كله ، والتفت ك خلفه . لقد حدث ما كان يخشاه طوال الصباح .

لقد وقف المعلم بالباب ، وكان - وهو الرجل القصير - يحمل فى كل يد احد المساعدين من تلايبه ويبدو انه قد قبض عليهما عندما كانا يحضران الحشَب ، لأنه كان يصيح بصوت عنيف ، ويصمت بعد كل كلمة .

- من الذى تجاسر على السطو على مخزن الحشَب ؟ أين الفاعل حتى أحطمه تحطيمًا ؟ وهنا وقفت فريدا وكانت تعمل على تنظيف الأرضية عند قدمي المعلمة ، ونظرت ناحية ك وكانما أرادت أن تعترف قوة ، وقالت وكان فى نظرتها ومسلكتها شيء من التفوق الذى كان لها فيما مضى :

- أنا التى فعلت هذا يا حضرة المعلم . فلم أكن أعرف وسيلة أخرى أستعين بها . لقد كان الواجب يفرض علينا أن ندفع فى فصلى المدرسة مبكرين ، ولهذا فقد تحتم علينا أن نفتح المخزن ، ولم أتجاسر على طلب المفتاح منك فى الليل ، وكان خطيبي فى حان السادة ، وكان من الممكن أن يظل هناك طوال الليل ، وهكذا تحتم على أن أقطع فى الأمر وحدى . فاذا كنت قد أخطأت التصرف فاغفر لى فالسبب هو قلة خبرتى ، ولقد تشاجر معى خطيبي بما فيه الكفاية عندما رأى ما قد حدث . نعم ، لقد منعنى من أن أدفع المكان مبكرة ، لأنه اعتقد أنك بإغلاقك المخزن تعبر عن أنك لا تريد أن تكون التدفئة قد أنجزت عندما تأتى . وهكذا فإن عدم التدفئة هو ذنبه ، أما كسر باب المخزن فهو ذنبى .

وسأل المعلم المساعدين اللذين كانا لا يزالان يحاولان التملص من قبضته دون ما جدوى :

- من الذى كسر الباب ؟

فقلا جميعا :

- السيد

وأشارا الى ك حتى لا يكون هناك مجال للشك . وضحكت فريدا ، وكانت ضحكتها تبدو أكثر برهانا من كلامها ، وبدأت تعصر الحرقرة التى مسحت بها الأرضية فى الدلو ، وكانما كان تصريحها قد أنهى الموضوع ولم تكن كلمات المساعدين سوى نكتة اضافية . ولم تعد الى الكلام الا بعد أن بركت على ركبتيها من جديد لتستأنف العمل ، وهنا قالت :

- ان مساعدينا طفلان ، وان مقاعد المدرسة هنا لثناسبهما على الرغم من سنهما . لقد قمت أنا وحدى عند المساء بفتح الباب ببلمطة ، وكان ذلك سهلا جدا ولم أحتج فى ذلك الى المساعدين ، ولو استعنت بهما لعطاني .

فلما عاد خطيبى فى الليل وخرج ليرى التلف وربما ليصلحه ، جرى معه
المساعدان ، ربما لأنهما كانا يخشيان البقاء هنا ، ورأيا خطيبى يعالج
الباب المغتصب ، ولهذا فانهما يقولان الآن - وما هما الا طفلان .

وكان المساعدان لا ينفكان ، أثناء تصريح فريدا ، يهزان رأسيهما ،
ويشيران دائما الى ك ، ويجتهدان بحركات من وجهيهما ، فى رد فريدا عن
رأيهما ، فلما لم يوفقا الى ذلك ، انصاعا فى النهاية ، وتقبلا كلام فريدا
كأنه أمر ، ولم يردا على المعلم عندما سألهما من جديد .

وقال المعلم لهما :

اذن فقد كذبتما ؟ . أو على الأقل اتهمتما خادم المدرسة
مستهترين ؟ .

وظلا صامتين ولكن ارتعادهما ونظراتهما الحائرة كانت تشير الى
شعورهما بالذنب .

وقال المعلم :

- فسأضربكما فى الحال بالحيزرانة ضربا مبرحا .
وأرسل صبييا الى الحجرة المجاورة ليحضر الحيزرانة . وما أن رفع
المعلم الحيزرانة حتى صاحت فريدا :
- لقد قال المساعدان الصدق .

وألقت الحرق فى الدلو حائرة فتتطاير رذاذ الماء ، ثم عدت خلف
المتوازين واختبأت . وقالت المعلمة وقد أوشكت على الفراغ من تصيد
رجل القطة وأخذتها على حجرها الذى كاد أن يكون كبيرا بالنسبة
اليها :

- قال انه شعب كذاب .

وقال المعلم :

- وهكذا يبقى السيد خادم المدرسة .

ودفع المساعدين بعيدا واتجه الى ك الذى كان طوال الوقت ينصت
مستندا الى يد مقشاة . ثم أردف :

- هذا الخادم الذى يرى فى هدوء وجبن كيف يكال الاتهام زورا
لاخرين عن أعمال دنيئة ارتكبها هو .

وقال ك الذى لابد أنه لاحظ أن تدخل فريدا أدى إلى تخفيف ما كان المعلم قد اندفع إليه فى البداية من غضب عارم :

— لو أنك هويت على المساعدين بالحيزرانة ، لما أشفقت عليهما ، وإذا كانا قد مرا بلا عقاب فى عشر مناسبات كانا يستحقا فيها العقاب عدلا ، فلا بأس أن ينالا العقاب فى مناسبة يكون عقابهما فيها ظلما . وكذلك كنت أفضل أن أتجنب تصادما مباشرا بيننا ، يا حضرة المعلم ، ولعلك كنت ترحب أنت أيضا بهذا . أما وقد قدمتني فريدا ضحية للمساعدين .

وهنا سكث ك فترة ، وتناهى فى وسط السكون صوت فريدا تنتحب وراء الأغطية ، وأردف ك :

— فينبغى أن نوضح الأمر بطبيعة الحال .

وقالت المعلمة :

— هذه بشاعة لا مثيل لها .

وقال المعلم :

— أنا أرى رأيك تماما يا آنسة جيزا . وانت يا خادم المدرسة مفصول على الفور بطبيعة الحال نتيجة لنقضك المزمى للعقد . أما العقاب الذى سيأتى بعد ذلك فأحتفظ بأمره لنفسى . وأما الآن فأخرج على الفور من المدرسة . فان خروجك سيؤدى الى تخفيف حقيقى عنا ، وسيكون فى الامكان أن نبدأ فى التعليم بعو طول تعطيل . بسرعة .

فقال ك :

— أنا لن أتحرك من هنا قيد أنملة . حقيقة أنك رئيسى ، ولكنك لست من أعطانى الوظيفة ، انما أعطانيها السيد رئيس مجلس القرية ، وأنا لا أقبل الا فصله هو . وهو لم يعطنى الوظيفة لأتجمد هنا من شدة البرد أنا ومن معى ، وانما — ولقد قلت أنك نفسك هذا — ليتحول دون قيامى بأعمال متهورة بدافع من حيرة أو يأس . ولهذا فان فصلى فجأة عمل ينافى هدفه ، وأنا لن أصدق الا اذا سمعت قرار الفصل من فمه هو . وأنا عندما أرفض فصلك اياى على هذا النحو المستهتر ، أفعل شيئا قد يكون فى صالحك .

وسأل المعلم وهو يهز رأسه :

— اذن فأنت ترفض أن تطيع ؟ .

ثم قال المعلم بعد ذلك :

— فكر جيدا • فان قراراتك ليست دائما أحسن القرارات • واذكر على سبيل المثال ما فعلته عصر الأمس عندما رفضت أن تستجوب •

فقال ك :

— ولماذا تشير الى هذا الآن ؟

فقال المعلم :

— لأن هذا يحلولى • وأنا أكرر عليك للمرة الأخيرة : أخرج •

فلما لم يصب المعلم تأثيرا ، ذهب الى المنصة وتشاور مع المعلمة بصوت منخفض ، وأخيرا اتفقا • ونادى المعلم على التلاميذ أن يذهبوا الى فصله ، ليتعلموا مع تلاميذه • وكان التغيير مدعاة لفرح الجميع ، وسرعان ما خلا الفصل وسط الضحكات والضحكات ، وكان المعلم والمعلمة آخر الخارجين • وحملت المعلمة كراس الفصل ومن فوقه القطة التى كانت بجسماتها بليدة كل البلادة • ولكم ود المعلم لو بقيت القطة هنا • ولقد وجه الى المعلمة اشارة فيها تلميح الى هذا ، فردتها ردا حاسمة منبهة الى شراسة ك • وهكذا حمل ك المعلم وزر القطة كذلك وأغضبه أشد الغضب • وتأثر هذا على الأغلب بالكلمات الأخيرة التى وجهها المعلم وهو بالباب الى ك :

— ان الآنسة تترك الحجرة مع التلاميذ مضطرة لأنك ترفض عن تمرد طاعة أمرى بفضلك ، ولأنه لا يوجد انسان يستطيع أن يطلب منها ، وهى الفتاة الصغيرة ، أن تعطى الحصة وسط بيئتك العائلية القذرة • اذن فأنت باقى وحدك ، ويمكن أن تتوسع هنا كما تريد • ودون أن يزعجك تطلع المشاهدين الأخيار • ولكن هذا لن يدوم طويلا ، وأنا ضامن ذلك •

وهنا أقفل الباب عنوة •

الفصل الثالث عشر

وما كاد الجميع ينصرفون حتى قال ك للمساعدين :

— أخرجوا .

وأخذهما الأمر المفاجيء فاطاعا ، فلما أغلق ك الباب من خلفهما ، أرادا أن يعودا وأخذا بيكيان فى الخارج ويدقان على الباب . وصاح ك :

— أنتما مفصولان . ولئن أعود الى استخدامكما أبدا .

ولم يقبلا هذا بطبيعة الحال راضيين وظلا يضربان الباب بأيديهم وأرجلهم ويصيحيان :

— نعود اليك أيها السيد !! .

وكأنما كان ك الارض اليابسة وكانا هما على وشك الفرق فى الفيضان . ولكن ك لم يشفق عليهما ، وانتظر بفارغ صبر أن يضطر الصخب الذى يفوق الاحتمال المعلم الى أن يتدخل .

وحدث هذا بعد قليل . وصاح المعلم :

— دع مساعديك اللعينين يدخلان .

وردك عليه صائحا : لقد فصلتهما .. وأحدثت الصيحة تأثيرا اضافيا غير مقصود هو اظهار المعلم على الأمر وكيف يبدو عندما يفصل الرجل القوى من يعمل عنده ثم لا يبقى عند حد الانذار بل ينفذ الفصل فعلا . وحاول المعلم أن يهدئ المساعدین باللين قائلا ان عليهما أن ينتظرا هنا فى هدوء وسيضطر ك فى النهاية الى ادخالهما مرة أخرى . ثم انصرف . ولعل السكون كان سيستمر لو لم يصح ك فيهما مرة أخرى بأنهما مفصولان نهائيا وانهما لا ينبغي أن يأملا أو هى أمل فى العودة . وهنا عادا الى الصخب على نحو ما كانا يفعلان من قبل . وعاد المعلم ، ولكنه لم يتفاوض معهما ، بل طردهما خارج البيت واستعمل — على ما يبدو — خيزرانتة المهابة .

وما لبثا أن عادا للظهور أمام نوافذ حجرة الرياضة ، وأخذا يقرعان

النوافذ وبصيحان • ولكن كلمتهما لم تكن مفهومة • ولم يستمرا في مكانهما هذا مدة طويلة ، فلم يكن في مقدورهما أن يسترسلا في القفز على الجليد السميك ما شاء لهما قلقهما • ولهذا عجلا بالذهاب الى سور حديقة المدرسة ، وقفزا على القاعدة الحجرية للسور الحديدي حيث كان في مقدورهما أن ينظرا الى داخل الحجرة على نحو أفضل ولكن من بعد • وأخذا يعدوان ذهابا وإيابا ممسكين بالسور الحديدي ، ثم كانا يقفان من حين لآخر ويرفعان أيديهما الى ك متوسلين اليه • واستمرا على هذه الحال طويلا دون اعتبار لعدم جدوى جهودهما ، ذلك أنهما كانا كالمجهورين • ويبدو أنهما لم يكفا عن التوسل على هذا النحو عندما أركى ك الستائر على النوافذ حتى يتحرر من النظر اليهما •

وذهب ك في الحجرة التي أظلمت الى المتوازيين بحثا عن فريدا • فلما نظر اليها نهضت وسوت شعرها ، ومسحت على وجهها واتجهت في صمت لتعد القهوة • وعلى الرغم من أنها كانت تعلم بكل ما جرى ، فقد أحاطها ك علما بأن المساعدين قد فصلا • ولم تزد عن أن هزت رأسها • وجلس ك على قمطر في الفصل وأخذ يلاحظ حركاتها الواهنة • لقد كانت النظرة والتصميم هما الشيء الذي أضفى على جسمها التافه جمالا • وكانت الأيام القليلة التي عاشتها مع ك كافية لاجداث هذا الأثر • ولم يكن العمل في الحانة عملا سهلا ولكنه كان على ما يبدو أنسب لها ، أو ربما كان البعد عن كلم هو سبب تدهورها ؟ لقد كان قربها من كلم يجعلها مغرية بدرجة غير معقولة ، ولقد انتزعها ك اليه في وسط هذا الإغراء ، وها هي ذى تدبل بين ذراعيه •

وقال ك :

— يا فريدا •

فوضعت طاحونة البن جانبا وجاءت الى ك وجلست على القمطر نفسه • وسألت ك •

— هل أنت غاضبة مني ؟ •

فقال ك :

— لا ولكنني أعتقد أنك لا تستطيعين أن تفعلي شيئا آخر غير ما كنت

ثقليني • لقد كنت تعيشين راضية في حان السادة • وكان الأخرى بي أن أدعك هناك •

وقالت فريدا وهي تنظر حزينة أمامها أن أدعك هناك •

— نعم ، كان الأخرى بك أن تدعني هناك • وأنا لست جديرة بالحياة معك • ولعلك ، اذا تخلصت منى تستطيع أن تصل الى ما تريد الوصول اليه • انك تخضع ، مراعاة لى ، للمعلم المستبد ، وتقبل هذه الوظيفة الوضيعة ، وتسعى بجهد مجهود لمحادثة كلم • كل هذا من أجل أنا وأنا لا أكافئك عليه الا مكافأة رديئة •

وقال ك :

— لا •

وطوقها بذراعه مواسيا • ثم قال :

— كل هذه توافه لاتؤلنى ، وأنا لا أريد الذهاب الى كلم بسببك • وما أكثر ما صنعت من أجل ؟ اننى قبل أن أعرفك كنت أسير هنا فى الضلال • لم يكن هناك من يستقبلنى ، وكنت اذا تقدمت الى بعضهم ملحسا ، انصرف عني مسرعا • وكنت اذا وجدت أناسا يمكن أن أنعم بالسكون بينهم • أهرب أنا منهم ، مثل آل برناباس •

وقاطعت فريدا ك صائحة بهمة :

— لقد هربت منهم ؟ أليس كذلك ؟ يا حبيبى •

ثم استغرقت مرة أخرى فى تعبها بعد أن قال ك « بلى » مترددا • وكذلك لم يكن ك مصمما على أن يشرح كيف تحولت الأمور كلها الى الحير بعد ارتباطه بفريدا • ورفع ذراعه ببطء عنها وجلس هنيهة صامتا ، حتى قالت فريدا وكأنما كان ذراعه يمنحها دفئا لم تعد تستطيع الآن الاستغناء عنه :

— لن أحتمل هذه الحياة هنا • واذا كنت تريد الإبقاء على ، فينبغى أن نهجر الى أى مكان ، الى جنوب فرنسا ، الى أسبانيا •
وقال ك :

— أنا لا أستطيع أن أهجر ، لقد أتيت الى هنا لأبقى هنا • وسأبقى هنا •

وأضاف محدثا نفسه فى تناقض لم يبدل جهدا فى توضيحه :

- وماذا كان يمكن أن يجتذبنى الى هذه الارض الصعبة الا الحاجة للبقاء هنا .

ثم قال :

- وكذلك أنت تريدين البقاء هنا ، فهذا بلدك . ولكن كلم هو الذى ينقصك ، وهذا هو ما يؤدى بك الى الأفكار اليائسة .

وقالت فريدا :

- انك تظن أن كلم هو ما ينقصنى ؟ وان هنا مفيضا من كلم ، فيضا مفرطا .

وما أريد أن أبعد عن هنا الا لأقלט منه . ليس من ينقصنى هو كلم ، بل أنت ، اننى أريد أن أبعد من هنا بسببك . لأننى لا أستطيع أن أشيع منك هنا حيث يتجاذبنى الجميع ، ليتنى أتجرد من القناع الجميل ، ليت جسمى يذبل حتى أستطيع أن أعيش معك فى سلام .

ولم يستشف ك من ذلك كله الا شيئا واحدا . وسأل من فوره :

- أمازال كلم على علاقة بك ؟ .

ثم أردف :

- هل يستدعيك ؟ .

فقالت فريدا :

- لا أعرف عن كلم شيئا . اننى أتحدث عن آخرين ، عن المساعدين مثلا .

فقال ك وقد أخذته المفاجأة :

- آه ، المساعدان ! هل يلاحقانك ؟ .

فسأله فريدا :

- ألم تلاحظ هذا ؟ .

فقال ك :

- لا .

وحاول دون جدوى أن يتذكر شيئا من التفاصيل . ثم قال
- انهما شابان لوحان قبيحان ، أما انهما تجاسرا على الاقتراب منك ، فهذا ما لم ألاحظه .

فَقَالَتْ فَرِيدَا :

— لَا ؟ أَلَمْ تَلْحَظْ أَنَّهُمَا لَمْ يَنْصَرِفَا مِنْ حَجَرَتِنَا فِي حَانَ الْجِسْرِ ، عَلَى الرَّغْمِ مِمَّا تَوَسَّلْنَا بِهِ لَصَرْفَهُمَا مِنْ حَيْلٍ ، وَأَنَّهُمَا كَانَا يَر_اقِبَانِ عِل_اقَاتِنَا غِيُورِينَ ، وَإِنْ أَحَدُهُمَا رَقَدَ مُؤَخَّرَا فِي مَكَانِي عَلَى جِوَالِ الْقَشْرِ ، وَأَنَّهُمَا شَهِدَا الْآنَ ضِدْكَ لَيْتَسَبِّبَا فِي طَرْدِكَ وَالْإِضْرَارِ بِكَ وَلِيَنْفَرِدَا بِي . أَلَمْ تَلْحَظْ هَذَا كُلَّهُ ؟

وَنَظَرَ كَ إِلَى فَرِيدَا دُونَ أَنْ يَجِيبَ . كَانَتِ الْإِتِهَامَاتُ الَّتِي وَجَّهَتْهَا ضِدَّ الْمُسَاعِدِينَ صَحِيحَةً ، وَلَكِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ تَأْوِيلُهَا تَأْوِيلًا يَرِيئًا عَلَى أُسَاسِ خَلْقِهِمَا الْمُضْحَكِ الصَّبِيَّانِي الْفَرِيرِ الْمُتَهَوَّرِ . ثُمَّ أَلَا يَقُوضُ إِتِهَامُهُمَا سَعِيَهُمَا الدَّائِبُ إِلَى مِل_احَقَةِ كَ حَيْثُمَا كَانَ وَرَفُضُهُمَا الْبَقَاءَ مَعَ فَرِيدَا ؟ وَأَشَارَ كَ إِلَى شَيْءٍ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ . فَقَالَتْ فَرِيدَا :

— أَنَّهُ نِفَاقٌ . أَلَمْ تَكْشِفْ أَمْرَهُ ؟ وَلِمَاذَا أَذِنَ فَصْلَتَهُمَا ، إِنْ لَمْ يَكُنْ لِهَذِهِ الْأَسْبَابِ ؟

وَذَهَبَتْ إِلَى النَّافِذَةِ ، وَأَزَاحَتْ السِّتَارَةَ إِلَى الْجَانِبِ قَلِيلًا ، وَأَطْلَتِ ثُمَّ نَادَتْ كَ أَنْ يَأْتِيَ . كَانَ الْمُسَاعِدَانِ لَا يَزَالَانِ عِنْدَ السُّورِ الْحَدِيدِيِّ عَلَى الرَّغْمِ مِمَّا دَبَّ فِيهِمَا مِنْ تَعَبٍ ظَاهِرٍ ، وَكَانَا يَسْتَجْمَعَانِ قَوَاهِمَا مِنْ حِينَ لِآخِرِ ، وَيَمْدَانِ ذِرَاعَيْهِمَا مُتَوَسِّلِينَ نَاحِيَةَ الْمَدْرَسَةِ . وَكَانَ أَحَدُهُمَا قَدْ شَبِكَ سِتْرَتَهُ مِنَ الْخَلْفِ بِأَحَدِ أَعْمَدَةِ السُّورِ حَتَّى لَا يَضْطُرَّ إِلَى الْإِسْتِنَادِ الْمَرَّةَ تَلُوَ الْمَرَّةَ .

وَقَالَتْ فَرِيدَا :

— الْمُسْكِينَانِ ! الْمُسْكِينَانِ !

وَسَأَلَ كَ :

— تَسْأَلِينَ لِمَاذَا طَرَدْتُهُمَا ؟

— ثُمَّ قَالَ :

— لَقَدْ كُنْتُ أَنْتَ السَّبَبُ الْمُبَاشِرُ .

وَسَأَلَتْ فَرِيدَا دُونَ أَنْ تَحُولَ بِصَرِّهَا عَنِ النَّظَرِ إِلَى الْخَارِجِ :

— أَنَا ؟

وَقَالَ كَ :

— أَعْنِي مُعَامَلَتَكَ لِلْمُسَاعِدِينَ مُعَامَلَةً مَفْرُطَةَ الْوُدِّ ، وَصَفْحَكَ عَنْ بَذَائِئِهِمَا ، وَضَحْكَكَ مِنْهُمَا ، وَمَسْحَكَكَ عَلَى شَعْرِيهِمَا ، وَاشْفَاقَكَ الدَّائِمَ عَلَيْهِمَا ، وَلَقَدْ قُلْتَ لِتَوَكَّ « الْمُسْكِينَانِ ! الْمُسْكِينَانِ ! » ، ثُمَّ الْحَادِثَةَ

الأخيرة التى بينت أننى ثمن رخيص تشرين به أعفاء المساعدين من
الضرب بالخيزرانة .

فقالت فريدا :

— وهذا هو ما يدور جديشى الا حوله هذا هو ما يجعلنى تعيسه ،
وما يصرفنى عنك ، بينما أنا لا أعرف لى سعادة أعظم من سعادتى بالبقاء
معك ، دائما ، بلا انقطاع ، بلا نهاية ، بينما أنا أحلم بأنه ليس هناك
على الأرض مكان هادئ لحينا ، لا فى القرية ، ولا فى أى مكان سواها ،
وأتمثل لذلك القبر عميقا ضيقا ، فى القبر نتعانق وكأنما تمسكنا
كماشة ، وأخفى وجهى فيك ، وأنت تخفى وجهك فى ، ولن ينظر إلينا
أحد أبدا . أما هنا — أنظر الى المساعدين . انهما لا يمدان أيديهما اليك
بل الى .

فقال ك :

— لأنك أنت تنظرين إليهما ، ولست أنا الذى أنظر إليهما .

فقالت فريدا وقد أوشكت أن تغضب :

— أنا بكل تأكيد . وهذا هو ما أقوله وما لا أكف عن قوله . وماذا
فى ملاحقة المساعدين لى بلا انقطاع ولو كانا رسول كرم . . . وقال ك
الذى فاجأته هذه التسمية على الرغم من انها بدت له طبيعية :
— رسول كرم !!

فقالت فريدا :

— بكل تأكيد ، انهما رسولا كرم . وعلى الرغم من ذلك فهما فى
الوقت نفسه شابان بذيئان يحتاجان فى تربيتهما الى الضرب بالخيزرانة
ما أقبحهما شابان أسودان ! . وما أبشع التناقض بين وجهيهما اللذين
يوحيان بأنهما من الكبار أو من الطلبة ، وبين مسلكها الصبيانى الغرير !
أتظن أننى لا أرى هذا ؟ اننى أخجل لهما ، انهما لا ينفرانى ، انما أنا
التي أخجل لهما ، وهذا هو لب الموضوع . اننى مسوقة الى النظر إليهما
دائما . وأنا أضحك من أن البعض يميل الى الغضب منهما . واذا
ما ضربهما أحد ، مسحت على شعريهما . وعندما أرقد بجانبك فى الليل
لا أستطيع النوم ، وأرانى مدفوعة الى النظر من فوقك إليهما ، وكيف
يلتف أحدهما بالغطاء الثقافا محكما ويستغرق فى النوم ، بينما الآخر
يركع أمام فتحة المدفئة ويشعل النار ، واننى لأنحنى الى أمام حتى
لأكاد أوقظك ! وليست القطعة هى التى أفزعتنى — آه ، اننى أعرف القبط
وأعرف من عمل فى قاعة الحان النوم المضطرب الذى لا يكف المرء عن

الصحو منه منزعا - ليست القطعة هي التي أفرغتني ، بل أنا التي أفرغت نفسي . وما أنا بحاجة الى ضجة قطرة تفرغني ، فأننى أنتفض وحدى عندما أسمع أقل صوت . ولقد خشيت مرة أن تصحو أنت ، وأن ينتهى كل شيء ، وذهبت مرة أخرى الى الشمعة قفزا فأوقدتها حتى تصحو بسرعة وتحمينى .

وقال ك :

- لم أعرف هذا كله . ولكننى طردتهما لاحساسى بشيء من هذا القليل احساسا غامضا . ولقد انصرفا الآن ، وربما أصبحت الأمور على ما ينبغى .

وقالت فريدا :

- نعم ، لقد انصرفا أخيرا

ولكن وجهها كان معذبا ولم يكن ينم عن فرح ، وأردفت :

- ولكننا لا نعرف من هما . لقد سميتهما رسولى كلم ، هكذا فى فكرى ، على سبيل العبث ، ولعلمهما فى الواقع كذلك . ان عينيهما تذكرانى على نحو ما يعينى كلم ، نعم ، هكذا ! بل ان نظرة كلم لتنتطق أحيانا من عينيهما وتنفذ خلالى . ولهذا فليس من الصواب ما قلته من أننى أخجل لهما . كنت أعنى أننى أتمنى لو كنت أخجل لهما . وأنا أعرف ان هذا السلوك نفسه ، اذا أتى به أناس آخرون سلوك غيبى وفاضح ولكنه ليس كذلك عندما يأتيان هما به . اننى أطلع الى حماقاتهما بالتقدير والاعجاب . واذا كانا رسولى كلم ، فمن الذى يخلصنا منهما ؟ وهل من الخير أن نتخلص منهما ؟ أما ينبغى عليك أن تستعيدهما بسرعة وأن تسعد لو قبلا العودة ؟

وسأل ك :

- أتريدان أن أعيدهما ؟

فقالت فريدا :

- لا ، لا . هذا هو آخر ما يمكن أن أريده . ولعلى لا أستطيع أن أحتمل منظرهما عندما يندفعان داخلين ، وفرحهما بلقائى ، ونظمهما نطيط الصبية ، وبسطهما يديهما بسط الرجال . ولكننى عندما أفكر انك عندما تقف منهما موقف الشدة ، قد تسد بنفسك سبيلك الى كلم ، أريد أن أحملك من ذلك بكل الوسائل . وأريد فى هذه الحالة أن تدعهما

يدخلان . اذن فأدخلهما بسرعة يا ك . لا تعمل حسابا لي ، فما أهميتي؟
وسوف أدافع عن نفسي طالما استطعت . فإذا خسرت ، فأنما أخسر وأنا
أعني أن ذلك حدث من أجلك .

فقال ك :

- انك تقوين حكى حيال المساعدين . لن يعودا أبدا بارادتي الى
هنا . أما اننى أخرجتهما فأمر يؤكد أن الانسان يستطيع فى بعض
الأحوال أن يتحكم فيهما ، ويؤكد علاوة على ذلك انهما لا يتصلان اتصالا
جوهريا بكلم . ولقد تلقيت بالأمس خطابا من كلم يتضح منه أن كلم
حصل على معلومات خاطئة تماما عن المساعدين ، ويتضح منه كذلك انه
لا يهتم بهما فى قليل أو كثير ، فلو لم يكن أمرهما كذلك ، لحصل على
معلومات أكثر دقة عنهما . وأما انك ترين فيهما كلم ، فهذا ما لا يثبت
شيئا ، لأنك لا تزالين للأسف تحت تأثير صاحبة الحان فأنت ترين كلم
فى كل مكان . انك لا تزالين عشيقة كلم ، وما زلت بعيدة عن أن تكونى
زوجتى . وان هذا ليحزننى فى بعض الأحيان حزنا شديدا ، وأحس بأننى
كمن فقد كل شيء ، وأحس كأنى أتيت لتوى الى القرية لا ممثلا بالآمال ،
كما كنت بالفعل عندما أتيت ، بل شاعرا بأن خيبة الأمل هى ماينتظرنى ،
وأنتى سأذوق الخيبة تلو الخيبة حتى أتجرع ثمالة كأس الخيبة .

ثم أضاف ك مبتسما عندما رأى أن فريدا حارت عندما سمعت
كلماته :

- ولكن هذا لا يحدث الا فى بعض الأحيان فقط ، وهو يثبت فى
الحقيقة شيئا طيبا ، وهو قيمتك بالنسبة الى . واذا كنت أنت تطالبيننى
بأن أختار بينك وبين المساعدين ، فلقد خسر المساعدان . يا لها من
فكرة ! أن أختار بينك وبين المساعدين ؟! اننى أريد أن اتخلص منهما
نهائيا ، حتى فى الكلام والفكر . ومن يعلم ، فلعل الضعف الذى تملكننا
كلينا يرجع الى أننا لم نتناول طعام الافطار بعد ؟

فقالت فريدا وهى تبتسم فى ضعف :

- ربما .

ودهبت الى العمل . وكذلك أمسك ك المقشة .

ودق بعضهم الباب بعد هنيهة دقا خفيفا . فصاح ك :

- انه برناباس .

وألقي المقشة وقفز قفزات قليلة بلغ بها الباب . ونظرت اليه

فريدا وقد فزعت لسماع الاسم أكثر من أى شىء آخر • ولم يستطع ك
أن يفتح القفل القديم بيديه المضطربتين حالا • وكان يكرر بلا انقطاع:
- اننى أفتح •

كان يفعل هذا بدلا من أن يسأل الذى يدق الباب عن نفسه • وهكذا
انتهى به الأمر الى رؤية شخص آخر غير برناباس يدخل من الباب المفتوح
على سبعته ، كان هذا الشخص هو الصبى الذى أراد من قبل أن يكلم ك •
ولم يشعر ك برغبة فى تذكره • وقال :

- ماذا تريد هنا ؟ ان الحصة فى الفصل الآخر •

وقال الصبى :

- اننى قادم من هناك

ورفع عينيه الواسعتين البنيتين هادئا الى ك ، ثم وقف معتدلا
لا صقا ذراعيه على جانبيه • وقال ك :

- ماذا تريد اذن ؟ بسرعة

ومال ك قليلا عليه لأنه كان يتكلم بصوت منخفض • وسأل الصبى:

- هل أستطيع مساعدتك ؟

وقال ك لفريدا :

- انه يريد أن يساعدنا •

ثم قال للصبى :

- ما اسمك ؟

فقال الصبى :

- هانس برونسفيك • تلميذ فى الصف الرابع • ابن أوتو
برونسفيك ، المعلم صانع الأحذية فى حارة مادلين •

وقال ك وقد ازداد حبا له ورقة :

- هكذا ، اسمك برونسفيك •

وتبين أن هانس قد ثار للخدش الدامى الذى خمشته المعلمة فى
يد ك وعزم على أن يسانده • وخرج متسللا من الفصل المجاور من تلقاء
نفسه كالهارب من الجنديّة معرضا نفسه لعقاب شديد • ويبدو أن
التصورات التى ملكت عليه نفسه كانت تصورات صبيانية • وكانت
تطابق الجذ الذى كان يظهر فى كل ما كان يعمل • ولقد تعثر فى بداية

الأمر على حجرة الخجل ، ولكنه ما لبث أن ألف ك وفريدا ، فلما تلقى
قهوة طيبة ساخنة وشربها ، بدا عليه النشاط والألفة ، ثم أصبحت
أسئلته تتسم بالهمة والالاح وكأنه كان يريد أن يعرف بأسرع ما يمكن
أهم ما فى الأمر حتى يستطيع أن يتخذ على نحو مستقل قرارات ل ك
وفريدا . وكان الصبى يتسم بطابع الأمر والنهى ، ولكن هذا الطابع كان
يختلط ببراءة صبيانية ، تجعل الانسان يخضع له راضيا خضوعا نصفه
صراحة ونصفه مزاح . والمهم انه استحوذ على الانتباه كله ، فتوقف العمل ،
وطال الافطار . وعلى الرغم من انه كان يجلس على قمبر ، وكان ك يجلس
على المنصة ، وكانت فريدا تجلس فى كرسى وثير بجواره ، فقد لاح الأمر
كأن هانس المعلم الذى يفحص الاجابات ويقدر الدرجات . وكانت هناك
ابتسامة رقيقة حول فمه الناعم لاح عليها أنها تلمح الى انه يعرف أن
الأمر كله لعبة ، ولكنه كان فيما عدا هذا شديد الجد فى الموضوع ،
ولعلها لم تكن ابتسامة ، وكانت هى سعادة الصبا تحيط بلعبها شفتيه .
وذكر الصبى متأخرا تأخرا واضحا انه يعرف ك منذ دخل ذات مرة عند
لازيمان . وسعد ك بذلك وسأله :

— لقد كنت آنذاك تلعب عند قدمى المرأة ؟

فقال هانس :

— نعم ، انها أمى .

وحثه ك على الحديث عن أمه ، فلم يفعل الا مترددا ، وبعد الحاح ،
واتضح انه كان صبيا صغيرا يلوح أحيانا ، وبخاصة عندما يسأل — ربما
عن احساس يتنبأ بالمستقبل ، وربما عن انخداع يعترى حواس المستمع
القلق المتوتر — كأنه رجل نشيط ، أريب ، بعيد النظر ، ثم ما لبث أن
يتحول فجأة وبلا تمهيد الى تلميذ صغير لا يفهم بعض الأسئلة ويخطئ فهم
بعضها الآخر ، ويتكلم عن استهتار صبياني بصوت منخفض جدا ، على
الرغم من أن ك نبهه الى هذا العيب أكثر من مرة ، ويصعب ، على سبيل
العناد عن الإجابة على أسئلة ملحة صمتا كاملا ، دون أن يضطرب وهو
ما لا يستطيع الكبار فعله بحال من الأحوال . وكان الأمر يلوح كأنما كان
يرى أن السؤال من حقه هو وحده ، وأن أسئلة الآخرين تكسر لائحة ما
وتضيع الوقت . وكان يستطيع عندما يسأله سائل أن يجلس مدة طويلة
مقتدل الجسم ، منحني الرأس ، مادا شفته السفلية . وكانت فريدا
مسرورة من مسلكه هذا لدرجة أنها كانت تسأله المرة بعد المرة أسئلة
لا ترجو من ورائها الا أن تجعله يسمت على هذا النحو . ولقد وفقت الى
ذلك أحيانا . ولكن ك كان مقتظا من هذا الصمت . ولم يخرج ك من كلام

الصبى الا بالقليل • عرف أن الأم كانت مريضة مرضا هينا ، ولكنه لم يعرف بالتحديد مرضها ، وأن الطفل الذى كانت السيدة برونسفيك تحمله على حجرها ، كان أخت هانس واسمها فريدا (ولم يتقبل هانس تشابه الاسم مع اسم المرأة التى تسأله الا عابسا) ، وانهم يسكنون فى القرية جميعا ، ولكن ليس عند لازيمان ، ولقد كانوا فى ذلك اليوم يزورونه ليستحموا لديه لأن لازيمان لديه حوض كبير يتمتع به الأولاد - ولم يكن هانس منهم - بالاستحمام والعبث فيه متعة خاصة • وتحدث هانس عن أبيه حديث الاحترام أو الخوف ، ولكنه لم يكن يتحدث عنه وعن أمه فى وقت واحد ، ويبدو أن الأب كان قليل القيمة بالقياس الى الأم ، وظلت الأسئلة التى كانت تدور حول الحياة العائلية - على الرغم من الالحاح والمعاودة - بلا اجابة • وعلم ك من أمر صناعة الأب أنه أكبر صانع أجدية فى المنطقة ، وأنه ليس هناك من يضارعه ، ولقد كرر هذا المعنى ردا على أسئلة كانت تستهدف أمورا مختلفة تماما ، وانه يكلف الصناع الآخرين، والد برناباس مثلا ، بالأعمال وهو عندما يكلف والد برناباس بالذات بعمل يتعطف عليه ويتكرم ، وبهذا ما ظهر على الأقل من حركة اعتزاز اصطنعها هانس برأسه ، ودفعت فريدا الى القفز اليه ومنحه قبلة • أما السؤال عما اذا كان قد دخل القصر ، فقد أجاب عليه بعد تكراره مرات كثيرة قائلا :

— لا •

وكذلك كانت الاجابة عندما سئل عما اذا كانت أمه قد دخلت القصر • وأخيرا تعب ك ولاح له هو كذلك أن السؤال لا يفيد بشيء ، وأحق الصبى فى هذا ، هذا الى أن ك وجد أنه من المخجل بعض الشيء أن يحاول البحث فى أسرار العائلة سالكا طريقا ملتوية ومستغلا براءة الصبى ، وكان من المخجل أشد المخجل انه لم يصل عن هذه الطريق الى معرفة شيء • فلما سأل ك الصبى فى النهاية عن نوع المساعدة التى يريد هذا أن يقدمها اليه ، لم يدهش عندما سمعه يقول انه يريد أن يساعده فى انجاز العمل هنا حتى لا يتشاجر المعلم والمعلمة مع ك مرة أخرى • وأوضح ك لهانس ان هذه المساعدة لا فائدة منها لأن المشاجرة من طبع المعلم ولن يستطيع أحد أن يتقيها مهما كان دقيقا فى عمله ، والعمل فى حد ذاته ليس صعبا ، ولكنه تأخر فيه نتيجة لظروف طرأت اليوم مصادفة، وك لا يتصرف خيال تشاجر المعلم كما يتصرف التلاميذ نحوه ، انه يرده عنه ردا ، ولا يهتم له ، وهو يأمل أن يتمكن من تجنب المعلم تمام التجنب

قريباً جداً . ولما كانت المساعدة التى يعرضها هانس مساعدة ضد المعلم فحسب ، فإن ك يشكره عليها أحسن الشكر ، ولهانس أن يتصرف ويرجو ك ألا ينال هانس عقاباً . وعلى الرغم من أن ك لم يؤكد أن المساعدة الموجهة ضد المعلم هى المساعدة الوحيدة التى لا يريد بها ، بل نوه الى ذلك تنوياً عن غير عمد ، تاركاً الباب مفتوحاً أمام مساعدة من نوع آخر ، فقد فهم هانس ذلك أوضح الفهم ، وسأله عما اذا كان يرجو مساعدة أخرى ، مؤكداً أنه يقدم المساعدة عن طيب خاطر ، وأنه ان لم يستطع اليها سبيلاً ، فسيرجو من أمه تقديمها ، ولا شك انها ستوفق الى ذلك . وذكر هانس أن أباه عندما يتعرض لمحنة يرجو مساعدة الأم . وأضاف ان أمه سألت مرة عن ك ، وأنها لا تخرج من البيت ، ولقد ذهبت آنذاك الى لازيمان استثناء . أما هانس فهو يذهب الى هناك كثيراً ليلعب مع أولاد لازيمان ، ولقد سأله أمه هل رأى موظف المساحة هناك مرة أخرى . ولما لم يكن من الخير إثارة الأم بغير جدوى ، فهى تعاني من الضعف والتعب ، فقد قال لها انه لم ير موظف المساحة هناك ، ولم يدر حول هذا الموضوع حديث بعد ذلك . وقال هانس انه عندما رآه هنا فى المدرسة ، وجد انه ينبغى عليه أن يتحدث اليه حتى يبلغ أمه الخبر ، فليس هناك شيء أحب الى الأم من أن تنفذ رغباتها دون أن تصدر بها أمراً صريحاً . وهنا قال ك ، بعد قليل من التفكير ، انه لا يحتاج الى أية مساعدة ، وأنه قد حصل على كل ما يريد ، وقال انه جميل جداً من هانس أن يفكر فى مساعدته ، وأنه يشكره على حسن نيته ، وأنه قد يحتاج فى المستقبل الى شيء ، وفى هذه الحالة سيلجأ اليه ، فالعنوان موجود لديه . وقال ك انه هو ، قد يستطيع أن يقدم شيئاً من المساعدة ، فهو يأسف لتوعدك الأم ، ويبدو انه ليس هنا من يفهم العلة التى تعاني منها ، وقد يؤدى إهمال الحالة الى أن تجر العلة الطفيفة نكسة خطيرة . ولقد ألم ك ببعض المعرفة الطبية ، وجمع خبرة فى معالجة المرضى ، وهذا أعظم قيمة . ولقد نجح فى أمور لم يوفق فيها الأطباء . ولقد أطلق عليه الناس فى موطنه اسم «العشب المر» تقديراً لقدرته على العلاج . وهو يود على أية حال أن يرى أم هانس وأن يتحدث اليها . فقد يستطيع أن يقدم اليها مشورة نافعة ، وأنه ليفعل ذلك عن طيب خاطر من أجل هانس . ولملت عينا هانس عندما سمع هذا العرض ، ووجد ك فى ذلك ما أغراه على الإلحاح ، ولكن النتيجة لم تكن على هواه ، لأن هانس قال - مجيباً على أسئلة كثيرة ، ودون أن يبدو عليه حزن شديد - انه غير مسموح بدخول زائر غريب على أمه ، فهو فى حاجة الى الرعاية الشديدة . وعلى الرغم من أن ك ، فى تلك المرة ، لم يكـد

يتحدث إليها ، فقد اضطرت الى ملازمة الفراش بعد ذلك عدة أيام ، وهو شيء يتكرر كثيرا بطبيعة الحال . ولقد غضب الوالد آنذاك من ك أشد الغضب ، وليس هناك شك فى أنه لن يسمح أبدا بأن يأتى ك الى الأم . ولقد أراد آنذاك أن يذهب الى ك ليعاقبه على مسلكه ، وكانت الأم هى التى ردتته عن ذلك . وهذا الى أن الأم ذاتها لا تريد أن تتكلم مع أحد بصفة عامة ، وليس سؤالها عن ك استثناء من القاعدة ، بل على العكس ، فقد كان يمكنها عند الإشارة الى ك ، أن تعبر عن رغبتها فى رؤيته ، ولكنها لم تفعل ، وكانت بذلك تعبر عن عزمها تعبيراً لا مراء فيه . هذا الى أن ما تعاني منه ليس مرضاً بمعنى الكلمة ، فهى تعرف سبب الحالة ، وتشير اليه من حين لآخر : ويبدو أن السبب هو الجو هنا ، انها لا تستطيع احتماله . ولكنها لا تريد مغادرة المكان من أجل الوالد والأولاد ، لقد تحسنت حالتها الآن عن ذى قبل . كان هذا هو ما توصل ك اليه ، ان قدرة هانس على التفكير قد ازدادت زيادة واضحة اذ أراد أن يحمى أمه من ك الذى ادعى انه كان يريد مساعدته . لقد اضطر استمساكا منه بالهدف الطيب ، هدف رد ك عن أمه ، الى أن يناقض بعض ما كان قد قاله من قبل ، على سبيل المثال موضوع مرض الأم . ومع ذلك فقد تبين ك أن هانس ما زال حسن النية حياله ، وان كل ما حدث هو أن موضوع أمه أنساه كل الموضوعات الأخرى . ولقد كان هانس يظلم كل من يأتى ذكره مع الأم ، فظلم ك ، ولكنه كان سيفعل الشيء نفسه لو كان المذكور هو الأب . وأراد ك أن يجرب ذكر الأب فقال ان الوالد مصيب كل الاصابة فى حمايته الأم من كل ازعاج ، وقاك انه ، ك ، لو توقع شيئا من هذا القليل لما تجرأ على التوجه الى الأم ، وانه يرجو هانس أن يحمل اعتذاره الى البيت . ثم قال انه لا يفهم ، وقد عرف سبب علة الأم على حد قول هانس ، كيف يمنع الأب الأم من أن تستجم فى جو آخر . وقال انه لابد أن يستعمل كلمة يمنع ، لأن الأم لا تذهب لتغيير الجو ، بسببه وبسبب الأولاد ، وفى مقدورها أن تصطحب الأولاد معها ، فلن تغيب طويلا ، ولن يكون بها حاجة الى الابتعاد الشديد فالجو على الجبل الذى يقوم عليه القصر مختلف كل الاختلاف . وما ينبغي أن يخشى الأب نفقات مثل هذه الرحلة ، فهو أكبر صانع أذى فى المنطقة ، ولا شك أن له أو للأم أقارب أو معارف فى القصر يرحبون باستضافتها . فلماذا لا يتركها تذهب ؟ لا ينبغي له أن يهون من أمر مثل هذه العلة . حقيقة أن ك لم ير الأم الا عابرا ولكن شحوبها الظاهر وضعفها الملفت للنظر دفعاه الى التوجه اليها بالحديث ، ولقد اندهش فى ذلك الوقت لأن الأب ترك المرأة المريضة فى الجو الرديء

بحجرة الاستحمام والغسيل ولم يأخذ نفسه بشيء من التحفظ فى الحديث بصوت مرتفع . ولعل الأب لا يعرف الأمر على حقيقته ، ولعل العلة تكون قد تحسنت فى الفترة الأخيرة ، ومثل هذه العلة لها نزواتها ، ولكنها تنتهى فى النهاية ، إذا لم يكافحها الانسان ، الى الظهور على نحو عنيف ولا يستطيع الانسان فى هذه الحالة معالجتها . وإذا لم يكن ك يستطيع أن يتكلم مع الأم ، فربما كان من الخير أن يتحدث الى الأب وأن ينبهه الى هذا كله .

واستمع هانس الى ك مرهقا سمعه ، وفهم أغلب ما قاله ، وأحس بتهديد البقية التى لم يفهمها ، ومع ذلك فقد قال ان ك لا يستطيع أن يتكلم مع الأب ، لأن الأب يحس حياله بالنفور ، والأرجح أنه لو قابله فسوف يعامله معاملة المعلم له . قال هانس هذا الكلام مبتسما خجولا فى المواضيع التى أشار فيها الى ك ، حزينا مقبوضا فى المواضيع التى أشار فيها الى أبيه . ثم أضاف أن ك ربما استطاع أن يتحدث الى الأم ، ولكن بدون علم الأب ، ثم استغرق هانس برهة فى التفكير ، على النحو الذى تستغرقه عليه فى التفكير امرأة تريد أن تفعل شيئا محرما ، وتبحث عن امكانية لفعله دون أن تتعرض للعقاب ، وقال ربما تمكن ك من ذلك بعد غد ، لأن الأب يذهب فى ذلك الوقت الى حان السادة لمناقشة بعض الأمور ، وسيأتى هانس فى المساء ، ويأخذ ك الى الأم ، على شرط أن توافق الأم ، وهذا شيء بعيد عن الاحتمال بعدا شديدا . وهى لا تحب أن تفعل شيئا ضد مشيئة الأب ، وهى تطيعه فى كل الأمور ، حتى الأمور التى يتبين هو ، هانس ، أنها منافية للعقل . لقد كان هانس فى الواقع يلتمس لدى ك عونا على أبيه ، وكأنما ضل ، عندما اعتقد انه يريد أن يعين ك ، وكان فى الحقيقة يريد أن يسبر أغواره ليتبين - بعد أن علم انه ليس هناك من بين المحيطين به من يستطيع مساعدته - ما اذا كان هذا الرجل الذى ظهر فى المكان فجأة ، هذا الغريب الذى أشارت الأم اليه ، يستطيع أن يساعده . ما أعجب صموت ولؤم وخبت هذا الصبى عن غير ارادة ! لم يكده يكون من الممكن حتى هذه اللحظة أن يستنتج الانسان هذا من خلقه . وما استطاع ك أن يتبين هذا الا مؤخرا من خلال الاعترافات التى استخرجها منه مصادفة وعمدا . وأخذ هانس يفكر طويلا مع ك فى الصعوبات وكيف يكون تجنبها . ولقد كانت تلك الصعوبات من المحال التغلب عليها ، مهما أبدى هانس من نية طيبة . وكان هانس لا يكف عن النظر الى ك ، غارقا فى التفكير باحثا عن العون وكانت عيناه ترمش فى قلق . كان هانس يرى انه لا ينبغي أن يذكر لأمه شيئا قبل أن ينصرف

الأب ، أى انه لن يذكر لها شيئا الا فى وقت متأخر ، ثم انه لن يذكر لها الأمر فجأة وبسرعة ، مراعاة لحالتها ، بل ببطء وعندما تسنح الفرصة المناسبة ، ثم يلتبس موافقتها ، فان وافقت أتى ليحضر ك . ولكن ألن يتأخر الوقت ؟ ألن يقترب موعد عودة الأب ؟ لا ، لقد كان الأمر محالا . وأثبت ك لهانس أن الأمر ليس محالا . وما ينبغي أن يخشوا ألا يكفى الوقت فى الحديث القصير ، والمقابلة القصيرة الكفاية . ولن يكون على هانس أن يأتى لاصطحاب ك ، فسينتظر ك فى مكان ما غير بعيد ويتوارى فيه حتى يشير اليه هانس اشارة فيأتى من فوره . فقال هانس ، لا ، ليس لك أن تختبئ عند البيت - لقد تملكته من جديد الحساسية حيال أمه - وليس له أن يقطع الطريق الى البيت دون علم الأم ، وما ينبغي لهانس أن يتفق مع ك على شيء يظل سرا خفيا على الأم . انما هو سيأتى ليصطحبه من المدرسة ، ولن يحدث هذا قبل أن تعرف الأم وتوافق . وقال ك ، حسنا ، ولكن الأمر سيكون خطيرا ، بالفعل ، وسيكون من الممكن أن يفاجئه الأب فى البيت ، وحتى اذا لم يحدث هذا ، فان الأم لن توافق على استحضار ك خوفا من هذا ، وبهذا سيفشل كل شيء بسبب الأب . وعارض هانس فى هذا ، واستمر الحوار على هذا النحو .

وكان ك منذ مدة طويلة قد استدعى هانس من المقعد الى المنصة . وشده اليه وأخذ يداعبه من حين لآخر مطيبا خاطره . وساعد القرب ، على الرغم من معارضة هانس أحيانا ، الى الوصول الى اتفاق ، واتفق الاثنان أخيرا على ما يلي : سيقول هانس لأمه الحقيقة كاملة ، ويضيف ، بقصد تسهيله الحصول على موافقتها ، أن ك يريد أن يتحدث مع برونسفيك ذاته ، فى أمر آخر غير أمر الأم ، فى أمر من أموره هو . ولقد كان هذا صحيحا كذلك ، ذلك أن ك كان قد فكر أثناء الحديث فى أن برونسفيك - وان كان رجلا خطيرا شريرا - لا يمكن أن يكون عدوا له ، فهو ، على ما ذكر رئيس مجلس القرية ، الذى تزعم - لأسباب سياسية طبعاً - أولئك الذين طالبوا باستدعاء موظف مساحة . ومعنى هذا أن قدوم ك الى القرية شيء مستحب ، ومعناه أيضا أن التحية السخيفة التى قابل بها ك فى أول يوم ، والنفور الذى تحدث هانس عنه ، شيان لا يكاد يمكن فهمهما . وربما كان السبب فى غضب برونسفيك هو أن ك لم يتجه اليه أولا طالبا المساعدة ، وربما كان هناك سوء فهم آخر يمكن تصحيحه ببضعة كلمات . واذا ما تحقق هذا ، فسيكون فى استطاعة ك أن يجد فى برونسفيك عوناً على المعلم ، وربما عوناً على رئيس مجلس القرية ، لكشف

هذا الخداع البروتيني - أما كان فى الحقيقة كذلك ؟ - الذى كان رئيس مجلس القرية والمعلم يتوسلان به لرده عن دواوين القصر واجباره على العمل خادما للمدرسة . واذا كان صراع قد جرى أخيرا بين رئيس مجلس القرية وبرونسفيك حول ك ، فسيكون على برونسفيك أن يضم ك الى جانبه ، وسينزل ك ضيفا على برونسفيك فى بيته . وسيجد مقومات سلطة برونسفيك تحت تصرفه كيدا لرئيس مجلس القرية . ومن يعلم الى أى حد سيصل فى أموره ، ولسوف يقترب على أية حال من المرأة كثيرا . هكذا لعب بالأحلام ولعبت الأحلام به ، بينما كان هانس غارقا فى التفكير فى أمه ، يتأمل صمت ك باهتمام وقلق ، كما يتأمل الانسان صمت الطبيب الذى يستغرق فى التفكير ليصل الى علاج لحالة صعبة . ووافق هانس على اقتراح ك أن يتحدث الى برونسفيك فى أمر مساحة الأرض ، ولم يوافق هانس عليه الا أنه سيحمى الأم من الأب ، ولأنه يختص بحالة الضرورة القصوى التى كان يرجو لها ألا تطرأ . وسأل هانس ك كيف سيبرر للأب حضوره فى ساعة متأخرة ، ورضى فى النهاية - وإن اكتأب وجهه - بأن يبرره ك بقيامه بعمل لا قبل له على احتماله فى خدمة المدرسة ، وبمعاناته لمعاملة من النوع نفسه من قبل المعلم ، مما أدى به الى يأس مفاجئ أنساه اقامة اعتبار لأى شيء .

ولما تم تدبير كل شيء على هذا النحو على قدر ما بدا لهما ، وتبيننا أن امكانية النجاح لم تعد على الأقل من قبيل المحال ، تخلص هانس من عبء التفكير ، وأبدى مزيدا من البشاشة ، وأخذ يثرثر هنيهة على طريقة الأطفال ، مع ك فى بداية الأمر ، ثم بعد ذلك مع فريدا التى جلست طويلا هناك وبدأت كأنها انشغلت بأفكار أخرى ، ثم عادت الآن لتشارك فى الحديث . وسألت فريدا هانس فيما سألته عما يريد أن يصير ، فلم يفكر كثيرا وقال انه يريد أن يصير رجلا مثل ك . فلما سألته عن الأسباب ، لم يستطع بطبيعة الحال أن يجيب ، وعندما سألته عما اذا كان يريد أن يصير خادما لمدرسة ، نفى نفيا قاطعا . فلما استمرت فى الاستفهام والتقصى ، تبين الطريق المعوج الذى سلكه للوصول الى أمنيته . فلم يكن الوضع الحالى ل ك أهلا للتمنى ، بل كان وضعنا حزينا ومقيتا ، ولقد رأى هانس هذا تماما ، ولم يكن بحاجة الى ملاحظة الآخرين ليتبينه . ولقد قال انه يريد أن يحمى الأم من كل نظرة ينظرها ك ومن كل كلمة يقولها . ولكنه مع ذلك أتى الى ك والتمس مساعدته وسعد بموافقته ، ولقد اعتقد انه يستطيع أن يتبين شيئا مشابها لدى الآخرين ، وكان هو الذى ذكر أمه ل ك . ولقد تولد لديه من هذا التناقض الاعتقاد بأن ك الآن وضيع

منفر ، ولكنه سيتفوق على الآخرين جميعاً فى مستقبل بعيد بعدا يكاد يستحيل تصوره . ولقد كان هذا البعد السخيف ، والتطور الممتاز الذى ينتظر أن يؤدى اليه يجتذبان هانس ، وكان مستعداً أن يقبل ك فى وضعه الحالى من أجلهما . وكان فى أمنية هانس شئ صبيانى خاص يصنع ذكاء الكبار ويتمثل فى أن هانس كان ينظر الى ك نظرة الصغير الى الكبير الذى يمتد مستقبله امتداداً أوسع من مستقبله هو وهو الصبى الغرير . ولقد كان هانس يتحدث عن هذه الأشياء بجد يوشك أن يكون كئيباً عندما اضطرتة فريدا الى الحديث عنها اضطراراً بأسئلتها المتكررة . حتى أشاع ك البشاشة فى نفسه عندما قال له أنه يعرف السبب الذى يحسده من أجله هانس ، انه العصا الجميلة ذات العقد الموضوعة على المنضدة والتي كان ك يعبث بها لاهياً أثناء الحديث . وقال ك انه يجيد صناعة هذه العصى ، وانه سيصنع لهانس عصا أكثر جمالا اذا نجحت خططهما . ولم يتبين بوضوح تام هل كان هانس يعنى العصا دون ما سواها فعلاً ، ولقد فرح بوعده ك واستأذن باشا فى الانصراف ، ولم ينس أن يضغط يد ك بحرارة قائلاً :

— الى بعد غد إذن .

ولقد طال بقاء هانس طويلاً ما كان ينبغي أن يتجاوزوه ، ذلك ان المعلم فتح الباب عنوة بعد قليل وصرخ عندما رأى ك وفريدا يجلسان هادئين الى المائدة :

— معذرة على الازعاج ! ولكن قولاً لى متى تقومان بأعمال النظافة والترتيب ؟ اننا نجلس فى الفصل الآخر متزاحمين ، والدرس يعانى من الازدحام ، أما أنتما فتتمددان هنا على راحتكما فى حجرة الرياضة البدنية الكبيرة ، ولقد أبعدتما المساعدين حتى يكون نصيبكما من المكان أكبر . فانهضا الآن وتحركا .

ثم قال موجها الكلام الى ك وحده :

— أما أنت فاذهب واحضر لى طعام الافطار الآن من حان الجسر .

قال المعلم كل هذا الكلام صارخاً صارخاً عنيفاً ، ولكن الكلمات كانت رقيقة نسبياً حتى عبارة « أما أنت » وهى عبارة خشنة فى حد ذاتها . وكان ك مستعداً للطاعة على الفور . ولكنه أراد أن يسبر أغوار المعلم فقال :

– ولكننى مفصول •

فقال المعلم :

– مفصول أو غير مفصول ، عليك أن تحضر لى طعام الافطار •

فقال ك :

– ولكننى أريد أن أعرف هل أنا مفصول أو غير مفصول •

فقال المعلم :

– ما هذا الهراء ؟ انك لم تقبل الفصل •

فسأل ك :

– أيكفى هذا لإبطال مفعول الفصل ؟

فقال المعلم :

– يكفينى أنا ، وعليك أن تصدقنى فى ذلك ، ولكنه يكفى رئيس

مجلس القرية ، وهذا ما لا أستطيع فهمه • أسرع الآن ، والا طردتك بالفعل

من هنا •

وارتاح ك نفسا ، لقد تحدث المعلم فى هذه الأثناء اذن الى رئيس

مجلس القرية ، أو لعله لم يتحدث اليه بل تنبأ برأى رئيس مجلس

القرية ، وكان هذا رأى فى صالح ك • وأسرع ك ليحضر الافطار ،

وما كاد يخطو بضع خطوات فى الممر حتى نادى عليه المعلم أن يعود •

ولعل المعلم أراد أن يختبر استعداد ك للخدمة فأصدر اليه هذا الأمر

الخاص ، لينظم تصرفاته فى المستقبل طبقا لرد فعل ك ، أو لعله أحس

برغبة جديدة فى الأمر والنهى ووجد متعة فى جعل ك يذهب مسرعا

ثم فى جعله يدور عائدا بسرعة أيضا كخدم الحانات • وكان ك يعلم انه

عندما يسرف فى التهاون سيتحول الى عبد للمعلم والى لعبة فى يديه ،

ولكنه كان مصمما على قبول نزوات المعلم الى الآن الى حد ما صابرا ،

ذلك أن المعلم الذى لم يستطع ، كما تبين ، أن يفصله فصلا قانونيا ،

يستطيع أن يحيل الوظيفة بالنسبة الى عذاب لا يطاق • ولقد أصبح ك

يهتم بهذه الوظيفة أكثر من ذى قبل • فقد أعطاه الحديث مع هانس آمالا

جديدة • • صحيح انها آمال واهية ، وأنها تفتقر تماما الى كل أساس ،

ولكنها آمال لم يعد من الممكن نسيانها • انها الآمال التى عقدها على

برناباس • وإذا كان يريد السير وراءها ، فليس أمامه من سبيل الا تجميع

قواه من أجلها ، وعدم الاهتمام بشئ سواها ، يستوى فى ذلك الطعام

والمسكن ودواوين القرية بل وفريدا ذاتها • والحقيقة أن فريدا كانت هى

اهتمامه الوحيد ، فلم تكن الأمور الأخرى تهمة الا بالقياس اليها . ولهذا كان عليه أن يسعى للاحتفاظ بهذه الوظيفة التي كانت تمنح فريدا بعض الأمن ، ولم يكن ينبغي له - من أجل هذا الهدف - أن يندم على الرضوخ لتصرفات من المعلم أكثر مما كان ليقبل لو لم يكن يرمى الى هذا الهدف . ولم يكن هذا كله يؤله ألما شديدا ، بل كان يدخل فى نطاق تلك الطائفة من الآلام التي يتعرض لها الانسان فى الحياة دائما ، ولم يكن شيئا مذكورا بالقياس الى ما كان ك يسعى اليه ، وهو لم يأت الى هنا الا ليعيش حياة الكرامة والسلام .

ولهذا فقد كان مستعدا لاطاعة الأمر الجديد - كما كان مستعدا للاسراع الى الحان - والاهتمام على الفور بتنظيم الحجرة وترتيبها لتنتقل اليها المعلمة . وكان عليه أن يسرع حتى يذهب بعد ذلك لاجتماع الافطار ، ولقد كان المعلم شديدا الجوع والعطش . ووعده ك بأن يتم كل شئ على ما يرام . ونظر المعلم لحظة الى ك وهو يسرع فى العمل فينحى فراش النوم جانبا ، ويرتب أجهزة الرياضة البدنية ، ويكنس الفصل بسرعة كبيرة ، بينما عكفت فريدا على مسح المنصة وتلميعها . ويبدو أن المعلم رضى على هذه الهمة ، ونبه ك الى كومة من خشب التدفئة كانت أمام الباب - فلم يعد يريد أن يسمح ل ك بدخول المخزن - ثم ذهب الى التلاميذ بعد أن حدد ك بأنه سيعود مرة أخرى ليرى ما تم .

وسألت فريدا ك ، بعد برهة من العمل الصامت ، لماذا يطيع المعلم الآن هذه الطاعة الشديدة . كان سؤالها سؤالا مقعما بالعطف والمواساة ، ولكن ك ، وقد فكر فى أن فريدا لم توفق الا أقل التسوفيق فى الرفاء بما وعدته به من حمايته من أوامر المعلم وقظاعاته ، قال باختصار انه الآن قد أصبح خادم مدرسة وعليه أن يؤدى الأعمال المناطة به . ثم عاد السكون الى المكان من جديد ، الى أن سأله ك - وقد تذكر من حديثها القصير الآن اليه أنها ظلت أثناء حديثه مع هانس تسبح فى خضم أفكار مقلقة - عما يشغل بالها ، وكان هو يحمل الخشب الى المدفأة . وأجابت ببطء وهى ترفع بصرها اليه ، بأن بالها ليس مشغولا بشئ معين ، انما هى تفكر فى صاحبة الحان وفى صديق بعض كلامها . فلما ألح عليها أجابت ، بعد كثير من التمتع والرفض ، بأسهاب ، وبدون أن تنصرف عن عملها ، ولم تكن تنصرف على هذا النحو عن نشاط وهمة - فما كان عملها يتقدم على الاطلاق ، بل كانت تنصرف على هذا النحو حتى لا تضطر الى النظر الى ك . . وحكت فريدا كيف أنها أنصتت فى البداية هادئة الى

حديثك مع هانس ، وكيف أن بعض كلماتك أفرقتها فبدأت تجتهد في الإحاطة بمعنى الكلمات على نحو أكثر وضوحا ، وكيف انها لم تعد تستطيع أن تتبين في كلماتك مصداقا لتجذير يرجع الفضل فيه الى صاحبة الحان ، تحذيرا لم تكن تصدق أنه يمكن أن يتحقق • واغتاظك من عباراتها العامة ، لم يستعطفه صوتها الشاكي المختنق بالدموع ، بل استغفزه - وكان السبب الأول هو أن صاحبة الحان عادت تتدخل في حياته ، على الأقل عن طريق الذكريات بعد أن فشلت في التدخل شخصيا - وألقى الحشَب الذي كان يحمله الى الأرض وقعد فوقه وطالبها بكلمات جادة غاية الجد أن توضح له الأمر غاية الوضوح • وبدأت فريدا تقول :

- لقد بذلت صاحبة الحان جهودها مرارا ، وبخاصة في البداية لتحملني على الشك فيك ، ولم تكن تدعى انك تكذب ، بل كانت ، على العكس ، تقول ، انك صريح صراحة صبيانية ، ولكن خلقك يختلف عن خلقنا ، حتى اننا عندما نتكلم بصراحة ، لا نستطيع الا بصعوبة أن نحمل أنفسنا على تصديقك ، ولو لم تكن الصديقة الطيبة قد أنقذتنا من قبل ، لما كنا سنعود على تصديقك الا بعد التجربة المريرة • وحتى هي ، التي تمتاز بنظرة حادة تبصر الناس بها ، لم يكذب يختلف ما جرى عليها عن هذا الذي جرى علينا • ولكنها بعد حديثها الأخير معك في حان الجسر تبينت - وأنا أعيد كلماتها القبيحة - ألعيبك ولن تستطيع بعد الآن أن تخدعها ، مهما اجتهدت في إخفاء نواياك • ولكنك لا تخفى شيئا ، كما قالت مرارا ، ولقد قالت كذلك : اجتهدى في أية مناسبة تختارينها في الانصات اليه فعلا ، انصاتا غير سطحي ، انصاتا فعليا • وهي لم تفعل أكثر من هذا ، وهكذا تبينت بخصوصي ما يلي : انك اترميت على - ولقد استعملت هي هذه الكلمة المقيتة - لا لسبب الا لأننى عرضت لك في طريقك ، ولم أبدأ في نظرك قبيحة ، ولأنك تعتبر كل خادمة تعمل في حان - على خطأ شديد - الضحية الموسومة لكل عميل يبسط يده • ثم انك - كما علمت صاحبة الحان من صاحب حان السادة - كنت لسبب ما تريد أن تقضى الليلة في حان السادة ، ولم يكن هناك وسيلة لبلوغ هذا الهدف الا عن طريقى • كل هذا كان يكفي سببا لتمثل على الليلة واحدة دور العاشق ، فلما أردت المزيد ، كان عليك أن تسعى الى المزيد ، وكان هذا المزيد هو كلم • وصاحبة الحان لا تدعى انها تعرف ماذا تريد من كلم ، ولكنها تدعى فقط أنك كنت قبل أن تعرفنى تسعى الى كلم بنفس العنف الذى سعت به اليه بعد ذلك • وليس هناك غير فرق واحد ، هو أنك

كنت من قبل يائسا ، أما الآن فأنت تعتقد أنك تجد فى وسيلة أكيدة تستعين بها فعليا وسريعا للتقدم الى كلم والتقدم اليه على نحو يتميز بالتفوق . ولقد فزعت فزعا شديدا - ولكنه كان فزعا عابرا فى بداية الأمر وبلا سبب عميق - عندما قلت اليوم انك كنت هنا ضالا قبل أن تعرفنى . لعل هذه هى نفس الكلمات التى استعملتها صاحبة الحان ، لقد قالت هى أيضا انك لم تصبح واعيا بهدفك الا بعد أن عرفتني . ليس هناك من سبب لذلك الا انك اعتقدت انك استوليت فى شخصى على عشيقته كلم ، وانك أصبحت فى حيازة رهن لن تدعه الا لقاء ثمين باهظ . وانك لا تسعى الا الى هدف واحد ، هو مفاوضة كلم فى أمر هذا الثمن . ونظرا لأنك لا تهتم بى أقل الاهتمام ، وتهتم بالثمن الاهتمام كله ، فانك مستعد لقبول أى اتفاق بشأني ، وأنت عنيد فيما يتصل بالثمن . ولهذا فأنت لا تهتم بفقدانى الوظيفة التى كنت أشغلها فى حان السادة ، وباضطرارى مبارحة حان الجسر ، واضطرارى القيام بالعمل الشاق فى خدمة المدرسة . وأنت لا تبدى شيئا من الحنان ، بل ليس لديك وقت لى ، وأنت تتركنى للمساعدين ، ولا تعرف الغيرة على ، فليس لى من قيمة فى نظرك سوى اننى كنت عشيقته كلم ، وأنت فى جهلك لا تسعى الى جعلى أنسى كلم ، حتى لا أعارض فى النهاية معارضة شديدة عندما تأتى اللحظة الحاسمة . ثم انك تحارب صاحبة الحان لأنك تظن أنها الوحيدة التى تستطيع أن تنتزعك منى ، ولهذا فأنت تبالغ فى مصادمتها حتى ينتهى الأمر أن تضطر الى مغادرة حان الجسر معي . وأنت لا تشك فى اننى ، على قدر طاقتى وفى كل الظروف ، ملك لك . وأنت تتصور مفاوضاتك لكلم على أنها صفقة يجرى فيها تبادل مال لقاء مال . وأنت تعمل حساب كل الامكانيات ، وأنت مستعد - ما دمت ستنال الثمن - لأن تفعل أى شئ ، فاذا ما أرادنى كلم ، فستعطينى له ، واذا أراد أن تبقى معي ، فستبقى عندي ، واذا أراد أن تنبذني ، فستنبذني ، ولكنك مستعد كذلك للتمثيل ، فاذا وجدت فى حبي نفعا ، فستتظاهر بأنك تحبني . وأنت تحاول أن تتغلب على عدم اكترائه ، بإبراز دناءتك ، أو بأن تنقل اليه أسرارى الغرامية معه والتى تمثل وقائع حدثت بالفعل ، وترجوه أن يعيدنى اليه لقاء دفع الأجر بطبيعة الحال . واذا لم تغلب هذه الوسائل كلها فستتسول عنده باسم الزوجين ك . ولكنك - وهذه هى النتيجة التى انتهت اليها صاحبة الحان - ستبين أنك كنت واهما فى كل أمر من الأمور ، فى اعتقاداتك وآمالك ، وفى تصورك لكلم وفى علاقاته بى ، وعند ذاك سيبدأ الجحيم بالنسبة الى ، فسأصبح بالفعل الشئ الوحيد الذى ظل ملكا لك ، وستظل معتمدا

عليه ، ولكننى سأكون فى الوقت نفسه شيئاً تأكد لك انه عديم القيمة ، وأصبحت تعامله على هذا الأساس ، لأنك لا تحس نحوى بإحساس آخر سوى احساس المالك .

وأنصت ك اليها فى شغف ، زاما فمه ، ولقد تدحرج الخشب من تحته وأوشك هو أن ينزلق على الأرض ، ولكنه لم يحفل بذلك . وفى هذه اللحظة نهض واقفا ، وجلس على المنصة ، وأمسك يد فريدا التى حاولت فى ضعف أن تسحبها منه ، وقال :

— اننى لم أستطع أن أفرق فى حديثك دائما بين رأيك ورأى صاحبة الحان .
فقال فريدا :

— لم يكن سوى رأى صاحبة الحان . ولقد أصغيت الى كلامها كله لأننى أجلها ، ولقد كانت تلك هى المرة الأولى فى حياتى التى أرفض فيها رأيها كل الرفض . فقد بدا لى كل ما قالته سخيفا بعيدا عن كل فهم لما يتصل بينى وبينك . بل لقد بدا لى الصواب فى عكس ما قالته تماما . وفكرت فى الصباح المعتم الذى تلا ليلتنا الأولى وكيف ركعت بجوارى وأنت تنظر الى نظرة من ضاع منه كل شيء ، وكيف حدث بعد ذلك فعلا اننى — مهما اجتهدت — لم أعنك ، بل عرقلتك . لقد أصبحت صاحبة الحان بسببى عدوتك . وانها عداوة قوية مازلت تستهين بها . لقد اضطررت بسببى — فقد كنت مهتما بى أشد الاهتمام — الى أن تناضل من أجل مكانك ، وكنت ضعيفا حيال رئيس مجلس القرية ، ثم أصبح عليك أن تخضع للمعلم ، وأن تظل تحت رحمة المساعدين — أما أقبح شيء فهو أنك ربما أذنبت فى حق كلم بسببى . وانك تحاول الآن بلا هودة أن تصل الى كلم ، وليس هذا سوى مسعى واهن لتصلحه على نحو ما . وكنت أنا أقول لنفسى ان صاحبة الحان التى تعرف بكل تأكيد كل هذا أفضل منى بكثير تريد بهمساتها أن تقينى من الندم الفظيع . وان هذا السعى من جانبها لجهود طيب ولكنه بغير طائل . فان حبنى لك قادر على أن يعينك على التغلب على كل شيء ، قادر على دفعك الى الامام ان لم يكن فى القرية هنا ، ففى أى مكان آخر . ولقد برهن حبنى على قوته عندما أنقذك من أسرة برناباس .

فقال ك :

— كان هذا اذن رأيك المعارض لرأى صاحبة الحان . فماذا تغير منه منذ ذلك الحين ؟

فقالت فريدا وهي تنظر الى يدك التي كان يمسك بها يدها :

— لا أعرف • ربما لم يتغير شيء • انك عندما تكون هكذا قريبا منى وتسالنى بهدوء ، فاننى أعتقد انه لم يتغير شيء • والحقيقة

وسحبت يدها من يدك ، وجلست أمامه معتدلة تبكى دون أن تغطى وجهها ، بل كانت تعرض له وجهها المبلل بالدموع مجردا وكأنها لم تكن تبكى على نفسها ولم يكن لديها ما تخفيه ، بل تبكى من خيانة ك ، ولهذا فهو يستحق بؤس منظرها :

— والحقيقة أن كل شيء قد تغير منذ سمعتك تتكلم مع الصبى • لقد بدأت كلامك معه على نحو برىء كل البراءة وسألته عن الأحوال فى البيت وعن هذا وذاك • لقد تصورتك وكأنك تدخل قاعة الحانة كريما ، صريحا ، تبحث عن نظرتى بهمة وسداجة الصبية • لم يكن هناك فرق بينك فى هذه الحال وبينك آنذاك ، وكنت أتمنى شيئا واحدا ، كنت أتمنى لو كانت صاحبة الحان هنا ، لتصغى اليك ولتحاول أن تبقى على رأيها • ثم لاحظت فجأة ، ولا أعرف كيف حدث هذا ، لاحظت النية التى كانت تخالجك وأنت تتكلم مع الصبى • لقد اكتسبت بكلماتك الخنونة ثقته التى لم يكن من السهل اكتسابها ، لكى تندفع مباشرة الى هدفك الذى أخذت أتبينه بوضوح متزايد • كان هدفك هو المرأة • وكان كلامك الذى تظاهر بالخوف عليها يكشف بوضوح تمام اهتمامك بمصالحك دون ماسواها • لقد خنت المرأة قبل أن تنالها • لقد رأيت فى كلماتك ماضى ، بل ومستقبل كذلك • وتصورت كأن صاحبة الحان تجلس بجوارى وتشرح لى الأمور كلها ، وأنا أحاول بكل جهدى أن أصدها ، وأتبين أن مثل هذا الجهد لا يجدى نفعا — ولم أكن أنا فى تلك الحال المرأة التى خدعت ، فأنت لم تخدعنى حتى الآن ، بل كانت المرأة الغريبة هى التى خدعت • فلما قماكت نفسى وسألت هانس عما يريد أن يكون ، وقال انه يريد أن يكون مثلك ، أى انه كان فى حوزتك تماما ، لم أجد فرقا كبيرا بين الصبى الطيب الذى يغمر به هنا ، وبينى آنذاك فى قاعة الحان •

فقال ك وقد تمالك نفسه نتيجة لتعوده على اللوم :

— ان كل ما تقولين صحيح على نحو ما • وهو ليس منافيا للصدق ، ولكنه عدائى • انها أفكار صاحبة الحان ، عدوتى ، حتى اذا ظننت أنها أفكارك أنت ، وهذا مما يواسينى • ولكنها أفكار مفسدة ، وفى امكان الانسان أن يتعلم من صاحبة الحان بعض الأشياء • وهى لم تقل لى هذا

الكلام بنفسها على الرغم من أنها لم تحرص على التخفيف عني ، ويبدو انها أسرت اليك بهذا السلاح لتستخدميه في ساعة تكون قبيحة بالنسبة الى غاية القبح حاسمة غاية الحسم . وإذا كنت أنا أستغلك ، فهي تستغلك على نحو مشابه . ولكن فكرى يا فريدا : انه حتى اذا كانت كل الأمور كما قالت لك صاحبة الحان تماما ، فانها لا تكون مؤسفة أشد الأسف الا في حالة واحدة : ان لم تكونى تحبينى . فى هذه الحالة ، وفى هذه الحالة فقط ، أكون قد نلتك بتدبير ولؤم لأستغلك استغلال المرابى . وربما كان من خطتى فى ذلك الوقت أن أثير شفقتك على بأن أسير مع أولجا أمامك وأنا أتأبط ذراعها ، ولكن صاحبة الحان نسيت أن تضيف هذا الى قائمة آثامى . اما اذا لم تكن الحال قبيحة ، ولم يكن هناك حيوان مفترس لثيم قد جذبك اليه ، بل كنت أنت قد ملت الى كما ملت أنا اليك ، والتقيننا معا ، وكل منا ينسى ذاته ، فماذا يكون الأمر تكلمى يا فريدا ؟ اذن فأنا أسير أمرى كأمرك ، فليس هنا خلاف ، انما هنا عداوة . وهذا الكلام ينطبق على كل الأحوال ، وينطبق كذلك على هانس . وأنت فى حكمك على حديثى مع هانس تبالغين مبالغة شديدة منساقة مع عاطفتك . فاذا لم تكن أهداف هانس وأهدافى واحدة ، فالأمر لا يصل الى حد القول بأن هناك تعارضا بينها ، هذا الى أن هانس لم يغفل عن خلافنا ، واذا صدقتك فى هذا ، فانك تنتقصين من قيمة هذا الرجل الصغير الحريص ، وحتى لو فرض أنه غفل عن كل شيء ، فلن ينجم عن هذا ضرر يمس انسانا، وهذا هو ما أرجوه .

وقالت فريدا وهى تطلق زفرة :

— انه من الصعب على الانسان ، يا ك ، أن يجد طريقه ! وأنا ، بكل تأكيد ، لم أحس حيالك بالريبة ، واذا كان شيء من الريبة قد انتقل الى من صاحبة الحان ، فانتى أنبذه وأنا سعيدة وأرجوك المغفرة وأنا راكعة على ركبتي ، وهذا هو فى الحقيقة ما أفعله طوال الوقت ، مهما قلت من أشياء قبيحة . والحقيقة رغم هذا كله هى انك تخفى عني الكثير ، انك تاتى وتذهب ، وأنا لا أعلم من أين ولا الى أين . بل انك ، عندما دق هانس الباب ، ناديت اسم برناباس . فاذا لم تكن تثق فى ، فكيف يمكن ألا يتولد الشك فى نفسى واننى فى هذه الحالة أركن الى صاحبة الحان كلية ، وان مسلكك ليبدو وكأنه يؤكد ما تذهب اليه . ألم تطرد المساعدين بسببى ؟ ليتك تعرف مدى حاجتى الى أن أجد فى كل ماتقوله وتفعله بذرة صالحة بالنسبة الى .

فقال ك :

— اننى أولا وقبل كل شيء آخر يا فريدا لا أخفى عليك أقل شيء • ولكن ما أشد كره صاحبة الحان لى ! وما أشد ما تبذل من جهد لتنتزعك منى ! وما أقبح الوسائل التى تتوسل بها ! وما أغرب استسلامك لها ، يا فريدا ! ما أغرب استسلامك لها ! ولكن قولى لى كيف أخفى عليك شيئا ؟ انك تعرفين أننى أريد أن أصل الى كلم ، وتعرفين انك لاتستطيعين معاونتى على ذلك وأننى لابد أن أعول على نفسى ، وأنت ترين بنفسك أننى لم أتمكن من شيء الى الآن • أم هل ينبغى على أن أحكى لك المحاولات الفاشلة التى أذلتنى فى الواقع أشد الازلال ، حتى أذوق الذل مرتين ؟ هل ينبغى أن أتفاخر بأننى انتظرت على باب زحافة كلم أمسية كاملة أرتعش من البرد ولا أفيد شيئا ؟ اننى أهرع اليك ، سعيدا بأننى لن أضطر الى التفكير فى هذه الأمور ، فاذا بى ألقى كل هذا منك ، ألقاه ينطلق نحوى بالتهديد • أما أمر برناباس ، فأنا لا أخفى عليك أننى أنتظره • فهو ساعى كلم • لست أنا الذى جعلته ساعيا لكلم •

وصاحت فريدا :

— هانتذا تعود الى ذكر برناباس • اننى لا أستطيع أن أصدق أنه ساع بمعنى الكلمة •

فقال ك :

— قد تكونين على حق • ولكنه الساعى الوحيد الذى أرسل الى •

فقالت فريدا :

— هذا مما يزيد فى سوءه • وهذا مما يفرض عليك أن تزيد فى حرصك منه •

فقال ك مبتسما :

— انه للأسف لم يعطنى فرصة لذلك • انه يأتى نادرا ، ولا يحمل الى الا أمورا لا قيمة لها • وليست له من قيمة الا انه يأتى من عند كلم مباشرة •

فقالت فريدا :

— ولكن هذا يعنى أن كلم لم يعد هدفك ، ولعل هذا هو ما يقلقنى أشد القلق • لقد حاولت على الدوام أن تندفع الى كلم متجنبيا إياى ، وكان هذا قبيحا ، وما أنتذا تنصرف على ما يبدو عن كلم ، وهذا أقبح بكثير ، ان هذا شيء لم تتوقعه حتى صاحبة الحان ذاتها ، لقد انتهت سعادتى ،

على رأى صاحبة الحان ، ولقد كانت سعادة واهية ولكنها كانت حقيقية ، انتهت سعادتي منذ اليوم الذى توصلت فيه نهائيا الى أن أملك فى كلم أمل لا طائل وراءه • انك لم تعد تأمل فى هذا اليوم • لقد دخل عليك صبي فجأة ، فبدأت تصارعه من أجل الحصول على أمه ، كما تصارع من أجل الحصول على الهواء الذى تتنفسه •

– لقد أصبت فى فهمك حديثي مع هانس • لقد كان الأمر فعلا على ما ذكرت • ولكن هل تداعت حياتك الماضية كلها بالنسبة اليك (باستثناء صاحبة الحان بطبيعة الحال ، التى لا يمكن أن تكون ضمن ما يتداعى) حتى لم يعد فى امكانك أن تعرفى كيف ينبغى على الانسان أن يناضل فى سبيل التقدم وبخاصة عندما يكون الانسان من الطبقة الدنيا ؟ كيف ينبغى على الانسان أن يستخدم كل ما يحمل بارقة أمل ؟ وهذه المرأة من القصر ، لقد قالت لى هى نفسها ذلك ، عندما ضلت الطريق فى أول يوم ذهبت الى لازيمان • ليس هناك شئ يخطر بالبال أقرب من التماس النصيحة لديها أو حتى العون • واذا كانت صاحبة الحان تعرف بدقة دقيقة كل العقبات التى تحول بين المرء وبين كلم ، فلعل هذه المرأة تعرف الطريق ، فهى قد سلكته عند نزولها •

وسألت فريدا :

– الطريق الى كلم ؟

فقال ك :

– الى كلم ، بكل تأكيد ، الى من غيره •

وهب ك واقفا وقال :

– لا يمكن أن أتأخر أكثر من هذا عن اجضار طعام الافطار •

وألحت عليه أن يتجاوز هذا السبب ويبقى وكأنما كان بقاؤه هو الذى سيؤكد كل ما قد قاله لها مواسيا • ولكن ك ذكرها بالمعلم ، وأشار الى الباب الذى يمكن أن ينفتح بين لحظة وأخرى عن هدير كهدير الرعد ، ووعدها بأن يعجل بالعودة ، وبأنه سيقوم بكل الأعمال ، حتى التدفئة سيتولى أمرها • وأخيرا رضيت فريدا وصمتت :

وعندما سار ك فى الخارج يدق الجليد بقدميه – وكان ينبغى عليه أن يكون قد فرغ من اخلاء الطريق من الجليد • ما أعجب البطء الذى اعترى العمل ! رأى أحد المساعدين يمسك بالسور الحديدى وقد أشرف على الموت من فرط التعب • انه واحد ! فأين الآخر ؟ هل يا ترى قد تمكن ك من

تحطيم صمود أحدهما على الأقل ؟ أما هذا الذى بقى فقد كان بطبيعة الحال شديد الدأب لا يرجع عن الأمر ، ولقد ظهر هذا واضحا ، عندما عاد الى النشاط على أثر رؤيته ك ، وعاود مد ذراعيه وتحريك عينيه متوسلا على نحو أكثر عنفا .
وقال ك فى نفسه :

— ان صموده لصمود نموذجى !

ولكنه اضطر الى أن يضيف .

ولكنه صمود يؤدى بالانسان الى التجمد على السور .

ولم يفعل ك شيئا ظاهريا سوى التهديد بقبضته فاستحال على المساعد أن يقترب بل تراجع مسافة غير قصيرة الى الوراء خائفا . وفى تلك اللحظة فتحت فريدا شبكا لكى تجدد هواء الحجرة قبل التدفئة على نحو ما تفاهمت مع ك . فانصرف المساعد عن ك وتسلسل الى النافذة منجذبا اليها انجذابا لا طاقة له على معارضته . ولوحت فريدا بيدها قليلا من الشباك — وكان وجهها مضطربا فى تعبيره بين الود حيال المساعد والحيرة المختلطة بالتوسل حيال ك — ولم يكن ظاهرا هل كانت حركة يدها تعنى الصد أو التحية ، ولكن المساعد لم يتردد فى التقدم نحوها والاقتراب منها . وهنا أقفلت فريدا الشباك الخارجى بسرعة ولكنها بقيت خلفه ، واضعة يدها على القبض ، وقد مالت برأسها الى جانب ، وفتحت عينيهما على سعتهما واصطنعت ابتسامة جامدة . هل كانت تعلم أنها كانت بذلك تجتذب المساعد أكثر مما تردعه ؟ ولم يعد ك ينظر الى الحلف ، فقد كان يفضل أن يسرع على أشد ما يستطيع ليعود فى أقرب وقت .

الفصل الرابع عشر

وأخيرا - وكان الظلام قد أخذ يطبق على الدنيا وكان الوقت قد تجاوز العصر بكثير - أفسح ك الطريق ، وكوم الثلوج على الجانبين وكدسها ، وفرغ من عمل اليوم . ووقف عند بوابة الحديقة وحيدا فى دائرة واسعة لا يشاركه فيها آخر . وكان منذ بضع ساعات قد طرد المساعد ، ولاحقه لمسافة طويلة من الطريق ، فاخفى المساعد فى مكان ما بين الحدائق الصغيرة والأكواخ ، ولم يعد من الممكن العثور عليه ولم يظهر بعد ذلك مرة أخرى . أما فريدا فكانت فى البيت وكانت مشغولة اما بغسيل الملابس أو بحمام قطة جيزا . ولقد كان من آيات الثقبه العظيمة التى أبدتها جيزا أن كلفت فريدا بهذا العمل الذى لم يكن فى الحقيقة عملا لائقا محببا الى النفس ، وما كان ك بكل تأكيد ليقبله ، لو لم تكن الكياسة تفرض عليه ، بعد اخلاله المتكرر بالعمل ، أن ينتهز كل فرصة ليقدم الى جيزا من الخدمات ما يجعلها ممتنة له . ولقد نظرت جيزا بعين الرضا الى ك وهو يحضر حوض استحمام الأطفال الصغير من فوق السطح ، وبعد الماء الدافئ ويضع القطة فى الحوض باحتراس شديد . ثم تركت جيزا القطة لفريدا لتتولى أمرها كلية ، لأن شفارتسر ، الذى تعرف به ك فى أمسيته الأولى بالقرية ، كان قد أتى ، وحياء ك بخليط من الحجل الذى قام أساسه فى تلك الأمسية ، ومن التحقير الشديد الذى يليق بخادم مدرسة ، ثم ذهب مع جيزا الى الفصل الآخر . وظل الاثنان هناك معا . وكان ك قد علم من حان الجسر أن شفارتسر ، وهو ابن أحد مديرى القلعة ، يعيش فى القرية منذ وقت طويل حبا فى جيزا ، وتوصل بفضل علاقاته الى جعل مجلس القرية يعينه مساعد معلم فى المدرسة ، ولم يكن يمارس هذه الوظيفة أساسا الا بحضوره حصص جيزا كلها ، جالسا على مقعد مع التلاميذ أو جالسا الى قدمى جيزا على قاعدة المنصة ، وهو ما كان يفضل . ولم يكن تصرفه هذا يسبب ازعاجا ، فقد تعود التلاميذ ميلا أو تفهنا ، فلم يكن يتكلم معهم الا نادرا ، ولم يحمل عن جيزا سوى دروس الرياضة

البدنية ، وكان ينعم بالرضا اذ يعيش فى قرب جيزا وفى جوها ودفئها .
وكانت أعظم متعة لديه هى الجلوس بجوار جيزا وتصحيح الكراسيات .
ولقد كانا اليوم كذلك مشغولين بتصحيح الكراسيات ، فقد أحضر سفارتسر معه كمية كبيرة من الكراسيات ، وكان المعلم يعطيها كذلك كراساته ،
وكان ك يرى الاثنين – طالما كان النهار طالما – جالسين الى منضدة صغيرة عند النافذة عاكفين على العمل ، رأسا الى رأس ، لا يتحركان .
أما الآن فلم يعد يرى هناك سوى شمعتين ترتعشان . لقد كان جيهما حيا جادا صامتا ، وكانت جيزا هى التى جعلته كذلك ، فقد كان طبعها البلبد يتحول الى العنف أحيانا ويتجاوز الحدود ولكنه لم يكن يقبل مثل ذلك من الآخرين فى وقت آخر مطلقا . وهكذا تحتم على سفارتسر العنيف أن ينصاع لها ، وأن يسير ببطة ، ويتكلم ببطة ، ويصمت كثيرا .
ولكنه كان ينال – على ما كان الانسان يرى – لقاء هذا كله الجزاء الأوفى متمثلا فى وجود جيزا وسكونها بجواره . وربما لم تكن جيزا تحبه مطلقا . ولم تكن عينها المستديرتان الرماديتان اللتان لا ترمشان بحال من الأحوال وتبدوان كأنهما لا تدوران الا حول الحدقتين ، تعطيان اجابة على مثل هذه التساؤلات . لم يكن الناس يرون الا أنها تصبر على سفارتسر دون ما اعتراض ، ولكنها لم تكن على وجه التأكيد تعرف كيف تقدر شرف حب أحد أبناء مديرى القصر لها ، وكانت تحرك جسدها المتلى البانح هادئة لا تغير منه شيئا سواء تبعتها نظرات سفارتسر أو لم تتبعها . أما سفارتسر فكان على العكس يقدم لها بلا انقطاع تضحية تتمثل فى بقائه فى القرية ، وكان يرد الرسل الذين يرسلهم أبوه لاحتضاره ويغلفظ لهم وكأنما كان ما يتسببون له فيه من تذكير قصير بالقصر وبواجب الابن حبال أبيه اقلاقا شديدا لسعادته لا سبيل الى علاجه . ومع ذلك فقد كان لديه من الفراغ الشئ الكثير لأن جيزا لم تكن تعرض له عادة الا فى ساعات التدريس وتصحيح الكراسيات ، ولم تكن تفعل ذلك عن تدبير ، بل لأنها كانت تحب الراحة وتحب لذلك الوحدة فوق كل شئ ، وكانت تحس بالسعادة أعظم السعادة عندما تتمكن من الاضطجاع على الأريكة فى البيت بكل حرية ، وبجوارها القطة التى لم تكن تزعجها لأنها لم تكن تكاد تستطيع الحركة . وهكذا كان سفارتسر يهيم على وجهه فترة طويلة من النهار بلا عمل ، ولكنه كان يحب ذلك حيا لا شك فيه لانه كان يجد فرصة كثيرا ما استغلها ، فرصة الذهاب الى حارة السبع حيث كانت جيزا تقيم ، وصعود الدرج الى حجرتها الصغيرة فوق السطح والتسمع على الباب المقفل الذى لم يكن ينفتح مطلقا ، ثم

الانصراف على عجل بعد التأكد من ان الحجرة غارقة فى السكون الكامل
المبهم الذى لم يفارقها مرة واحدة ولا على سبيل الاستثناء * على انه كان
يتصرف من حين لآخر على نحو تظهر فيه بعض آثار أسلوب الحياة هذا
- ولكن هذا لم يحدث قط فى حضرة جيزا - فيعبر فجأة تعبيرا قصيرا
مضحكا عن العجرفة الديوانية التى لم تعد بطبيعية الحال تتناسب مع
وضعه الحالى * ولم تكن هذه الحالات تنتهى غالبا نهاية طيبة كما رأى ك
بنفسه *

والغريب أن الناس كانوا ، على الأقل فى حان الجسر ، يتكلمون عن
شفارتسر بنوع ما من الاحترام حتى اذا كان الحديث يدور حول أمور أقرب
الى السخف منها الى الأهمية ، وكان هذا الاحترام يشمل جيزا هى أيضا .
ولم يكن من الصواب ما ذهب اليه شفارتسر من الاعتقاد فى انه كمساعد
معلم يتفوق على ك تفوقا خارقا للمألوف ، فلم يكن لهذا التفوق وجود *
فخادم المدرسة بالنسبة للمعلمين ، وخاصة بالنسبة لمعلم من نوع
شفارتسر ، شخص مهم جدا ، لا يصح أن يحتقره الانسان دون أن يتعرض
لعقاب ، شخص ينبغي على الانسان - ان لم يستطع أن يتخلى عن
الاهتمامات الطبقية - أن يمكنه من احتمال الاحتقار بتقديم مقابل مناسب
له * وكان ك يميل أحيانا الى القول بأن شفارتسر كان منذ الأمسية
الأولى مذنباً ، وان ذنبه لم يصغر حتى بعد أن أثبتت الأيام التالية على
لقائهما أن شفارتسر كان على حق * فلم يكن ينسى أن لقاءهما ربما كان
هو الذى وجه كل الأحداث التالية الوجهة التى سارت فيها * فقد تسبب
شفارتسر على نحو سخيف كل السخف ومنذ الساعة الأولى فى توجيهه
انتباه الدواوين كاملا اليه ، فى الوقت الذى كان فيه لا يزال غريبا تماما
فى القرية ، بلا معارف وبلا مأوى ، وكان مرهقا أشد الارهاق من كثرة
السير ، حائرا لا يعرف شيئا يستعين به على أمره ، ويرقد على جوال القش
تحت رحمة أى تدخل من جانب الدواوين * ولو حدث هذا اللقاء بعد
ذلك بليلة واحدة لكانت الأمور كلها قد سارت سيرة مختلفة ، هادئة
وكانها تسير فى السر * ولما كان هناك انسان يعرف من أخباره شيئا ،
ولما تردد من يأوى اليهم فى تركه يقيم بينهم يوما كما يفعلون بالشباب
المترحلين ، ولما اشتبهوا فى شيء * ولتبين الناس فائدته وأمانته ، ولانتقل
الحجر فى المنطقة المحيطة ، ولما كان من المستبعد أن يجد فى مكان ما مأوى
كعامل زراعى بسيط * وليس من شك فى أن أمره لم يكن سيخفى على
الدواوين * ولكن الفرق جوهرى بين أن يجرى بسببه فى منتصف الليل
اتصال بالديوان الرئيسى أو بمن كان على التليفون يستحثه ويثيره عليه ،

ويطالب بقرار فوري بتواضع ظاهري ولكن بتصميم مزعج ، وان يكون من يجرى هذا الاتصال هو سفارتسر الذي يبدو أن السلطات العليا لاتجبه ولا ترضى عنه ، وبين أن يذهب كـ - بدلا من هذا كله - في اليوم التالي على وصوله ، في وقت العمل الرسمي الى رئيس مجلس القرية ، فيدق الباب ويبلغ ، كما ينبغي ، عن نفسه على اعتبار انه شاب متجول غريب قد وجد لنفسه مكانا ينام فيه لدى فرد بعينه من أفراد جماعة القرية ويذكر انه ربما يستأنف رحلته في اليوم التالي . ثم يحدث شيء عجيب وهو أنه يجد عملا ، لبضعة أيام فقط بطبيعة الحال ، لأنه لا يريد أن يبقى هنا طويلا بحال من الأحوال . هذا ، أو نحوه ، ما كان سيحدث لو لم يتدخل سفارتسر . كان الديوان سيستمر في الاشتغال بمسألة كـ ، ولكن في هدوء ، وبالطريق الرسمي ، ودون أن يزعجه تهور الحزب الذي يبدو أنه يكرهه أشد الكره . ولقد كان كـ برينا من كل هذا ، وكان الاثم ينصب على سفارتسر وحده ، ولكن سفارتسر كان ابن أحد مديري القصر ، وكان من الناحية الظاهرية قد تصرف تصرفا صحيحا ، وهكذا ألقى الذنب على كـ وحده . وما هو السبب المضحك لهذا كله ؟ ربما نزوة غاضبة من نزوات جيزا في ذلك اليوم دفعت سفارتسر الى أن يهيم على وجهه في الليل ، فلم يكن يستطيع النوم ، الى أن يخفف عن نفسه المصيبة بصيها على كـ . وكان من الممكن من ناحية أخرى القول بطبيعة الحال بأن كـ مدين لتصرف سفارتسر هذا بالكثير . فقد تحقق عن طريقه ما لم يكن كـ يستطيع بمفرده أن يحققه ، وما لم يكن ليجرؤ على بلوغه وما لم يكن الديوان ليوافق عليه ، تحقق له منذ البداية أن يواجه الديوان - على قدر ما كان ممكنا من ناحية الديوان - صراحة دون مواربة وجهها في وجه . ولكن تلك النعمة كانت نعمة قبيحة . حقيقة انها وفرت على كـ الكثير من الكذب والمواربة ، ولكنها كانت تجعله كالاعزل من السلاح ، وكانت على أية حال تضره في النضال وكان من الممكن أن تصيبه في هذه الناحية باليأس ، لو لم يقل لنفسه أن الفرق بين سلطة الديوان وبين سلطته هائل لدرجة أن ما يستطيعه من كذب ومكر لن يقلل هذا الفرق لصالحه على نحو جوهرى . ولكن تلك الفكرة كانت فكرة يواسى كـ بها نفسه . فقد ظل سفارتسر على ائمه . وهو قد أضرك فيما مضى ولعله يستطيع في المستقبل أن يعينه ، و كـ لن يحتاج الى مساعدة الا في أقل القليل ، في التمهيدات الأولية ، ولقد بدا له الآن أن برناباس مثلا عاود الاهمال .

ظل طوال اليوم يتردد بسبب فريدا في الذهاب الى مسكن برناباس

والسؤال • ولقد عكف على العمل فى الخارج حتى لا يضطر الى استقباله أمام فريدا ، فلما فرغ من العمل ظل ينتظر على أمل أن يأتى برناباس ، ولكنه لم يأت • وهكذا لم يعد هناك مفر من الذهاب الى أخيه ، لفترة قصيرة جدا ، ليسألها وهو واقف على العتبة ، ثم يعود من فوره بعد ذلك • ودس الجاروف فى الثلج وجرى • ووصل بيت برناباس وهو يلهث ، ودق الباب قليلا ثم فتحه بقوة وسأل دون أن يتبين حال الحجره :

— ألم يعد برناباس حتى الآن ؟

وتبين الآن أن أولجا لم تكن موجودة ، وأن الوالدين المسنين جالسين الى المنضدة البعيدة فى هذه المرة أيضا فى جو أقرب الى الظلام منه الى النور ، ولم يتبين ما حدث عند الباب ، ثم حركا وجهيهما نحوه ببطء ، كذلك رأى ك أخيرا أماليا راقدة على أريكة عند المدفأة تحت الأغطية ، ورأى كيف انتفضت من تأثير الفزع الأول الذى تملكها عندما ظهر ك ووضع يدها على جبهتها لتتمالك نفسها • لو كانت أولجا هنا لتلقى الرد على الفور ، ولا استطاع ك أن ينصرف توا ، أما الآن فقد أصبح عليه على الأقل أن يخطو بضع خطوات نحو أماليا ، وأن يصافحها ، فضغطت على يده صامته ، وكان عليه أن يرجوها أن تحول بين الوالدين المنفرعين وبين أن يقوموا بأى جولات ، فاستجابت أماليا لذلك وقالت لهما بضعة كلمات • وعلم ك أن أولجا فى الفناء تكسر خشبا للمدفأة ، وأن أماليا منهكة القوة — ولم تذكر لذلك سببا — وانها رقدت منذ قليل ، وأن برناباس لم يأت بعد ولكنه سيأتى بعد قليل لأنه لم يحدث قط أنبقى فى القصر ليلا • وشكرها ك على المعلومات ، وكان فى امكانه أن ينصرف من حيث أتى ، ولكن أماليا سألته عما اذا كان يريد أن ينتظر قدوم أولجا • أو لم يكن لديه وقت • ثم سألته أماليا هل تكلم مع أولجا اليوم ، ولكنه نفى ، وسأل مندهشا عما اذا كانت أولجا تريد أن تقول له شيئا هاما • فزمت أماليا فمها كأنها غضبت قليلا ، ثم أومأت برأسها الى ك صامته — وكان من الواضح أن الحركة تعنى الوداع — وعادت الى الرقود • وأخذت أماليا من مضجعها تتفرس فيه وكأنها تدهش لأنه مايزال موجودا • كانت نظرتها باردة ، واضحة ثابتة كالاعتاد ، ولم يكن ك منتبها تماما الى ماكانت تتأمله أماليا ، بل انه تحاشاه قليلا على نحو لا يكاد يلفت النظر ، ولكنه تحاشاه بدون شك ، ولم يكن السبب فى ذلك ضعفا أو ارتباكاً أو نفاقا على ما يبدو ، ولكنه كان حاجة مستمرة الى الوحدة ، حاجة تفوق كل ما عداها ، ويبدو أن هذه الحاجة لم تظهر لها الا على هذا النحو • واعتقد ك انه يذكر أن هذه النظرة شغلته فى الأمسية الأولى ، بل أن هذه النظرة

هى على الأرجح السبب فى الانطباع القبيح الذى أحدثته فيه هذه الأسرة منذ البداية ، ولم تكن هذه النظرة قبيحة فى حد ذاتها ، بل كانت نظرة متكبرة صريحة فى حدود استغلاقتها . وقال ك :

— انك دائمة الحزن هكذا يا أماليا ، هل هناك ما يؤرقك ؟ ألا يمكنك أن تتحدثى عنه ؟ اننى لم أر من قبل بنتا قروية مثلك . وهذا شئ لم يلفت نظرى الا اليوم ، الا الآن فقط . هل أنت من القرية ؟ هل ولدت هنا ؟

وردت أماليا بالايجاب وكأنما لم يوجه اليها ك الا السؤال الأخير .
ثم قالت :

— اذن فأنت ستنتظر قدوم أولجا ، هه ؟

فقال ك :

— أنا لا أعرف لماذا تسألين دائما السؤال نفسه . اننى لا أستطيع أن أبقي طويلا لأن خطيبتى تنتظرنى فى البيت .

واتكأت أماليا على مرفقيها ، لم تكن تعرف شيئا عن خطيبة ك . فذكر ك اسمها . لم تكن أماليا تعرفها . وسألت أماليا ك عما اذا كانت أولجا تعرف بالخطبة ، فقال ك انه يعتقد انها تعرف ذلك ، فقد رآته مع فريدا ، هذا الى أن مثل هذه الأخبار تنتشر بسرعة فى القرية . ولكن أماليا أكدت له أن أولجا لا تعرف ذلك ، وأن هذا الجبر سيشقيها جدا لانها على ما يبدو تحب ك ، وهى لم تتكلم عن ذلك صراحة ، لأنها متحفظة جدا ، ولكن الحب يكشف عن نفسه تلقائيا . وكان ك مقتنعا من أن أماليا مخطئة . وابتسمت أماليا ، وعلى الرغم من أن ابتسامتها كانت حزينة فقد أضاءت الوجه المنقبض المظلم ، وجعلت الصمت يتبدد ، وأحالت الغربة الى ألفة ، وكشفت عن السر ، وأعطت ك شيئا ظلت تخفيه حتى ذلك الحين ، شيئا سيكون فى استطاعتها أن تسترده بطبيعة الحال ، ولكنها لن تستطيع أن تسترده كاملا أبدا . وقالت أماليا انها بلا شك لا تخطئ ، بل انها تعرف المزيد ، انها تعرف أن ك نفسه يميل الى أولجا وان زيارته التى يدعى أنه يقوم بها من أجل رسائل برناباس تقصد فى الحقيقة أولجا وحدها . أما الآن وقد عرفت أماليا بكل شئ ، فلا ينبغي أن تحمل هما ، وله أن يأتى كلما شاء . وقالت ان هذا هو ما كانت تريد أن تقوله له . وهز ك رأسه وذكر أماليا بخطوبته . ولم يبد على أماليا أنها وجهت الى هذه الخطوبة كثيرا من أفكارها ، كان أهم شئ بالنسبة اليها هو الانطباع المباشر الذى

يحدثه ك الذى كان يقف وحده أمامها • كل ما فعلته أنها سألت ك متى تعرف بهذه البنت فلم يمض عليه فى القرية الا القليل من الأيام • وقص ك عليها قصة الأمسية التى قضاها فى حان السادة ، فقالت أماليا باقتضاب انها كانت تعارض فى اقتياده الى حان السادة • ونادت على أولجا لتشاهدها على ذلك ، وكانت أولجا فى تلك اللحظة قد ظهرت بالبواب وهى تحمل على ذراعها خشبا للمدفأة ، وكانت بشرتها نضرة صبغها الهواء البارد بالحمرة ، وكانت هى نشيطة قوية وكأنما كان العمل قد غيرها الى حال أخرى تختلف عن حالها المعهودة عندما تقف فى الحجرة وقفتها المألوفة المتناقلة • وألقت أولجا بالحشب وسلمت على ك فى غير تكلف ثم سألت عن فريدا • ونظر ك الى أماليا نظرة عبر بها عن رآيه ، فلم يبد عليها أنها أحست بأن الرأى الذى ذهبت اليه قد تأكد خطئه • وانفعل ك لهذا قليلا فبدأ يحكى بأسهاب أكثر مما كان ينوى عن فريدا وعن الصعوبات التى يتعرض لها فى سبيل تدبير ما يشبه بيت الزوجية فى المدرسة - ونسى نفسه أثناء تسرعه فى الكلام - ولقد كان ينوى أن يعود الى البيت من فوره - نسى نفسه حتى أنه وجه الى الأختين ، على هيئة الوداع ، الدعوة الى زيارته • وما أن تبين ذلك حتى تملكه الفزع وأخذ يتلعثم فى الوقت الذى أعلنت أماليا فيه على الفور ودون أن تترك له فرصة الكلام انها تقبل الدعوة ، وكان على أولجا أن تتبعها وأن تعلن هى كذلك موافقتها ، ففعلت • أما ك الذى كان ما يزال يعانى من الحاح التفكير فى ضرورة الاستئذان للانصراف بسرعة ، والذى كان يحس بالاضطراب تحت تأثير نظرات أماليا ، فلم يتردد فى الاعتراف ، دون ما تحسين أو تجميل ، بأن الدعوة التى وجهها جاءت عن غير تدبير وتفكير بل جاءت عفوا الحاضر ، وانه لن يستطيع للأسف أن يتمسك بها نظرا للعداوة القائمة بين فريدا وبين آل برناباس ، تلك العداوة التى لا يفهم من أمرها شيئا • وقالت أماليا وقد قامت من فوق الأريكة وألقت الغطاء من خلفها :

- انها ليست عداوة • وما هى بالأمر العظيم الهام ، انها مجرد ترديد ساذج لرأى شائع • فاذهب الآن ، اذهب الى خطيتك ، وانى لأرى كيف تتعجل الخطى • ولا عليك أن تخشى أن تأتى ، وأنا لم أكن أعنى عندما أعلنت موافقتى أكثر من المزاح ، ولم أتحرك الا بدافع الحب • أما أنت فيمكنك أن تأتى إلينا كثيرا ، فليس هناك ما يعوقك عن ذلك ، يمكنك دائما أن تدعى انك تلمس أخبارا من برناباس • وأنا أسهل مهمتك فأقول لك ان برناباس ، حتى اذا كان يحمل اليك رسالة من القصر ، لن يذهب الى المدرسة ليبلغك اياها ، فالمسكين لا يستطيع أن

يجرى من أول البلد الى آخره ، لقد أضناه العمل عليك أنت أن تأتي بنفسك تلتمس الأخبار .

لم يكن ك قد سمع أماليا من قبل تتحدث حديثا متصلا طويلا كهذا ، ولقد كان لحديثها هذا نبذة أخرى غير نبذة أحاديثها التي عرفها ك ، كان في حديثها هذا شيء من الترفع لم يكن ك هو وحده الذى أحس به ، بل يبدو أن أختها أوجا التي تعرفها وتألّفها قد أحست به هي الأخرى . وكانت تقف الى جانب وتضع يديها على فخذيها . . . كانت تقف وقفتها المعهودة التي تنحنى فيها وتباعد بين ساقيها ، وكانت توجه عينيها ناحية أماليا ولا تنظر الا الى ك . وقال ك :

— انك تخطئين ، تخطئين خطأ كبيرا عندما تظنين أن انتظاري برناباس ليس انتظارا جادا . ان أمنيّتي الكبرى ، أو على الأصح أمنيّتي الوحيدة تتلخص فى تسوية أمورى مع السلطات . وعلى برناباس أن يساعدنّى فى ذلك ، وكثير من أملّى معقود على مساعدته . حقيقة أنه خيب رجائى مرة أشد الحبيّة ، ولكن الذنب كان ذنبى أكثر مما كان ذنبه هو ، ولقد حدث هذا فى وسط اضطراب الساعات الأولى لى هنا وكنت أعتقد آنذاك اننى أستطيع أن أصل الى كل شيء عن طريق نزهة مسائية قصيرة . . . واذا كانت المستحيلات قد بدت لى كمستحيلات فأمر أحمل عنه ضغينة له . ولقد أثر هذا حتى على حكمى على أسرّتك ، على حكمى عليكم . وهذا هو السبب ، وأظن أننى أفهمكم الآن على نحو أفضل . . .

وحاول ك أن يجد العبارة المناسبة فلم يجدها على الفور ، واكتفى بعبارة عادية :

— وربما كنتم أكثر طيبة من كل أهل القرية على قدر ما أعرفهم . ولكنك يا أماليا تحيرينى الآن مرة أخرى عندما تقللين ، لا أقول من شأن عمل أخيك ، ولكنى أقول تقللين من أهمية عمله بالنسبة الى . ولعلك لا تعرفين أسرار أمور برناباس ، وفى هذه الحالة أقول لا بأس وأترك المسألة حيث هي ، ولعلك تعرفين أسرار أمور برناباس — وهذا هو على الأحرى انطباعى — وفى هذه الحالة أقول أن الأمر قبيح ، لأن هذا يعنى أن أخاك يخدعنى .

وقالت أماليا :

— فاهدأ بالا ، أنا لا أعرف هذه الأسرار ، وليس هناك شيء يمكن أن يدفعنى الى أن أسعى الى معرفتها ، ليس هناك شيء ، ولا حتى الاهتمام

بأمرك يمكن أن يدفعني الى أن أسعى الى معرفتها ، على الرغم من أنني قد أود أن أصنع من أجلك شيئا ، فنحن كما قلت أنت أناس طيبون . انما موضوعات أخرى موضوعات تخصصه هو ، وأنا لا أعرف منها الا ما أسمعه من حين لآخر بالمصادفة وعلى غير ارادة مني . أما أولجا فهي تستطيع أن تحيطك بالأخبار كلها لأنها موضع ثقته وهو لا يخفى عنها شيئا .

وانصرفت أماليا ، ذهبت أولا الى الوالدين وهمست اليهما بشيء ، ثم ذهبت بعد ذلك الى المطبخ ، انصرفت هكذا دون أن تودع ك ، وكأنها كانت تعلم ان ك سيبقى طويلا وانها لهذا ليست بحاجة الى أن تودعه .

الفصل الخامس عشر

وبقى ك وقد ارتسمت الدهشة على وجهه ، وضحكت أولجا منه ،
وشدته الى الأريكة عند المدفأة ، وبدا عليها فعلا انها سعيدة اذ استطاعت
أن تخلو به هنا ، ولكن سعادتها كانت سعادة صافية لم تعكرها الغيرة
بكل تأكيد . وكان انعدام الغيرة وبالتالي انعدام كل تكلف يجعل ك يحس
بالراحة . وكان ك يجد متعة فى النظر الى عينيها الزرقاوين اللتين لاتجذبان
ولا تسيطران بل تسكنان فى خجل وتثبتان فى حياء . وأحس ك كان
تحذيرات فريدا وصاحبة الحان لم تجعله أكثر تقبلا لهذا كله ، بل جعلته
أكثر انتباها وامعانا . وضحك مع أولجا عندما عبرت عن دهشتها لوصف
ك أماليا بالذات بالطيبة ، وقالت انها تتصف بكثير من الصفات ولكن
صفة الطيبة بالذات ليست فيها . ورد ك على ذلك بأنه كان بطبيعة الحال
يعنيها هى ، أولجا ، بالمدح ، ولكن أماليا شديدة السيطرة لدرجة أن الأمر
لا يقف عند حد انها تستحوذ على كل ما يقال فى وجودها ، بل يتعداه
الى أن الانسان يقدمه اليها بارادته . وقالت أولجا وقد ازداد جدما :

— هذا صحيح ، أكثر صحة مما تظن . وأماليا أصغر منى ، بل
وأصغر من برناباس ولكنها هى التى تقضى فى الأمور فى البيت ، بالشـر
أو بالخير . وهى بطبيعة الحال تحمل أكثر مما يحمل الآخرون خيرا وشرا .
وذهب ك الى ان هذا الكلام مبالغ فيه ، فقد قالت أماليا منذ قليل
انها مثلا لا تهتم بأمور أخيها وإن أولجا هى التى تعرف كل شىء عنها . .
وقالت أولجا :

— كيف أشرح لك هذا ؟ ان أماليا لا تهتم لا ببرناباس ولا بى ، انها
فى الحقيقة لا تهتم بأحد سوى الوالدين ، فهى تعنى بهما نهارا وليلا ،
ولقد سألتهما الآن لتوهما عن رغباتهما وذهبت الى المطبخ لتعطى لهما
ما يشتهيان ، ولقد تحاملت على نفسها ونهضت من أجلهما ، فهى مريضة
منذ الظهر وكانت ترقد على الأريكة . ولكننا ، على الرغم من أنها لا تهتم
بشئونا ، نتبعها كما لو كانت هى الكبرى ، وهى لو نصحتنا بشىء فى

أمورنا لاتبعناهما بكل تأكيد ، ولكنها لا تفعل ذلك فنحن غرباء عنها .
وأنت رجل ذو خبرة بالناس ، وأنت قادم من الغرب ، فقل : ألا تبدو لك
شديدة الفطنة ؟

فقال ك :

— انها تبدو لى شديدة التعاسة ، ولكن كيف يتفق مع احترامكم لها
ان برناباس يقوم مثلا بأعمال الساعى هذه الأعمال التى لا ترضى هى عنها
ولعلها تحترقها ؟

فردت قائلة :

— لو انه عرف له عملا آخر يقوم به بدلا من شغلة الساعى هذه
التى لا ترضيه لما تأخر عن الانصراف عنها .

فسأل ك :

— أليس هو عامل فنى فى صناعة الأحذية ؟

فقالت أولجا :

— بلى بكل تأكيد،وهو الى جانب عمله كساع يعمل لدى برونسفيك،
ولو شاء لوجد هناك عملا يكفيه ليلا ونهارا ولربح كثيرا .

وقال ك :

— فماذا يمنعه ؟ ألا يجد بديلا له لوظيفة الساعى ؟

وسألت أولجا مندهشة :

— تقول بديلا له فى وظيفة الساعى ؟ فهل هو قد قبل هذه الوظيفة
من أجل الربح ؟

وقال ك :

— ليكن . ولكنك قلت انها لا ترضيه .

فقالت أولجا :

— انها لا ترضيه ، وله فى ذلك أسباب مختلفة ، ولكنها على أية
حال خدمة للقصر ، أو على أية حال من خدمة القصر ، وهذا ماينبغى على
الانسان على الأقل أن يؤمن به .

فقال ك :

— كيف هذا ؟ هل أنتم فى شك حتى من هذا ؟

فقالت أولجا :

- فى الحقيقة لا يساورنا فى ذلك شك • فبرناباس يذهب الى دواوين المستشارية ويخالط الخدم هناك كواحد منهم ، ويرى من بعيد بعض الموظفين متفرقين ، ويتلقى رسائل ذات أهمية نسبية ، بل يتلقى أحيانا رسائل شفوية لينقلها كما سمعها ، وهذا كثير ، ولنا أن نفخر بما استطاع أن يحققه وهو ما يزال فى سن الشباب الغض •

وهز ك رأسه ، ولم يعد يفكر الآن فى العودة • وسأل :

- هل لديه زى خاص ؟

فقالت أولجا :

- أتعنى السترة ؟ لا ، لقد صنعتها له أماليا حتى قبل أن يعمل ساعيا • ولكنك تقترب من النقطة الحساسة • فقد كان يتوقع منذ وقت طويل أن يحصل لا على زى رسمى ، فليس هناك شئ كهذا فى القصر ، ولكن على بذلة ، ولقد تلقى تأكيدا بهذا ، ولكنهم فى القصر يسرون ببطء شديد فيما يتعلق بمثل هذه الموضوعات ، وأصبح شئ هنا هو أن الانسان لا يعلم معنى هذا البطء ، فقد يعنى أن الموضوع يسير سيره الروتينى ، ولكنه قد يعنى كذلك أن الموضوع لم يبدأ سيره بعد ، أى انهم يريدون على سبيل المثال اختبار برناباس ، ومن الممكن أن يعنى البطء أيضا أن الاجراءات انتهت ، وأن التأكيد الذى سبق أن أعطى لبرناباس قد سحب لسبب من الأسباب فلن يحصل على البذلة أبدا • ولا يستطيع الانسان أن يعرف شيئا أكثر دقة ، أو لعل الانسان يعرفه بعد مضى وقت طويل • والناس هنا يتناقلون حكمة لعلك تعرفها : ان القرارات الحكومية خجولة كالبنات الصغيرات •

فقال ك وقد تناول العبارة بجذ أكثر مما فعلت أولجا :

- هذه ملاحظة طيبة ، ملاحظة طيبة ، وربما اتصفت القرارات الحكومية بصفات أخرى من تلك التى تتصف بها البنات الصغيرات •

وقالت أولجا :

- ربما • وأنا لا أعرف مقصداك • وقد تقصد مدحها • أما فيما يختص بالبذلة الحكومية ، فهى هم من الهموم التى يعانى برناباس منها ، ولما كنا نتشارك فى حمل الهموم فانها كذلك من همومى • اننا نتساءل لماذا لا يتال البذلة الحكومية • والموظفون ، على قدر علمنا ، وعلى ما يحكى برناباس يلبسون الملابس العادية ، وهى بطبيعة الحال ملابس

جميلة • وأنت قد رأيت كلم • وبرناباس ليس بطبيعة الحال موظفا ، ولا حتى من أخط درجة ، وهو ليس من الخطل بحيث يرجو أن يصبح موظفا • ولقد حكى برناباس أن بعض كبار الخدم ممن لا تصل اليهم الأنظار هنا فى القرية بطبيعة الحال لا يلبسون بدلا حكومية • وقد يظن الانسان ان فى هذا شيء من عزاء ، ولكن هذا أمر مضلل ، فهل برناباس من كبار الخدم ؟ لا ، وحتى اذا كان يحظى بالحب الشديد ، فليس هناك من يستطيع أن يقول انه من كبار الخدم ، والدليل على ذلك انه يأتى الى القرية ، بل ويقيم فيها ، وكبار الخدم أكثر تحفظا من الموظفين ، وربما كان لهم حق فى ذلك ، وربما كانوا أرفع قدرا من بعض الموظفين • وهناك بعض الأدلة على ذلك : فهم يشتغلون أقل ، ولقد قال برناباس ان منظر هؤلاء الرجال الأقوياء الفارعين المختارين وهم يزحفون ببطء شديد خلال الممرات والأروقة منظر رائع ، وبرناباس يتلمس طريقه بينهم بالانتفاف المستتر حواليتهم • والخلاصة انه لا يمكن القول بأن برناباس من كبار الخدم • ومعنى هذا انه قد يكون واحدا من صغار الخدم ، ولكن هؤلاء الخدم الصغار يلبسون البدل الحكومية ؟ على الأقل عندما ينزلون الى القرية ، وهذه البدلة الحكومية ليست زيا رسميا بمعنى الكلمة ، هذا الى أن هناك اختلافات كثيرة تعتورها ، ومهما يكن من أمر فان الانسان يتبين الخادم القادم من القصر بالنظر الى ثيابه ، ولقد رأيت أنت نفسك بعض هؤلاء الرجال فى حانة السادة • وأبرز ما فى هذه الثياب انها غالبا ضيقة تلتصق بالجسم التصاقا شديدا ، فما يمكن لفلاح أو عامل أن يستخدمها • اذن فبرناباس ليس لديه مثل هذه البدلة ، وليس هذا الأمر من الأمور المخجلة المزرية فحسب ، فهذا مما يمكن احتماله ، ولكنه من الأمور التى تجعل الانسان يشك فى كل شيء خاصة فى الساعات الحزينة ، ولقد مرت بنا ، ببرناباس وبى ، تلك الحال مرات ليست بالقليلة • عند ذاك نتساءل هل هذا العمل الذى يقوم به برناباس خدمة للقصر • انه بكل تأكيد يذهب الى بعض المكاتب الحكومية ، وما هذه الا جزء من الكل ، عندها حواجز من ورائها مكاتب أخرى • وليس هناك من يمنعه من النفاذ اليه منعا ، ولكنه لا يستطيع أن يتقدم اليها عندما يجد مرءوسيه الذين يتصرفون فيما لديه من أمور ويصرفونه • والانسان هناك عرضة للمراقبة الدائمة ، أو هو على الأقل يظن ذلك • وحتى اذا هو تقدم ، فما هو النفع الذى يمكن أن يصيبه ، اذا لم يكن لديه عمل فأصبح هناك دخيلا ؟ ولا ينبغي أن تتصور هذه الحواجز على انها حدود معينة - وهذا شيء لا يفتأ برناباس يلفت نظرى اليه • فهناك كذلك حواجز فى المكاتب التى يذهب

اليها . ومعنى هذا أن هناك حواجز يتخطاها وليس منظرها بمختلف عن منظر تلك التي لم يتخطاها بعد ، ولهذا فمن الممكن أن يذهب الانسان مسبقا الى أن المكاتب التي تقع خلف هذه الحدود الأخرى لا تختلف اختلافا جوهريا عن تلك التي عرفها برناباس . كل ما فى الأمر أن الانسان فى ساعات حزنه يظن ذلك . ثم يستمر الشك ولا يستطيع الانسان أن يقاومه . ويتكلم برناباس مع موظفين ، ويتلقى رسائل . ولكن من هؤلاء الموظفين ؟ وما هى هذه الرسائل ؟ لقد قال انه نقل الى كالم ، وانه يتلقى منه شخصيا الأوامر . وهذا كثير جدا ، فكبار الخدم أنفسهم لا يصلون الى هذا الحد ، هذا كثير جدا ، بل هو أكثر مما ينبغى ، وهذا هو المخيف من أمره . تصور انه نقل الى كالم مباشرة وانه يكلمه ويسمع منه ! ولكن الأمر فعلا كذلك ؟ نعم انه كذلك ، ولكن لماذا يشك برناباس فى أن ذلك الموظف الذى يسمونه كالم هو فعلا كالم ؟

فقال ك :

— يا أولجا ، انك لا تريد أن تمزحى معى ، كيف يمكن أن يكون هناك شك فى شكل كالم ، ان شكله معروف ، ولقد رأيته أنا بنفسى .

ف قالت أولجا :

— لا بكل تأكيد يا ك ، ليس هذا مزاحا ، بل هو أمر أهتم له جادة أشد الجدة . وأنا لا أحكى لك هذا لأخفف عن نفسى ولأثقل عليك ، ولكنك سألت عن برناباس ، فكلفتنى آماليا بأن أحكى لك الحكاية ، هذا الى أننى أعتقد أنه من المفيد لك أن تعرف الأشياء على نحو أكثر دقة . وأنا أحكى لك ما أحكى من أجل برناباس نفسه ، حتى لا تعقد عليه آمالا كبيرة جدا فيخيب رجاءك ويتألم لحبيبتك . فهو حساس جدا ، وهو على سبيل المثال لم ينام فى هذه الليلة لأنك لم تكن راضيا عنه بالأمس ، فقد قلت له انك مستاء أشد الاستياء لأنك أوتيت رسولا مثل برناباس . لقد نفت كلماتك النوم عن عينيه . ويبدو انك لم تلاحظ شيئا من الاضطراب الذى استبد به ، فمن واجب ساعة القصر أن يضبطوا أنفسهم وأن يتحكموا فيها أشد التحكم . ولكن عمله ليس بالسهل ، حتى معك . وأنت فى تصورك لا تتطلب الكثير منه ، لقد أتيت تحمل تصورات معينة عن الساعة وكيف يكون عملهم ، وأنت تقيس عليها المطالب التى تفرضها عليه . ولكنهم فى القصر يتصورون عمل الساعة على نحو آخر ، وهى تصورات لا تتفق مع تصوراتك ولا يمكن التوفيق بينها حتى لو ضحى برناباس كل التضحية فى العمل وهو ما يبدو عليه أحيانا انه مستعد له . والأخرى بالانسان

أن يطيع وألا يعترض ، لو لم تكن المسألة مسألة العمل الذى يقوم به وهل هو فعلا عمل السعاة . ليس له أن يبين لك أى شك بطبيعة الحال ، لأن ذلك معناه أن يضيع حياته ، وأن يخرج خروجاً بشعاً على قوانين يظن هو انه لا يزال يخضع له ، وهو لا يتكلم بحرية حتى عندما يتكلم معى ، وليس لدى من وسيلة لتبديد شكوكه الا التذليل والتقييل ، وحتى عندما أفعل ذلك أجد أنه يتمتع عن اعتبار الشكوك شكوكاً . ان لديه شيئاً من أماليا فى دمه . وهو بكل تأكيد لا يقول لى كل شىء على الرغم من اننى الوحيدة التى يضع فيها ثقته ويأمن اليها . على اننا نتكلم أحياناً عن كلم، وأنا لم أر كلم بعد - وأنت تعرف أن فريدا لا تحبنى كثيراً وما كانت لتسمح لى بأن أتطلع اليه - على أن شكله معروف بطبيعة الحال فى القرية ، فقد رآه بعض الأهالى ، وكلهم سمعوا عنه ، ولقد تكونت صورة لكلم من التصورات والشائعات ومن بعض النوايا الثانوية المزيفة ، وهى صورة صحيحة فى خطوطها الأساسية ، ولكن فى خطوطها الأساسية فقط ، وفيما عدا ذلك فهى صورة متغيرة ، ولعلها ليست متغيرة بالدرجة التى يتغير بها شكل كلم فى الحقيقة . ويقال ان شكله يختلف عنها اختلافاً تاماً عندما يأتى الى القرية ، ويختلف عنها عندما ينصرف عن القرية ، ويختلف عنها قبل أن يشرب البيرة ، ويختلف بعد أن يشرب البيرة ، ويختلف عندما يصحو ويختلف عندما ينام ، ويختلف عندما يكون وحده ، ويختلف عندما يتحدث ، ويختلف اختلافاً أساسياً - وهذا شىء بديهي - عندما يكون فى القصر . بل ان الروايات المتناقلة فى القرية تتضمن اختلافات كبيرة جداً ، اختلافات فى الطول وفى المظهر والبدانة واللحية ، وهى ، لحسن الحظ ، تتفق فيما يتعلق بالثوب الذى يرتديه ، انه يرتدى دائماً نفس الثوب : حلة سوداء لها سترة ذات طرفين طويلين . على أن هذه الاختلافات لا ترجع الى أسباب من السحر ، بل هى اختلافات بديهية ترجع الى المزاج فى لحظة بعينها ، الى درجة الانفعال الى درجات متباينة لا حصر لها من الأمل أو اليأس يكون فيها المشاهد الذى لا يكون له فى غالب الأحيان أن يرى كلم الا لحظة . وأنا أحكى لك هذا كما حكاه لى برناباس مراراً ، ولمن لم يتصل بالموضوع اتصلاً شخصياً مباشراً أن يكتفى بهذا بصفة عامة وهو قرير العين . أما نحن فلا نستطيع أن نهذا أو نقر عينا ، هل هذا الذى يتكلم معه هو بالفعل كلم أم لا ؟ ذلك موضوع حياة أو موت بالنسبة لبرناباس .

فقال ك :

- وهو كذلك بالنسبة الى أنا كذلك .

وتقارب الاثنان فى مجلسهما على الأريكة .

والحقيقة ان هذه الأخبار الجديدة غير المواتية التى نقلتها أولجا الى ك
حزت فى نفسه ، ولكنه وجد الكثير من السلوى فى أنه يلتقى هنا بأناس
يجرى عليهم ، على الأقل على قدر ما يبدو فى الظاهر ، شئ شديد الشبه
بما يجرى عليه ، فهو يستطيع لذلك أن ينضم اليهم وأن يتفاهم معهم فى
كثير من الأمور لا فى بعضها فقط كما هى الحال مع فريدا . وهو اذا كان
قد فقد الأمل فى اصابة نجاح عن طريق سعاية برناباس ، فهو يقترب
من برناباس هنا فى القرية اقترابا يتزايد كلما يتزايد ما يلقاه برناباس
من سوء ، وما كان ك قد فكر قط فى ان هناك مسعى تعيسا ينطلق من
القرية مثل مسعى برناباس وأخته . على ان هذا المسعى كان بطبيعة الحال
أبعد ما يكون عن الوضوح ، ولعل محاولة توضيحه كانت ستظهره على
عكس ما يبدو الآن ، وما كان ينبغى على المرء أن يدع ما فى شخصية أولجا
من براءة أو نحوها يغويه توا وينتهى به الى الايمان بصدق برناباس .

وأردفت أولجا :

— وبرناباس يعرف المقالات التى تتناول شكل كلم معرفة جيدة
جدا ، فقد جمع الكثير منها ، وقارن بينها — بل لعله جمع منها أكثر من
اللازم — ولقد رأى ذات مرة كلم فى القرية من خلال نافذة العربة أو لعله
اعتقد انه رآه وبهذا اكتمل له ما يكفى من أساس للتعرف على كلم ، ومع
ذلك — وكيف يمكنك أن تفسر هذا ؟ — فقد ذهب ذات مرة الى مكتب من
مكاتب المستشارية فى القصر فأشار له بعضهم على واحد من بين موظفين
كثيرين وقال له عنه انه كلم ، فلم يتعرف برناباس عليه ، وظل بعد ذلك
وقتا طويلا لا يستطيع أن يقنع نفسه بأن هذا الذى رآه هو كلم . واذا
أنت سألت برناباس عن وجه الاختلاف بين ذلك الرجل الذى رآه وبين
الصورة الشائعة عن كلم ، لم يستطع الاجابة ، أو أجاب فوصف الموظف
الذى رآه فى القصر ، واذا بالوصف يطابق تماما وصف كلم على نحو
ما نعرفه . وأقول لبرناباس « ومادام الأمر كذلك ، فلماذا تشك يا برناباس
ولماذا تعذب نفسك ؟ » فيبدأ ، وقد استبدت به حيرة مؤرقة ظاهرة
لا تخطئها العين ، فى تعداد صفات خاصة لموظف القصر ، يبدو عليه أنه
لا يحكيها عن خبرة بل يبتدعها ابتداء ، وهى على الرغم من ذلك طفيفة
— تتناول على سبيل المثال ايماءة خاصة بالرأس أو الصدرية غير المزررة —
لا يمكن للانسان أن يأخذها مأخذ الجد . أما الشئ الذى يتسم فى نظرى
بمزيد من الأهمية ، فطريقة كلم فى التعامل مع برناباس . وكثيرا

ما حدثنى برناباس عنها ، بل ووضحها لى بالرسم . لقد جرت العادة على اقتياد برناباس الى مكتب كبير من مكاتب المستشارية ، ليس مكتب موظف واحد ، بل هى حجرة تقسمها طوليا منصة عالية واحدة تمتد من حائط الى الحائط الآخر الى قسمين قسم ضيق لا يكاد ليبر فيه شخصين أحدهما على الآخر : هذا هو مكان الموظفين ، وقسم واسع هو مكان أصحاب الحاجات والمتفرجين والخدم والسعاة . وهناك على المنصة كتب كبيرة مفتوحة ، صفت أحدها بجوار الآخر ، والموظفون يقفون عند غالبيتها ويطلعون فيها . ولكن الموظفين لا يبقون عند كتاب واحد دائما ، بل يتبادلون ، لا الكتب ، بل الأماكن ، وأعجب شئ فى رأى برناباس هو مشهد الموظفين وهم يمرون بعضهم على البعض أثناء تبادل الأماكن فى هذه المساحة الضيقة . وهناك فى المقدمة موائد صغيرة منخفضة ملاصقة للمنصة يجلس إليها كتبة يكتبون ما يمليه عليهم الموظفون . وبرناباس يدهش دائما لطريقة الاملاء والكتابة . فالموظف لا يصدر أمرا وإضحا الى الكاتب بأن يكتب ما سيمليه عليه ، والموظف لا يملئ بصوت عال ، حتى ان الانسان لا يكاد يلحظ انه يملئ ، بل يراه وقد بدا عليه انه يقرأ كما كان يقرأ من قبل ، أو هو يهمس ، والكاتب يسمح همسه . وكثيرا ما يملئ الموظف بصوت شديد الانخفاض لا يستطيع الكاتب أن يسمعه وهو جالس فهو يهب واقفا ليتلقف الجملة ، ثم يجلس بسرعة ليكتبها ، ثم يهب واقفا مرة أخرى وهكذا دواليك . ما أغرب هذا ! انه شئ لا يكاد الانسان يفهمه . أما برناباس فلديه متسع من الوقت بطبيعة الحال ليشاهد هذا كله ، فهو يقف فى مكان المتفرجين ساعات بل أياما قبل أن تقع عليه نظرة كلم . وحتى عندما يراه كلم ، ويتخذ برناباس وضع الانتباه ، فان هذا لايعنى أن الأمر قد قضى ، فمن الممكن أن ينصرف كلم عنه الى الكتاب وينساه . وهذا ما يحدث كثيرا . فما هو عمل الساعى هذا الذى يتجرد الى هذا الحد من الأهمية ؟ ان الحزن لىتملك نفسى عندما يعلن برناباس فى ساعة مبكرة من الصباح انه ذاهب الى القصر . وأفكر فى هذا الطريق الذى يقطعه على ما يبدو فى غير نفع ، وفى اليوم الذى يبدو انه يضيعه ، وفى هذا الأمل الذى يبدو أنه لا جدوى وراءه . ما فائدة هذا كله ؟ وهنا الكثير من العمل فى صناعة الأحذية يتكدس ولا ينجزه أحد وبرونسفيك يلح على برناباس أن يقوم به .

فقال ك :

— حسن . اذن فبرناباس يتحتم عليه أن ينتظر طويلا الى أن يكلف بعمل . هذا شئ يصعب فهمه ، ويبدو أن عدد الموظفين هنا كبير مفرط

لا يمكن معه أن يكلف كل ساع بعمل ، ولا ينبغي أن يكون هذا سبب للشكوى فهذا أمر يستوى الجميع أمامه • ثم ان برناباس يكلف هو كذلك ببعض المهام ولقد أحضر الى أنا خطابين •

وقالت أولجا :

— من الممكن ألا نكون على حق فى الشكوى ، وبخاصة أنا التى لا أعرف الأمور الا سمعا والتى لا أستطيع باعتبارى بنتا أن أحسن فهمها كما يفعل برناباس الذى يخفى عني من حين لآخر بعضها • ولكن أسمع حكاية الخطابات ، وعلى سبيل المثال حكاية الخطابات التى تلقيتها أنت • ان برناباس لا يتلقى هذه الخطابات من كلم مباشرة ، بل من الكاتب • فى يوم من الأيام ، وفى ساعة من الساعات — ولهذا فان عمل برناباس وان بدا سهلا متعب مرهق لأن عليه أن ينتبه دائما وبغير انقطاع — يتذكره الكاتب ويشير اليه اشارة • ولا يبدو على كلم انه هو الذى اتخذ بهذا قرارا ، لأنه يكون عاكفا على القراءة فى كتابه ، أو يكون فى تلك اللحظة بالذات مشغولا بتنظيف نظارته — وهو ما يفعله كثيرا فى غير هذا الظرف — عندما يأتى برناباس ، ولعله ينظر اليه أثناء تنظيفه النظارة ، هذا اذا كان يستطيع الرؤية بدون نظارة ، وبرناباس يشك فى ذلك ، ذلك أن كلم يكون مطبقا جفنيه ويلوح كأنه ينام وكأنه ينظف النظارة فى المنام • وفى هذه الأثناء يبحث الكاتب بين الملفات الكثيرة والرسائل والخطابات التى يحتفظ بها تحت المنضدة خطايا ل — ك ، خطايا لم يكتبه لنوه ، بل هو خطاب يدل الظرف الذى يحتويه على انه قديم جدا ظل هناك زمنا طويلا • فاذا كان هذا الخطاب خطايا قديما فلماذا تركوا برناباس ينتظر فيطول انتظاره؟ ولماذا تركوك أنت أيضا تنتظر فيطول بك الانتظار؟ ثم لماذا تركوا الخطاب ينتظر حتى أصبح خطايا قديما ؟ وهم سيسئون الى سمعة برناباس فيظهر بمظهر الساعى الردىء البطيء • ان الكاتب يسهل الأمر على نفسه فيدفع بالخطاب الى برناباس قائلا « من كلم الى ك » وبهذا يكون على برناباس أن ينصرف • ويأتى برناباس الى البيت لاهثا يحمل الخطاب الذى حصل عليه أخيرا ، يحمله تحت قميصه على جسمه ، ويجلس هنا على الأريكة كما نجلس الآن ، فيحكى الحكاية ، ونبحث نحن الأمور تفصيلا ، ونقدر النتيجة التى وصل اليها ، ونتبين فى النهاية انها قليلة جدا ، وأنها مع قلتها مشكوك فيها ، فيضع برناباس الخطاب بعيدا ، فلا هو يجد رغبة فى توصيله ، ولا هو يحس رغبة فى النوم ، ويفكر فى الاشتغال بصناعة الأحذية ، ويظل طوال الليل جالسا على هذا الكرسي الصغير

هناك لا يغمض له جفن . هذا هو الأمر ، وهذه هي يا ك أسرارى ، ولعلك لا تدهش الآن لاعراض أماليا عنها .

وقال ك :

— وماذا عن الخطاب ؟

فقالت أولجا :

— آه الخطاب ؟ بعد وقت قد يطول الى أيام وأسابيع ، وبعد الحاح شديد على برناباس يأخذ الخطاب ويذهب ليسلمه . وهو فى هذه الأمور الظاهرية يتبعنى ويخضع لى الى حد كبير . وأنا أستطيع ، بعد أن يتبدد الانطباع الأول الذى أحدثته فى روايته ، أن أتمالك نفسى ، وهو ما يبدو عليه انه يستطيع فعله ، لأنه يعرف أكثر مما أعرف . فأقول له ما قلت له من قبل مرارا وتكرارا مثلا : « ماذا تريد بالضبط يا برناباس ؟ ماهى الوظيفة وماهى الأهداف التى تحلم بها ؟ أتريد أن تنتهى بتصرفك الى حيث تضطر الى تركنا وتركى نهائيا ؟ هل هذا هو هدفك ؟ ألا ينبغى على أن أصدق أنه من غير المفهوم انك تسخط هذا السخط البشع على ما قد وصلت اليه ؟ فانظر حواليك هل ترى بين جيراننا من وصل الى ماوصلت أنت اليه ؟ حقيقة ان وضعهم يختلف عن وضعنا ، فليس لديهم سبب للطموح الى أبعد مما تحقق لهم ، هذا الى أن المرء — حتى اذا لم يقارن حاله بحال الآخرين — لابد أن يرى أن كل شئ لديك يسير على خير ماينبغى . هناك عوائق ، وشكوك وألوان من الحية ، ولكن هذا لا يعنى الا ما كنا نعرفه من قبل ، وهو أنك لن تنال شيئا هدية ومنحة ، بل ينبغى عليك أن تنال كل صغيرة بالكفاح والنضال . وهذا سبب آخر لفخارك لا لياسك . ثم انك تناضل كذلك من أجلنا ، أليس كذلك ؟ ألا يعنى هذا بالنسبة اليك شيئا ؟ ألا يمنحك هذا قوة جديدة ؟ أما تحس بالاطمئنان لسعادتى وأكاد أقول كبريائى بأن لى أخوا مثلك ؟ انك تخيب رجائى لا أقول فيماحققت بالقصر ، بل فيما حققت أنا فيك . ان لك أن تدخل القصر ، وان لك أن تتردد على مكاتب المستشارية زائرا دائما ، وان لك أن تقضى الأيام الطوال فى نفس الحجرة التى يكون كلم فيها ، وانت سماع معترف بك رسميا ، وأنت صاحب حق فى الحصول على بدلة رسمية ، وأنت تأخذ خطابات هامة لتوصلها الى أصحابها ، أنت كل هذا ، ولك أن تفعل كل هذا ، ثم اذا بك تنزل الى هنا ، وبدلا من أن نتعاقب باكين من فرط السعادة ، اذا بك عندما ترانى تبدو كأنك تفقد كل شجاعة . انك تشك فى كل شئ ، ولا يستهويك الا العمل فى صناعة الأحذية ، انك لتترك

الخطاب ، ضمان مستقبلنا ، ولا تهتم به . ، هكذا أتكلّم معه ، وأظّل أَلح عليه وأكرّر عليه الكلام نفسه الأيام الطوال حتى يتناول الخطاب زافرا ويذهب به . ويبدو انه عندما يفعل ذلك لا يفعله نتيجة لتأثير كلماتي ، وانما هو يهفو الى القصر من جديد ، وأنى له أن يجروا على الذهاب الى هناك اذا لم ينجز المهمة .

وقال كـ :

— ولكنك على صواب فى كل ما تقولين له . لقد لخصت كل شيء تلخيصا صائبا صوابا يدعوا الى الدهشة . وانك لتفكرين تفكيرا واضحا وضوحا عجيبا .

فقالت أولجا :

— لا ، انك تغتر بكلامى ، ولعلّ أغره هو كذلك به . فما هذا الذى وصل اليه ؟ ان له أن يدخل الى مكتب من مكاتب المستشارية ، ولكن هذا المكتب ليس على ما يبدو من مكاتب المستشارية ، انه على الأحرى دهليز مكاتب المستشارية ، ولعله ليس حتى دهليزا ، بل ربما كان حجرة يحجز فيها كل الذين لا يسمح لهم بالدخول الى مكاتب المستشارية الحقيقية . وانه يتكلّم مع كلم . ولكن هل هو حقا كلم ؟ أليس هو على الأحرى رجل يشبه كلم ؟ لعله على أكثر تقدير سكرتير يشبه كلم قليلا ويجهتد فى أن يكون أكثر شبها به ، فيتصنع الأهمية على طريقة كلم الناعسة الحاملة . وهذه الناحية من شخصيته أسهل ناحية فى التقليد ، وهناك كثيرون يحاولون تقليده فيها ، وينصرفون بطبيعة الحال عن النواحي الأخرى فى شخصيته بدافع الحكمة والفطنة . وان رجلا كثيرا ما تحلق حوله الآمال ولا تصل اليه فيما ندر ، مثل كلم ، ليتخذ بسهولة فى خيال الناس صورا مختلفة . ولكلم على سبيل المثال هنا سكرتيرا فى القرية اسمه موموس . هكذا ؟ انت اذن تعرفه ؟ هذا الرجل يعتزل الناس أشد الاعتزال ، ولكننى رأيته عدة مرات . انه شاب قوى ، أليس كذلك ؟ يعنى أنه لا يشبه كلم بداهة بحال من الأحوال . ومع ذلك فيمكنك أن تجد فى القرية أناسا ، يقسمون الايمان المغلظة على أن موموس هو كلم . وهكذا يعمل الناس أنفسهم على احداث الاضطراب فى أنفسهم . وهل تختلف الحال فى القصر عنها هنا ؟ لقد قال بعضهم لبرناباس ان ذلك الموظف هناك هو كلم ، والحقيقة أن ثمة شبها بين الاثنين ، ولكنه شبه لا يفتأ برناباس يشك فيه . وكل شيء يدعم شكه وارتياحه . فهل من المعقول أن يزوج كلم بنفسه فى هذه الحجرة العامة بين الموظفين الآخرين واضعا

القلم خلف صيوان اذنه ؟ هذا شيء مستبعد أشد الاستبعاد . وكثيرا ما قال برناباس بطريقة صبيانية - وهذه نزوة لا ريب فيها - ان هذا الموظف يشبه كلم أشد الشبه . ولو كان يجلس فى غرفته الخاصة ، الى مكتبه وكان اسمه مكتوبا على بابه ، لما ساورتنى الشكوك . هذا كلام صبياني ، ولكنه معقول . ولو استعلم برناباس ، عندما يكون هناك ، لدى الكثيرين عن حقائق الأمور ، لكان ذلك أكثر معقولة . وهو يقول ان الحجرة تغص بالناس . وحتى اذا لم تكن معلوماتهم أكثر يقينا من معلومات ذلك الرجل الذى أشار له ، دون ما سؤال منه ، الى كلم ، فانها ستؤدى فى تنوعها الى نقاط ارتكاز ومقارنة أيا كانت . وليست هذه فكرتى ، بل فكرة برناباس ، ولكنه لا يجزئ على تنفيذها ، خوفا من أن يفقد وظيفته نتيجة لمخالفة غير مقصودة للوائح لا علم له بها ، فهو لا يجزئ على الحديث الى آخرين فى هذا الأمر لشدة خوفه . وان هذا الخوف فى الحقيقة لحوف مؤسف - وانه ليوضح لى مركزه توضيحا دونه كل وصف . ما أشد ما يلوح له كل شيء هناك مربيا مخيفا ، اذا كان لا يجزئ حتى على فتح فمه بسؤال بريء . وأنا عندما أفكر فى هذا ، ألوم نفسى لأننى أدعه يذهب وحده الى هذه الأماكن المجهولة التى تجرى فيها الأمور على هذا النحو ، فيضطر - وهو فى الحقيقة رجل أقرب الى التهور منه الى الجبن - على ما يبدو الى الارتعاد من الخوف .

فقال ك :

- انك تصلين هنا ، على ما اعتقد ، الى النقطة الحاسمة . هذه هي الحقيقة . اننى أعتقد أننى أرى الأمور بوضوح بعد كل هذا الذى رويته . ان برناباس صغير على هذه المهمة . ولا يمكن أن يأخذ الانسان شيئا مما يحكيه ، مأخذ الجد ، هكذا بكل بساطة . فما دام هو يذوب هناك من فرط الخوف ، فانه لا يستطيع أن يلاحظ ما يعرض له ، فاذا ما اجبره أحد هنا على الحديث ، فلن يقوم حديثه الا على حكايات خرافية مضطربة . وأنا لا أعجب لذلك . ان الخوف من السلطات شيء غريزى فيكم هنا ، وانه ليغرس فيكم طوال حياتكم بشتى الطرق ومن كافة النواحي ، وأنتم تعينون على ذلك وتسرونه ما استطعتم . ومع ذلك فأنا لا أعترض على ذلك فى أساسه بشيء ، فاذا كانت السلطات طيبة ، فلم لا يحترمها الانسان ؟ ولكن ما ينبغى أن تبعثوا فجأة بشاب غريب مثل برناباس لم يتجاوز حدود قريته الى القصر ، وتطالبوه بأن ينقل لكم بصدق ما يعرض له ، وتفسروا كل كلمة من كلماته وكأنها من كلمات الوحى وتربطوا مصير حياتكم بهذا التفسير . ليس هناك خطأ أشد من هذا . ولقد تركته

أنا ، يضللنى ، وعقدت عليه صنوفا من الأمل ، وقاسيت منه ضروبا من الحيلة ، وكان الأمل والحيلة لا يقومان الا على أساس كلماته ، أى انهما لم يكونا يقومان على شيء ..

وصممت أولجا • وراح ك يقول :

— لن يكون من السهل على أن أخطئك فى الثقة التى تثقنيها فى أخيك ، فأنا أرى كيف تحبينه ، وأرى ما تنتظرينه منه • ولكنى فاعل لأسباب كثيرة من بينها على الأقل ، حبك وآمالك • فهناك شيء — ونست أعرف ما هو — يعوقك دائما عن أن تتبينينى تماما لا ما قد بلغه بل ما قد ناله منحة • ان له أن يذهب الى مكاتب المستشارية ، أو اذا شئت الى دهليز ، اذن فهو دهليز ، ولكن هناك أبوابا تؤدي الى ما بعدها ، وحواجز يمكن اجتيازها لمن قدر له ذلك • فأنا على سبيل المثال لا أستطيع ، على الأقل مؤقتا ، أن اطا هذا الدهليز بحال من الاحوال • وأنا لا أعرف مع من يتكلم برناباس هناك ، ربما كان ذلك الكاتب أخط الحدم ، وحتى لو كان أخط الحدم ، فهو يستطيع أن يؤدي الى من يستطيع أن يذكر اسمه ، واذا لم يكن يستطيع أن يذكر اسمه ، فانه يستطيع على الأقل أن يحيل المرء على من يستطيع ذكر اسمه • ومن الممكن ألا يكون بين من يقال انه كلم وبين كلم الحقيقى شيء مشترك على الاطلاق ، وربما كان للشبه وجود الا أمام اضطراب عيني برناباس العمياوين ، وربما كان هذا الرجل أخط الموظفين درجة ، وربما لم يكن موظفا على الاطلاق ، بل كان رجلا يقوم بمهمة ما يقف من اجلها الى المنصة ، فيقرأ شيئا ما فى كتابه الكبير ، ويهمس بشيء ويفكر فى شيء ما ، عندما تقع نظرتة بعد حين على برناباس ، وحتى اذا لم يكن هذا صحيحا ، ولم يكن هو ولم يكن أى فعل من أفعاله يعنى شيئا ، فربما أوقفه بعضهم هناك لغرض ما • وأنا أعنى بهذا كله ان هناك شيئا ما ، شيئا ما يعرض على برناباس ، شيئا ما على الأقل ، أما ان برناباس لا يصل به الشك والخوف واليأس فذنبه هو وحده • وأنا فى هذا لا أزال أعتمد على أساس الحالة المضطربة أشد الاضطراب بل المستحيلة أشد الاستحالة • فانا نمسك بالخطابات بين أيدينا ، وأنا لا أثق فيها كثيرا ولكننى أثق فيها على أية حال أكثر من كلمات برناباس • وقد تكون هذه الخطابات قديمة ، عديمة القيمة ، أخرجت من بين كومة من خطابات هى كذلك عديمة القيمة ، أخرجت بلا اختيار وبلا فهم يزيد على فهم العصافير الملونة عندما تستخرج بمقارها فى سوق العيد من بين كومة من الأوراق الورقة التى تحمل بخت هذا أو ذاك من الناس ، قد يكون أمر هذه

الخطابات على هذا النحو ، ولكنها على الأقل تشير الى عمل اشارة ما ، وهذه الخطابات على ما يبدو لى ، وان لم يكن من المؤكد إنها لصالحى ، وهى كما شهد رئيس مجلس القرية وزوجته ممضاة من كلم بيده ، وتحمل ، على ما يرى رئيس مجلس القرية أيضا ، أهمية كبيرة وان كانت أهمية خاصة وقليلة الوضوح .

وسألت أولجا :

١ - هل قال رئيس القرية هذا ؟

فأجاب ك قائلا :

- نعم ، هذا هو ما قاله رئيس مجلس القرية .

فقال أولجا بسرعة :

- سأحكى ذلك لبرناباس فانه سيثبته جدا .

فقال ك :

- انه ليس بحاجة الى التشجيع ، وان تشجيعه لا يتم الا بأن تقول له انه على حق وان عليه أن يستمر على طريقته الحالية ، على أن يعرف انه لن يصل بها الى شيء أبدا . انك تستطيعين أن تشجعى انسانا معصوب العينين تشجيعا شديدا على النظر من خلال العصابة ، فلن يرى شيئا أبدا . انه لن يستطيع الرؤية الا بعد أن تنزع عنه العصابة . ان برناباس يحتاج الى المساعدة لا الى التشجيع . عليك أن تتصورى الوضع : السلطات ترتفع هناك عالية بضخامتها التى تستعصى على البيان - ولقد كنت أظن قبل قدومى الى هنا اننى أكون عنها صورة تقريبية . . وما أشد سداجة هذا الظن - هناك اذن السلطات ، وهذا هو برناباس يواجهها وحده ، ليس هناك غيره ، يواجهها وحده على نحو يثير الشفقة ، وفي هذا شرف فارط له اذا لم يكن سيمضى حياته كلها متواريا قابعا فى ركن مظلم من أركان المكاتب .

فقال أولجا :

- لا تظن يا ك أننا نقلل من شأن ثقل المهمة التى تولاهها برناباس اننا لا نتجرد من احترام السلطات ، ولقد قلت هذا أنت بنفسك .

فقال ك :

- انه احترام فى المكان الخطيء . ان هذا الاحترام يجرى المقصود منه من الكرامة . فهل هذا احترام ، اذا كان برناباس يسئ استخدام منحة الدخول الى ذلك المكان ليقضى هناك الايام دون أن يفعل شيئا ،

أو كان ينزل الى هنا ويشك فى أولئك الذين كان يرتعد حيالهم أو ينتقص منهم ، أو كان لأسباب من الشك أو التعب يهمل توزيع الخطابات أو لا يعجل بنقل الرسائل التى حمل بها ؟ ليس هذا إحتراما • على أن اللوم لا يقتصر عليه ، انه يشملك أنت كذلك يا أولجا ، ولا يمكننى أن أعفيك منه • فأنت على الرغم من أنك تظنين أنك تكتين الاحترام للسلطات ، ترسلين برناباس بشبابه واهماله وضعفه الى القصر ، أو أنت على الأقل لم ترديه عنه •

فقالت أولجا :

— اننى كذلك أوجه منذ وقت طويل الى نفسى اللوم الذى توجهه أنت الى • ولكن لا ألوم نفسى على أنى أرسلته الى القصر ، فانا لم أرسله فقد ذهب هو ذاته من تلقاء نفسه الى هناك ، ولقد كان ينبغى على أن أحول بينه وبين ذلك بكل الوسائل : بالقوة ، بالمكر ، بالاقناع • كان ينبغى على أن أمنعه • وحتى اذا كنت لأتخذ اليوم فى هذا الأمر قرارا ، وأحسست محنة برناباس ومحنة أسرتنا كما أحسست بها فى ذلك الوقت ، اذا كنت اليوم لأتخذ هذا القرار ، وقد وعى برناباس المسؤولية كلها والخطر كله ، وأصبح ينصرف عني مبتسما رقيقا ليذهب الى هناك ، فلن أقرر منعه على الرغم من خبرات هذه الفترة الماضية كلها ، وأظن أنك لو كنت مكانى لما تصرفت على نحو يختلف عن تصرفى • انك لا تعرف محنتنا ، ولذلك فأنت تظلمنا ، وتظلم بخاصة برناباس • لقد كنا قيما مضى أكثر أملا منا الآن ، ولكن أملنا لم يكن فى ذلك الوقت كبيرا ، كانت محنتنا كبيرة وظلت كبيرة • ألم تقص عليك فريدا شيئا من أخبارنا ؟

— تلميحات • لم تقل لى شيئا محددًا • ولكن اسمكم يكفى وحده لاثارتها •

وقالت أولجا :

— وصاحبة الحان كذلك لم تقص شيئا ؟

— لا ، لم تقل شيئا •

— ولم يقص عليك أحد غيرهما شيئا ؟

— لا ، لا أحد •

فقالت أولجا :

— طبعا ، وكيف يمكن أن يحكى أحدهم شيئا ؟ ان كل واحد يعرف عنا شيئا ، وهو اما يعرف الحقيقة على قدر بلوغ الناس اياها ، واما على الأقل شائعة متناقلة أو مخترة فى غالب الأحوال ، وكلهم يفكرون فينا

أكثر مما ينبغي ، ولكننا لا نحكي هذه الأشياء لأحد ، فالجميع يخافون من بلوغها ألسنتهم . وهم في هذا على حق . وهى أشياء من الصعب التعبير عنها ، حتى حيالك يا ك ، وأليس من المحتمل أن تنصرف أنت بعد سماعها وتعرض عنا على الرغم من أنها على ما يبدو لا تمسك الا قليلا ؟ وهكذا نكون قد فقدناك ، أنت الذى - ودعنى أعترف لك بهذا - تكاد تعنى الآن بالنسبة الى أكثر مما كانت تعنيه بالنسبة الى خدمة القصر . ومع ذلك - وهذا التناقض يؤرقنى المساء بطوله - ينبغي أن تعرف هذه الأشياء ، لأنك ان لم تعرفها ، لن تبصر بوضعنا ، وسنظل ظالما لبرناباس وهو ما سيحز فى نفسى خاصة ، وسنظل نفتقر الى الاتفاق التام ، ولن تستطيع أنت مساعدتنا ، ولن تستطيع تقبل مساعدتنا التى تفوق المألوف . ولكن هناك سؤالاً أحب أن أطرحه عليك : هل تريد أن تعرف ؟ ..

فسأل ك :

- لماذا توجهين الى هذا السؤال ؟ اذا كانت هذه الأشياء ضرورية فانا أريد أن أعرفها . ولكن لماذا تسألين على هذا النحو ؟

فقالت أولجا :

- من تأثير الحزبيات . انك تنحرف الى أمورنا بريئا ، ولست أكثر انثما من برناباس .

فقال ك :

- احكى بسرعة ، أنا لست خائفا . انك بخوفك النسائى تجعلين الأمر أكثر سوءا مما هو .

سر أماليا

وقالت أولجا :

- احكى أنت بنفسك . والموضوع يبدو فى غاية البساطة . . . والانسان لا يفهم لأول وهلة كيف يمكن أن تكون له أهمية كبيرة . هناك موظف كبير فى القصر اسمه سورتينى .

فقال ك :

- لقد سمعت به ، ولقد لعب دورا فى استدعائى الى هنا .

فقالت أولجا :

- لا أعتقد . فان سورتينى لا يكاد يظهر للرأى العام . ألا تخلط بينه وبين سوردينى ، بالدال لا بالتاء ؟ ..

فقال ك :

– أصبت • لقد قصدت سوردينى •

فقال أولجا :

– نعم ، سوردينى مشهور جدا ، انه واحد من أنشط الموظفين ، وهم يحكون عنه الكثير • أما سوردينى فهو على العكس رجل شديد الاعتزال والكثيرون لا يعرفونه • ولقد رأيته للمرة الأولى والأخيرة قبل ثلاثة أعوام • كان ذلك فى الثالث من يولييه عند الاحتفال الذى أقامه اتحاد رجال المطافىء ، وكان القصر مشتركا فى الاحتفال وقدم مضخة حريق جديدة هدية بهذه المناسبة • واشترك سورتينى فى تقديم المضخة ، ويقال انه يشتغل فيما يشتغل بموضوعات اطفاء الحريق (وربما حضر سورتينى الاحتفال نائبا عن موظف آخر – فالموظفون كثيرا ما ينوب أحدهم عن الآخر ولهذا كان من الصعب على الانسان أن يعرف اختصاص هذا أو ذاك الموظف) • وكان يحضر الاحتفال بطبيعة الحال آخرون ، موظفون وخدم وكان سورتينى يتخذ مكانه فى أقصى الخلف طبقا لحلقه وطباعه • وهو رجل قصير ضعيف غارق فى التفكير ، ولقد لفت نظر جميع من لمحوه شكل ثنيات جبهته فكل هذه الثنيات ، وهى كثيرة على الرغم من أنه لم يتجاوز الأربعين ، تتجه فى خطوط مستقيمة على شكل المروحة من جبينه الى عظمة أنفه ، اننى لم أر شيئا من هذا القبيل قط • كان هذا اذن هو الاحتفال • وكنا ، أماليا وأنا ، ننتظر الاحتفال بشوق قبل أن يقام بأسابيع ، وهىأنا ملابس الخروج وجددنا فيها ، وكان ثوب أماليا خاصة جميلا ، كانت البلوزة البيضاء الفضفاضة مرفوعة من الأمام الى أعلى • وكانت تتحلى بشريط من الدانتيللا استعارته أمى لهذا الغرض ، ولقد استبد بى الحسد حتى اننى قضيت نصف الليلة السابقة على الاحتفال أبكى • فلما جاءت صاحبة حان الجسر صباحا لتشاهدنا •

وسأل ك :

– صاحبة خان الجسر ؟

فقال أولجا :

– نعم ، وكانت ترتبط بنا برباط صداقة قوية • جاءت ، واعترفت بأن أماليا حظيت بأكثر منى ، وأقرضتنى عقدها المصنوع من العقيق البوهيمى لتهدئنى • فلما اكتمل استعدادنا وتهيأنا للخروج ، وكانت أماليا تقف أمامى والجميع يعبرون عن اعجابهم بحسنها ، وقال والدنا « اذكروا كلمتى هذه ، ستنال أماليا اليوم خطيبا » ، انتزعت – ولا أعرف

لماذا - العقد الذى كنت فخورة به من جيدي وأبسته أماليا ، ولم أعد أحسدها . لقد انحنيت أمام انتصارها ، واعتقدت أن على الجميع أن ينحنوا أمامها ، وربما فوجئنا فى ذلك الوقت بأنها بدت على هيئة غير التى عهدناها ، فهى فى الحقيقة لم تكن جميلة ، ولكن نظرتها الكئيبة التى احتفظت بها على هذا النحو منذ ذلك الوقت ، تجاوزتنا عالياً . فاذا بنا ننحنى أمامها بمعنى الكلمة تقريباً وعلى غير إرادة منا . ولقد لاحظ الجميع ذلك ، لاحظته لازيمان وزوجته اللذان أتيا ليأخذانا معهما .

وسأل ك :

- تقولين لازيمان ؟ ..

وقالت أولجا :

- نعم ، لازيمان . لقد كنا فى ذلك الوقت فى مركز مرموق ، وما كان يمكن على سبيل المثال أن يبدأ الحفل بدوننا ، لأن والدنا كان الرئيس الثالث للتدريب فى المطافىء .

وسأل ك :

- هل كان الوالد فى ذلك الوقت قويا الى هذا الحد ؟

وهنا تساءلت أولجا وكأتهما لم تفهم تماماً ما قاله ك :

- والسدى ؟ ..

ثم راحت تقول :

- لقد كان قبل ثلاثة أعوام لا يزال شاباً تقريباً ، يدل على ذلك مثلاً أنه عندما حدث حريق فى حانة السادة حمل أحد الموظفين ، وهو جالاتر البدین ، على ظهره وجرى به الى الخارج . ولقد كنت أنا حاضرة عندما حدث ذلك ، والحقيقة انه لم يكن هناك خطر حريق بمعنى الكلمة ، كل ما حدث أن الحطب الجاف المجاور للمدفأة بدأ يشير الدخان ، ولكن جالاتر خاف وصاح من النافذة طالباً النجدة ، وأتت فرقة المطافىء وكان على بى أن يحمله الى الخارج على الرغم من أن النار كانت قد أطفئت تماماً . ذلك أن جالاتر رجل ثقيل الحركة وعليه أن يلزم الحيطه فى مثل هذه الأمور ، وأنا لا أحكى هذا الا من أجل أبى ، ولم يمر منذ ذلك الوقت أكثر من ثلاث سنوات ، فانظر اليه كيف يقعد هناك .

وعند ذاك لاحظ ك أن أماليا قد عادت الى الحجرة ، ولكنها كانت عند منضدة الوالدين بعيدة عنهما ، وكانت تطعم بيدها الأم التى لم تكن تستطيع تحريك ذراعيها المصابين بالروماتزم ، وكانت فى الوقت نفسه

تكلم الأب فتحضه على أن يصبر قليلا الى أن تأتي اليه فتطمعه هو أيضا بيدها . ولكنها لم تصب مع الأب نجاحا ، لأنه وقد دفعه نهمه الى الوصول الى الحساء تغلب على ضعفه الجسماني . وحاول أن يمتص الحساء من المعلقة ثم حاول بعد ذلك أن يشربها من الصحن ، ثم أخذ يزمجر غاضبا لأنه فشل في هذا وذاك ، كانت المعلقة لا تصل الى فمه الا بعد أن تكون قد فرغت تماما ، ولم يكن يبلغ بفمه الصحن ، بل كان يغمس شاربته المتدلى في الحساء الذي كان يتساقط ويتناثر في كل اتجاه الا في اتجاه الفم . وعاد ك يسأل ، ولم يكن يحس حيال العجوزين وحيال ركن منضدة العائلة كله بالشفقة بل بالنفور والنفور فقط :

— أعوام ثلاثة فقط أحالته الى هذه الهيئة ؟

فكانت أولجا ببطء :

— ثلاثة أعوام ، وإذا أردنا الدقة ساعات قلائل من حفل ، كان الحفل مقاما على مجر خارج القرية يطل على جدول ، وكان الزحام شديدا عندما وصلنا ، وكان هناك شعب كثير أتى من القرى المجاورة ، وكان الصخب عنيفا اضطربت من أثره أنفاسنا أشد الاضطراب . واقتادنا الوالد في البداية بطبيعة الحال الى مضخة الحريق ، وما أن رأها حتى أخذ يضحك من شدة الفرح ، كانت المضخة الجديدة تسعده ، وشرع يتحسسها ويشرح لنا ، ولم يكن يحتمل اعتراضا أو يرضى بتحفظ . وكان يلزمنا بأن ننحنى تحت المضخة بل وبأن نزحف تحتها تقريبا لنرى الأجزاء السفلية منها ، فلما تقاعس برناباس عن ذلك ، انهال الوالد عليه ضربا . أما أماليا فلم تهتم بالمضخة ، وظلت واقفة معتدلة القائمة في ثوبها الجميل ولم يجروا أحد على أن يقول لها شيئا ، أما أنا فجريت اليها عدة مرات ولمستها من تحت ذراعها ولكنها ظلت صامتا . ولا أزال الى اليوم أجهل كيف وقفنا أمام المضخة هذه المدة الطويلة ، ولم نتبين ، الا عندما انصرف الوالد عنها ، ان سورتينى كان هناك ، ويبدو أنه كان يقف طوال الوقت وراء المضخة مستندا الى رافعة من روافعها ، والحقيقة أن الصخب كان فظيما وكان أكثر من المألوف في مثل هذه الاحتفالات . ذلك أن القصر أهدى الى فرقة المطافئ بعض الأبواق ، وكانت آلات خاصة يستطيع الانسان بأقل جهد أن يخرج منها أعنف الأنغام — حتى الأطفال كانوا يستطيعون ذلك بسهولة . وكنا عندما نسمعها نظن أن الأتراك يحيوهم قد أتوا بالدمار ، ولم نكن نستطيع الاعتقاد عليها ، بل كنا كلما نفخ فيها بعضهم ننتفض فزعاً . وكانت الأبواق جديدة ، ولهذا كان كل واحد

يريد أن يجربها ، وكان الحفل حفلا شعبيا ، ولهذا سمحوا للجميع بذلك . وكان حولنا بعض نافخي الأبواق - وربما اجتذبتهم أماليا بفتنتها - وهكذا كان من العسير على الانسان أن يجمع شتات نفسه ، ثم كان أمر الوالد لنا بالانتباه الى المضخة ، وكان هذا أقصى ما يستطيعه الجهد . وكانت النتيجة اننا ظللنا وقتا طويلا طويلا يفوق المألوف لا نتنبه الى سورتينى الذى لم نكن قد رأيناه من قبل . وأخيرا همس لازيمان الى أبى - وكنت واقفة قريبة منه : « سورتينى هناك ! » وانحنى أبى انحناء شديدة . وأشار الينا منفعلا أن ننحنى نحن كذلك . وكان أبى قبل أن يرى سورتينى يبجله كخبير فى شئون الاطفاء ويتحدث عنه فى البيت كثيرا ، ولهذا كانت رؤية سورتينى نى الواقع شيئا مفاجئا وعظيم الأهمية فى الوقت نفسه . أما سورتينى فلم يهتم بنا - ولم يكن هذا تصرفا ينفرد به سورتينى ، فقد درج غالبية الموظفين على عدم الاكتراث بالناس عندما يظهرون فى حفل عام - ثم انه كان متعبا ، ولم يكن يبقيه فى الحفل الا واجب يفرضه عليه عمله . وليس أسوأ الموظفين هم وحدهم الذين يتأففون من مثل هذه الواجبات التمثيلية ، واختلط موظفون آخرون وخدم بين الشعب لا لشيء الا لأنهم كانوا حاضرين . أما هو فقد بقى عند المضخة ، وكان ينفر بصمته كل من حاول أن يقترب منه بالتماس أو تملق وهكذا فانه لم يلحظنا الا بعد أن كنا قد لاحظنا وجوده بوقت طويل . فلما فرغنا من انحناءتنا المليئة بالاحترام وحاول أبى أن يعتذر عنا ، نظر الينا ، نظر الينا الواحد تلو الآخر ، وبدأ عليه كأنه ينقث الزفرات استياء من أن كل واحد منا يتبعه آخر ، حتى توقف عند أماليا التى اضطرت أن يرفع بصره اليها لأنها كانت أطول منه بكثير ، وإذا به ينبهر ويقفز فوق مجر عربة المضخة ليقترّب من أماليا . ولقد أخطأنا نحن فهم مسلكه فى بداية الأمر وهممنا بالاقتراب منه تحت قيادة الوالد ، ولكنه ردنا رافعا يده وأشار الينا أن نتصرف . كان هذا هو كل ما حدث . وأخذنا نداعب أماليا كثيرا قائلين لها انها قد وجدت الخطيب بالفعل ، وظللنا طوال الوقت فى عصر الوقت ذلك اليوم فرحين لجهلنا أشد الفرح . ولكن أماليا كانت أكثر صمتا مما عهدناها . وقال برونسفيك : « لقد وقعت فى غرام سورتينى وملك عليها نفسها وحسها . وكان برونسفيك غليظا قليل الفهم للشخصيات من نوع أماليا . ولكن ملاحظته هذه لاحت لنسا فى تلك المرة وكأنها توشك أن تكون صائبة . وكنا فى ذلك اليوم فى نشوة فقد شربنا جميعا ، الا أماليا ، من نبذ القصر الأحمر الحلو حتى أوشكنا أن نفقد الوعي عندما وصلنا الى البيت فى منتصف الليل .

وسأل ك :

— وماذا عن سورتينى ؟

فقالت أولجا :

— آه ، سورتينى ! لقد رأيت سورتينى فى الاحتفال أثناء مرورى مراراً ، كان يقعد على سجر عربية المضخة عاقدا ذراعيه على صدره ، وظل هكذا حتى أتت عربية القصر لتأخذه • ولم يذهب حتى الى تدريبات فرقة المطافئ التى كان أبى متفوقا فيها على كل الرجال من سنه على أمل أن يراه سورتينى •

وسأل ك :

— وألم تسمعوا منه شيئا بعد ذلك ؟ ويبدو لى أنك تكنين لسورتينى

احتراما عظيما ••

فقالت أولجا :

— نعم ، احتراما •• نعم •• لقد سمعنا منه شيئا ! ففى الصباح التالى أيقظتنا من نومنا المخمور صيحة من أماليا ، أما الآخرون فقد خروا من فرط النعاس الى سررهم على الفور ، وأما أنا فقد كنت فى تمام اليقظة فجريت الى أماليا • كانت تقف عند الشباك وتمسك بخطاب فى يدها ، كان أحد الرجال قد دفع به اليها منذ وقت قليل من خلال النافذة ، وكان الرجل لا يزال يقف منتظرا الرد • كانت أماليا قد قرأت الخطاب — وكان الخطاب قصيرا — وكانت تمسك به بيدها التى تدلت خائرة • كم كنت أحبها خاصة عندما تكون خائرة على هذا النحو ! وركعت بجوارها وقرأت الخطاب راحة • وما كدت أفرغ حتى جذبته أماليا اليها بعد أن ألقت على نظرة سريعة ، ولم ترض بالعودة الى قراءته ، بل مزقته وألقت به ممزقا فى وجه الرجل المنتظر وأغلقت النافذة • كان هذا هو الصباح الحاسم • وأنا أصفه بأنه حاسم ، ولكن كل لحظة من لحظات عصر اليوم السابق كانت حاسمة بالقدر نفسه •

وسأل ك :

— وماذا كان بالخطاب ؟

فقالت أولجا :

— آه ، لم أقص عليك ذلك بعد • كان الخطاب من سورتينى وكان موجها الى البنات ذات العقد العقيقى • أما المضمون فلا أستطيع أن أرويه بالضبط • ولكنه كان يحتوى على أمر من سورتينى اليها بالحضور اليه فى حانة السادة ، والحضور على الفور لأنه كان ينوى الانصراف بعد نصف

ساعة • وكان الخطاب مكتوبا بأكثر العبارات سفالة ، عبارات لم أسمع بها من قبل ، وانما خمنت معناها من السياق فلم أفهم الا نصفه • ولو أن انسانا لا يعرف أماليا وقرأ الخطاب ليقن من أن هذه البنت التى يجرو بعضهم ويكتب اليها على هذا النحو ، بنت فاجرة هى التى لم تكن لها علاقة بأحد من قبل • ولم يكن الخطاب خطابا غراميا ، ولم يكن فيه لفظ تدليل أو مداعبة ، والظاهر أن سورتينى كان غاضبا لأن منظر اماليا استبد به وعطله عن أعماله • ولقد ذهبنا نحن فيما بعد فى تفسير ذلك الى أن سورتينى كان ينوى على ما يبدو أن يسافر فى الليلة نفسها عائدا الى القصر ، وأنه انما بقى فى القرية بسبب أماليا ، فلما جاء الصباح وكان شديد الغيظ لأنه لم يتمكن حتى بالليل من نسيان أماليا ، كتب اليها هذا الخطاب • ان الانسان ليحس حيال الخطاب أول ما يحس بالغيظ حتى لو كان أشد الناس بلادة ، ولو تلقت الخطاب واحدة أخرى غير أماليا فربما غلب عليها الخوف من لهجته الغاضبة المهددة ، أما أماليا فكان الغيظ هو الذى تملكها فهى لا تعرف الخوف لا لنفسها ولا للآخرين • وبينما عدت أنا هامة الى السرير وأنا أعيد فى ذهنى جزءا من الجمل الختامية : « فعليك اذن أن تأتى فى الحال والا » • • بقيت أماليا على جلسة النافذة تنظر الى الخارج وكأنها تنتظر رسلا آخرين وكأنها مستعدة لكى تعاملهم على النحو نفسه •

وقال ك مترددا :

— هؤلاء هم اذن الموظفون • • هكذا يجد الانسان بينهم مثل هذه النماذج • • فماذا فعل أبوك ؟ أرجو أن يكون قد توجه بالشكاية الشديدة من سورتينى الى السلطة المختصة ، الا اذا كان قد فضل سلوك الطريق الأقصر والأضمن وذهب الى حان السادة • ان أشد ما فى الحكاية قبيحا ليس اهانة أماليا ، لأن تصحيحها ممكن ، وسهل ، وأنا لا أعرف لماذا تنسين اليها أهمية كبيرة مفروطة فى الكبر ، لماذا تذهبن الى أن سورتينى قد جرح أماليا بمثل هذا الخطاب الى الأبد ، اننى أكاد أفهم هذا من حكايتك ولكن هذا الأمر هو بالذات الأمر غير الممكن ، كان من الممكن ومن السهل أن يرضيها فتنسى الحادثة بعد أيام قليلة • والحقيقة أن سورتينى لم يفضح أماليا بل فضح نفسه ، ولذلك فأنا أرتعد لسورتينى ، وأرتعد أمام امكانية أن يكون هناك اساءة استخدام للسلطة يصل الى هذا الحد • • انما فشل فى هذه الحالة ، لأنه قيل مكشوبا واضحا لا وراء فيه ، ولأنه وجد فى أماليا عدوا ممتازا ، يمكن أن ينجح تماما فى آلاف الحالات الأخرى وأن يضلل الاعين حتى أعين الضحية ذاتها •

وقالت أولجا :

— اسكت .. ان أماليا تنظر الى هنا ..

كانت أماليا قد فرغت من اطعام الوالدين ، وبدأت تخلع عن الأم ملابسها ، فحلت أربطة الجلباب ، ووضعت ذراعى الأم حول رقبته ، ثم رفعت الأم قليلا وسحبت الجلباب برقة من تحتها ثم أقعدتها حيث كانت . أما الأب ، الذى كان دائما غير راض عن اهتمام أماليا بالأم قبله . ويبدو أن السبب فى ذلك أن الأم كانت أكثر حاجة الى العون منه — فقد حاول ربما عقابا لابتنته على ما تصور أنه بطء ، أن يخلع هو ملابسها بنفسه .. ولكنه لم يوفق فى ذلك على الاطلاق ، على الرغم من أنه بدأ بالشئ الهين التافه وهو الشبشب الواسع الذى كانت قدماء عائمات فيه ولم يستطع أن يسحبها منه ، واضطر وهو يحشرج حشرجة مبحوحة أن يصرف النظر عن ذلك وأن يعود فيستند الى ظهر كرسيه بجسمه المتخشب .

وقالت أولجا :

— انك لا تتبين الشئ الحاسم فى الموضوع . وربما كنت على حق فى كل ما ذهبت اليه ، ولكن الشئ الحاسم فى الموضوع هو أن أماليا لم تذهب الى حانة السادة . أما معاملتها للساعى فقد كان من الممكن التفاوض عنها والتصرف فيها وتضييع معاملها ، وأما عدم ذهابها الى هناك فقد أدى الى وقوع اللعنة على أسرتنا ، وأصبحت معاملتها للساعى بالتالى أمرا لا يقتبر ، بل انهم أبرزوه للناس وأجلوه محل الصدارة .

وصاح ك :

— كيف هذا .

ثم كتم صياحه على الفور عندما رفعت أولجا يديها متوسلة :
ثم أردف :

— لا يمكن أن تذهبي أنت ، الأخت ، الى أن أماليا كان ينبغي عليها أن تطيع سورتيين وأن تهرع الى جان السادة ؟ ..
فقال أولجا :

— لا ، عسى ألا يحوم حول مثل هذا الاشتباه .. كيف يمكنك أن تظن هذا الظن ؟ اننى لا أعرف انسانا يلزم الحق فى تصرفاته كما تلزمه أماليا فى كل ما تعمل . لو كانت قد ذهبت الى جان السادة لكان رأيي انها على حق فى الذهاب ، ولقد كان من البطولة انها أثبت الذهاب .. أما أنا ، فأعترف لك بصراحة ، لو اننى تلقيت مثل هذا الخطاب لذهبت ..

ولما استطعت احتمال الخوف من المستقبل • أماليا وحدها هي التي استطاعت احتماله • ولقد كانت هناك عدة مخارج يمكن التحايل عن طريقها كان يمكن على سبيل المثال أن تتزين فتاة أخرى وتتجمل - وكانت فترة قد مضت - وتذهب الى حان السادة لتتبين أن سورتينى قد انصرف ، ولعله قد انصرف بعد ارسال الساعى مباشرة ، وهذا شيء محتمل جدا لأن نزوات السادة نزوات طيارة • ولكنها لم تتصرف على هذا النحو ، ولم تفعل شيئا من قبيله ، فقد كانت تحس بالاهانة فى أعماقها ، فأجابت دون ما تحفظ • ولو انها تظاهرت بالطاعة ، وتجاوزت عتبة حان السادة لحظة ، لكان من الممكن درء المحنة ، فلدينا هنا محامون بارعون يعرفون كيف يخلقون من العدم كل ما يريده الانسان ، ولكننا لم نكن فى هذه الحالة نحتكم حتى على هذا العدم المفيد • بل على العكس كان هناك امتهان خطاب سورتينى واهانة الساعى •

فقال ك :

- وما حديثك عن المحنة ، وفيم كلامك عن المحامين ؟ فما يمكن أن تتهم أماليا أو تعاقب على تصرف سورتينى الاجرامى ؟

فقالت أولجا :

- بل • هذا ممكن • ولم يجر هذا بطبيعة الحال طبقا لقواعد التقاضى بل انهم لم يعاقبوها مباشرة ، بل عاقبوها بطريقة أخرى ، عاقبوها وعاقبوا أسرنا كلها ، ولعلك تبدأ الآن فى تبيان عنف هذا العقاب • • ان هذا يبدو لك ظلما وبشاعة ، ولكن رأيك هذا رأى فردى لا يشارك فيه أحد فى القرية ، وهو رأى يميل الينا كل الميل ، ويرجو أن يواسينا ولعله كان يصل الى هذه النتيجة لو لم يكن مبنيا على أخطاء واضحة جليلة . وفى امكانى أن أبرهن لك على هذا بسهولة ، واعدرنى اذا أنا تكلمت فى اثناء ذلك عن فريدا ، ولكن فريدا وكلم ، بغض النظر عن الصورة التى اتخذها أمرها فى النهاية • جرى بينهما شيء يشبه ذلك الذى جرى بين أماليا وسورتينى ، ولعلك تفزع فى البداية ، ولكنك لن تلبث أن ترى أن ما أقوله لك هو الصواب • وليس الأمر أمر تعود ، فان الانسان لا يمكن أن يتبدل الى هذا الحد نتيجة للتعود اذا كان الموضوع هو الحكم البسيط ، انما الأمر أمر نبذ الاخطاء •

فقال ك :

- لا يا أولجا • وأنا لا أعرف لماذا تزجين بفريدا فى الحكاية ، فهذه

حالة مختلفة كل الاختلاف ، فلا تخلطى هكذا أشياء لا صلة بينها أساسا
واستمرى فى قصتك .

فقلت أولجا :

أرجوك . لا تغضب منى إذا أنا أصررت على المقارنة ، وهناك بقية من
الأخطاء حتى فيما يتعلق بفريدا ، إذا كنت لا تزال تعتقد أن عليك أن
تدافع عنها فى هذه المقارنة . أنك لست بحاجة الى الدفاع عنها ، بل
ينبغى أن تمدحها . وأنا إذا كنت أقارن الحالتين فلست أقصد الى القول
انهما متساويتان ، انهما كالأبيض والأسود ، والأبيض هنا فريدا . وأسوأ
ما يمكن أن يحدث ، هو أن يضحك الانسان من فريدا ، كما أسأت أنا
أدبى - ثم ندمت بعد ذلك أشد الندم - وضحكت منها فى الحانة ، هذا
الى أن الضاحك هنا يضحك عن شر أو حسد ، ولكنه يضحك على أية حال ،
أما أماليا فلا يمكن للانسان أن يحتقرها ، الا إذا كان يرتبط بها برباط
القربة . ولهذا فان الحالتين مختلفتان أساسا كما تقول وان كانتا
متشابهتين .

فقال ك وهو يهز رأسه كارها :

- لئسنا متشابهتين . دعى فريدا جانبا . ان فريدا لم تتلق خطابا
نظيفا مثل ذلك الذى تلقته أماليا ، وفريدا أحبت كلم فعلا ، وعلى من يشك
فى هذا أن يسألها فهمى مازالت الى اليوم تحبه .

وسألت أولجا :

- وهل هذه اختلافات كبيرة ؟ ألا تعتقد أن كلم كان يمكنه أن يكتب
الى فريدا خطابا مماثلا ؟ ان السادة اذا تركوا مكاتبهم كانوا على هذا النحو
فاذا هم لا يعرفون كيف يحسنون التصرف فى الدنيا ، واذا هم يقولون
أبشع الكلام ، لا أقول كلهم ، بل أقول كثير منهم . ومن الممكن أن يكون
الخطاب الذى تلقته أماليا خاطرا خرج الى الورق دون وعى كامل بما ارتسم
على السطور من كلمات . وماذا نعرف عن خواطر السادة وأفكارهم ؟ ألم
تسمع بنفسك ، أو ألم تسمع بعضهم يحكى عن اللهجة التى كان كلم
يصطنعها مع فريدا ؟ والمعروف عن كلم أنه وقح جدا ، ويقال انه يظل
الساعات صامتا لا يتكلم ، ثم اذا به ينطق فجأة بوقاحة يرتعد لها
الانسان . أما سورتينى فلم يعرف عنه هذا ، هذا الى أنه غير معروف بصفة
عامة . والحقيقة أن الناس لا يعلمون عنه الا أن اسمه يشبه اسم
سوردينى . ولو لم يكن هناك هذا الشبه بين الاسمين لما عرفه على ما يبدو
أحد . وهو من حيث هو خبير فى شئون المطافىء يختلط على ما يبدو فى

تصور الناس بسوردينى والذى هو الخير الحقيقى فى شئون المطافىء .
والذى يلقى بالأعباء التمثيلية على سورتيينى مستغلا التشابه فى الاسم ،
حتى يعكف على عمله دون انقطاع . فاذا ما تملك رجل لا خبرة له بالدنيا
حب فتاة من القرية فجأة ، فان هذا الحب يتخذ بطبيعة الحال اشكالا أخرى
غير تلك التى يتخذها اذا تملك جارنا مساعد النجار . وينبغى أن يأخذ
الانسان فى اعتباره أن هناك بين الموظف وابنة صانع الأحذية فارقا كبيرا
ينبغى تجاوزه ، ولقد حاول سورتيينى تجاوزه على هذا النحو ، ولعل انسانا
غيره يحاول تجاوزه على نحو آخر . حقيقة انهم يقولون اننا جميعا نتبع
القصر وأنه لا فارق بيننا وانه ليس بيننا ما ينبغى التغلب عليه ، وربما
كان هذا صحيحا بصفة عامة ، ولكننا للأسف اوتينا فرصة لنرى أنه ،
عندما تدعو الحاجة اليه ، ليس صحيحا . ومهما يكن من أمر فان تصرف
سورتيينى سيبدو لك بعد هذا كله أكثر معقولة وأقل بشاعة ، وهو فى
الحقيقة اذا قورن بمسلك كلم أكثر معقولة ، ويمكن للانسان ، حتى اذا
كان مشاركا فى الموضوع عن قرب ، أن يتحملة على نحو ايسر بكثير . ان
كلم اذا كتب خطابا رقيقا فانه يكون أنكى من أوقع خطاب يكتبه سورتيينى .
وأرجو أن تفهمنى كما ينبغى ، اننى لا أجرؤ على الحكم على كلم ، اننى
أقارن فحسب لأنك تأبى المقارنة . أن كلم مثل القائد الذى يتأمر على
النساء ، فهو يأمر هذه ، ثم تلك أن تأتى اليه ، وهو لا يحتمل طويلة القامة
وما الى ذلك ، وهو يأمر بالانصراف كما يأمر بالحضور . آه ، ان كلم
لا يكلف نفسه مشقة كتابة الخطابات . وهل لا يزال يبدو من المقارنة
أن سورتيينى كان يفعل شيئا هائلا عندما جلس وهو الرجل الذى يعيش
حياة العزلة الكاملة والذى ظلت علاقاته بالنساء على الأقل مجهولة ، الى
المنضدة ويكتب بخط الموظفين الجميل خطابا ، خطابا بشعا ؟ واذا كانت
المقارنة لا تؤدى الى ظهور اختلاف فى صالح كلم ، بل العكس ، فهل كان
حب فريدا هو الذى السبب ؟ ان العلاقة بين النساء والموظفين فى اعتقادى
علاقة يصعب جدا ، أو على الأحرى يسهل دائما الحكم عليها . انها علاقة
لا تتجرد بحال من الأحوال من الحب . وليس هناك حب تعيس يكون
الموظفون طرفا فيه . وعلى هذا فليس من قبيل المدح أن يقول الواحد
عن بنت - وأنا لا أتحدث هنا عن فريدا وحدها - انها أسلمت نفسها لأحد
الموظفين لأنها تحبه . فالحقيقة أنها كانت تحبه ، وأنها أسلمت نفسها
اليه ، وليس فى هذا ما يمتدح . ولعلك تعترض بأن أماليا لم تحب
سورتيينى . آه ، انها لم تحبه ، بل ربما كانت تحبه ، ومن يستطيع
القطع بنعم أو لا ؟ حتى هى نفسها لا تستطيع . كيف يمكنها أن تظن
أنها لم تحبيه ، اذا كانت قد ردت بهذا العنف الذى لم يسبق على ما يبدو

أن عومل به موظف من قبل ؟ وبرناباس يقول انها حتى الآن ترتعد أحيانا للحركة التى أقفلت بها قبل ثلاث سنوات النافذة . وهذا صحيح ، ولهذا فلا يجوز أن يسألها الانسان ، فهى قد قطعت علاقتها بسورتينى ولا تعرف الا هذا ، انها لا تعرف هل كانت تحبه أو لا . أما نحن فنعرف أن النساء لا يرضون بحب الموظفين بديلا عندما يلتفت هؤلاء اليهن . انهن يحببنهم من قبل حتى اذا أنكرن ذلك انكارا ، وسورتينى لم يقف عند حد الالتفات الى أماليا ، انه قفز على مجر العربة عندما رآها ، قفز على مجر العربة بساقيه اللتين تخشبتا من كثرة الجلوس فى المكتب . ولكنك ستعترض قائلا ان أماليا شاذة نعم انها شاذة ولقد برهنت على ذلك عندما رفضت الذهاب الى سورتينى ، وفى هذا من الشذوذ كفاية . أما انها لم تحب سورتينى ، فهذا شذوذ يوشك أن يكون فاحشا ، ولا يكاد الانسان أن يفهمه . لقد أصبنا عصر ذلك اليوم بالعمى ، ولكننا رغم الغشاوة اعتقدنا اننا نلاحظ أن أماليا وقعت فى الحب ، وفى هذا دلالة على شيء من الفكر . فاذا نحن جمعنا هذا كله معا فما هو الفارق بين فريدا وأماليا ؟ انه فارق واحد ، وهو أن فريدا فعلت ما رفضته أماليا .

فقال ك :

— ربما . ولكن الفارق الرئيسى فى نظرى هو أن فريدا خطيبتى ، وأن أماليا فى الحقيقة لا تهمنى الا لأنها أخت برناباس ، ساعى القصر ، ولأن مقدراتها قد تكون متداخلة فى عمل برناباس . ولو كان أحد الموظفين قد أوقع بها ظلما صارخا ، كما كنت أتصور فى بداية الحكاية ، لاهتممت بها اهتماما كبيرا ، ولكن اهتمامى بها على اعتبار انها مسألة عامة ، لا مسألة آلام أماليا الخاصة . والآن تغيرت الصورة بعد قصتك بطريقة لا أفهمها كل الفهم ، ولكننى أجدها جديرة بالتصديق بما فيه الكفاية لأنك أنت التى تروين ، ولهذا فأنا أحب أن أتجاهل هذا الموضوع كلية ، فأنا لست من رجال المطافىء وفيهم يهمنى سورتينى ؟ ولكننى مهتم بفريدا ، ولهذا فأنا أدهش كيف تقومين ، أنت التى وثقت بك كل الثقة والتى أود أن أقيم على ثقتي فيك ، عن طريق الحديث عن أماليا بالهجوم الدائب على فريدا وتحاولين غرس الشك فى نفسى حيالها . وأنا لا أصدق أنك تفعلين هذا عن غرض ، أو عن غرض سيئ ، والا لكان على أن أنصرف . انك لا تفعلين هذا لغرض ما ، ولكن الظروف هى التى تضللوك وتسوقك الى هذا ، انك تحبين أماليا وتريدين لهذا السبب أن ترفعيها فوق كل النساء ، ونظرا لأنك لا تجددين فى أماليا من نواحي الفخار ما يكفيك لهذا الغرض ، فانك تستعينين على أمرك بتصغير النساء الأخريات . ان عمل

أماليا عجيب ، ولكنك كلما استرسلت فى الرواية ، كلما تضاءلت امكانية القطع بما اذا كانت أماليا عظيمة أو حقيرة ، ذكية أو غبية ، بطلة أو جبانة ، وهى تخفى دوافعها فى حنايا صدرها ولن يستطيع انسان أن يستخرجها . أما فريدا فلم تفعل شيئا عجيبا ، لقد اتبعت قلبها مع كل من انشغل به بنية طيبة ، هل هذا واضح ؟! انه صحيح وكل انسان يستطيع أن يتأكد من صحته . وليس فى هذا مكان للثرثرة الفارغة . أما أنا فلا أريد أن أحط من قدر أماليا ولا أن أدافع عن فريدا ، وانما أنا أريد أن أوضح لك موقفى من فريدا وأبين لك أن كل هجوم على فريدا يعنى هجوما على وجودى أنا . اننى أتيت الى هنا بمحض ارادتى ، واننى شيكنت نفسى هنا بمحض ارادتى ، أما كل ما حدث بعد ذلك وبخاصة كل تطلعاتى الى المستقبل - وهى ، وان كانت قاتمة ، موجودة - فمن أفضال فريدا على ، وهذا شىء لا يمكن أن يؤدى النقاش الى تبديده . حقيقة انه استقبلونى هنا على أساس اننى موظف مساحة ، ولكن هذا كان شيئا ظاهريا ، لقد كانوا يعيثون بى ، ولقد طردونى من كل بيت ، وهاهم أولاء يعيثون بى الآن كذلك . ولكن ما أشق ذلك ! لقد زدت حجما على نجوما ، وهذا شىء له معناه ، لقد أصبحت لى أشياء ، فى ظاهرها قليلة ، ولكنها هناك : لقد أصبح لى بيت ووظيفة وعمل حقيقى ، لى خطيبة تقوم بالعمل نيابة عنى عندما أكون مشغولا ببعض المهام ، وسأتزوجها وأصبح عضوا فى المجتمع ، لى علاوة على علاقة العمل بكلم علاقة شخصية به لم أتمكن حتى الآن من الاستفادة منها . وليس هذا بالقليل ؟ وأنا عندما أحضر اليكم ، فمن هذا الذى تحبوه ؟ من هذا الذى تسرى اليه بقصة عائلتك ؟ من هذا الذى تأملين أن تجدى لديه امكانية مساعدة ما حتى وان كانت امكانية ضئيلة شديدة الضآلة ؟ انه ليس موظف المساحة الذى طرده لازيمان وبرونسفيك بالقوة من بيتهما ، انك تأملين امكانية هذه المساعدة من الرجل الذى أصبحت لديه بعض وسائل السلطة ، والفضل فى وسائل السلطة هذه يرجع الى فريدا ، فريدا المتواضعة التى اذا ما سألتها عن شىء من هذا القليل أثبت الادعاء بأنها تعرف عنه أقل القليل . ومع ذلك فيبدو اعتمادا على هذا كله أن فريدا فعلت ببراءتها أكثر مما فعلت أماليا بكبريائها . ذلك اننى أحس بأنك تلتمسين العون لأماليا . ومن ؟ من فريدا ، لا من أحد سواها ؟

فقال أولجا :

- هل تكلمت أنا فعلا بهذه السوء عن فريدا ؟ اننى لم أكن أقصد ذلك ، واعتقد اننى لم أفعل ، ولكن هذا من المحتمل ، ولقد أصبح وضعنا

يتلخص فى أننا على نزاع مع الدنيا كلها ، واذا بدأنا بالشكوى ، جرفنا التيار دون أن نعلم الى أين . وأنت على حـق فى أن الفارق بيننا وبين فريدا كبير ، ومن الخير أن نؤكد على ذلك مرة أخرى . لقد كنا قبل ثلاثة أعوام من بنات العائلات ، وكانت فريدا ، اليتيمة خادمة فى حان الجسر ، وكنا نمر عليها غابرين لا نعرها نظرة . لقد كنا بكل تأكيد متكبرين ، ولكننا نشأنا على هذا . ولقد رأيت بعينك فى تلك الأمسية بحانة السادة وضعنا الحالـى : فريدا تمسك بالسوط فى يدها ، وأنا فى جماعة الخدم . ولكن الأمر أكثر سوءا من هذا . وفريدا أن تحتقرنا ، فهذا يتناسب مع مركزها ، والظروف الحقيقية تفرضه فرضا . ولكن أين هذا الذى لا يحتقرنا ! ان الذى يقرر احتقارنا يدخل على الفور فى المجتمع الرفيع العظيم . أتعرف البنت التى خلفت فريدا فى الحانة ؟ اسمها بيبي . لقد تعرفت بها لأول مرة أول من أمس ، وكانت من قبل تعمل خادمة . انها بكل تأكيد تتجاوز فريدا فى احتقارى . لقد نظرت الى من النافذة عندما ذهبت لأحضر شيئا من البيرة ثم جرت الى الباب وأغلقتة ، وكان على أن أتوسل وأطيل التوسل وأن أعدها بالشريط الذى كنت أزين به شعرى ، حتى فتحت لى . فلما أعطيتها الشريط ألقت به فى أحد الأركان . ولها أن تحتقرنى فأنا الى حد ما أعتمد على فضلها وهى حاملة الخمر فى حانة السادة ، وان كانت تعمل هناك مؤقتا ، وكانت بكل تأكيد تفتقر الى الصفات اللازمة لكى تشغل هناك بصفة دائمة . ويكفى أن يسمع الانسان طريقة حديث صاحب الحان الى بيبي ، ويكفى أن يقارنها بطريقة حديثه الى فريدا . ولكن هذا لا يمنع بيبي من أن تحتقر أماليا ، أماليا التى تكفى نظرة واحدة من نظراتها لتخرج بيبي الصغيرة بكل صفاتها ولفائفها من الحجرة بسرعة لاتستطيع وهى التى تعتمد على ساقياها البدينتين القصيرتين أن تصطنعها . ولقد سمعت منها بالأمس ثرثرة عن أماليا أثارت غيظى ، حتى اهتم الضيوف أخيرا بأمرى على النحو الذى سبق لك أن رأيته .

فقال لك :

— ما أكثر خوفك ! لقد وضعت أنا فريدا فى المكان اللائق بها ، ولكننى لم أفكر فى الخط منكم كما فهمت . وان عائلتكم لتتسم فى نظرى بشئ خاص ، وهذا شئ لم أخفه . ولكننى لا أفهم كيف يمكن أن يكون هذا الشئ الخاص مدعاة للاحتقار .

فألت أوجبا :

— آه ، يا ك ، سيأتى الوقت الذى ستفهم فيه ، وهذا هو ما أخشاه : انك اذن لا تستطيع أن تفهم بحال من الأحوال كيف يمكن أن يكون تصرف

أماليا حيال سورتينى السبب الأول فى هذا الإحتقار ؟

فقال ك :

— لو كان هذا قد حدث ، فإنه يكون شيئا غريبا مفرط الغرابة .
من الممكن أن يعجب الانسان بأماليا أو أن يدينها ، أما أن يحتقرها الانسان
لهذا السبب ؟ وحتى اذا ذهب الانسان ، عن احساس لا أستطيع فهمه ،
الى احتقار أماليا بالفعل ، فلماذا يمد الاحتقار ليشملكم ، ليشمل الاسرة
البريئة ؟ وأما أن يبني احتقارتك فشيء فظيع وسوف أحاسبها على ذلك
عندما أذهب مرة الى حان السادة .

وقالت أولجا :

— لو أنك يا ك أردت أن تغير فكر كل من يحتقروننا لكان عليك أن
تتحمل بعمل عسير ، لأن كل هذا ينبع من القصر . اننى أتذكر الساعات
التي تلت ذلك الصباح تماما . فقد أتى برونسفيك ، الذى كان عاملا
لدينا ، كما اعتاد أن يأتى فى كل يوم ، وكان أبى قد كلفه ببعض الاعمال
وأعادته الى بيته . كنا نجلس آنذاك الى مائدة الافطار ، كلنا ، الا أنا
وأماليا ، وكنا فى غاية البهجة ، وكان أبى لا يكف عن الحديث عن الحفل ،
وكانت لديه مشروعات خاصة بالمطافئ ، ذلك أن القصر لديه فرقة المطافئ
الخاصة به ، وكانت هذه الفرقة قد أرسلت وقدما يمثلها فى الحفل ، وقد
جرت مع هذا الوفد مناقشة تناولت بعض المسائل ، ورأى السادة الذين
حضرُوا عن القصر جهود فرقة المطافئ لدينا ، وعبروا عن آراء طيبة جدا
حيالها ، وعقدوا مقارنة بينها وبين فرقة مطافئ القصر كانت نتيجتها
طيبة بالنسبة لنا ، وجرى الحديث عن ضرورة إعادة تنظيم فرقة مطافئ
القصر ، وحاجة ذلك المشروع الى معلمين من القرية ، وكان الواضح ان
الاختيار سينقع على نفر معين ، ولكن أبى كان يأمل أن يقع الاختيار عليه .
وكان يتحدث عن ذلك على طريفته اللطيفة وهو يخيط نصف المائدة
بذراعيه ، وينظر من خلال النافذة المفتوحة الى السماء ، وكان وجهه يبدو
أثناء ذلك شابا سعيدا بالأمل ، كانت هذه هي المرة الاخيرة التي أراه فيها
على هذا النحو الذى لم يتكرر فيما بعد مطلقا . وهنا قالت أماليا بترفع
لم نعهده فيها من قبل ، إنه لا ينبغي أن يثق الانسان كثيرا فى مثل هذا
الكلام الذى يلقيه السادة ، فقد اعتاد السادة على أن يقولوا فى مثل هذه
المناسبات كلاما مفرحا ، ولكنه كلام ليس له الا القليل من المعنى أو ليس
له شيء من معنى على الاطلاق ، كلام ما يكاد الواحد منهم يفرغ من التلطف
به حتى ينساه الى الأبد ، واذا جاءت مناسبة أخرى تكرر وقوع الناس فى
الفخ نفسه . وأنكرت الأم على أماليا هذا الكلام ، أما الوالد فقد اكتفى

بالضحك من اصطناعها الفطنة والخبرة ، ثم تعثر فجأة وبدا عليه كأنه يبحث عن شيء لم يتبين ضياعه الا الآن فقط، ولكنه لم يكن قد ضيع شيئا، بل قال : لقد حكى برونسفيك عن ساع وعن خطاب ممزق ، وسألنا اذا كنا نعرف شيئا عن هذا الموضوع ومعناه والمقصود منه • ولكننا صمتنا ، الا برناباس ، وكان آنذاك صغيرا كالحمل الصغير ، فقد قال شيئا شديدا الغباء أو الجرأة ، وتحول الحديث الى موضوعات أخرى وتوارى هذا الموضوع فى طيات النسيان •

عقوبة أماليا :

وأردفت أولجا :

— الا أن الأسئلة ما لبثت أن انهمرت علينا من كل ناحية عن حكاية الخطاب ، أتى إلينا بها الأصدقاء والأعداء ، المعارف والأغراب • ولكن الناس كانوا لا يبقون عندنا الا قليلا ، حتى أحسن الأصدقاء كانوا يستأذنون فى الانصراف معجلين أشد التعجيل • ودخل علينا لازيمان ، وكنا نعهده بطيئا وقورا ، وبدا عليه كأنه أتى لقيس أبعاد الحجره ، لأنه دار ببصره دورة ثم انصرف ، لقد كان مشهدا يشبه العبث الصبيانى ، فما أن انصرف لازيمان كالهارب حتى تملص أبى من الآخرين وجرى وراءه الى أن بلغ العتبة ثم تراجع • وأتى برونسفيك وأعلن أبى بأنه لن يعمل لديه بعد الآن ، وقال انه يريد أن يفتح محلا خاصا به ، قال هذا بكل صدق وأمانة ، وقد كان ذكيا يعرف كيف يستغل القرص • وأتى العملاء وأخذوا يستخرجون من مخزن أبى أجزيتهم التى كانوا قد أحضروها للتصليح ، وحاول أبى فى بداية الأمر أن يشنى العملاء عن عزمهم — وساعدناه نحن جميعا بكل ما أوتينا من قوة — ولكنه ما لبث أن كف عن المحاولة وأخذ بدلا من ذلك يساعد العملاء فى البحث عن أجزيتهم ، ويشطب من سجل الاعمال سطرًا بعد سطر ، كذلك أتى أصحاب الجلود الذين كانوا قد تركوا كميات من الجلود لدينا فأخذوها ، وأتى أصحاب الديون واستردوا أموالهم ، وتم هذا كله دون أدنى شجار ، فقد كان الناس يفرحون اذا تمكنوا من قطع صلتهم بنا سريعا ونهائيا ولو نجحت عن ذلك خسارة ، ولم يكن للخسارة على أية حال مكان • وأخيرا حدث ما كنا نتوقعه ، فقد أتى لازيمان رئيس فرقة المطافىء ، وما زلت أرى المشهد أمام عيني كأنه حدث لتوه : لازيمان رجل طويل وعريض ولكنه مقوس الظهر ومريض بالسل ، رجل جاد لا يعرف الضحك يقف أمام أبى الذى كان يعجب به ، والذى وعده فى ساعات الصفاء بأن يعينه فى وظيفة مساعد رئيس فرقة المطافىء ، يقف أمام أبى الآن ليقول له ان اتحاد المطافىء

قد فصله ويطلبه برد الشهادة • وترك الرجال الذين كانوا موجودين في تلك اللحظة لدينا أعمالهم وتزاحموا حول الرجلين على هيئة دائرة • لازيمان لا يستطيع الكلام ، وهو لا يفتأ يربت على كتفى أبى وكأنه يريد أن يستخرج بالربت منه كلمات ينبغى عليه هو أن يقولها ولا يجدها • وهو لا يكف عن الضحك ولعله يريد بذلك أن يهدى نفسه وأن يهدى الآخرين ، ولما كان لا يعرف الضحك ، ولما لم يكن الناس قد سمعوه من قبل يضحك ، فلم يخطر ببال أحد أن يصدق أن هذا ضحك • أما أبى فقد وهن منذ ذلك اليوم ، ويثس من مساعدة الآخرين ، بل انه يبدو ضعيفا الى درجة لا يستطيع معها أن يفكر فى الأمر وعم يدور • ولقد كنا كلنا يائسين على النحو نفسه ، ولكننا كنا شبابا فلم نصدق بمثل هذه الهزيمة الكاملة ، وكنا نعتقد أن صف الزوار الكثيرين سيأتينا فى النهاية برجل يأمر بأن تقف الأمور عند حد ، ثم يرغمها على أن تغير اتجاهها • ولقد لاح لنا لجهلنا أن لازيمان هو أنسب الرجال لهذه المهمة • وتوقعنا فى لهفة أن تخرج من بين هذا الضحك المستمر فى النهاية كلمة واضحة • وهل كان هناك شيء يثير الضحك ، شيء غير الظلم السخيف الذى حل بنا • فى سيادة الرئيس ، يا سيادة الرئيس ، قل هذا للناس • كان هذا هو الذى خطر ببالنا فتزاحمنا مقتربين منه مما اضطره ، لفرط دهشتنا، الى حركات ملتوية غريبة • وأخيرا بدأ ، لا بتحقيق أمانينا الكامنة ، بل بالانصياع لصيحات الناس المشجعة أو الغاضبة ، وهكذا تكلم • وكان الأمل لا يزال يداعبنا • واستهل بمدح عظيم للوالد ، وقال عنه انه حلية اتحاد المطافئ ، وقدوة للجيل الجديد لا يصل اليها مجتهد ، وعضو فى الاتحاد يكاد يؤدى خروجه منه الى تحطيمه • كان هذا جميلا جدا ، وليته سكت عند هذا الحد ولم يكمل ! ولكنه أكمل • فقال وإذا كان الاتحاد قد قرر أن يطالب الوالد بالاستقالة ، الاستقالة مؤقتا ، فواضح أن أسبابا شديدة اضطرته الى ذلك • ولعل الأمور لم تكن لتصل الى هذا الحد لولا الجهود الباهرة التى أظهرها الوالد فى حفل الامس ، ولكن هذه الجهود أثارت انتباه السلطات بشكل خاص ، وأصبح الاتحاد الآن تحت الأضواء وأصبح عليه أن يهتم بنظافته الآن أكثر مما كان يهتم بها من قبل • ثم جاءت اهانة الساعى ، فلم يجد الاتحاد له مخرجا سوى اتخاذ هذا القرار، وتحمل هو ، لازيمان ، بالمهمة الشاقة ، مهمة تبليغه • ورجا الوالد ألا يصعبها عليه • وما أشد فرح لازيمان عندما تم له هذا البلاغ! ولقد أحس لذلك بالثقة التى حالت بينه وبين المبالغة فى الرقة ، فإذا هو يشير باصبعه الى الشهادة المعلقة على الحائط • وهز الوالد رأسه وذهب ليأتيه بها ، ولكنه لم يستطع أن يرفعها من فوق المسمار بيديه المرتعشتين ،

فارتقيت كرسيها وأعنته على ذلك • ومنذ تلك اللحظة انتهى كل شيء •
ولم يخرج أبى الشهادة من الاطار الذى احتواها ، بل قدمها الى لازيمان
كما هي • ثم جلس فى أحد الأركان ولم يتحرك ولم يعد يتكلم مع أحد ،
وتكفلنا نحن بالتباحث مع الناس على قدر ما استطعنا •

وسأل ك :

— وأين هو تأثير القصر هنا فى رأيك ؟ والظاهر حتى الآن انه لم
يتدخل • ان ما قصصته الى الآن ليس الا خوف استرسال اليه الناس
بدون تفكير ، وفرح منهم للضر الذى لحق بالجار ، وصداقة لم يخلصوا
لها ، وهذه أشياء موجودة فى كل مكان • ثم ان الموضوع بالنسبة للوالد
— على الأقل فيما يبدو لى — لا يزيد عن أن يكون تفاهة • فما هى هذه
الشهادة ؟ انها بيان بقدراته ، ولقد ظلت لديه هذه القدرات بعد
سحب الشهادة ، وهذه القدرات هى التى جعلته رجلا لا أستغناء عنه ،
وهذا خير • ولقد كان فى استطاعته أن يصعب الامر على الرئيس لو انه
عندما سمع الكلمة الثانية رما اليه الشهادة عند قدميه • وقد لفت نظرى
بصفة خاصة انك لم تذكرى أماليا مطلقا وهى التى تسببت فى هذا
كله ، ولعلها كانت تقف فى الخلف هادئة وتنظر الى الخراب •

فقال أولجا :

— لا ، لا يمكن أن نوجه اللوم الى أحد ، فما كان فى استطاعة أحد
أن يتصرف على نحو آخر ، لقد كان كل شيء من تأثير القصر •
وتلقت أماليا العبارة فكررتها :

— تأثير القصر •

وكانت أماليا قد دخلت من الفناء دون أن يلحظها أحد ، أما والدان
فكانا قد تمردا فى الفراش منذ وقت طويل • وأردفت أماليا :

— هذه حكايات القصر تتحاكيانها ؟ وما زلتما تجلسان معا ؟ ولقد
كنت يا ك تريد أن تستأذن فى الانصراف من فورك وها هى ذى الساعة
تقترب من العاشرة • هل تهكم مثل هذه الحكايات ؟ لدينا هنا أناس
يعيشون على هذه الحكايات ، فهم يجلسون معا ، كما تجلسان الآن ،
ويتجادلان فيها ، وأنت على ما يبدو لى لست من هؤلاء الناس •

فقال ك :

— بلى ! أنا منهم تماما ! أما أولئك الذين لا يهتمون بمثل هذه
الحكايات ويدعون الآخرين يهتمون بها فلا أحفل بهم كثيرا •

فقال أماليا :

- هه ! ولكن اهتمامات هؤلاء الناس مختلفة أشد الاختلاف .
ولقد سمعت عن شاب كان يشغل نفسه آناء الليل وأطراف النهار
بالفكر في القصر وأهمل كل ماعده حتى خاف الناس على عقله الذي
كان مشغولا بالقصر كله . وأخيرا تبين أنه لم يكن القصر ذاته ، بل ابنة
غسالة تعمل في مكاتب المستشارية ، ولقد نالها وأصبح كل شيء على
مايرام .

فقال ك :

- اننى أظن أن هذا الشاب قد يعجبني .

وقالت أماليا :

- أما أن هذا الشاب قد يعجبك ، فهو ما أشك فيه ، وربما كانت
زوجته هي التي تعجبك ! ولكن استمرا فيما أنتما فيه دون ما ازعاج
منى ، فأنا ذاهبة للنوم ، وأنا مضطرة لاطفاء النور ، بسبب الوالدين ،
حقيقة انهما يغطان فى نوم عميق ، ولكن نومهما الحقيقى ينتهى بعد
ساعة ، فينزعجان لأخفت ضوء . تصبحان على خير .

وبالفعل اظلمت الدنيا على الفور ، وأعدت أماليا لنفسها فى مكان ما
على الأرض قرب سرير الوالدين فراشا .

وسأل ك :

- من هذا الشاب الذى تحدثت أماليا عنه ؟

فقالت أولجا :

- لا أعرف ، لعله برونسفيك ، وان كانت القصة لا تنطبق عليه
تماما ، ولعله آخر . وليس من السهل فهم كلام أماليا ، لأن الانسان
لا يعرف هل هي تتحدث بالتهمد أو بالجحد . وهل فى أغلب الأحيان
تقول الجحد وان بدأ تهكما .

فقال ك :

- لندع التأويلات جانبا . ولكن قولى لى كيف وصلت بك الحال
الى التبعية الشديدة لها ؟ هل كانت كذلك قبل المحنة الكبرى ؟ أم صارت
الى ذلك بعدها ؟ وألا يحذوك الأمل فى أن تستقل عنها ؟ وهل هذه
التبعية تعتمد على أساس ما من العقل ؟ ان أماليا هي الصغرى وكان
المفروض أن تطيعك هي . ثم انها قد تسببت ، مذنبه كانت أو بريئة ،

فى المحنة التى حلت بالأسرة • وبدلا من أن تتوسل اليكم فى كل يوم من جديد أن تغفروا لها ، اذا هى ترفع الرأس عاليا فوق الجميع ، ولا تهتم بشيء ، الا بالوالدين وعلى سبيل التكرم والتفضل ، وهى لا تريد أن تتعلم شيئا ، كما قالت بصريح العبارة ، واذا هى تكلمت معكم ، فان كلامها يكون فى الغالب جادا وان بدا تهكما • أم لعلها تتعالى لجملاتها الذى أشرت اليه عدة مرات ؟ وأنا أرى انكم متشابهون أشد التشابه ، وليست السمات التى تجعلها تختلف فى الشكل عنك وعن برناباس ، بالسمات المليحة ، اننى عندما رأيته للمرة الأولى فرزت لنظرته الباردة البليدة • ثم انها ، وهى الصغرى ، لا تبدو هكذا للنظرين ، انها تبدو على تلك الصورة النسائية التى لا عمر لها والتى لا توحى بأنها كانت فى يوم من الأيام شابة • وأنت ترينها فى كل يوم ، ولا تحسین بصرامة وجهها • ولهذا فاننى ، عندما أفكر فى الأمر مليا ، لا أحمل عاطفة سوردينى نحوها محمل الجذ الشديد ، ولعله كان يقصد من الخطاب عقابها لا استدعاءها •

فكانت أولجا :

- كل شيء عند سادة القصر ممكن سواء كانت البنت أجمل البنات أو كانت أقبح المخلوقات • الا انك تخطيء فى شأن أماليا خطأ كاملا • وأنا لا أجد من الأسباب ما يدعونى الى استمالتك الى أماليا ، وانما أنا أحاول هذه المحاولة من أجلك أنت • لقد كانت أماليا على نحو ما السبب فى محنتنا ، هذا شيء مؤكد • ولكن الوالد نفسه وهو الذى عانى من المحنة أشد معاناة والذى لم يستطع أن يتحكم فى نفسه وهو الذى عانى من ألفاظه وبخاصة فى البيت ، لم يوجه الى أماليا فى أقسى أوقات المحنة كلمة لوم واحدة • وليس هذا لأنه يقبل تصرف أماليا ، فكيف يمكنه وهو المعجب بسوريتينى ان يقبله ؟! انه لم يستطع أن يفهم تصرفها بحال من الأحوال • ولعله كان يرضى بأن يقدم نفسه وما ملك ضحية لسوريتينى ، ولكن ليس على النحو الذى جرى بالفعل ، على أثر الغيظ الذى استبد بسوريتينى على ما يبدو • وأقول على ما يبدو لاننا لم نسمع عن سوريتينى شيئا بعد ذلك مطلقا • واذا كان من قبل يعتزل الناس ، فقد أصبح الآن وكأنه غير موجود • وكان الأخرى بك أن ترى أماليا فى ذلك الوقت • لقد كنا نعرف جميعا أننا لن نلقى عقابا صريحا • كل ما حدث أن الناس نفروا منا • الناس هنا وفى القصر • وبينما لاحظنا نفور الناس هنا ، لم نلاحظ شيئا مما جرى فى القصر • ونحن لم تكن فيما مضى نحس شيئا من عطف القصر ، فكيف يمكننا أن نتبين تحولا فيه ؟!

لقد كان هذا الهدوء هو أبشع شيء . لم يكن أبشع شيء هو نفور الناس عنا ، لا ، فقد كان من الممكن أن ينفروا منا اقتناعاً برأى ما ، ولعلمهم لم يكونوا يحملون لنا شيئاً ذال بال ، ولم يكن الاحتقار الحال موجوداً آنذاك ، لقد تصرفوا عن خوف ، ثم أصبحوا يتلهفون على معرفة النهاية . ولم نكن نخشى جوعاً ، فقد رد الينا المدينون جميعاً مالنا ، وكانت نتيجة تصفية الحساب في صالحنا ، وكان أقاربنا يساعدوننا سرا بما نحتاج اليه من طعام ، ولقد كان هذا سهلاً ، لأن الوقت كان وقت الحصاد . ولكننا لم نكن نمتلك أرضاً ، ولم يكن الناس يرضون في أى مكان بتشغيلنا حتى أوشكنا لأول مرة في حياتنا على البطالة . وهكذا كنا نجلس معاً ، مغلقين النوافذ ، في قبط يولية وأغسطس . فلم يحدث شيء . لم نتلق دعوة للمثول أمام محكمة ، ولم نتلق خبراً ، ولم نتلق تقريراً ولا زيارة ، لم نتلق أى شيء .

فقال ك :

— لم يحدث شيء ، ولم تتوقعوا عقوبة صريحة ، فم كنتم تخافون؟
من بشر !

فقلت أولجاً :

— كيف أشرح لك ؟ لم نكن نخاف من شيء قادم ، بل كنا نعانى من الحاضر ، لقد كنا في وسط العقوبة . لقد كان الناس في القرية ينتظرون أن نذهب اليهم ، وأن يفتح الوالد محله من جديد ، وأن تعود أماليا ، التي كانت تجيد حياكة الملابس لا تعمل الا لأوجه الوجهاء ، الى نشاطها ، لقد أسف الناس لما قدمت أيديهم . هذا الى أن القضاء النهائي على أسرة مرموقة في القرية له نتائج السيئة التي يحل طرف منها بكل فرد ، ولقد اعتقد الأهالي ، عندما انصرفوا عنا ، انهم يؤدون واجباً ، ولعلنا لو كنا مكانهم لفعلنا نفس الشيء . ثم هم لم يكونوا يعرفون حقيقة الأمر ، كل ما عرفوه أن الساعى عاد الى حان السادة وقد امتلات يده بالورق الممزق . ولقد رأته فريداً وهو يخرج من الحان ثم رأته بعد ذلك وهو يعود اليها ، وتبادلت معه بعض الكلمات ثم أذاعت بين الناس على الفور ما نما الى علمها . وهى لم تفعل ذلك لعداء حيالنا ، ولكن لأن هذا كان واجباً ، ولقد كان في الحالة نفسها واجب كل فرد . والمهم أن أكثر شيء يرحب به الناس هو أن ينتهى الموضوع كله نهاية سعيدة . فلو أننا آتينا فجأة بخبر يقول ان كل شيء قد سوى ، وأن الموضوع كان يقوم على خطأ تكشفت حقيقته تماماً ، أو أن الموضوع

سيئة تبعثها حسنة فمحتها ، أو انه - وحتى هذا كان سيرضى الناس - نانت جنبايه أمكننا بفضل علاقتنا بالفضر سويتها - لو بعلنا ذلك لأقبلوا علينا بكل تأكيد باشين فعانقونا وقبلونا وأقاموا لنا الأفراح .

لقد شهدت أشياء من هذا النوع من قبل مرارا . بل ان مثل هذا الخبر لا ضرورة له . لو أننا ذهبنا الى الناس أحرارا طلقاء وعرضنا عليهم ان نعيد اصالات القديمة دون أن نشير بكلمة الى حكاية الخطاب ، لكان فى ذلك الكفاية ، ولصرفوا النظر جميعا فرحين عن الخوض فى الموضوع . لقد انفض الناس عنا ليس فقط عن خوف ، ولكنهم انفضوا عنا أيضا عن خزي ، لأنهم بكل بساطة لم يكونوا يريدون أن يسمعوا عن الموضوع شيئا ، ولا أن يتكلموا عنه ، ولا أن يفكروا فيه ، ولا أن يتصلوا به بأى شكل . واذا كانت فريدا قد أفشت سر الموضوع ، فهمى لم تفعل ذلك لكى تفرح فينا ، وانما لكى تحمى نفسها وتحمى الجميع منها ، لكى تنبه المجتمع الى أن شيئا قد حدث هنا ، شيئا ينبغى على الجميع أن يبذلوا غاية الجهد للابتعاد عنه . ولم تكن نحن ، ونحن عائلة تعيش هنا ، المقصودين بذلك ولكن الموضوع نفسه هو الذى كان مقصودا ، ولم تكن نحن مقصودين الا من حيث صلتنا بالموضوع الذى تورطنا فيه . فلو أننا ظهرنا من جديد ، وتركنا الماضى وشأنه ، وبيننا بسلوكننا أننا تغلبنا على الموضوع بأى طريقة كانت ، واقتنع الرأى العام على هذا النحو بأن الموضوع ، مهما كان كنهه ، لن يعود الى مائدة المناقشة مرة أخرى ، فان كل شيء يسير الى خير حال . اذن لوجدنا المروءة التى عهدناها من قبل . وحتى لو لم ننس الموضوع القديم الا الى حد ما ، فان الناس كانوا سيفهموننا وسيساعدوننا على نسيانها تماما . ولكننا بدلا من أن نفعل ذلك قعدنا فى البيت . ولست أعرف ماذا كنا ننتظر .

ربما كنا ننتظر قرار أماليا ، لأنها كانت قد انتزعت منفسها فى ذلك الصباح القيادة وظلت تتشبث بها . ولم تكن تتوسل الى ذلك بتصرفات خاصة ولا بأوامر ولا برجاء ، بل كانت تعتمد على شيء واحد تقريبا هو الصمت . وكنا نحن الآخرين عاكفين على التباحث والتشاور ، كنا طوال النهار من الصباح الى المساء نتهامس بلا انقطاع ، وكان أبى أحيانا يحس بفزع مفاجئ فينادينى اليه ، فأقضى نصف الليل بجوار فراشه . وكنا فى بعض الأحيان نقعد أحدا الى الآخر ، برناباس وأنا ، ولم يكن برناباس يفهم آنذاك من الأمر الا قليلا جدا ، وكان يطالب دائما بتوضيحات حارة ، يطالب بنفس التوضيحات ، لقد كان على الأرجح يعرف أن السنوات الخالية من الهموم التى يأملها أقرانه لا وجود لها بالنسبة اليه - وهكذا

كنا نقعد معا ، على نحو يشبه يا ك جلستنا الآن ، وكنا ننسى أن الليل
 قد حل وأن الصباح قد انبلج . وكانت الأم هي أضعفنا جميعا ، لأنها
 على الأرجح لم تكن تحمل أحزاننا المشتركة فحسب ، بل كانت تحمل
 فوقها أحزان كل منا على حدة ، وهكذا لاحظنا مفزوعين تغيرات ظهرت
 عليها ، كنا نتوقع في غير وضوح حدوثها ، تغيرات كانت توشك أن
 تحيق بالأسرة كلها . كان المكان المفضل لها هو ركن أريكة - لم تعد
 الأريكة لدينا ، بعد أن أخذها برونسفيك منذ وقت طويل ، ووضعها
 في الحجرة الكبيرة لديه - كانت تجلس هناك ، وتنعس - ولم تكن نعلم
 ما بها بالضبط - أو كانت ، على ما كنا نستشف من شفقتها ، تكلم
 نفسها كلاما كثيرا . لقد كان من الطبيعي أن نعكف على مناقشة حكاية
 الخطاب دواما ، وأن نشقها طولا وعرضا ، وأن نبحث كل تفصيلاتها
 المؤكدة ، وكل امكانياتها المريبة ، وأن نتفوق بعضنا على البعض في
 ابتداع وسائل الحل الجيد ، كان هذا أمرا طبيعيا وأمرنا محتسوما في
 الوقت نفسه ، ولكنه لم يكن من الخير في شيء ، لأننا كنا لا نفتأ نغمس
 في هذا الذي كنا نريد أن نخلص منه . وماذا كانت فائدة هذه الأفكار
 الممتازة التي كانت تخطر ببالنا ؟ لم تكن من بينها فكرة يمكن تنفيذها
 بدون أماليا ، لقد كانت كل هذه الأفكار مجرد تهديد ، تهديد أحمق ،
 لأن نتائجها لم تكن تصل إلى أماليا ، ولو وصلت إليها لما لقيت لديها
 الا الصمت . على أنني الآن لحسن الحظ أفهم أماليا أفضل مما كنت
 أفهمها فيما مضى . لقد كانت تحمل أكثر مما كنا نحمل جميعا ، وإن
 الانسان ليعجز عن فهم كيف احتملت كل هذا ومازالت تعيش بيننا إلى
 الآن . ولعل أمتنا كانت تحمل آلامنا جميعا ، كانت تحملها لأنها حلت
 بها ، ولكنها لم تستطع أن تصمد طويلا . ولا يمكن أن نقول إنها
 لا تحملها الآن ، فقد كانت فيما مضى كذلك مضطربة العقل . ولكن
 أماليا لم تكن تحمل الآلام فحسب ، لقد كان لديها العقل الذي يمكنها
 من النظر في أعماقها ، في الوقت الذي كنا نحن فيه لا نرى الا النتائج ،
 كانت هي ترى القاع ، وكنا نأمل أن تتاح لنا بعض السبل اليسيرة ،
 وكانت هي تعلم أن الأمر قد قضى ، وكنا لا نجد لنا ما نلوذ به سوى
 التهامس ، وكانت هي تلوذ بالصمت ، لقد كانت تواجه الحقيقة عينا
 في عين وكانت تعيش وكانت تتحمل الحياة في ذلك الوقت كما تتحملها
 الآن . لقد كانت أحوالنا في المحنة أفضل من أحوالنا بكثير . حقيقة أننا
 اضطررنا إلى ترك البيت ليأتي برونسفيك ويقيم فيه ، وعينوا لنا هذا
 الكوخ لننتقل إليه ، وحملنا أشياءنا إليه على عربة يد نقلة بعد نقلة ،

كنا برناباس وأنا نجر العربية ، وكان أبى وأماليا يدفعان من الحلف ، أما الأم التى كنا قد نقلناها الى الكوخ فى البداية فكانت تجلس فى الكوخ على صندوق من الحشب وتستقبلنا بأبن خفيض . ولكننى أذكر اننا حتى فى أثناء جر العربيه - ولقد كان جرها شيئا مخجلا لاننا كنا نلتقى فى الطريق بعربات نقل المحاصيل وكان الذين يرافقونها يتسمرون ويشيحون عنا بأبصارهم - كنا لا نكف ، برناباس وأنا عن الحديث عن آلامنا ومشروعاتنا ، وكنا أحيانا نقف أثناء الكلام ولا نعود الى السير الا بعد أن يصيح 'ينا أبى ' هاللو ' مذكرا ايانا بالواجب . ولكن هذه المباحثات كلها لم تغير من حياتنا شيئا بعد انتقالنا الى الكوخ ، لم يتغير من حياتنا شيئا بعد انتقالنا الى الكوخ ، لم يتغير من حياتنا الا أننا بدأنا نحس الفقر شيئا فشيئا . فقد توقفت منح الأقارب ، وفرغت أموالنا أو أوشكت ، وفى ذلك الوقت بالذات بدأ الاحتقار الذى تعرفه ينصب علينا . لقد لاحظ الناس اننا لم نتمكن من الخلاص من حكاية الخطاب ، وغضبوا لذلك منا ، ولكنهم لم يكونوا يستهينون بصعوبة المحنة التى لم يكونوا يعرفونها ، وإن كانوا يعلمون انهم لو حلت بهم هذه البلية لما كانوا على الأرجح سيتغلبون عليها خيرا منا ، وكانوا لذلك يجدون مزيدا من الأسباب التى تحملهم على الانفصال عنا . ولو أننا كنا قد استطعنا أن نتغلب على هذه البلية لاحترمنا الناس أعظم الاحترام جزاء لما تمكنا منه ، أما وقد فشلنا فقد حول الناس المسلك الذى اتخذوه حيالنا مؤقتا الى مسلك نهائى : لقد نبذونا من كل مكان كانوا يختلقون اليه . وكفوا عن الحديث عنا حديثهم عن البشر ، وعن ذكر اسم عائلتنا ، وكانوا يذكروننا نسبة الى أخينا برناباس ، فهو أكثرنا براءة . حتى كوخنا ساءت سمعته . وأنت لو صدقت مع نفسك لاعترفت بأنك عندما دخلت الكوخ هنا لأول مرة اعتقدت انك تجد المبرر لهذه السمعة القبيحة . كان الناس عندما يأتون الينا يتأففون من آفقه الأشياء ، من أن مصباح الغاز الصغير مثلا يتدلى فوق المنضدة هناك . وهل هناك مكان آخر يتدلى فوقه الا المنضدة ؟ ولكنهم كانوا يجدون هذا شيئا غير محتمل . ولو انك غيرت مكان المصباح لما غير هذا شيئا من نفورهم . كان الاحتقار ينصب على كل ما كنا وكل ما أوتينا .

الإنتماسات :

— فماذا فعلنا فى تلك الأثناء ؟ فعلنا أقبح ما كان يمكننا أن نفعل ، فعلنا شيئا كان ينبغي أن ينصب علينا من أجل الواقعة الاصلية : لقد خنا أماليا ، وانتزعنا أنفسنا من أوامرها الصامته ، فلم نكن نستطيع أن

تستمر حياتنا على هذا النحو ، لم تكن نستطيع أن نعيش بلا أمل ،
وشرعنا ، كل بطريقته ، نتوسل الى القصر أو نندفع اليه راجين المغفرة
كنا نعلم أننا لن نستطع أن نصحح شيئا ، وكنا نعرف أن الصلة
الوحيدة التي بيننا وبين القصر والتي كان يمكن أن نعلق بها الأمل
وأعني بها سورتي ، الموظف الميال الى أبى ، قد تبددت نتيجة للأحداث ،
ولكننا مع ذلك بدأنا العمل • وبدأ أبى • وبدأت التوسلات الحمقى الى
الناظر والأمناء والمحامين والكتبة • ولم يكن الموظفون فى غالبية الأحوال
يستقبلونه ، فإذا تمكن بالحيلة أو عن طريق المصادفة من مقابلة بعض
الموظفين - وكما كنا نهمل لذلك فرحين ونفرك أيدينا ! - فقد كان هؤلاء
يطردونه بأقصى سرعة ولا يستقبلونه بعد ذلك أبدا • وكان من اليسير
عليهم الرد عليه ، وما أسهل هذه المهمة على القصر • فماذا كان يريد ؟
ماذا حدث له ؟ لماذا يطلب الصفح ؟ متى وممن امتد اليه أصبع واحد من
القصر ؟ حقيقة انه كان قد انتهى الى الفقر ، وانه قد فقد عملاءه ، وما الى
ذلك ، ولكن تلك كانت من الظواهر التي تطرأ على الحياة اليومية للناس ،
كانت من مسائل الحرف والأسواق ، وهل ينبغي على القصر ان يهتم بكل
شيء ؟ والحقيقة أن القصر يهتم بكل شيء ، ولكنه لم يكن يستطيع أن
يتدخل تدخلا مباشرا غليظا فى تطور الامور لا لهدف الا خدمة مصلحة
رجل واحد • هل كان ينبغي على القصر أن يرسل موظفيه للجرى وراء
العملاء واعادتهم الى أبى عنوة ؟ وكان أبى يعترض قائلا - وكنا نحن
نناقش هذه الأشياء بدقة من قبل فى البيت ثم نكتور بعد ذلك فى ركن
من الأركان وكأننا نتوارى عن آماليا التي كانت تلاحظ ما يجرى كله
ولا تتدخل فيه - انه لا يشكو من الفقر لأنه يستطيع بسهولة أن يعرض
الخسارة التي لحقت بتجارته ، وهذه كلها مسائل ثانوية اذا ما صفح
القصر عنه • وكانوا يجيبون عليه قائلين : وكيف يمكن للقصر ان يصفح؟
ليس هناك اتهام الى الآن ، ليس هناك اتهام مثبت فى السجلات ، على
الأقل فى السجلات المسموح للمحامين بالاطلاع عليها ، والنتيجة ، على
قدر ما تبين الأوراق ، انه ليس هناك شيء اتخذ ضده ، وانه ليس هناك
ما يوشك أن يتخذ ضده • وهل يمكنه أن يذكر القرار الرسمي الذى
صدر ضده ؟ لم يكن أبى يستطيع ذلك • أم هل حدث تدخل من جانب
جهاز من الأجهزة الرسمية ؟ لم يكن أبى يعلم شيئا عن هذا • ومادام
لا يعرف ، واذا لم يكن هناك شيء قد حدث ، فماذا يريد ؟ عم يريد
الصفح ؟ ربما عن ازعاج السلطات بلا هدف ، وهذا شيء لا سبيل الى
الصفح عنه • ولم يكن أبى يتراجع ، ولقد كان فى ذلك الوقت لا يزال

قويا ، وكانت البطالة المفروضة عليه تتيح له من الوقت الكثير . « سأسترد لأماليا شرفها وما وقت ذلك بعيد » - هذا ما كان يقوله أبى لبرناباس وأحيانا لى مرارا كل يوم ، ولكنه لم يكن يقوله الا بصوت خفيض ، فلم تكن أماليا لتسمعه . وهو لم يقله الا من أجل أماليا ، والحقيقة أنه لم يكن يفكر فى استرداد الشرف ، بل كان يفكر فى شيء واحد هو الصفح . ولكن الحصول على الصفح كان يفترض اثبات الذنب أولا ، وهذا ما كانت المكاتب تنكره عليه انكارا . وانتهى الى التفكير - وهذا يدل على أن عقله كان قد ضعف - فى أنهم يخفون عنه الذنب لأنه لا يدفع بما فيه الكفاية ، فلم يكن حتى ذلك الحين يدفع الا الرسوم المحددة والتي كانت - على الأقل بالنسبة لظروفنا - مرتفعة ارتفاعا كبيرا . وهكذا أصبح يعتقد انه ينبغي عليه أن يدفع المزيد ، ولا شك انه كان مخطئا فى هذا ، ذلك ان الموظفين فى المكاتب لدينا يقبضون الرشاوى ولكنهم لا يفعلون ذلك الا ليوفروا على أنفسهم كلاما لا يجدى ولا يفيد ، ولذلك لا تحصل لقاء الرشوة على شيء . ولقد كان هذا هو أمل أبى ولهذا فلم نشأ أن نزعجه وبنا ما بقى لدينا - ولم يكن ما بقى لدينا الا الأشياء التى لا سبيل للاستغناء عنها تقريبا - حتى نمد الوالد بالمال اللازم لبحثه وتقضيه ، وظللنا لوقت طويل نجد الرضا عندما نسمح الوالد على الأقل يشغل ببعض العملة فى جيبه وهو يخرج الى مسعاه فى كل صباح . أما نحن فكانا بطبيعة الحال نجوع النهار ، ولا نصل الى نتيجة لتدبير المال الا الى الإبقاء للوالد على شيء من الابتهاج بالأمل . ولم يكده يكون فى هذا خير . فلم يلبث أن أحس بالتعب فى مشاويره ، وطالت الأمور التى كانت توشك على الانتهاء لولا انسياب المال . ولما لم يكن هناك من يستطيع أن يحقق فى الحقيقة شيئا خارقا للمألوف ، فقد تظاهر بعض الكتبة فى بعض الأحيان بأنه يفعل شيئا ملمحا الى أن بعض الآثار قد ظهرت وأنه لن يتتبعها تنفيذا لواجب مفروض وانما خيا فى الوالد ، وبدلا من أن يزداد الوالد رغبة ، ازداد تصديقا . وعاد الوالد بوعده من هذا النوع واضح السخف وكأنه عاد الى البيت بالبركة كل البركة ، وكان من المؤلم أن نراه وهو يحاول من وراء ظهر أماليا ، أن يفهمنا ان نجاة أماليا التى لن تفاجئ انسانا أكثر منها هى ، قد أصبحت بفضل جهوده وشيكة ، وان كل شيء لا يزال سرا ينبغي علينا أن نخفيه أشد الاخفاء . من المؤكد ان الحال كانت ستستمر على هذا المنوال طويلا ، لو لم تتحول الى العجز التام عن امداد الوالد بالمال . حقيقة أن برنسفيك كان ، بعد الحاج كثير وتوسل ، قد قبل تعيين

برناباس لديه مساعدا - على أن يذهب برناباس اليه فى الظلام الدامس بالليل ليأخذ ما يكلف به من عمل ثم يعيده بعد ذلك فى الظلام الدامس - ولا بد أن نعترف بأن برونسفيك قد عرض أعماله من أجلنا لشيء من الخطر ، ولكنه لم يكن يدفع لبرناباس الا النذر اليسير ، وانه عمل برناباس لعمل جيد لا يعتوره أدنى عيب - ولكن الأجر الذى كان يحصل عليه كان لا يكفى الا بشق الأنفس ليدفع عنا غائلة الجوع . وأعلن الوالد ، بعد تمهيد كثير ، وعلى نحو فيه الترفق الشديد به ، اننا سنقطع عنه التدعيم المالى ، ولكنه تقبل اعلاننا فى هدوء كبير . لم يعد فى امكانه أن يرى بالعقل أن مساعيه لا تؤدى الى نتيجة ، ولكنه كان قد تعب على الرغم من ذلك نتيجة لضروب الخيبة المتواترة .

حقيقة انه كان يقول - ولم يكن آنذاك يتكلم بوضوح وهو الرجل الذى كان من قبل يتكلم بوضوح يوشك أن يكون مفرطاً - انه لم يكن سيحتاج الا القليل من المال ، لانه كان سيعلم الخبر اليقين فى الغد أو اليوم ، وان كل الجهود التى بذلها راحت أدراج الرياح وانها انما فشلت بسبب المال ، وما الى ذلك ، ولكن نبرة كلامه كانت تدل على أنه لم يكن يؤمن بصحة هذا رأى . ثم انه بدأ على الفور مباشرة فى مخططات جديدة . ونظر! لأنه لم يتمكن من اثبات الذنب ، ولم يكن فى مقدوره نتيجة لهذا أن يصل الى شيء عن طريق الجهاز الحكومى ، فقد تحتم عليه أن يحول جهوده كلها الى التوسل والالتجاء الى الموظفين شخصيا . ومن المؤكد أنه كان من بين الموظفين رجال قلبهم طيب شقوق ليس له أن يحتكم اليهم طالما كانوا فى المكتب ، ولكنهم قد يلبثون له فى خارجه اذا ما فاجأهم الانسان فى ساعة ملائمة .

وهنا قطع ك الرواية التى كان حتى ذلك الحين ينصت اليها باذن صاغية ، سائلا أولجا :

- وأنت لا تستصوبين ذلك ؟

حقيقة أن الرواية كانت ستجيب حتما على هذا السؤال ، ولكنه كان يريد أن يعرف الجواب الآن .

وقالت أولجا :

- لا . فليس هناك مجال للشفقة أو لما شابه ذلك . ولقد كنا نعرف ذلك على الرغم من اننا كنا صغارا غررا ، وكذلك كان أبى بطبيعة الحال يعرف ، ولكنه كان قد نسى ذلك كما نسى غالبية الأمور الأخرى . ووضع الوالد خطة تقوم على أن يقف على مقربة من القصر فى المكان الذى تمر منه

عربات الموظفين ، وأن يحاول ما استطاع أن يتقدم بالتماس الصفح . وهذه ، اذا أردنا الصراحة ، خطة مجردة من العقل تماما ، وما كان يمكن أن تؤدي الى نتيجة حتى ولو حدث المستحيل ووصل الالتماس بالفعل الى مسمع أحد الموظفين . فهل يمكن لموظف واحد أن يصفح ؟ لا يمكن ، على أحسن الفروض ، أن يكون الصفح الا من شأن السلطة كلها ، ويبدو أن السلطة نفسها لا تستطيع أن تصفح ، وأن كل ما تستطيع فعله هو نقل ما يصل اليها . ثم هل يستطيع موظف ما ، حتى اذا نزل من العربة واهتم بالموضوع ، أن يكون صورة عنه من غمغة أبى الفقير المرهق الهرم ؟ والموظفون مثقفون ثقافة جيدة ، ولكنهم متخصصون فى ناحية بعينها ، ويكفى أن يسمع الموظف كلمة واحدة فى ناحية تخصصه ليفهم على الفور الكثير ، أما اذا كان الموضوع خارجا عن تخصصه ، فيمكنك أن تشرحه له ساعات طوال ، ولعله يهز رأسه عن أدب ، ولكنه لن يفهم منه شيئا . هذه كلها أمور بديهية . ويمكن أن نتأمل المسائل الحكومية التى تخصنا ، انها شيء حين ينجزه الموظف بهزة من كتفه ، فاذا ما حاولنا نحن أن نفهم أصلها فقد نضيع حياتنا ولا نصل الى شيء . وحتى لو التقى الوالد بالموظف المختص ، فلن يستطيع هذا الموظف أن ينجز شيئا بدون ملفات ، ولن يستطيع أولا وقبل كل شيء آخر أن ينجز شيئا فى الشارع ، وهو لا يستطيع أن يصفح ، بل يستطيع أن ينجز الموضوعات بالطريقة الحكومية ، ولهذا فهو سيحيل الطالب الى سبيل الحكومة من أجل هذا الهدف ، ولقد حاول الوالد من قبل أن يصل عن طريق الحكومة الى شيء ففشل كل الفشل . ولا بد أن الوالد قد بلغ من ضعف العقل درجة بعيدة فظن انه يستطيع أن يصل بهذا المخطط الجديد الى شيء . ولو كان هناك أدنى احتمال من هذا النوع لامتلاء الشارع بحملة التوسلات والرجاءات . لقد كانت هناك استحالة يعرفها من أوتى أبسط تعليم ، ولهذا كان الشارع خاويا . ولعل تلك الحال كانت تقوى الوالد فيما عقد عليه الأمل ، فقد كان يلتمس القوة فى كل ناحية . ولقد كان بحاجة شديدة الى هذا . فما كان ينبغي للعقل السليم أن يستسلم الى مثل هذه الأفكار الكبيرة ، بل كان ينبغي عليه على أقصى تقدير أن يتبين الاستحالة واضحة جلية . والموظفون عندما يستقلون العربات ذاهبين الى القرية أو عائدين الى القصر ، لا يتنزهون ، بل هناك عمل ينتظرهم فى القرية وفى القصر ، ولهذا فهم يندفعون بأقصى سرعة . ولا يخطر ببالهم حتى أن يتطلعوا من نافذة العربة بحثا عن طالب حاجة فى الخارج . وان العربة لتغص بالملفات التى يعكف الموظفون على دراستها !

وقال ك :

– ولكنني رأيت باطن زحافة أحد الموظفين ولم يكن بها ملفات .

لقد انفتح أمامك في حكاية ألجا عالم عظيم يوشك أن يكون عصيا على التصديق حتى انك لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يتسحرك اليه بخبراته القليلة ليقنع نفسه بوجود هذا العالم وليقنع نفسه هو بوجوده الذاتي على نحو أكثر وضوحا .

وقالت ألجا :

– هذا ممكن . وفي هذا الحالة يكون الموضوع أشد وأعنف ، ومعنى هذا أن الموظف يعالج مسائل هامة جدا ملفاتها ثمينة أو ضخمة لا يمكن أخذها في العربة ، وفي هذه الحالة يأمر الموظف بأن تندفع الخيول التي تجر العربة بسرعة أكبر . وليس هناك على أية حال من يمكن أن يمنع الوالد شيئا من الوقت . هذا الى أن الطرق الموصلة الى القصر كثيرة ، وتارة تكون هذه الطريق هي المفضلة فاذا الغالبية يسلكونها ، وتارة تكون طريق أخرى هي المفضلة فيندفعون اليها . ولم يتوصل أحد للآن الى القواعد التي يقوم عليها هذا التغيير . فهم في الساعة الثامنة صباحا قد يتحولون الى طريق أخرى ، وما تمر عشرة دقائق حتى يسلكون ثالثة، وقد يعودون بعد نصف ساعة الى الاولى ويظلون عليها طوال اليوم ، ولكن احتمال التغيير قائم في كل لحظة . حقيقة أن الطرق كلها تتلاقى على مقربة من القرية ، ولكن العربات كلها تندفع هناك بسرعة هائلة حتى اذا كانت اعلى مقربة من القصر سارت بسرعة معتدلة نوعا ما . وكما أن سير العربات في الطرقات يستعصى على الفهم ولا يلتزم بنظام ، كذلك عدد العربات . فهناك أيام لا تظهر فيها عربات على الاطلاق ، وهناك أيام تكثر العربات فيها كثرة شديدة . ويمكنك أن تتصور حال والدنا حيال هذا كله . انه يرتدى أحسن حلة – وتكاد تكون هي حلته الوحيدة – ويخرج في كل صباح تصحبه دعواتنا . ويأخذ معه شارة صغيرة من شارات المطافئ – والحقيقة انه احتفظ بها بغير حق – ويعلقها على سترته خارج القرية ، وهو يخشى أن يفعل ذلك في القرية ، على الرغم من ان هذه الشارة صغيرة جدا لا يكاد انسان يراها على بعد خطوتين ، ولكن الوالد يرى أنها تصلح لاجتذاب أنظار الموظفين المندفعين بعرباتهم اليه . وهناك على مسافة غير بعيدة عن الطريق المؤدية الى القصر مزرعة يمثلها رجل اسمه برتوخ يورد الخضروات الى القصر ، وقد اختار الوالد مكانه على القاعدة الحجرية الضيقة لسور المزرعة الحديدى . ولقد صبر برتوخ على هذه الحال لأنه كان فيما مضى صديقا للوالد وكان من أخلص عملائه ذلك أن قدمه مصابة بشئ من التشويه وكان يعتقد ان الوالد هو الوحيد الذى يستطيع أن يصنع له

حذاء يناسبها • وهناك جلس الوالد اليوم تلو اليوم ، وكان الوقت خريفا
تعكر جوه ، وكثرت أمطاره ، ولكن الوالد لم يكن يعبأ بالجو وأحواله على
الاطلاق • كان الوالد يضع يده فى الصباح فى ساعة معينة على مقبض
الباب ، ويلوح الينا مودعا ، وكان يعود فى المساء - وكان يبدو لنا كأنه
كان يزداد كل يوم انحناء - كان يعود وقد ابتل ما عليه من ثياب أشد
البلل ، فيلقى بنفسه فى ركن • وكان فى بداية الأمر يحكى لنا عن خبراته
اليسيرة ، يحكى مثلا أن برتوخ أذنته الشفقة به والصدقة القديمة فألقى
اليه من فوق السور بطانية ، أو يحكى انه يظن أنه تبين فى احدى العربات
التي مرت به هذا أو ذاك الموظف ، أو يحكى ان حوذا عرفه فمسه بجلدة
السوط مداعبا • ولكنه فيما بعد كف عن هذا الحديث ، ويبدو انه فقد
الأمل فى أن يصل هناك الى شيء ، على أنه ظل يعتقد ان واجبه أو مهمته
الفظيعة تفرض عليه أن يذهب الى هناك وأن يقضى اليوم بطواله هناك •
وفى ذلك الوقت بدأت آلامه الروماتزمية ، كان الشتاء يقترب ، وتساقط
الثلج مبكرا ، والشتاء عندنا يبدأ مبكرا • وهكذا كان يجلس هناك تارة
على الحجر المبلل بمياه المطر ، وتارة يجلس فى الثلج • وكان فى الليل
يتأوه من فرط آلامه ، وكان فى بعض الأحيان يحترق فى الصباح ولا يعرف
هل يخرج أو يبقى ، ثم كان يتغلب على حيرته وينصرف • وكانت الأم
تتعلق به وتحاول منعه من الخروج ، فسمح لها ، ويبدو أنه فعل ذلك عن
خوف تملكه بعد أن أصبحت أعضاؤه لا تطيعه ، بأن تذهب معه ، وهكذا
استبدت الآلام بأمرى هى الأخرى • وكثيرا ما كنا نذهب اليهما ، نحمل
اليهما الطعام أو نقوم بزيارتهما فحسب ، ونحاول اقناعهما بالعودة الى
البيت • وكما كنا نراهما هناك خائرين يعتمد أحدهما على الآخر على مقعدهما
الضيق وقد اتفا فى غطاء واحد رقيق لا يكاد يشملهما معا وليس حولهما
الا صفحة رمادية من الثلج والضباب لا يرى الناظر فيها مهما بعد ببصره
طولا وعرضا لأيام كثيرة عربية أو انسانا ! يا له من منظر ! يا له من منظر
يا ك حتى جاء صباح لم يستطع الوالد فيه أن ينزل ساقيه المتخشبتين
من السرير • لقد كانت حالة كئيبة ! كان فى غمرة هزيان الحمى يتصور
كأنه فى غربة .وقفت الآن فى المكان العالى عند برتوخ ونزل منها موظف وبحث
عنه على طول السور ثم عاد الى العربية غاضبا ، يهز رأسه أسفا ! وكان
الوالد يصدر فى تلك الاثناء صرخات عالية وكأنما كان يريد من مكانه هنا
أن يلفت نظر الموظف اليه وأن يشرح له انه لا ذنب له فى الغياب عن
السور • وطال الغياب ، فلم يعد الى مكانه هناك قط ، وأصبح عليه أن
يلزم الفراش الأسابيع الطوال • وتولت أماليا شأن الخدمة والرعاية
والعلاج ، واستمرت على ذلك حتى اليوم باستثناء فترات قليلة • وهى

تعرف بعض الأعشاب التي تهدى الآلام ، ولا تكاد تحتاج الى النوم ، ولا تفزع بحال من الاحوال ، ولا تخاف ، ولا تحيد عن الصبر أبدا ، وهي تقوم الأعمال اللازمة للوالد والوالدة • وإذا كنا نحن نحوم هنا وهناك حائرين دون أن نتمكن من المساعدة بشيء ، فانها تظل هي في كل المواقف هادئة فاترة • فلما تجاوز الوالد الخطر وأصبح في مقدور الوالد أن يهبط من الفراش مستندا على شيء من يمين ويسار في حيطه وبجهده جهيد ، تراجعت آماليا وتركته لنا •

مخططات أوجا :

— واتجه التفكير الآن في ايجاد عمل للوالد تكون لديه القدرة عليه ، أى عمل يجعله على الأقل يعتقد ان الغرض منه هو درء الذنب عن الأسرة • ولم يكن من الصعب العثور على عمل من هذا النوع ، ولم يكن القعود أمام مزرعة برتوخ في الحقيقة سوى عملا قوامه النية والنية فقط ، ولكنني وجدت عملا اعطاني بعض الأمل • كان الحديث اذا دار في المكاتب أو على لسان الكتبة عن ذنبنا ، يقتصر على الاشارة الى اهانة ساعى سورتيني ، ولم يكن هناك من يجرؤ على الدخول في الامر الى أبعد من هذا الحد • وعلى هذا قلت في نفسي ، اذا كان الرأي العام ، على الأقل فيما يبدو ، لا يعرف الا عن اهانة سورتيني ، فمن الممكن ، على الأقل ظاهريا ، اصلاح الموضوع اذا ما طيبنا خاطر الساعى • فليس هناك عريضة اتهام ، على نحو ما قالوا ، وليس هناك مكتب يعالج الموضوع ، ولهذا فللساعى حرية الصفح عما مس شخصه ، وما يزيد الموضوع في الحقيقة عن ذلك • ولم يكن من المحتمل أن يتسم هذا الأمر بأهمية حاسمة ، فما كان الا أمرا ظاهريا ، وما كان يمكن أن يتطور على نحو آخر ، وستكون النتيجة أن الوالد سيبتهج ، ولعلنا نستطيع ارضاء له أن نصيق الخناق على أولئك الذين قدموا اليه المعلومات والبيانات وعذبوه بها ، وكان أول ما ينبغي فعله هو بطبيعة الحال العثور على الساعى • فلما حكيت للوالد عن الحطة غضب في بداية الأمر غضبا شديدا ، لأنه كان قد أصبح عنيدا مفرطا في العند ، وكان تارة يعتقد — ولقد حدث هذا أثناء مرضه — اننا عقناه عن الوصول الى النجاح النهائي بقطعنا العون المالى عنه أولا ، وبالزامه الفراش الآن ، وكان تارة أخرى عاجزا عن استيعاب أفكار الآخرين • وكان أن رفض الخطة قبل أن أفرغ من عرضها ، وكان رأيه انه ينبغي عليه أن يستأنف الانتظار عند مزرعة برتوخ ، ولما لم يكن يستطيع السعى الى هناك على قدميه كل يوم ، فمن الواجب أن ننقله الى هناك بعربة اليد • ولكنني لم أفقد الأمل ، وكررت المحاولة واذا به يتقبل الفكرة تدريجيا ،

ولم يكن يزعجه الا انه سيكون فى الامر كله تابعا لى ، فانا التى كنت قد رأيت الساعى آنذاك ، وهو لا يعرفه والحقيقة أن السعاة يتشابهون ، واننى لم أكن واثقة تمام الثقة من أننى سأتعرف على الساعى المقصود ان رأيتة . وبدأنا نذهب الى حان السادة ونبحث بين الخدم . والحقيقة أن الساعى كان خادما لدى سورتينى ، وكان من المحتمل جداً أن نجده بين خدم سيد آخر ، واذا لم تتمكن من العثور عليه ، فربما كان من الممكن أن نحصل على أخبار عنه من الخدم الآخرين . وكان ينبغي علينا لهذا أن نذهب فى كل مساء الى حانة السادة ، ولم يكن هناك مكان نلقى فيه ترحيبا ، فما بالك بهذا المكان الذى لم يكن كل من لديه مال يستطيع الظهور فيه . ولكنهم هناك تبينوا انهم يحتاجون الينا ، وأنت لا شك تعرف كيف كانت فريدا تعاني من الخدم معاناتها من الكارثة الحالة ، والحقيقة ان الخدم فى الغالب أناس هادئون دلهم العمل الخفيف وأصابهم بالتثاقل . والموظفون عندما يدعى أحدهم للآخر دعوة طيبة يقولون «عسى تنعم بما ينعم به الخدم !» ، ويقال ان الخدم هم من ناحية التنعم السادة الحقيقيون فى القصر ، وهم يعرفون كيف يظهرن بمظهر هادئ وقور حيث يخضعون لقوانين القصر — وقد أكد لى الكثيرون هذه الحقيقة — ونحن نجد هنا بقايا من هذا المسلك ، ولكنها مجرد بقايا، وفيما عدا ذلك يبدو الخدم هنا فى القرية حيث لا تسرى عليهم قوانين القصر كاملة وكأنهم يتحولون الى أناس آخرين . انهم هنا جبهة غاشمة جامحة لا تخضع للقوانين بل تخضع لسهواتها التى لا تشجع . ان فجورهم لا يعرف حدا ، ومن حسن حظ القرية انهم لا يخرجون من حان السادة الا بأمر ، أما فى حان السادة فينبغى على المرء أن يجد وسيلة للتصرف معهم . ولقد لقيت فريدا فى هذا السبيل صعوبة شديدة ، ولهذا رحبت ترحيبا كبيرا باستخدامى لتهدة الخدم . فانا أذهب منذ أكثر من عامين على الأقل مرتين اسبوعيا فأقضى الليل مع الخدم فى الحظيرة . وكان أبى فيما مضى ، عندما كان يستطيع الذهاب معى الى حانة السادة ، ينام فى ركن ما بقاعة الشراب وينتظر قدومى فى الصباح المبكرة بأخبار جديدة . وكانت تلك الاخبار قليلة جدا . ونحن الى اليوم لم نعر على الساعى الذى نبحث عنه ، ويقال انه لا يزال يعمل فى خدمة سورتينى الذى يقدره أشد التقدير ، ويقال انه تبعه عندما انتقل ليعتكف فى مكتب بعيد من مكاتب المستشارية . وكانت حال غالبية عليه مثل حالنا ، قد مضى عليهم وقت طويل لم يروه ، واذا ادعى أحدهم انه رآه ، فلم يكن ادعاؤه الا خطأ . وبهذا قد يمكن القول بأن خطتى فشلت ، ولكنها فى الحقيقة لم تفشل كلية ، فنحن لم نجد الساعى ، وحالة الوالد قد تدهورت للأسف

تماما نتيجة لذهابه الى حان السادة ونومه هناك وربما كذلك نتيجة
 لاشفاقه على - على قدر ما كان قبل بقي لديه من قدرة على الاشفاق -
 وانتهى الى الوضع الذى رأبته عليه ، ولعل حالته أفضل من حالة الأم التى
 نتوقع فى كل يوم وفاتها ، وما يؤجل وفاتها الا جهد أماليا الخارقة
 للمألوف فى العناية بها . أما الشيء الذى حققته فى حان السادة فيتمثل
 فى ارتباط ما بالقصر . ولا تحتقرنى اذا قلت لك اننى لا أندم على
 ما فعلت . ولعلك تتساءل عما يمكن أن يكون عليه هذا الارتباط من
 الاهمية . وأنت على حق . فليس الارتباط كبيرا . فأنا أعرف الآن خدما
 كثيرين ، أو أعرف على وجه التقريب خدم كل السادة الذين نزلوا الى
 القرية فى السنوات الماضية ، واذا أنا ذهبت يوما الى القصر ، فلن أكون
 غريبة هناك . حقيقة ان هؤلاء الذين أعرفهم هم الخدم فى القرية ، وانهم
 فى القصر غيرهم هنا ، ولعلمهم وهم هناك لا يعرفون أحدا وبخاصة لا يعرفون
 من كانت لهم به علاقة فى القرية ، على الرغم من أنهم قد أقسموا لى فى
 الحظيرة مائة مرة على أنهم سوف يفرحون أشد الفرح بلقائى فى القصر .
 ولقد علمت قلة ما تعنيه مثل هذه الوعود . ولكن هذا ليس أهم ما فى
 الأمر . فان علاقتى بالقصر لا تقوم على الخدم فحسب ، بل تقوم على أننى
 أتوقع وأمل أن يكون هناك واحد يلاحظنى ويلاحظ ما أعمل - وليس من
 شك فى أن ادارة الخدم الكثيرين قسم بالغ الاهمية ، جم الاهتمام فى
 الديوان - وأن هذا الذى يلاحظنى قد يصل الى حكم على أكثر رقة ، وقد
 يتبين أننى أقوم - بطريقة مؤسفة حقيقة - بالنضال من أجل أسرتنا
 وباستئناف جهود الوالد . واذا تصور الانسان الأمر على هذا النحو فقد
 يغفر لى قبولى المال من الخدم وصرفه على أسرتنا . هذا الى أننى حققت
 شيئا آخر ، لا شك فى أنك ستضيفه الى ذنبى . لقد عرفت من الخدم
 شيئا عن كيفية الوصول الى الدخول فى خدمة القصر بطرق ملتوية ،
 ودون ما حاجة الى طريقة التعيين العامة الصعبة التى تطول الى أعوام ،
 والحقيقة ان الانسان لا يصبح بهذه الطرق الملتوية موظفا عاما ، بل
 موظفا سريا بنصف ترخيص ، ليس له حقوق وليس عليه واجبات ، وأقبح
 ما فى الأمر أن الانسان لا تكون عليه واجبات ، وانما يتحقق للانسان
 شيء ، وهو أنه يكون بجوار كل الامور : فيستطيع أن يتبين الظروف
 السانحة وأن ينتهزها ، واذا لم يكن الانسان موظفا ، فقد يجد بالمصادفة
 عملا ما ، فقد يحدث أن يستدعى موظف ليس موجودا فى تلك اللحظة
 بالذات ، فيعجل الانسان بتلبية النداء ، واذا به يصبح ما لم يكن منذ
 لحظة : يصبح موظفا . ولكن متى يجد الانسان مثل هذه الفرصة ؟ ربما
 فى الحال ، فما يكاد الانسان يدخل ، ما يكاد يتلفت حواليه ، حتى تكون

وهو المبتدىء ، يدركها وينتهزها ، - وربما مرت السنوات التى تزيد على المدة التى تتطلبها طريقة التعيين الرسمية دون أن يجد الانسان الفرصة ، ومن كان موظفا بنصف ترخيص من هذا النوع لا يحق له أن يدخل سلك الوظائف بالطريقة الرسمية . وهذا يعنى ان المحاذير كثيرة . ولكنها قليلة بالقياس الى طريقة التعيين الرسمية التى تدقق أفضح التدقيق فى الاختيار والتى لا تنبذ من البداية من كانت عائلته مشبوهة فى سمعتها، ان من كانت تلك هى حالة يرتعد سنوات طويلة عندما يتقدم للتعين عن هذا السبيل انتظارا للنتيجة ، والجميع يسألونه من كل ناحية مندهشين منذ اليوم الاول كيف يجرؤ على السعى الى شيء ميثوس منه على هذا النحو، ولكنه يتعلق بشيء من أمل والا كيف يمكنه أن يعيش ؟! وتمر أعوام طويلة ، ربما يكون قد أصبح بعدها شيخا متقدما فى السن ، ويتلقى الرفض ، ويعلم أن كل شيء قد ضاع وان حياته كانت عديمة الجدوى . وهناك بطبيعة الحال استثناءات ، وهذا هو ما يغرى . فقد يحدث أن يقبل فى نهاية المطاف أناس من ذوى السمعة المشبوهة ، وهناك موظفون يحبون رغم ارادتهم رائحة مثل هذه الحياة الغشيمة ، فاذا هم أثناء اختبارات التعيين يشمشمون بأنوفهم ، ويزمون بأنوفاهم ، ويقلبون عيونهم ، فمثل هذا الرجل المشبوه السمعة يلوح لهم جذابا مثيرا للشبهة الى درجة هائلة ، فلا يستطيعون مقاومته الا بالاستمساك العنيف بكتب القانون وما احتوت من مواد . وقد يحدث فى بعض الأحيان ألا يساعد ذلك الرجل على التعيين ، بل يؤدي الى اطالة اجراءات التعيين اطالة لانهاية لها فهى لا تنتهى الى نهاية بل توقف بعد وفاة الرجل . وهكذا فان طريقة التعيين الرسمية القانونية ، وكذلك الطريقة الاخرى تمثلتان جميعا بالصعوبات المكشوفة والمستترة ، ومن الفطنة أن يزن الانسان الامور كلها وزنا دقيقا قبل أن يقدم على شيء من هذا القبيل . ولقد عكفنا برناباس وأنا على وزن الامور وزنا دقيقا ، كنا نجلس معا ، عندما أعود من حان السادة ، فأحكي الجديد من الاخبار التى نمت الى علمى ، ونظل عاكفين على مناقشتها الايام الطوال ، وكان العمل يظل فى يد برناباس أطول مما ينبغى . وربما وقع على فى رأيك هنا ذنب . لقد كنت أعرف أن حكايات الخدم لا يعتمد عليها كثيرا ، وكنت أعرف أنهم لم يكونوا يحبون الحديث الا عن القصر ، وانهم كانوا يحولون انتباهى الى أمور أخرى ، وانهم كانوا لا يقولون الكلمة الا بعد توسل واستجداء ، ولكنهم كانوا اذا تحركت نفوسهم ، يتكلمون فيثثرون بالكلام الفارغ ، وبيالغون ويتزايدون فى المبالغة والتخريف ، فلا يكون على ما يبدو فى التصايح اللانهائى الذى يتبع الواحد فيه منهم الآخر على أفضل الفروض أكثر من

بصعة اشارات ضئيلة . أما أنا فكنت أحكى لبرناباس كل شيء على نحو ما شاهدت ولاحظت ، وكان هو - ولم تكن لديه القدرة على التمييز بين الصدق والكذب ، وكان نتيجة لوضع أسرتنا متعطشا الى الاستماع الى مثل هذه الأشياء - يتجرع هذه الاخبار تجرعا ويتحرق شوقا الى مزيد . وهكذا وقعت خطتي التالية بالفعل على برناباس . لم يعد هناك أمل فى بلوغ المزيد عن طريق الخدم . ولم يكن هناك أمل فى العثور على العثور على ساعى سورتينى ، ولم يكن هناك أمل فى العثور عليه يوما ما ، ولاح الأمر كان سورتينى وبالتالي الساعى ينحازان الى بعيد ، وكثيرا ما اكتنف منظرهما واسمهما النسيان ، وكنت أضطر فى أحوال كثيرة الى وصفهما بأسهاب ولا أصل فى النهاية الى نتيجة أكثر من أن سامعى يذكرهما بصعوبة ولا يستطيع أن يذكر لى من أمرهما أكثر من هذا . أما حياتى مع الخدم فلم يكن لى بطبيعة الحال تأثير على كيفية الحكم عليها ، وكنت أمل أن ينتظر إليها على النحو الذى تسير عليه ، وأن يقطع شيء ولو ضئيل من ذنب الأسرة ، ولكنى لم أجد من الدلائل ما يبين لى ذلك . ومع ذلك فقد بقيت عليها ، نظرا لأننى لم أكن أعرف لى امكانية أخرى للحصول على شيء فى القصر . ولكنى وجدت لبرناباس امكانية فى القصر . ذلك اننى كنت عندما أرغب - ولقد كنت شديدة الرغبة - أستطيع أن أتبين أن من يدخل فى خدمة القصر يستطيع أن يحقق الكثير لعائلته . والسؤال هو بطبيعة الحال الى حد يمكن تصديق هذه الحكايات ؟ لم يكن من الممكن تبين هذا ، ولكننى كنت على بينة من ان ما يمكن الوصول اليه على هذا النحو قليل . فاذا أكد لى مثلا خادم لن أراه فى المستقبل أبدا ، وحتى لو رأيته فلا يكاد يكون فى مقدورى معرفته ، انه سيساعد أخى على الحصول على وظيفة فى القصر ، أو أنه سيساعده على الأقل اذا ما هو أتى الى القصر بأى وسيلة ، فيقدم اليه مثلا ما ينعشه - فقد علمت من حكايات الخدم أن المتقدمين للوظائف يفقدون الوعى أثناء فترة الانتظار الطويلة أو يضطربون فيضيع عليهم كل شيء اذا لم يتول الاصدقاء انعاشهم - فأننى أحمل هذه الحكايات على انها تحذيرات صحيحة على ما يبدو ، وان كنت متأكدة من أن الوعود المتصلة بها لا أساس لها . ولم يكن الأمر على هذا النحو بالنسبة لبرناباس . حقيقة أننى حذرته من أن يصدق هذه الحكايات ، ولكننى ما كدت أحكى له حتى كفاه هذا سببا لقبول مشروعاتى . ولم تكن حكاياتى أنا هى التى أثرت عليه الأثر الاكبر ، بل أثرت عليه خاصة حكايات الخدم . وهكذا وجدت أننى لا أعتد الا على نفسى وحدى كل الاعتماد ، فلم يكن هناك من يستطيع التفاهم مع أبى وأمى سوى أماليا ، وكانت أماليا تعتزلنى أكثر فأكثر كلما أمعنت فى

استئناف مخططات أبى على طريقتى ، وهى قد تتكلم معى أمامك أو أمام الآخرين ، ولكننا لا نتكلم معا مطلقا عندما نكون وحدنا . ولقد تحولت فى يد الخدم فى حان السادة الى لعبة كانوا يبذلون كل الجهود لتحطيمها مغتاضين . أننى لم أتكلم مع واحد منهم فى السنتين الماضيتين كلمة واحدة تقوم على الألفة والود ، فكل الكلام هناك خبث وكذب وجنون ، وهكذا لم يعد أمامى سوى برناباس ، ولقد كان برناباس صغير السن جدا . وكنت وأنا أحكى له حكاياتى وأرى فى عينيه البريق الذى احتفظ به منذ ذلك الحين ، أفزع ، ولكننى لم أكن أراجع ، لأن اللعبة كانت تغرى بالكثير . وأنا لم أكن أتابع بطبيعة الحال مخططات كمخططات أبى التى كانت كبيرة وإن كانت فى الوقت نفسه فارغة جوفاء ، ولم يكن لدى تصميم الرجال ، ولهذا اكتفيت بالسعى لاصلاح اهانة الساعى ، وكنت أرجو أن يذكر التواضع من بين ميزاتى . وهكذا أخذت أسعى عن طريق برناباس سعيا وثيقا وعلى نحو مختلف الى تحقيق ما قد فشلت أنا فى تحقيقه . لقد أهنا ساعيا وتسببنا فى انعزاله عن المكاتب القريبة ، فليس هناك شئ أقرب الى التفكير . من أن نقدم فى شخص برناباس ساعيا آخر ، ونجعل برناباس يقوم بعمل الساعى المهان ، ونمكن بهذا للساعى المهان من البقاء فى البعد هادئا ما شاء من وقت حتى ينسى الاهانة . والحقيقة أننى تبينت أن هذه الخطة المتواضعة لا تخلو من تكبر ، فهى قد توحى بأننا نريد أن نملى على السلطات كيف تنظم شئون الأفراد أو بأننا نشك فى أن السلطات لها القدرة من تلقاء ذاتها على اتخاذ أفضل التدابير ، بل فى أنها قد اتخذت من تلقاء ذاتها بالفعل أفضل التدابير قبل أن يخطر ببالنا بوقت طويل أن هناك ما يمكن اتخاذه من تدابير . ولكننى عدت أعتقد انه من المحال أن تسمى السلطات فهمى الى هذا النحو ، وإن السلطات اذا فعلت هذا فانها لا تفعله الا بغرض وعن قصد ، ومن هنا فان فكرة بحث كل ما أقوم به من جهود مرفوضة أصلا . ولهذا فلم أنصرف عما انتويت عليه ، وأعاننى على ذلك طموح برناباس . ولقد استبدت الكبر برناباس فى فترة التمهيد والاستعداد حتى انه اعتبر العمل فى صناعة الأحذية عملا قدرا بالنسبة اليه عندما يصبح فى المستقبل موظفا فى المستشارية . بل انه تجاوز ذلك وأصبح يجرو على معارضة أماليا اذا تحدثت اليه بكلمة ، وهو ما كان يحدث نادرا ، وكان يعارضها عن مبدأ . وسمحت له عن طيب خاطر بهذه المتعة السريعة التى انتهت هى والكبرياء بسرعة ، كما كنت أتوقع ، فى اليوم الأول لذهابه الى القصر . وبدأ برناباس عمله الظاهرى الذى حكيت لك عنه . وكان دخول برناباس للمرة الاولى بدون صعوبة الى القصر أو على الأصح الى هذا القسم من الديوان الذى سيصبح

ان صح التعبير ، مكان عمله ، مثارا للدهشة . لقد أوشك هذا النجاح الذى حققه أن يذهب بعقلي آنذاك ، وجريت من فورى الى أماليا ، عندما همس الى برناباس فى طريق عودته الى البيت بالخبر ، وأمسكت بها ، وضممتها الى فى ركن ، وقبلتها بشفتى وأسنانى بعنف فبكت من الألم والفرع . ولم أستطع من فرط انفعالى أن أقول لها شيئا ، ثم اننا لم نكن قد تحادثنا معا منذ وقت طويل ، فأجلت الحديث الى يوم تال . فلما كانت الايام التالية لم يعد هناك كلام يقال . فلم يزد ما بلغناه بسرعة بعد ذلك شيئا . وظل برناباس عامين كاملين يعيش هذه الحياة الرتيبة المقبضة . لقد أعرض الخدم كل الأعراض ، وكنت قد أعطيت برناباس خطابا صغيرا أوصيت الخدم فيه بأن يولوه اهتمامهم ، وذكرتهم فيه بوعودهم . وعلى الرغم من أن برناباس كان أحيانا يقع على خدم لا أعرفهم ، وبالرغم من ان طريقة برناباس كانت تشير الغيظ فقد كان ينشر الخطاب ويصمت ولا يجروء على الكلام فى المكان العالى — فانه من المخجل انهم لم يساعدوه ، حتى جاءه أحدهم بالخلاص — خلاصا وكان يمكننا نحن أن نحققه وحدنا ومنذ وقت طويل — ولعل هذا الخادم الذى جاءه بالخلاص كان قد رأى الخطاب عدة مرات ييسط أمامه ويفرض عليه فرضا . ولم يكن الخلاص يتمثل الا فى أنه أخذ الخطاب وكمسه فى يده وألقى به فى سلة المهملات . ولقد خطر ببالي انه أوشك أن يقول : « انكم قد اعتدتم على معالجة خطابتنا على النحو نفسه . » وعلى الرغم من ان هذه الفترة ظلت بلا نتيجة فانها كانت طيبة التأثير على برناباس ، اذا شاء الانسان أن يرى أثرا طيبا فى أنه تقدم فى السن قبل الأوان وأصبح رجلا قبل الأوان . أما أنا فكثيرا ما كنت أحس بالحزن عندما أتطلع اليه وأقارنه بالصبين الذى كانه قبل عامين . هذا على الرغم من أننى أفترق الى السلوى والمساندة اللتين يمكن أن يمنحنى اياهما عندما يكون رجلا . انه ما كان ليصل الى القصر بدونى ، لكنه منذ وصل الى هناك أصبح مستقلا عنى ، وأنا صفيته الوحيدة ، ومع ذلك فهو بكل تأكيد لا يحكى لى الا جزءا صغيرا مما يشغل قلبه . انه يحكى لى كثيرا عن القصر ، ولكن الانسان لا يستطيع استنتاجا من حكاياته ومن الوقائع الصغيرة التى يذكرها أن يفهم ولو من بعيد ، كيف حوره القصر وجعله على هذا النحو . ان الانسان لا يستطيع بصفة خاصة أن يفهم كيف فقد الآن ، وقد أصبح رجلا ، الشجاعة كل الشجاعة التى كانت لديه صبيا ، والتى كانت آنذاك عنيفة نخشى كلنا نتائجها كل الخشية . ان الوقوف والانتظار باستمرار يوما بعد يوم بدون فائدة ، وبدون ما أمل فى التغيير ، يصيبان الانسان بالخور واليأس ، ويجعلانه فى النهاية عاجزا عن أن يفعل شيئا سوى هذا الوقوف اليائس . ولكن

لماذا لم يقاوم فيما مضى ؟ انه لم يفعل لأنه تبين بعد قليل اننى كنت على حق ، وأن الطموح لا هدف له هناك ، الا احتمال تحسين وضع أسرتنا . ذلك ان كل شيء هناك - باستثناء نزوات الخدم - متواضع جدا ، ان الطموح يلتصق اشباعه فى العمل ، ونظرا لأن الموضوع يكتسب فى هذه الحالة بالاهمية الكبرى ، فان الذات تتلاشى تماما ، وليس هناك مكان للرجبات الصبيانية . ولقد اعتقد برناباس ، على ما حكى لى ، انه رأى بوضوح عظم سلطان وعلم الموظفين ، حتى أولئك الموظفين الذين تحوم حولهم الشكوك الكثيرة ، والذين أتيح له أن يلجح حجرتهم . لقد رأى كيف يملون بسرعة بعيون توشك أن تنقفل ، وأيد لا تأتى الا بحركات قصيرة ، وكيف ينهون الاعمال مع الخدم الغلاظ بحركة من السبابة لا ينطقون معها بكلمة ، فيهرع الخدم فى تلك اللحظات وهم يلهثون فى صعوبة ويبتسمون فى سعادة ، ورأى كيف يجدون النص المعقد فى كتبهم وينكبون عليه ، وكيف يندفع الآخرون ، على قدر ما يسمح لهم المكان الضيق بالاندفاع ، ويمدون نحوه رقابهم . وكان أن أحدثت هذه الأشياء وأشباهاها فى ذهن برناباس صورا عظيمة لهؤلاء الرجال ، وأحس بأنه ، لو تمكن من أن يجعلهم يلحظونه ويسمحون له بأن يتحدث اليهم ببضع كلمات - لا باعتباره غريبا ، ولكن باعتباره زميلا فى المستشارية . . زميلا قليل الرتبة بطبيعة الحال - فانه سيتمكن من تحقيق أشياء لأسرتنا لا قبل لأحد على التنبؤ بها . ولكنه لم يصل الى هذا الحد ، وبرناباس لا يجرؤ على فعل شيء من شأنه أن يقربه اليه ، على الرغم من انه يعرف تماما ، انه بغض النظر عن شبابه وسقط أسرنا ، قد تقدم نتيجة للظروف المؤسفة الى مرتبة رب الأسرة المثقلة بالمسئولية . وهنا أصل الى آخر ما اعترف لك به : لقد أثبتت أنت الى هنا منذ أسبوع . وسمعت أنا فى حان السادة شخصا يشير الى ذلك فلم أعبا بالامر . لقد أتى موظف مساحة . ولم أكن أعرف حتى معنى العبارة . وفى المساء التالى جاء برناباس الى البيت مبكرا - وكنت معتادة على الذهاب للملاقاتة فى ساعة معينة والسير معه جزءا من الطريق ، فرأى آماليا فى الحجرة ، ولهذا جرنى الى الشارع ووضع وجهه على كتفى وبكى عدة دقائق . لقد تحول من جديد الى الصبى الذى كانه فيما مضى . لقد حدث له شيء لم ينم بعد النمو الكافى لاحتماله . كان يبدو وكان عالما جديدا انفتح أمامه فجأة وكأنه لا يستطيع تحمل ما فى هذا الجديد من سعادة وهموم . ولم يكن ما حدث له يزيد عن أنه تلقى خطابا ليسلمه اليك . ولكن هذا الخطاب كان الخطاب الأول ، وكان العمل الأول الذى يوكل اليه .

وسكنت أولجا . وساد المكان سكون ، الا من صوت تنفس الوالدين

الثقيل الذى كان من حين لآخر يتحول الى حشرجة • وقال ك ببساطة
وكانه يكمل رواية أولجا :

— لقد تنكرتم أمامى ، وأحضر برناباس الى الخطاب وكأنه ساع قديم
كثير العمل ، وكذلك تصنعت أنت وأماليا — وفى هذا كنتما متفقتين —
أن احضار الخطابات ومهمة الساعى من الامور الثانوية •

فقالت أولجا :

— ينبغى أن تفرق بيننا • أما برناباس فقد تحول نتيجة للخطابين
على الرغم من شكوكه فى عمله الى صبى سعيد • وهذه الشكوك تمسه هو
وتمسنى أنا ، أما أنت فانه يتشرف بأن يظهر حيالك بمظهر الساعى
الحقيقى على قدر ما يتصوره • ولقد كلفنى على سبيل المثال ، على الرغم
من أن أمله فى الحصول على بدله رسمية قد تزايد ، بأن أغير له فى ظرف
ساعتين شكل سراويله حتى يكون شكلها على الأقل مشابها لشكل سراويل
البدلة الرسمية ، وحتى يلوح لك ، لأن خداعك فى هذه الناحية بطبيعة
الحال أمر هين ، فى هيئة لا تثير شكوكك • هذا عن برناباس • أما أماليا
فانها فى الحقيقة تحتقر عمل الساعة ، وهى الآن تحتقره أكثر من ذى قبل
بعد أن لاح على برناباس أنه حقق فيه شيئا من النجاح ، ومن السهل
عليها أن تتبين ذلك من هيئة برناباس ومن جلوسنا معا وتهامسنا •
فهى اذن صادقة فى كلامها ، ولا ينبغى أن تشك فى كلامها هذا بحال من
الاحوال والأضللت فى شكل كل الضلال • هذا عن أماليا • أما أنا فاذا
كنت ، يا ك ، قد قللت فى بعض الأحيان من قدر عمل الساعى ، فلم أكن
أقصد الى خداعك ، بل كنت أتصرف عن خوف • فهذان الخطايان اللذان
مرا عن طريق يد برناباس هما آية المنة الاولى — وان كان الشك يكتنفها
من كل جانب — التى تلتقاها أسرتنا منذ ثلاث سنين • وهذا التحول —
اذا كان فى الحقيقة تحولا وليس خداعا ، فالخداع أكثر من التحول —
يرتبط بوصولك الى هنا ، ولقد ارتبسط مصيرنا بمصيرك بنوع ما من
التبعة ، ولعل هذين الخطابين مجرد بداية ، ولعل عمل برناباس كساع
يتجاوز حدود مهمته معك الى ما عداها — وهذا شيء نتمناه ما استطعنا •
ولكن الامور الى الآن لا تتجه الا الى هدف واحد هو أنت • أما فيما يختص
بالقصر فينبغى علينا أن نرضى بما يقسم لنا هناك ، وأما فيما يختص
بالقرية هنا ، فربما استطعنا أن نفعل نحن شيئا ، أعنى : ضمان رضاك
أو على الأقل اتقاء نفورك ، وأهم من هذا وذاك حمايتك بكل ما أوتينا من
قوة وخبرة حتى لا تضيع عليك الصلة بالقصر ، تلك الصلة التى ربما
نستطيع الحياة منها • وكيف السبيل الى تدبير هذا على أحسن وجه ؟

الا تساورك الشكوك حيالنا عندما نقترّب منك ، لأنك هنا غريب ولأنك بكل تأكيد تمتلئ من كل ناحية بالشك ، بالشك الذى له ما يبرره . ونحن نتعرض للاحتقار ، وأنت تتأثر بالرأى العام وتتأثر خاصة بخطيبتك . فكيف نتقدم نحوك ، دون أن نقف فى وجه خطيبتك - وليس هذا غرضنا - ودون أن نحدث بك نتيجة لذلك الألم ؟ ثم ان الرسائل التى قرأتها أنا بدقة قبل أن تتسلمها أنت - ولم يقرأها برناباس لأنه لا يسمح لنفسه كساع بمثل هذا التصرف - لاحظ لى من النظرة الاولى غير ذات أهمية كبيرة ، وقديمة ، ولقد تجردت من الأهمية بتحويلها اياك الى رئيس القرية . فكيف يكون سلوكنا حيالك فيما يختص بهذه الناحية ؟ هل نؤكد لك أهميتها ، فنضع أنفسنا موضع الريبة ؟ اننا بهذا نبالغ فى قيمة شيء تفاهته واضحة ، ونحضك ، باعتبارنا حملة الأخبار على أن تسير الى أهدافنا لا الى أهدافك ، لقد كان فى استطاعتنا أن نقلل من أهمية الأخبار نفسها فى نظرك ، وأن نعشك رغما عنا . هل ننصرف عن اضافة قيمة كبيرة الى الخطابات ، فنضع أنفسنا كذلك فى موضع الريبة ؟ فلماذا نشغل أنفسنا بتوصيل هذه الخطابات العارية عن الأهمية ؟ ولماذا تناقضت أفعالنا وكلماتنا ، ولماذا خدعناك ، وخدعنا علاوة عليك صاحب العمل الذى لم يسلمنا بكل تأكيد الخطابات لكى نجدها من القيمة لدى متسلمها بما تقدم اليه من تفسيرات ؟! والحل الوسط ، أى اتخاذ موقف بين المبالغة الى هذه الناحية والمبالغة الى تلك ، وبعبارة أخرى الحكم على الخطابات الحكم الصحيح ، مستحيل . فهذه الخطابات نفسها تغير قيمتها باستمرار ، والأفكار التى تدفع الخطابات الى تكوينها ، لا نهاية لها ، والفكرة التى يتوقف الانسان عندها تحدث بالمصادفة ، وهذا يعنى ان الرأى وليد المصادفة . فاذا تدخل الخوف عليك فى الأمر ، اضطرب كل شيء . ولا ينبغي أن تحكم على كلامى حكما قاسيا مفرطا فى القسوة . فعندما يأتى برناباس ، على سبيل المثال - وهذا قد حدث - ويقول انك غير راض عن خدمة الساعى ، وانه عرض ، وهو فى غمرة الفزع الأول وعلى نحو لم يتجرد للأسف من حساسية الساعة ، أن يعتزل هذه الخدمة ، فانتى مستعدة تصحيحا للخطأ للخداع والكذب والغش ، وارتكاب الشرور من كل نوع اذا كانت تعين على شيء . ولكننى فى هذه الحالة أنصرف على هذا النحو ، على الأقل حسب اعتقادى ، من أجلك ومن أجلنا .

وقرع أحدهم الباب . وهرعت أولجا الى الباب وفتحته ، فانساب فى وسط الظلام شريط من الضوء المنبعث من المصباح فى الخارج . وألقى الزائر المتأخر أسئلة هامسة ، وتلقى عليها اجابة هامسة ،

ولكنه لم يرض بها ، وأراد أن يدخل الى الحجرة . ويبدو أن أولجا لم تستطع
وده فنادت على أماليا والظاهر انها كانت تتوقع منها أن تفعل ما فى
مقدورها لتبعد الزائر صونا لنوم الوالدين . وبالفعل أسرع أماليا
ودفعت أولجا جانبا وخرجت الى الشارع وأغلقت وراءها الباب . ولم تبق
فى الخارج سوى لحظة واحدة ، وعادت توا ، وقد حققت بسرعة ما عجزت
عنه أولجا .

وعلم ك من أولجا أن الزائر كان يريد هـ ، وأن الزائر هو أحد
المساعدين أتى بتكليف من فريدا للبحث عنه . وأرادت أولجا أن تحمى ك
من المساعد ، وإذا كان ك ينوى أن يعترف فيما بعد بالزيارة فله أن يفعل ،
ولكنها لم ترد أن يكتشفه المساعد . ووافق ك على رأيها . ولكن ك رفض
عرض أولجا بأن يقضى الليلة هنا وينتظر عودة برناباس . والحقيقة انه
لم يكن من المستبعد أن يقبل العرض لأن الوقت كان قد تأخر ، هذا الى
أن ك تصور أنه ، سواء رضى أم لم يرض ، قد أصبح مرتبطا بهذه الأسرة ،
بحيث ان قبوله النوم هنا ، وان كان لاعتبارات أخرى شيئا مؤسفا ، هو
أكثر الأمور طبيعية بالنسبة اليه فى القرية كلها ، ومع ذلك فقد رفض ،
لأن زيارة المساعد قد أفزعته ، ولم يفهم كيف أن فريدا ، التى تعرف
ما صمم عليه ، لم تتردد ، وقد عاد اليها المساعدان اللذان تعلمتا كيف
يخشيانه ، فى ارسال أحد المساعدين اليه ، نعم أحد المساعدين ، بينما
بقى الآخر لديها . وسأل أولجا عما اذا كان لديها سوط ، فعلم أن ليس
لديها ، ولكنه وجد لديها عصا جيدة فأخذها ، وسأل أولجا هل للبيت
مخرج آخر ، وعلم ان البيت له بالفعل مخرج آخر يؤدى الى الفناء ، وعلى
من يريد أن يصل من خلاله الى الشارع أن يتسلق جدار الحديقة المجاورة
وأن يجتاز هذه الحديقة حتى يصل اليه . وقرر ك أن يسلكه . واقتادته
أولجا خلال الفناء الى السور ، وكان فى أثناء ذلك يهده على عجل من
روعها ، ويوضح لها انه غير غاضب عليها لما عمدت اليه من لمسات فنية
صغيرة أضافتها الى روايتها ، بل انه على العكس من ذلك يفهمها كل الفهم ،
ويشكرها على الثقة التى أولته اياها والتى برهنت عليها بروايتها ، وكلفها
بأن ترسل اليه برناباس فور عودته الى المدرسة حتى ولو فى ظلمة الليل .
وقال لها ان رسائل برناباس ليست فى الحقيقة كل أملها ، والا لكانت
حاله فى غاية السوء ، ولكنه لا يريد بحال من الأحوال أن يفرط فيها ، انه
يريد أن يتمسك بها ، وألا ينسى أولجا ، فهى تكاد تكون أهم من الرسائل:
أولجا بشجاعتها وسعة أفقها وفطنتها وتضحيتها من أجل أسرتها . وإذا
كان عليه أن يختار بين أماليا وأولجا فلن يحتاج فى ذلك الى تفكير كثير .
وصافحها بحراة بينما اندفع متسلقا جدار حديقة الجيران .

الفصل السادس عشر

فلما وصل الى الشارع ، رأى - على قدر ما كانت الظلمة العكرة تسمح بالرؤية - المساعد الى بعيد أمام بيت برناباس ، يروح ويجيء ، ويقف أحيانا ويحاول أن يلقي من خلال النافذة ذات الستارة شيئا من الضوء . ونادى ك عليه ، فلم يبد عليه أنه فزع ، بل ترك التجسس وأقبل ناحية ك . وسأله ك وهو على فخذه مرونة العصا :

- عمن تبحث ؟

فقال الساعى وهو يقترب :

- عنك ؟

وقال ك فجأة وكأنما تصور أن الرجل ليس الساعى . ذلك أن الرجل الذى كان يمثل أمامه كان يلوح له أكثر سنا ، وأشد تعباً ، وأكثر تجعداً ، وأسمى وجهاً ، بل إن طريقة مشيه كانت تختلف عن طريقة المشى السريعة المكهربة التى كان المساعدان يصطنعانها . . كان بطيئاً يعرج ويبدو عليه المرض . وسأل الرجل ك :

- ألا تعرفنى ؟ أنا بريمياس مساعدك القديم .

- هكذا !

وسحب العصا الى الأمام قليلا وكان قد واراها خلف ظهره وأردف:

- ولكن منظر ك مختلف تماما !

فقال بريمياس :

- السبب فى ذلك اننى وحدى ، وعندما أكون وحدى ، يولى عنى

الشباب البهيج .

وسأل ك :

— واين اربور ؟

فقال يريمياس :

— أرتور ؟ الحبيب الرقيق ! لقد ترك الخدمة • لقد كنت غليظا •
قاسيا معنا • فلم تحتمل النفس الرقيقة هذه المعاملة • فعاد الى القصر
ليقدم شكوى منك •
وسأل ك :

وأنت ؟

— كان في مقدورى أن أبقي : وأرتور يتولى تقديم شكواى نيابة عني •
وسأل ك :

— ومم تشكوان ؟

فقال يريمياس :

— نشكو من أنك لاتفهم المزاح • فماذا فعلنا ؟ لقد مزحنا قليلا ،
وضحكنا قليلا ، وعاكسنا خطيبتك قليلا ، أما كل ماعدا ذلك فكان فى
حدود المهمة • وعندما أرسلنا جالاتر اليك ••
فسأل ك :

— جالاتر ؟

فقال يريمياس :

— نعم جالاتر ، وكان انذاك يحل محل كلم • أقول عندما أرسلنا
جالاتر اليك ، قال — وأنا سجلت ذلك بدقة ، لأننا نعتمد الآن فى شكوانا
— اذهبا الى هناك مساعدين لموظف المساحة • فقلنا له : اننا لانفهم شيئا
فى هذا العمل • فرد علينا بقوله : ليس هذا أهم ما فى الأمر ، واذا كانت
له بذلك حاجة فسوف يعلمكما • أما أهم ما فى الأمر فهو أن تسريا عنه
قليلا • فلقد بلغنى أنه يحمل الأمور كلها محمل الجد الشديد • ولقد
وصل لتوه الى القرية ، وسيبدو له ذلك كأنه حدث عظيم ، وما هو فى
الحقيقة بشئ ، وينبغى عليكما أن تعلماه ذلك •
فقال ك :

— هكذا ! لقد أصاب جالاتر ! وهل قمتما بهذه المهمة ؟

فقال يريمياس :

— لا أعرف • ولعل ذلك لم يكن فى امكاننا فى الفترة القصيرة التى
أتاحت لنا • اننى لا أعرف الا أنك كنت غليظا جدا ، وهذا هو ما نشكو

منه • وأنا لا أفهم كيف يمكنك ، وأنت مجرد موظف ولست موظفاً في القصر ، ألا ترى أن مثل هذه المهمة عمل شاق وأنه من الظلم البين أن تقوم عامداً ، وبطريقة توشك أن تكون صبيانية ، بتصعيب عمل العامل كما فعلت بعملنا ؟ وهذه البلادة التي تملكك فتركنا نرتعد من البرد عند السور ، وعنك مع أرثور الذي ضربته بقبضتك على الحشية فكدت تفكتك به ، وهو الإنسان الذي يتعذب إذا قيلت له كلمة ثقيلة ، ومطاردتك إياي عصر اليوم يمينا وشمالا في الجليد ، ولقد خارت قواي لذلك ولم أفق لنفسي إلا بعد ساعة من الراحة ، فأنا لم أعد في سن الشباب • فقال ك :

— يا عزيزي يريمياس ، انك على حق في هذا كله ، وينبغي عليك أن تشكو منه لدى جالاتر • لقد أرسلكما من تلقاء نفسه ، وأنا لم أطلب قدومكما • ولما لم أكن قد طلبتكما ، فقد كان لي أن أعيدكما ، وكان الأفضل أن يتم هذا في سلام وألا تستعمل له القوة ، ولكن يظهر انكما لم تكونا تريدان أن يسير الأمر على نحو غير الذي سار عليه • ولكن قل لي ، لماذا لم تتكلم معي عندما اتينما الى بصرache كما تتكلم الآن ؟ فقال يريمياس :

— لأنني كنت في الخدمة ، هذا شيء بديهي •
وسأله ك :

— وأما الآن فلم تعد في الخدمة ؟

فقال يريمياس :

— لم أعد في الخدمة • ولقد قدم أرثور في القصر استقالتنا ؛ أو لنقل على الأقل ان الاجراءات التي ستؤدي الى خلاصنا النهائي تسير في طريقها • وقال ك :

— ولكنك تبحث عني الآن وكأنك لا تزال في الخدمة •

فقال يريمياس :

— لا ، انني لا أبحث عنك الا تهديئة لفريدا • فأنت عندما تركتها بسبب البنيتين البرناباسيتين ، أحسنت بتعاسة شديدة ولم يكن السبب الأول هو فقدانك بل خيانتك • ولقد كانت تتوقع منذ وقت طويل ما حدث ولهذا عانت الكثير • وكنت أنا أمر بجوار نافذة المدرسة لأرى هل عساك زدت تعقلا ، ولكنك لم تكن هناك ، وكانت فريدا هناك وحدها تجلس

على قمطر وتبكي . فذهبت اليها ، واتفقنا . وتم تنفيذ ما اتفقنا عليه بالفعل . أما أنا فأعمل خادما فى حان السادة ، وسأظل على الأقل أقوم بهذا العمل حتى تنتهى ، وأما فريدا فقد عادت الى العمل فى تقديم المشروبات بالخان . وهذا أفضل بالنسبة الى فريدا . فلم يكن من الحكمة أن تصبح زوجة لك . هذا الى أنك لم تعرف كيف تقدر التضحية التى كانت تريد تضحيتها من أجلك . ولكن البنت الطيبة لا تزال تحس من حين لآخر بالقلق وتظن أنها ربما قد ظلمتك وأنك لم تكن عند البنيتين البرناباسيتين . وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك شك بطبيعة الحال فى ذلك ، فقد ذهبت لاثقق من الأمر نهائيا . وان فريدا لتستحق بعد كل هذه المتاعب أن ترتاح ، وأنا كذلك . وهكذا ذهبت ، ولم يقتصر ما توصلت اليه على أنى رأيتك ، بل لقد تبينت كذلك أن البنيتين تتبعانك كأن رباطا يربطكم جميعا . وبخاصة السوداء ، القطة الوحشية ، التى دافعت عنك . ولنكل انسان ذوقه . ومهما يكن من أمر فلم يكن من الضرورى أن تتعب نفسك وتسلك الطريق المار بحديقة الجيران ، فأنا أعرف هذا الطريق .

اذن لقد حدث الشئ الذى كان ك يتوقعه . والذى لم يكن هناك سبيل الى الحيلولة دونه . لقد هجرته فريدا . وليس معنى هذا بالضرورة انها هجرته نهائيا ، وقد يكون الأمر على ما قد يبدو من سوء . لقد كانت استعادة فريدا تبدو له ممكنة . وان ما حدث لأن فريدا تستجيب بسهولة لتأثير الأغراب . وهذان المساعدان يظنان أن مركزها شبيه بمركزهما ، لقد اعتزلا العمل مع ك ودفعنا فريدا الى هجرانه . وما ينبغى على ك الآن الا أن يظهر أمامها . وأن يذكرها بكل شئ فى صالحه ، حتى تندم وتعود اليه ، خاصة ان استطاع أن يبرر زيارته للبنيتين بالنجاح الذى يرجع الفضل فيه اليهما . لقد حاول ك أن يهدئ نفسه بهذه الأفكار من ناحية فريدا ، ولكنه لم يهدأ بالا . لقد كان منذ قليل يفخر امام أولجا بفريدا التى قال عنها انها سندة الوحيد ، وهاهو ذا يتبين أن هذا السند لم يكن شديد البأس ، فلم يكن هناك داع لتدخل أحد أصحاب النفوذ لانتزاع فريدا من ك ، لقد كان المساعد يكفى لهذه المهمة . هذا المساعد الذى لاينشرح له الصدر كثيرا ، والذى يشبه كتلة من اللحم يظن الانسان فى بعض الأحيان أنه لا حياة بها بالمعنى الصحيح .

وكان يريمياس قد بدأ فى الابتعاد ، فصاح فيه ك أن يعود ، وقال له :

— يا يريمياس اننى أريد أن أكون صريحا معك ، فأجب بصراحة عن هذا السؤال . فنحن لم نعد نرتبط معا بعلاقة السيد والخدام ، وهذا شيء لا تفرح أنت وحدك له ، بل أفرح أنا كذلك له ، ومعنى هذا أنه ليس هناك سبب لكى يخدع أينما الآخر . وهأنذا أحطم أمام عينيك العصا التى أحضرتها لتأديبك ، فأنا لم أسلك طريق الحديقة خوفا منك ، ولكنى سلكته حتى أفاجئك وأنهال عليك بالعصا عدة مرات . أما الآن فلا تغضب منى لهذا ، فهو ماض انتهى . ولو لم تكن خادما فرضته على السلطات ، بل رجلا عاديا تعرفت به ، لقامت بيننا علاقة ممتازة على الرغم من أن منظر ك يزعجنى أحيانا . وقد يكون فى امكاننا الآن أن نعوض ما فاتنا فى هذه الناحية .

وقال المساعد وهو يطبق عينيه متثابرا فى تعب :

— أظن أن هذا ممكن ؟ لقد كنت أود أن أشرح لك الأمر تفصيلا ، ولكن ليس لدى وقت فلابد أن أذهب الى فريدا ، فانها ، البنت الصغيرة الحلوة ، تنتظرنى ، وهى لم تبدأ الخدمة بعد ، فقد منحها صاحب الحانة بناء على الحاحى — وكانت تريد أن تلقى بنفسها فى العمل على الفور حتى تنسى على ما يبدو — فترة قصيرة للاستجمام وزيد على الأقل أن تقضيها معا . أما فيما يتعلق باقتراحك . فليس لدى بكل تأكيد ما يدعونى للكذب عليك ، وليس لدى كذلك ما يدعونى للاسرار اليك بشئ . فالأمر بالنسبة الى يختلف عنه بالنسبة اليك . فطالما كنت أرتبط بعلاقة الخدمة ، كنت أنت بالنسبة الى شخصا مهما جدا لا لحصال فيك ، ولكن بسبب مهمة الخدمة التى كلفت بها ، وكنت آنذاك مستعدا لأن أنفذ لك كل ما تطلب ، أما الآن فأنت بالنسبة الى شخص عديم الأهمية . كذلك فان تحطيمك العصا لا يؤثر فى بشئ ، كل ما فى الأمر أنه يذكرنى بمدى غلظة السيد الذى عملت تحت أمرته ، وليس من الصواب أن تجذبنى اليك .

وقال ك :

— انك تتكلم معى هكذا وكأنك متأكد تماما من أنك لن تعود أبدا الى حيث يكون عليك أن تخشائى . وليس هذا صحيحا . فأنت على الأرجح لم تخلص منى بعد ، فالأمور لاتنجز هنا بهذه السرعة .

واعترض يريمياس بقوله :

— بل انها أحيانا تنجز بسرعة أكبر .

وقال ك :

- أحيانا • ولكن هناك ما يشير الى أن هذا حدث فى هذه المرة ، وأقل ما يمكن أن يقال هو أنك لا تحتكم على قرار تحريرى فى الموضوع ، كذلك أنا لم أؤسلم مثل هذا القرار • ومعنى هذا أن الاجراءات تسير فى طريقها ، وأنا لم أؤدخل حتى الآن بما لى من صلات ، ولكنى سأفعل ، وإذا انتهت الاجراءات الى نهاية فى غير صالحك ، فلن تكون قد بذلت جهدا كبيرا لاستمالة سيدك اليك ، وأهل تحطيمى العصا كان عملا متعجلا • لقد أخذت فريدا ، وتملكك الزهو لذلك • ولكنى مع احترامى لشخصك - وانى لأحترمك حتى اذا لم تعد تحترمنى - لن أؤحتاج ألا لتؤجيه القليل من الكلمات الى فريدا ، فاذا الافتراءات التى أؤقعها بها فى شبائك تتبدد • فما يمكن أن يصرف فريدا عنى الا الافتراء والكذب •

فقال يريمياس :

- ان هذه التهديدات لاؤفرعنى • انك لاؤريد أن تؤخذنى مساعدا ، وأنت تؤخافنى من حيث أنا مساعد ، فأنت تؤخاف المساعدين بصفة عامة ، وأنت لم تؤضرب أؤرتور الطيب الا عن خوف •

فقال ك :

- ربما ، فهل قلل ذلك ايلام ضربى له ؟ ولعلى أستطيع أن أبين لك على هذا النحو مرارا خوفى • ولقد رأيت أن العمل كمساعد لايسرك الا قليلا ، ولهذا فأننى سأؤجد بغض النظر عن كل خوف متعة كبيرة فى اكراهك عليه • ويهمنى فى هذه المرة أن أؤخذك أنت وحدك بدون أؤرتور ، مساعدا ، وسيكون فى مقدورى هكذا أن أؤوجه اليك المزيد من الاهتمام •

فقال يريمياس :

- أؤظن أننى أخاف أقل الخوف من كل هذا ؟

فقال ك :

- طبعا ، ولا شك أنك بكل تأكيد تؤحس ببعض الخوف ، ولو كنت ذكيا لأؤسسست بكثير من الخوف • والا لماذا لم تؤذهب الى فريدا من فورك ؟ تكلم ، هل تؤحبها ؟

فقال يريمياس :

- هل أؤحبها ؟ انها بنت طيبة وذكية ، وكانت فيما مضى عشيقه لكم ولهذا فهى محترمة على أية حال • واذا كانت قد أؤلت على باؤستمرار فى أن أؤخلصها منك ، فلماذا لا أؤقدم لها هذا الصنيع ، خاصة واننى

بهذا لأسبب لك ألما ، أنت الذى ألتصمت السلوى لدى البنتين البرناباسيتين
الملعونتين ؟ !
فقال ك :

— هأنذا أرى خوفك ، أرى خوفك المؤسف ، وأنت تحاول أن توقعنى
فى شباك اقتراءك • لقد كان لفريدا طلب واحد ، وهو تحريرها من
المساعدين اللذين تملكهما التوحش ، واستحالا الى الحيوانية • ويؤسفنى
أننى لم أجد من الوقت ما يكفى للوفاء بطلبها كاملا ، وهأنذا أرى نتائج
ما تخلفت عن فعله •

وصاح بعضهم خلال الحارة :

— يا سيادة موظف المساحة • يا سيادة موظف المساحة •
كان الصائغ هو برناباس الذى أقبل لاهنا ، ولكنه لم ينسى أن
ينحنى أمام ك • وأردف :
— لقد نجحت •
فسأله ك :

— وفيم نجحت ؟ هل أوصلت التماسى الى كلم ؟

فقال برناباس :

— لم يكن هذا ممكنا • لقد بذلت غاية الجهد ، ولكن الأمر كان
مستحيلا ، لقد اندفعت الى الأمام ، ووقفت طوال اليوم ، دون أن يطلب
الى ذلك أحد ، قريبا من المنضدة ، حتى أن أحد الكتبة دفعنى الى الجانب
لأننى كنت أسد عليه سبيل الضوء ، وتقدمت رافعا يدي — وهو شيء
ممنوع — عندما رفع كلم بصره ، وبقيت أطول وقت فى الديوان ، وكنت
مع الخدم وحدى ، وسعدت برؤية كلم يعود ، ولكنه لم يعد من أجل ،
بل عاد ليراجع شيئا فى بعض الكتب على وجه السرعة ، ثم انصرف على
الفور ، ولما كنت أقف ثابتا لا أتحرك ، فقد انتهى الأمر بالخادم الى كنى
من خلال الباب بالمقشة تقريبا • وأنا أعترف لك بكل هذا حتى لا تعود الى
عدم الرضا بما أبذل من جهود •

فقال ك :

— وفيم يفيدنى نشاطك يا برناباس اذا لم يكن قد وصل الى نجاح ؟

فقال برناباس :

— ولكننى حققت نجاحا • فعندما خرجت من ديوانى — وأنا أسميه

ديوانى - رأيت سيدا يأتى من الدهاليز العميقة بخطوات بطيئة ، وكان المكان خاليا تماما ، لأن الوقت كان متأخرا جدا . وقررت أن أنتظره ولقد كانت فرصة طيبة أن أبقى هناك مزيدا من الوقت وكم كنت أود لو بقيت هناك نهائيا حتى لا أعود اليك بخبر سيئ !! ولكن الانتظار كان بغض النظر عن كل شيء مثيرا ، فقد كان هذا السيد هو ارلانجر . ألا تعرفه ؟ انه واحد من سكرتيرى كلم الأوائل . وهو رجل ضعيف قصير يعرج فى مشيته قليلا . وتعرف ارلانجر على فورا ، وهو مشهور بذاكرته وبمعرفته للناس ، فهو يقطب جبينه مرة ويكفيه هذا للتعرف على أى انسان وكثيرا ما يتعرف حتى على أناس لم يسبق له أن رأيهم من قبل بل سمع أو قرأ عنهم - وأنا على سبيل المثال لا أظن أنه رأى من قبل . وعلى الرغم من أنه يتعرف على كل شخص على الفور ، فانه يسأل عن نفسه وكأنه غير متأكد ، فسألنى : « أأنت برناباس ؟ » ثم سألتنى بعد ذلك : « وأنت تعرف موظف المساحة ، أليس كذلك ؟ هذه مصادفة طيبة ، فأنا ذاهب الآن الى حان السادة ، وعليك أن تبلغ موظف المساحة بأن يزورنى هناك . وأنا أنزل فى الحجرة رقم خمسة عشر . وعليه أن يأتى الآن على الفور ، فليس لدى سوى بعض المباحثات ، سأفرغ منها وأعود مبكرا فى الخامسة . قل له اننى مهتم جدا بالحديث اليه .

وفجأة بدأ يريمياس فى العدو . وسأل برناباس الذى . لم يكن لفرط اتفعله قد لاحظ وجوده تماما :

- ماذا يريد يريمياس ؟

فقال ك :

- انه يريد أن يسبقنى فى الذهاب الى ارلانجر .

وعدا وراء يريمياس ، ولحقه وتعلق بذراعه وقال :

- هل قد تملكك الحين الى فريدا فجأة ؟ وما حنينى اليها بأقل من

حينيك ، فلنذهب معا ، ساقا على ساق .

الفصل السابع عشر

ووقفت أمام حان السادة المظلم مجموعة صغيرة من الرجال ، كان اثنان أو ثلاثة منهم يحملون مصابيح ، فظهرت في ضوئها بعض الوجوه . ولم يجد ك بينها الا وجها آخر يعرفه هو جيرشتيكر ، الحوذى . وحياء جيرشتيكر بهذا السؤال :

— أما زلت في القرية ؟

فقال ك :

— نعم ، لقد أتيت لأبقى .

فقال جيرشتيكر :

— هذا مالا يهمنى .

وسعل بقوة واتجه الى الآخرين .

وتبين أن الجميع ينتظرون ارلانجر ، وكان ارلانجر قد وصل بالفعل وكان يتباحث مع موموس قبل أن يستقبل أصحاب الحاجات . وكان الحديث العام بين الناس يدور حول منع الناس من الانتظار داخل المبنى وتركهم ينتظرون في الجليد خارجه . والحقيقة أن الجو لم يكن شديد البرودة ، ومع ذلك فلم يكن من المشقة ترك أصحاب الحاجات ينتظرون بالليل ربما لساعات طويلة خارج البيت . ولم يكن هذا بطبيعة الحال ذنب ارلانجر ، الذي كان شخصا رحب الصدر ، ولم يكن على الأرجح يعلم بذلك ، ولو علم به لغضب أشد الغضب . لقد كان الذنب ذنب صاحبة حان السادة التي كانت في سعيها المرضي نحو الرونق لاترضى بدخول أصحاب الحاجات جماعة الى الحانة . وكان من عادتها أن تقول : — اذا لم يكن من حضورهم بد ، فليدخلوا ، بحق السماء ، الواحد تلو الآخر .

وفرضت رأيها فاذا أصحاب الحاجات الذين كانوا فيمامضى ينتظرون

فى المر ، ثم على الدرج ، ثم فى المدخل ، ثم فى قاعة الشراب ، يدفعون الى الخارج للانتظار فى الحارة . ولم يكن هذا يرضيها . فلم تكن تحتفل أن « تحاصر » فى بيتها ، كما كانت تقول . ولم تكن تفهم معنى لحضور أصحاب الحاجات ، ولقد سألت عن ذلك مرة أحد الموظفين فقال لها ، ربما فى غمرة غضبه :

— انهم يحضرون ليوسخوا الدرج الخارجى للبيت !

ولقد كانت هذه العبارة واضحة المرمى . وكانت صاحبة الحان تحب تكرارها والاستشهار بها وأخذت تسعى — وكان مسعاها يتفق مع أمانى أصحاب الحاجات — لانشاء مبنى فى مواجهة حان السادة لينتظر فيه أصحاب الحاجات . وكانت تتمنى لو جرت المشاورات مع أصحاب الحاجات وكذلك الاستجوابات خارج حان السادة ، ولكن الموظفين كانوا يعارضون فى ذلك . وما دام الموظفون قد عارضوا فى جزم ، فلم يكن فى مقدور صاحبة الحان أن تفرض رأيها ، على الرغم من أنها كانت فى الموضوعات الثانوية تمارس نوعا من الاستبداد الصغير اعتمادا على الحاحها الذى كان لا يكل ولا يمل والذى كان يعتمد على الأثرة الرقيقة . ويبدو أن صاحبة الحان سيكون عليها السكوت على اجراء المباحثات والاستجوابات فى حان السادة فى المستقبل كذلك ، لأن السادة القادمين من القصر يرفضون ترك حان السادة عند معالجة المسائل الرسمية . لقد كانوا دائما على عجل ، ولم يكونوا ينزلون القرية الا على مضض ، ولم يكونوا يرغبون أقل رغبة فى اطالة مدة اقامتهم هنا لأكثر مما تتطلبه الضرورة القصوى ، ولم يكن فى الامكان مطالبتهم ، لا لشيء الا للحفاظ على السكون فى حان السادة ، أن يخرجوا بأوراقهم من حين لآخر من الحان ويجتازون الشارع ويذهبوا الى مبنى آخر ، ويضيعوا على هذا النحو الوقت . ويفضل الموظفون غاية التفضيل انجاز الأمور الرسمية فى الحمار أو فى الحجره، أثناء تناول الطعام أو فى السرير قبل النعاس أو فى الصباح عندما يستبد بهم التعب فلا يستطيعون النهوض ويستلقون فى السرير للتمطى . أما مسألة انشاء مبنى الانتظار فقد بدا انها كانت تقترب من حل ملائم ، ولقد كانت معالجة هذه المسألة بطبيعة الحال عقبا ملموسا بالنسبة لصاحبة الحان — وكان الناس يضحكون لذلك قليلا — فقد تطلبت العديد من المباحثات ولم تكن ممرات الحان تكاد تخلو لذلك السبب من الناس .

كان المنتظرون يتحدثون عن هذه الأشياء كلها بصوت منخفض ، ولاحظ ك أن عدم الرضى كان واضحا ، ولكن أصحاب الحاجات لم يجدوا

غضاضة في أن يستدعيهم ارلانجر في منتصف الليل . وسأل عن ذلك فقالوا له انهم على العكس يشكرون ارلانجر على ذلك ، فلم يأت به الى القرية الا نيتة الطيبة وئهمه السامى ووظيفته ، ولقد كان يستطيع ان شاء - وان هذا ليتفق مع اللوائح على نحو أفضل - أن يرسل أى سكرتير ويكلفه بتسجيل المحاضر . ولكنه كان فى غالبية الأحوال يرفض أن يفعل ذلك ، وكان يريد أن يرى كل شيء وان يسمح كل شيء بنفسه ، ولكنه كان لهذا يضحي بالنوم ، فلم يكن برنامج عمله يفسح . وقتا للقيام برحلات الى القرية . واعترض ك على هذا الكلام قائلا ان كلم يأتى الى القرية نهارا ، وانه فى بعض الأحيان يقضى فى القرية أياما عديدة فهل الحاجة الى ارلانجر ، وما هو الا سكرتير ، فى القصر من الحاجة الى كلم فلا سبيل الى الاستغناء عنه ؟ وضحك البعض عن طيبة قلب ، وصمت البعض مدولين ، وكان الصامتين هم الكثرة ، فلم يكذب ينلقى اجابة : ولا من واحد قال له ان كلم لا غنى عنه بطبيعة الحال لا فى القصر ولا فى القرية .

وهنا انفتح الباب وظهر موموس بين خادمتين يحمل كل منهما مصباحا . وقال :

- أول من يقابل السيد السكرتير ارلانجر : جيرشتكير و ك . هل هما هنا ؟

فاجاب الاثنان بنعم . ولكن يريمياس تسلل قبلهما الى البيت قائلا :
- أنا هنا خادم فى الحان .

فحياه موموس مبتسما بربته على كتفه وتركه يدخل . وقال فى نفسه ، ينبغي على أن أحيط يريمياس بمزيد من الانتباه ، على الرغم من أنه كان يشعر أن يريمياس قد يكون أقل خطورة من أرتور الذى كان يعمل ضده فى القصر . وربما كان من الفطنة أن يدعهما ك يعذبانه كيمساعدين ، وألا يتركهما كذلك يعيثان فسادا دون أن يراقبهما ، وينطلقان الى تدبير المؤمرات التى يبدو أنهم أوتيا موهبة خاصة لتدبيرها .

فلما مر ك بموموس ، بدا على هذا كأنه لم يتبين الا الآن أنه موظف المساحة ، فقال :

- آه ، السيد موظف المساحة ! هذا الذى يكره أن يستجوب ، يتزاحم الآن على الاستجواب .

ولو رضى آنذاك لكان الاستجواب أيسر . أما الآن فانه بطبيعة الحال
من الصعب اختيار الاستجابات الصحيحة .

ولما أراد ك أن يرد على هذا الكلام وقف ، قال له موموس :

- اذهب ! اذهب ! لقد كنت فيما مضى أحتاج الى اجابانك ، أما

الآن فلا أحتاج اليها ومع ذلك فقد قال ك مغتاضا من تصرف موموس :

- انكم لا تفكرون الا فى أنفسكم . ولكنى اعتبارا للديوان لا أجيّب،

لم أجب آنذاك ولا أجيّب الآن .

- وفيمن ينبغي أن نفكر ؟ ومن هنا غيرنا ؟ اذهب .

وفى الممر تلقاهما خادم واقتادهما عبر طريق الفناء الذى يعرفه ك ،
ثم اجتازوا البوابة الى الممر المنخفض الذى ينحدر انحدارا قليلا . ويبدو
أن الموظفين الكبار يسكنون فى الأدوار العلوية ، أما السكرتاريون
فيسكنون فى هذا الممر ، وكذلك ارلانجر على الرغم من أنه أحد كبارهم .
وأطفأ الخادم مصباحه لأن المصباح الكهربائي كان ينشر ضوءا وضاحا .
كان كل شيء هنا صغيرا ولكنه كان جميل البناء . وكان استغلال المكان قد
تم على وجه شديد الاقتصاد ، فلم يكن الممر يسمح للانسان بأن يسير
قائما الا بشق الأنفس . أما الجانبان فكانت الأبواب فيهما يجاور الواحد
منها الآخر . ولم يكن الحائطان الجانبيان يصلان الى السقف ، ويبدو أن
السبب فى ذلك كان التهوية ، لأن الحجرات الصغيرة فى هذا الممر العميق
الذى يشبه البدروم كانت على ما يبدو بلا نوافذ وكان عيب هذه الحيطان
التي لا تصل الى السقف هو الصنخب الذى كان يملأ الممر ولا بد أنه كان
كذلك بلا حجرات . ويبدو أن حجرات كثيرة كانت مشغولة ، وإن
غالبية من كانوا فيها لم يكونوا قد ناموا بعد ، فقد تناهت الى
الأسماع أصوات ودقات شواكيش ورنات أكواب . ولكن الانطباع
الذى كان يرتسم فى نفس الانسان لم يكن انطباع بهجة شديدة .
كانت الأصوات مكتومة ، ولم يكن الانسان يفهم الا من حين لآخر كلمة ،
ويبدو أن الأصوات لم تكن أصوات محادثات ، بل يبدو أن بعضهم كان
يملى شيئا أو يتلو شيئا ، أما الحجرات التي كان ينبعث منها رنين الأكواب
والصحون فلم يكن يأتي منها صوت كلام ، ولقد تذكر ك عندما سمع
دقات الشواكيش ما قيل له من أن بعض الموظفين يشتغلون بالتجارة
وصناعة الآلات الدقيقة وما الى ذلك ليستريحوا من الاجهاد العقلي الدائم
أما الممر نفسه فكان خاليا ، الا من رجل شاحب نحيل طويل كان يجلس
أمام أحد الأبواب مرتديا فراء تظهر من تحته ملابس النوم ، ويبدو أن

الجو فى الحجرة ثقل عليه فخرج وأخذ يقرأ المجردة ، ولكنه لم يكن يقرأ بانتباه ، بل كأن ينصرف عن القراءة متثابرا المرة تلو المرة ، وينحنى الى أمام ويرسل بصره على طول الممر ، ولكنه كان ينتظر واحدا من أصحاب الحاجات طلبه اليه وتأخر عن الحضور . فلما مروا به قال الخادم جيرشتيكر مشيرا الى السيد :

— انه بينتسجاور

فهز جيرشتيكر رأسه بالموافقة وقال :

— انه لم ينزل الى القرية منذ مدة طويلة .

فأكد الخادم كلامه قائلا :

— منذ مدة طويلة جدا .

وأخيرا وصلوا أمام باب لم يكن يختلف عن الأبواب الأخرى ، قال الخادم ان ارلانجر يقيم وراءه وطلب الخادم من ك أن يحمله على كتفه لينظر من خلال الفراغ بين الحائط والسقف الى داخل الحجرة ففعل . وقال الخادم وهو ينزل :

— انه راقد فى السرير ، ولكنه لا يلبس ملابس النوم ، ومع ذلك فأنا أظن أنه ينعس . والتعب يملكه أحيانا هنا فى القرية حيث تختلف ظروف الحياة . وسيكون علينا أن ننتظر . وعندما يستيقظ سيدق الجرس . وان كان قد حدث من قبل أن قضى طوال فترة اقامته فى القرية نائما وكان عليه بعد صحوه أن يعجل بالعودة الى القصر . والعمل الذى يقوم به هنا يقوم به على سبيل التطوع .

وقال جيرشتيكر :

— ليته ينام الآن الى آخر وقت ، فانه عندما يصحو ولا يكون لديه الا قليل من الوقت . لانجاز الأعمال ، يغتاض لأنه قد نام ، ويحاول أن ينجز كل شيء بسرعة ولا يكاد الانسان يستطيع أن يتم كلامه معه .

وسأله الخادم :

— انك تأتى من أجل الحصول على عمليات النقل اللازمة للبناء ؟

وهز جيرشتيكر رأسه ، وانتحى بالخادم جانبا وتكلم معه بصوت خفيض ، ولكن الخادم كان لا يكاد ينصت ، بل كان ينظر من فوق جيرشتيكر . وكان أطول منه قدر رأس انسان — ويمسح شعره هو جادا وبحركات بطيئة .

الفصل الثامن عشر

وبينما ك يجول ببصره بلا هدف رأى فريدا عند أحد منحنيات
الممر ، وتصنعت فريدا انها لاتعرفه ، فنظرت اليه نظرة جامدة ، وكانت
تحمل فى يدها صينية عليها آتية فارغة . وقال ك للخادم الذى لم يكن
يلتفت اليه - وكان الخادم يزداد غيبوبة كلما تحدث الانسان اليه - انه
سيعود بعد قليل ، وأسرع الى فريدا . فلما وصل اليها أمسكها من
كتفيها وكأنه يعود الى امتلاكها ، ووجه اليها بعض الأسئلة التافهة بينما
كان فى تلك الأثناء يبحث فى عينيها متفحصا . ولكنه مسلكها الجامد
لم يكد يلين ، وحاولت وهى مشتتة الفكر أن تغير وضع الآتية على الصينية
مرات ثم قالت :

- ماذا تريد منى ؟ اذهب الى - أنت تعرف اسمها . وأنت تأتى
لتوك من عندهما ، وفى امكانى أن أقرأ ذلك على منظرک .

وحول ك الموضوع بسرعة ، فلم يكن يريد أن يأتى العتاب مفاجئا
ولا يبدأ من أقبح نقطة وأكثرها حساسية وقال :

- كنت أظن أنك فى قاعة الشراب .

وتطلعت فريدا اليه مندهشة ثم مسحت فى رقة بيدها التى لم تكن
تمسك بها الصينية على جبينه وعلى وجنته . وبدأ عليها كأنها كانت قد
نسيت شكله ، فأرادت أن تتذكره ، وكذلك بدا على عينيها الانطباع
المحجب لانسان يحاول بصعوبة أن يتذكر شيئا . ثم قالت ببطء وكان
ما كانت تقوله بلا أهمية :

- لقد قبلونى مرة أخرى فى قاعة الشراب .

ثم دمجت فى الكلام حوارا كان هو الأكثر أهمية :

- ولكن هذا العمل الذى أقوم به الآن لا قيمة له بالنسبة الى ،
ففى استطاعة كل بنت أن تقوم به . كل بنت تعرف كيف ترتب السرير،

وكيف تصطنع وجهها باشا ، ولا ترهب معاكسة النزلاء بل تدفعهم اليها دفعا ، تصلح للعمل خادمة خصوصية . أما العمل فى قاعة الشراب فشئ آخر . ولهذا قبلونى على الفور للعمل فى قاعة الشراب على الرغم من اننى لم أتركها فيما مضى على نحو مشرف ، وأنا أعتمد بطبيعة الحال على حماية . ولقد فرح صاحب الحان بأئنى أعتمد الآن على هذه الحماية وأنه استطاع اعادتنى الى العمل . بل لقد بدا الأمر وكأنهم كانوا يدفعوننى دفعا الى قبول العمل ، فاذا علمت أن قاعة الشراب تذكرنى بشئ معين سهل عليك أن تفهم الوضع . وأخيرا قبلت العمل . أما هنا فانا أعمل على سبيل المعاونة . فقد طلبت بيبي ألا نسبب لها عارا باجبارها على ترك قاعة الشراب على الفور ، ولهذا أعطيناها مهلة قدرها أربعة وعشرون ساعة لأنها كانت مجتهدة ولائها أدت العمل كله على قدر مامكنتها من ذلك قدراتها .

فقال ك :

— لقد أحسنتم تدبير هذه الأمور كلها . ولكنك قد هجرت قاعة الشراب مرة من أجل ، واذا بك الآن تعودين اليها ونحن على وشك الزفاف .

فقالت فريدا :

— لن يكون هناك زفاف .

وسأل ك :

— لأننى كنت خائنا ؟

فأومأت فريدا برأسها ، فقال ك :

— اسمعى يا فريدا ، لقد تحدثنا عن هذه الخيانة المزعومة مرارا ، وكان عليك فى كل مرة أن تقرى بأنها لاتعدو أن تكون شبه ظالمة . ولم يتغير من ناحيتى منذ ذلك شئ ، لقد بقى كل ما لدى بريثا كما كان وكما لا يمكن الا أن يكون . فهل يا ترى حدث تغير من ناحيتك نتيجة لايغاز غريب أو غير ذلك ؟ انك على أية حال تظلميننى . فما هو أمر هاتين البنتين ؟ ان السمرء — وأنا أوشك أن أحس بالحجل لاضطرارى للدفاع عن نفسى تفصيلا ، ولكنك تطالبن بذلك — ان السمرء تثير فى نفسى أسى لا يقل عن الأسى الذى يعتمصل فى نفسى حيسالك ، واذا كان فى استطاعتى أن أبتعد عنها على أى نحو فاننى أفعل ، وهى تسهل ذلك من ناحيتها فليس هناك انسان أشد احتشاما منها .

وصاحت فريدا :

— نعم !

لقد انطلقت الكلمات منها وكأنها تنطلق ضد ارادتها ، وفرح ك
عندما رآها قد تلهث على هذا النحو ، لقد كانت على هيئته غير التى كانت
تريد أن تبدو عليها :

— ان لك أن تعتبرها محتشمة ، وأن تسمى أفحش النساء محتشمة!
وأنت تقول ذلك ، على الرغم من بعده عن التصديق ، تقوله مخلصا ،
فأنت لاتتلون ، أنا أعرف هذا .

ولقد قالت صاحبة حان الجسر عنك : « اننى لا أستطيع أن أحبه ،
وكذلك لا أستطيع أن أهجره ، فان الانسان لا يستطيع عندما يرى طفلا
لايجيد المشى ويندفع رغم ذلك الى الأمام أن يتحكم فى نفسه ، ان الانسان
يجد نفسه مضطرا الى التدخل » .

فقال ك مبتسما :

— فاتبعى الآن مذهبا هذا — أما هذه البنت ، ولندع جانبا ما اذا
كانت محتشمة أو فاجرة ، فأنا لا أريد أن أعرف عنها شيئا .
وسألت فريدا فى تصميم :

— ولكن لماذا تقول عنها انها محتشمة ؟ هل جربتها أم هل تريد
أن تحط بذلك من قدر آخرين ؟

واعتبر ك هذا الاهتمام من جانب فريدا علامة طيبة ، فقال :

— لا هذا ولا ذاك . اننى أقول ذلك عن امتنان لها . فقد سهلت
على فهمها ، ولأننى ، حتى اذا نادتنى المرة تلو المرة ، لن أستطيع حمل
نفسى على الذهاب الى هناك ، وهذه خسارة كبيرة بالنسبة الى لأننى لابد
أن أذهب الى هناك من أجل مستقبلنا المشترك ، كما تعرفين . ولهذا فلا بد
أن أتكلم أيضا مع البنت الأخرى التى أقدرها لنشاطها وسعة أفقها وأثرتها،
البنت التى لايمكن لأحد أن يقول عنها انها جذابة .

فقالت فريدا :

— ولكن الحسم يخالفونك فى هذا رأى .

فقال ك :

— يخالفوننى فيما يخص بهذا الموضوع وفيما يختص بالكثير من

الموضوعات الأخرى • وهل تريدان استنتاجا من شهوات الحدم الحكم بأننى خائن ؟

وصممت فريدا وتركت ك راضية يأخذ الصينية من يدها ويضعها على الأرض ، ويضع ذراعه تحت ذراعها ، ويبدأ فى السير معها فى المكان الضيق ببطء جيئة وذهابا •

وقالت وهو يمتنع قليلا عن اقترابه منها :

— أنت لاتعرف ما هو الاخلاص • وليس المهم هو موقفك من البننتين • ان ذهابك الى هذه الأسرة وعودتك من هناك حاملا رائحة حجرتهم فى ملابسك ، فضيحة لا يمكننى احتمالها • وأنت تجرى من المدرسة ، دون أن تقول شيئا ، وتبقى لدى البننتين نصف الليلة ، وإذا سأل أحدهم عنك جعلت البننتين تنكرانك ، تنكرانك عن حب ، وبخاصة المحتشمة التى لانظير لها ! ثم أنت تتسلل من طريق سرى عندما تخرج من البيت ربما حفاظا منك على سمعة البننتين ! نعم سمعة البننتين ! لا • لا نريد أن نعود الى هذا الحديث مرة أخرى •

فقال ك :

— لانريد أن نعود الى هذا الحديث ، ولكن لنتكلم يا فريدا فى موضوع آخر • والحقيقة انه ليس هناك شيء يقال فيه • وأنت تعرفين لماذا ينبغى على أن أذهب الى هناك • وليس الذهاب الى هناك بالشيء السهل ، ولكنى أكره نفسى عليه • ولاينبغى أن تجعلى الأمور أكثر ثقلا على مما هى • ولقد كانت فكرتى التى فكرتها اليوم أن أذهب الى هناك للحظة وأسأل عن برناباس الذى كنت أنتظر أن يأتينى برسالة هامة ، عله أتى بعد طول انتظارى له • وعلمت أنه لم يأت ، وأنه سيأتى وشيكًا ، وهو ما لاح لى قابلا للتصديق • ولم أشأ أن أطلب ارساله الى المدرسة ليقابلنى هناك ، لأننى لم أكن اريد أن يتسبب وجوده فى ازعاجك • ومضت الساعات ولم يأت ، للأسف • وانما أتى شخص آخر ، شخص أمقته • ولم أكن أحب أن أدعه يتجسس على ، ولهذا خرجت عن طريق حديقة الجيران ، وكذلك لم أشأ أن أتوارى عنه ، ولهذا ذهبت اليه حرا طليقا فى الشارع ومعى عصا أعترف بانها كانت مرنة جدا • هذا هو كل ما فى الأمر ، وليس هناك ما يقال عنه أكثر من ذلك • ولكن هناك أمر آخر لى فيه حديث • ما هو أمر المساعدين اللذين أمقت ذكرهما كما تمقتين أنت ذكر هذه العائلة ؟ قارنى علاقتك بهما ومسلكى حيال العائلة • وأنا أفهم نفورك من هذه العائلة ويمكننى أن أشاركك اياه • اننى

لا أذهب اليها الا من أجل الموضوع ، حتى اننى أكاد أحس أحيانا بأننى أظلمها باستغلالى اياها • اما أنت واما المساعدان • انك لم تنكرى أنهما يلاحقانك ، بل لقد اعترفت بأن هناك شيئاً فيك يجذبك اليهما • وأنا لم أغضب منك لذلك وفهمت أن هناك قوى تفعل فعلها وأنك لم تصل بعد الى حيث تستطيعين مجابهتها ، وسعدت بأنك على الأقل تمنعت وصددت ، وساعدت أنا فى الدناغ عنك ، فلما تركت بضعة ساعات ، واثقا من اخلاصك ، مطمئنا الى أن البيت مغلق اغلاقا محكما ، والى أننى قد اضطررت المساعدين الى الفرار – وأنا أخشى اننى لا أزال أستهن بهما – أقول لما تركت بضعة ساعات وأهملت أمرهما ، وأوتى هذا اليريريمياس – وهو اذا تأمله الانسان بدقة تبين انه رجل سمج معتل الصحة متقدم فى السن – من الجسارة ما جملة يقترب من النافذة ، أصبح على • لهذا السبب وحده أن أفقدت يا فريدا ، وأن أسمع منك بدلا من التحية : « لن يكون هناك زفاف • » ألسنت أنا الذى يحق له أن يوجه اللوم ، ولكنى لا أوجه اليك لوما ، ومازلت الى الآن لا أوجه البك لوما •

وتصور لك مرة أخرى أنه من الخير أن يلهمى فريدا قليلا ، فرجاها أن تأتية بشيء من الطعام لأنه لم يأكل شيئا لتحضر شيئا ، ولكنها لم تتبع العمر الذى كان ك يظن أنه يودى الى المطبخ ، بل انحرفت الى الجانب ونزلت بضعة درجات سلم • وعادت بعد قليل بصحن عليه بعض الشرائح وزجاجة نبيذ ، ولكن ما أتت به كان يبدو كما لو لم يكن سوى بقايا وجبة : كانت الشرائح قد سويت على الصحن ، وكانت زجاجة النبيذ قد فرغ ثلاثة أرباعها • ولم يقل لك شيئا وبدأ يأكل بشهية طيبة وسأل :

– هل كنت فى المطبخ ؟

فقالت :

– لا ، فى حجرتى ، فى حجرة هنا أسفل المبنى •

وقال لك :

– ليتك أخذتني معك • اننى أريد أن أنزل الى حجرتك حتى أجلس أثناء تناول الطعام •

وقالت فريدا :

– سأتيك بكرسى وثير •

وكانت قد اندفعت الى الطريق • ولكن ك استردها قائلا :

— سحرًا • لا أريد أن أنزل ، ولا حاجة الى كرسى •

وإحتملت فريدا قبضته عنيدة ، وكانت تميل برأسها ميلا شديدا وتعض شفثتيها • وقالت : — انه فى الحجرة • وهل توقعت أن يكون الأمر على نحو غير ذلك ؟ انه يرقد فى سريري ، فقد أصيب بالبرد ، وهو يرتعش ، ولم يأكل شيئا تقريبا • والحقيقة أن المذنب كله ذنبك أنت ، ولو لم تطرد المساعدين ، ولو لم تجر وراءهما ، لكننا الآن جالسين فى سلام فى المدرسة • لقد حطمت سعادتنا • هل تظن أن يريمياس كان أثناء الخدمة يجرو أن يخطفنى ؟ اذا ظننت ذلك فانك تجهل النظام القائم هنا تمام الجهل • لقد كان يريد أن يأتى الى ، ولقد تعذب ، ولقد تربص بى ، ولكن هذا كله لم يزد عن أن يكون لعبا من نوع الكلب الجوعاز حول المائدة فهو يدور حواليتها ولا يجرو على القفز فوقها • وكذلك أنا • لقد جذبنى اليه ، وهو رفيق لى من أيام الطفولة وكنا نلعب معا على سفح جبل القصر ، لقد كانت أوقاتا جميلة ، ولكنك لم تسألنى عن ماضى • على أن هذا كله لم يكن الشئ الحاسم ، طالما كان يريمياس فى الخدمة وكانت الخدمة ترده ، لأننى كنت أعرف واجبى باعتبارى زوجتك فى المستقبل ، واذا بك تطرد المساعدين وتفخر بما فعلت وكانك فعلت شيئا من أجلى • وهذا صحيح من ناحية بعينها • ولقد تحقق لك ما أردت مع أرتور ، ولكن الى حين فقط ، فهو رقيق ، وهو لا يفعل بعاطفة جريئة كعاطفة يريمياس ، ولقد أوشكت فى الليلة التى تعرفها أن تقتك به بالكلمة التى سددها اليه — ولقد كانت هذه الكلمة أيضا ضد سعادتنا — فهرب الى القصر ليشكو ، وعندما يعود عما قريب • • المهم انه الآن ليس هنا • ولكن يريمياس بقى • وهو فى الخدمة يخشى تقطيع السيد ، أما فى خارج الخدمة ، فهو لا يخشى شيئا • فأتى وأخذنى • ولم أستطع أن أتمالك نفسى بعد أن هجرتنى أنت وتسלט على هو ، الصديق القديم • وأنا لم أفتح باب المدرسة ، فقد حطم هو النافذة وأخرجنى منها • وهربنا الى هنا • وصاحب الحان يقدره قدره ، وليس هناك شئ أحب الى نفوس النزلاء من أن يكون لهم خادم مثله ، وهكذا استقبلنا صاحب الحان ، ويريمياس لا يقيم فى حجرتى ، ان لنا هنا حجرة مشتركة • وقال ك :

— ورغم هذا كله ، فأنا لست آسفا على طرد المساعدين من الخدمة • واذا كانت علاقتنا على النحو الذى وصفته أنت ، وكان اخلاصك رهنا بالتزام المساعدين بقاء الخدمة فقد كان من الخير أن أنهى كل شئ • فلم يكن من الممكن أن تكون السعادة الزوجية بين حيوانين متوحشين

لا يحنيان الرأس الا تحت المقرعة • وهنا فأننى شاكر فضل هذه العائلة
التي أسهمت دون ما قصد منها فى التفريق بيننا •

وصمت الاثنان وظلا يسيران جيئة وذهابا الواخذ بجوار الآخر ،
دون أن يكون فى إمكان أحد أن يعرف أيهما بدأ الآن • وبدأ على فريدا
قريبا من ك انها اغتاضت لأنه لم يتأبط ذراعها • وأردف ك :
- وبهذا يكون كل شىء قد انتهى الى نهايته ، ويمكننا أن نتوابع ،
ويمكنك أن تذهبى الى سيدك يريمياس الذى ربما قد أصيب بالبرد من
حديقة المدرسة والذى تركته ، اذا أخذنا هذا فى الاعتبار ، مدة طويلة
جدا وحده ، أما أنا فيمكننى أن أعود الى المدرسة وحدى ، أو أن أذهب
الى أى مكان آخر يرضى الناس فيه بقبول فلن يكون لى بدونك فى المدرسة
ما أفعله • واذا كنت أنا رغم ذلك أتردد ، فما ذلك الا لأننى أجد سببا
قويا يدعونى الى الشك قليلا فيما حكيت لى • ان انطباعى عن يريمياس
هو العكس بالضبط • انه طالما كان فى الخدمة كان يلاحق ولا أظن أن
الخدمة كانت لتمنعه الى النهاية من الانقضاء عليك مرة • أما الآن وقد
أصبح يعتبر الخدمة منتهية فهو يتصرف على نحو آخر • وسامحبنى اذا
كنت أفسر ذلك كما يلى : منذ انتهت خطبتك لسيده تلاشى ما كان لك
بالنسبة له من قبل من اغراء • ومن الممكن أن تكونى صديقة منذ الطفولة
ولكنه - وأنا لم أعرفه الا من الحديث القصير الذى جرى بيننا هذه
الليلة - لا يقيم ، فى تقديرى ، لمثل هذه المشاعر وزنا كبيرا • وأنا لا أعرف
لماذا يلوح لك كشخص عاطفى ، ان خلقه ليلوح لى أقرب الى الفتور منه
الى أى شىء آخر • ولقد تلقى ، فيما يختص بى ، تكليفا من جالاتر بمهمة
لم أستحسنها استحسانا كبيرا ، وهو بذل جهدا كبيرا فى أداء هذه
المهمة ، ويفعل ذلك بنوع معين من شغف الخدم - وأنا أعترف له بذلك -
وما هذا الشغف هنا بالشىء النادر ، وهو فى معرض هذا الشغف يحطم
علاقتنا معا • ولعله جرب طرقا أخرى ، ومن بينها اشتياقه الشبهوانى
الذى سعى به الى اجتذابك ، ومن بينها كذلك - وهنا ساعدته صاحبة
الجان - اختلافه خرافة خيانتى ، لقد نجحت مؤامرتة بالنسبة اليك ،
ولعل ذكرى من ذكريات كلم التى تحيط بك قد أعانتة - واذا كان قد فقد
الوظيفة ، فلعله لم يفقدها الا فى الوقت الذى لم يكن فيه بحاجة اليها ،
وهاهو ذا يجنى ثمار عمله ويجرك من نافذة المدرسة ، وبهذا يكن عمله
قد انتهى ، ولقد استبد به التعب بعد أن تجرد من الشغف بالخدمة ،
ولعله كان يود أن يذهب الى حيث ذهب أرتور الذى لم يذهب حيث ذهب
ليشكو بل لينال المديح ويتلقى تكليفا بالمهام الجديدة ، ولكن لابد أن

يبقى واحد هنا لثباتك تطور الأمور . وان الاهتمام بشأنك لواجب ثقيل
يسبب له الازعاج . أما أنه يحبك ، فهذا ما لا تبدو عليه علامات ، لقد
اعترف لي هو بذلك ، فأنت بالنسبة اليه محترمة لأنك عشيقته كالم ،
ولا شك أنه يجد متعة في القبول في حجرتك والاحساس بأنه صورة
مصغرة من كالم ، ولكن هذا هو كل ما في الأمر ، أنت الآن لا أهمية لك
بالنسبة اليه ، وليس وضعه اياك هنا الا بندا اضافيا زيد على مهمته
الأصلية . ولقد بقي هو كذلك حتى لا يتسرب القلق الى نفسك ، ولكنه
لا يبقى هنا الا بصفة مؤقتة ، والى أن يتلقى اخبارا جديدة من القصر ويكون
قد فرغ بمعونتك من علاج ما ألم به من برد .

فقالت فريدا وهي تخبط يديها الصغيرتين المطبقتين معا :

— أرايت كيف تسبه ؟

فقال ك :

— أسبه ؟ لا ، أنا لا أريد أن أسبه . ولكن قد أكون ظالما له ، هذا
ممكن بطبيعة الحال . وليس ما قلته عنه بانشاء السطحى المكشوف لكل
عين . ومن الممكن تأويله على نحو آخر . أما انى أسبه ؟ لا يمكن أن
يهدف السب الا الى مكافحة حبك له . ولو كانت هناك حاجة ، ولو كان
السب وسيلة ملائمة لما ترددت ، ولا يجوز لأحد أن يديننى لهذا السبب .
انه ، اعتمادا على من يسند اليه المهام ، فى وضع متفوق على بينما أنا
وحدى ولا سند لى الا ذاتى ، ولهذا فان لى أن ألجأ قليلا الى السب .
وما يمكن أن يكون السب على أية حال الا وسيلة بريئة وعاجزة من وسائل
الدفاع . فدعى يدك مرتاحتين .

وتناول ك يد فريدا فى يده ، وحاولت فريدا أن تسحب يدها منه ،
ولكنها فعلت ذلك مبتسمة ودون ما جهد . وقال ك :

— أما أنا فلا ينبغي لى أن أسبه ؟ ذلك انك لا تحبينه ، بل أنت
تظنين انك تحبينه ، وستكونين لى شاكرة اذا أنا خلصتك من هذا
الانخداع . ان أى انسان يريد أن يأخذك منى ، دون لجوء الى القوة ، بل
الى التدبير الدقيق غاية الدقة ، لا يمكن أن يحقق ذلك الا عن طريق
هذين المساعدين . انهما شابان يظهران بمظهر طيب صبيانى مرح مجرد
من المسئولية يأتيان من فوق ، نفثهما القصر الى هنا ، ومعهما شيء من
ذكريات الطفولة ، هذه كلها أشياء لطيفة وبخاصة عندما أكون على العكس
تماما ، أجرى بلا انقطاع وراء أعمال لا تفهمينها كل الفهم ، وتفتاظين
منها ، فهى تجمعنى بأناس يلوحون لك أحقاء بالكراهية وينقلون الى على

الرغم من براعتى الكاملة شيئا مما يثير فيك الكراهية . وان كل هذا لا يزيد عن أن يكون استغلالا قبيحا - وان كان ذكيا جدا - لعيوب علاقتنا . وكل علاقة بين الناس تعتورها عيوب ، وبخاصة علاقتنا ، فقد أتى كل واحد منا من عالم يختلف عن عالم الآخر تمام الاختلاف ، ولقد اتخذت حياة كل واحد منا ، منذ تعارفنا ، طريقا جديدة كل الجدة ، اننا نحس بالاضطراب فكل شيء جديد علينا . وأنا لا أتحدث عن نفسى ، فليس لمثل هذا الحديث أهمية ، ولقد حظيت فى الحقيقة وواقع الأمر بنعمة دائمة منذ أن وجهت عينيك ناحيتى ، وليس من الصعب على الانسان أن يتعود على نيل النعم . أما أنت ، بغض النظر عن كل شيء ، فقد انتزعت من كلم انتزاعا ، وأنا لا أستطيع أن أخذ معنى هذا الانتزاع ، ولكنى أحسست تدريجيا بهذا المعنى ، ان الانسان ليترنج وان الانسان ليضطرب ، لقد كنت على الدوام مستعدا لأخذك ، ولكنى لم أكن دائما حاضرا ، وحتى اذا كنت حاضرا ، فإن أحلامك - وأحيانا أشياء حية مثل صاحبة الحان - كانت تتملكك . لقد مرت باختصار أوقات ، كنت فيها تبعدين عني بنظرك ، وتشتاقين الى أمور لم تتحدد على نحو كامل ، أيتها البنت المسكينة ! ألم يكن الأمر يحتاج فى مثل هذه الفترات الا الى أن يوضع فى اتجاه نظرتك الأشخاص الملائمون فاذا بك تضيعين ، واذا بك تخرين صرعى الانخداع ظانة ان هذه الأشياء - وهى التى لا تعدو أن تكون لحظات ، خيالات ، ذكريات قديمة ، حياة قديمة مضت ولا تزال تمضى وتمضى - هى حياتك الحالية الواقعية لا تزال . هذا خطأ يا فريدا ! هذه هى الصعوبة الأخيرة والدينئة - اذا صح تقديرها - التى تواجه اتحادنا النهائى . فعودى الى نفسك ! تمالكى نفسك ! حتى اذا كنت قد فكرت أن المساعدين أرسلنا من عند كلم - وليس هذا صحيحا فقد أتيا من عند جالاتر - وحتى اذا كانا قد استطاعا أن يسحراك بهذا الخداع لدرجة أنك ظننت أنك ترين فى قزارتهما وفحشهما آثارا من آثار كلم ، كما يظن الانسان انه يرى جوهرة فى وسط الروث ، لأنه كان قد فقدها ، بينما هو فى الحقيقة لا يستطيع أن يجد فى الروث شيئا حتى لو كانت الجوهرة فيه - فما هذان الشابان الا من نوع خدم الحظيرة لا يفتقران عنهم الا فى انهما يفتقران الى صحتهم القوية ، وفى أن قليلا من الهواء الرطب يسبب لهما المرض ويلقى بهما فى سرير ، سرير يعرفان بشطارة الخدم كيف يختارانه .

وكانت فريدا قد أسندت رأسها على كتف ك وسار الاثنان جيئة وذهابا وقد عقدوا ذراعيهما . وقالت فريدا ببطء وهدهوء يوشك أن يكون

ارتياحا ، وكأنما كانت تعرف أنها منحت فترة راحة قصيرة ركنت فيها الى كنف ك وأرادت أن تنعم بها الى النهاية :

— لو أننا هاجرنا فى تلك الليلة التى تعرفها لكنا اليوم آمنين ، ولكننا دائما معا ، ولكانت يدك قريبة جدا منى أستطيع أن أمسكها . فما أشد حاجتى الى قربك ! وكم أحس ، منذ عرفتك ، بالهجران اذا لم تكن معى ! ان قربك ، على ما أظن ، الحلم الوحيد الذى أحلمه ، ولست أعرف حلما غيره .

وجاء صوت رجل ينادى من الممر الجانبى . كان المنادى هو يريمياس . وكان يقف هناك على الدرجة السفلى من السلم ، ولم يكن يرتدى سوى القميص ، وقد التف بملاء فريدا . وكان يقف هناك أشعت الشعر ، متناثر اللحية وكأنما اجتاحتها الأمطار ، يفتح عينيه بصعوبة وتوسل ولوم ، وقد احمرت وجنتاه وان بدتا كأنهما تتكونان من لحم مترهل شديد الترهل وارتعدت ساقاه العاريتان من البرد ارتعادا اهتزت له شراريب الملاء الطوال ، فلاح وهو على هذه الحال كمريض هرب من المستشفى ، لا يستطيع من ينظر اليه ان يفكر فى شيء آخر سوى اعادته الى السرير . وهذا هو بالضبط مآدار بخلد فريدا ، فتمصلت من ك وأسرعت الى يريمياس . ويبدو أن قربها ، وطريقتها الحنونة فى أحكام لفة الملاء حوله ، والسرعة التى حاولت بها أن ترده الى الحجره ، قد منحته شيئا من القوة ، وبدا عليه كأنه تعرف على ك فى تلك اللحظة . وقال يريمياس :

— آه ، السيد موظف المساحة !

وداعب وجنة فريدا مطيبا خاطرها فما كانت تريد مزيدا من الحديث ، وأردف :

— لا تؤاخذانى على هذا الازعاج ! ولكن صحتى ليست على مايرام ، وهذا سبب كاف لعدم المؤاخذه . أظن أننى أهذى من الحمة ، ولا بد أن أشرب شيئا ساخنا وأعرق . يا للسور اللعين عند حديقة المدرسة ! سأظل طول حياتى أذكره . ثم كان على أن أجرى هنا وهناك فى الليل بعد أن أصبت بالبرد . ان الانسان يضحي ، دون أن يشعر ، بصحته من أجل أشياء لا تساوى التضحية فى الحقيقة . أما أنت ، يا سيادة موظف المساحة فما ينبغى أن تنزعج بسببى . ادخل عندنا فى الحجره فعد مريضا وقل فى أثناء ذلك لفريدا ما تريد أن تقوله لها . ومن الطيبى أن يكون لدى اثنين يقترقان بعد ألفه كلام كثير فى اللحظات الأخيرة ، لن يفهمه

شخص ثالث خاصة ان كان راقدا فى السرير ينتظر المشروب الساخن الذى وعد به • فتعال ، ادخل الحجرة ، وسألزم الهدوء تماما •

وقالت فريدا وهى تجذبه من ذراعه :

— كفى ! كفى ! انه يهذى ولا يعرف ماذا يقول • أما أنت يا ك فلا تذهب معه ، أرجوك ! هذه حجرتى وحجرة يريمياس ، أو هى بالأحرى حجرتى ، وأنا أمنعك من الدخول • انك تلاحقنى ، يا ك ، لماذا تلاحقنى ؟ اننى لن أعود اليك أبدا ، أبدا ، اننى أرتعد عندما أفكر فى هذا الاحتمال • اذهب الى فتاتيك ، انهما تجلسان وليس عليهما من الثياب سوى القميص ، على المقعد الى المِدْفأة بجوارك ، كما علمت ، واذا ما أتى أحد يناديك ، صرختا فى وجهه ! انك هناك فى بيتك ! أو هل تراك لا تحس ما يجذبك الى هناك ؟! لقد حاولت أن أحجزك عنهما ، فلم أنجح الا قليلا ، ولكنى حجزتك على أية حال ، ولقد انتهى كل شيء ، وأنت حر • ان حياة جميلة تنتظرك ، وربما سيكون عليك أن تنازل الخدم من أجل أحدهما ، أما الثانية فليس هناك كائن فى السماء أو على الأرض يحسدك عليها ! والبركة معقودة على الرباط مقدما • لا تعارض ! وليس هناك شك فى أنك تستطيع أن تنقص كل شيء ، ولكنك فى الحقيقة لا تصل فى النهاية الى نقض أى شيء ! تصور يا يريمياس أنه نقض كل شيء •

وتفاهما بتبادل الابتسام والايماء بالرأس • وأردفت فريدا :

— ولكن لنفرض جدلا أنه نقض كل شيء فما هى النتيجة ؟ وماذا يعينى هذا ؟ ان أحوال أولئك الناس وكيف تسير من شأنهم هم وما هى من شأنى • ليس من شأنى الا أن أركاك وأعنى بك حتى تسترد صحتك كما كانت قبل أن يعذبك ك بسببى •

وسأل يريمياس :

— اذن فانت لن تأتى معى يا سيادة موظف المساحة ؟

وجرته فريدا نهائيا دون أن تلتفت الى ك مرة أخرى • ورأى ك الى أسفل بابا صغيرا أكثر انخفاضاً من أبواب الممر الأخرى ، ولم يكن يريمياس وحده الذى اضطر للانحناء حتى يستطيع الدخول بل فريدا كذلك ، ويبدو أن الحجرة فى الداخل كانت مضاعة وكانت دافئة • وتناهى الى السمع شيء من الهمس لعله الحاح رقيق من فريدا على يريمياس أن يأوى الى الفراش • ثم أغلق الباب •

عند ذاك تبين ك مدى السكون الذى خيم على الممر ، والذى لم يقتصر

على هذا الجزء من الممر الذى كانت فيه فريدا والذى يبدو أن حجرات الخدمة كانت متخذة به ، بل شمل كذلك الممر الطويل والحجرات التى كان الصخب يسيطر عليها ، ومعنى هذا أن السادة قد ناموا أخيرا . وكذلك كان ك شديد التعب ، ولعله لم يستطع بسبب هذا التعب أن يدافع عن نفسه ضد يريمياس كما ينبغي . ولعله كان قد تصرف أكثر حكمة ، لو أنه اتبع يريمياس الذى كان على ما يبدو يبالغ فى البرد الذى أصيب به - ولم تكن مسكنته ترجع الى برد ألم به ، بل كانت وراثية فيه ولم يكن هناك مشروب ساخن يستطيع أن يخلصه منها - ليته اتبع يريمياس وفعل مثله ، فكشف فى مبالغة عن تعبته الذى كان فى الحقيقة تعباً شديداً ، وخر على أرض الممر ونعس قليلاً ، ولا شك أن ذلك كان سيتيح له شيئاً من الراحة ولعله كان سيتيح له كذلك شيئاً من الرعاية ! ولكنه لم يكن سينتهى الى نهاية موقعة كذلك التى سينتهى اليها يريمياس . ولا شك فى أن يريمياس كان سينتصر فى كل منافسة حول اثارة الشفقة ، سينتصر ربما بحق ، سينتصر لا فى هذه المعركة فحسب ، بل فى كل المعارك الأخرى على ما يبدو . وكان ك يحس بتعب شديد ، حتى انه فكر فى أن يدخل واحدة من هذه الحجرات - ولا شك أن بعضها كان خالياً - وينام فى سرير جميل حتى يستريح تماماً . وكان يرى انه لو نجح فى هذا لكان له فيه تعويض عن أمور كثيرة . وكذلك كان لديه . شراب يعين على النوم ، فقد تركت فريدا على الصينية التى خلفتها على الأرض قنينة صغيرة من خمر الروم . ولم يتردد ك فى تحمل مشقة العودة الى حيث كانت القنينة ، وأفرغها فى جوفه عن آخرها .

فلما شربها أحس ك أنه قد أصبح على الأقل من القوة بحيث يستطيع أن يواجه الارلانجر . وأخذ يبحث عن باب حجرة الارلانجر ، ولكنه لم يستطع العثور عليها لأنه لم يعد يرى الخادم وجيرشتيكر ، ولأن الأبواب كانت كلها متشابهة . ولكنه ظن أنه يستطيع أن يتذكر على وجه التقريب الموضع من الممر الذى كان فيه الباب ، وقرر أن يفتح باباً كان يبدو فى رأيه على الأرجح الباب المطلوب . ولم تكن المحاولة محفوفة بالكثير المفرط من المخاطر ، فاذا كانت الحجرة حجرة الارلانجر ، فسيستقبله هذا ، واذا لم تكن حجرته ، فسيكون بطبيعة الحال من الممكن ان يعتذر وأن يعود ادراجه ، واذا كان النزول نائماً ، وهو أقرب الاحتمالات . فانه لن يلحظ دخول ك . وأسوأ احتمال هو أن تكون الحجرة خالية ، لأن ك لن يكون فى مقدوره أن يقاوم اغراء الفراش ، وسيستلقى فيه لينام الى ما لانهاية . ونظر ك مرة أخرى الى يمين الممر ويساره عله

يجد شخصا آتيا يبين له المكان الذى يسعى اليه ويوفر عليه المغامرة ، ولكن الممر الطويل كان ساكنا خاليا . أرهف ك السمع عند الباب ، فلم يجد هناك ما يدل على أن فى الحجرة أحدا . وقرع الباب بركة لا يمكن ان يستيقظ لها انسان مستغرق فى النوم ، ولما لم يتحرك ساكن فتح الباب بحذر بالغ . واذا بصرخة خفيفة تتلقاه .

كانت الحجرة صغيرة ، يشغل سرير عريض أكثر من نصفها ، وكان هناك مصباح كهربائى موقد على المنضدة الصغيرة المجاورة للسرير ، وإلى جانب الموقد حقيبة سفرية صغيرة . وكان هناك فى السرير شخص يختفى تماما تحت الغطاء ، يتحرك حركات قلقة ، ويهمس من بين الملاء والغطاء :

— من هذا ؟

ولم يستطع ك أن ينصرف بكل بساطة ، وتطلع مغضبا الى السرير الفاخر الذى لم يكن للأسف خاليا ، وتذكر السؤال وذكر اسمه . ويبدو أنه أحدث أثرا طيبا ، فقد أبعد الرجل الراقد فى السرير الغطاء قليلا عن وجهه ، وان ظل خائفا مستعدا لاعادة الغطاء حيث كان اذا لم تكن الأحوال على مايرام . واذا به يبعد الغطاء عن جسمه فجأة ويقعد . لم يكن الرجل بالتأكد ارا لانجر . لقد كان رجلا قصيرا حسن المنظر ، يجمع وجهه النقيضين ، فقد كانت وجنتاه مكورتين كوجنات الأطفال وعيناه فرحتين كعيون الأطفال ، ولكن جبهته العريضة وأنفه المدب ، وفمه الضيق الذى لم تكن شفثاه تتلاقيان ، والذقن المتلاشية كانت كلها سمات لا تتصل بالطفولة بسبب بل توحى بالتفكير والتأمل . لقد كان الرضا ، الرضا الذاتى ، هو الذى حفظ له نصيبا كبيرا من الطفولة الصحيحة . وسأل :

— هل تعرف فريدريش ؟

ورد ك بالنفى . فقال السيد مبتسما :

— ولكنه يعرفك .

وهز ك رأسه . لم يكن من يعرفه من الناس الا قليل ، بل لقد كانت تلك عقبة من العقبات الرئيسية فى طريقه . وقال السيد :

— أنا سكرتيره . واسمى بورجل .

وقال ك وهو يمد يده الى مقبض الباب :

– معذرة ، لقد خلطت بين بابك وباب آخر • فأنا مدعى لمقابلة
السكرتير ارلانجر •

فقال بورجل :

– يا للأسف ! لا أقول يا للأسف لأنك مدعى لمقابلة شخص آخر ،
ولكن لأنك خلطت بين الأبواب • فأنا اذا أوقظت لا أنعس بعد ذلك مرة
أخرى بكل تأكيد • ولكن لا ينبغي أن تحزن لذلك الى هذا الحد •
هذه محنتى أنا • ثم لماذا لم تصنع الأبواب على نحو يجعل من الممكن
اغلاقها ، هه ؟ ان هذا شيء مقصود له بطبيعة الحال ما يبرره ، فهناك
حكمة قديمة تقول ان أبواب السكرتيرين لابد أن تظل مفتوحة • ولكن
ليس هناك ما يدعو للأخذ بهذه الحكمة حرفيا •

وتطلع بورجل الى ك فى تساؤل وفرح ، وكان يبدو – على العكس
توحي به شكواه – مرتاحا راضيا ، ولا يمكن أن يكون بورجل قد أحس
فى حياته بتعب كالتعب الذى يحس به ك الآن • وسأل :

– والى أين تريد الذهاب الآن ؟ ان الساعة تشير الى الرابعة •
وسيكون عليك أن توقظ من تذهب اليه ، وليس كل انسان معتادا على
الازعاج مثل ، وليس فى مقدور كل انسان أن يصبر على الازعاج صبرى
عليه ، فان السكرتيرين أمة عصبية • فابق هنا هنيهة • والجميع
يبدءون هنا فى الاستيقاظ نحو الخامسة ، وفى هذا الوقت يمكنك أن
تلبى الدعوة على أفضل نحو • فدع مقبض الباب وأجلس حيث تريد
والحقيقة ان المكان هنا ضيق والأفضل ان تجلس على حافة السرير •
هل تدهش لأننى ليس لدى كرسى وليس لدى منضدة هنا ؟ لقد كان
لى أن أختار بين تأنيث كامل للحجرة يكون فيه السرير ضيقا كحال
سراير الفنادق ، وبين هذا السرير الكبير على ألا يكون معه سوى حوض
الاغتسال • واخترت السرير الكبير ، فالسرير هو الشيء الرئيسى فى
حجرة النوم • آه ! ان من يستطيع ان يتمطى وأن ينام جيدا ، لينعم
بهذا السرير فهو متعة لذيذة ! حتى أنا الذى أحس دائما بالتعب دون
أن أستطيع النوم ، أرتاح لهذا السرير ، وأقضى غالبية النهار فأنجز
المكاتبات واستجوب وأنا فيه أصحاب الحاجات • والأمر يسير على نحو
طيب جدا • والحقيقة ان أصحاب الحاجات لا يجدون مكانا للجلوس ،
ولكنهم يجدون ما يعوضهم عن هذا ، فانه من الأفضل بالنسبة اليهم أن
يظلوا واقفين بينما يرتاح الموظف الذى يستجوبهم ، على أن يجلسوا
مرتاحين بينما الموظف يصرخ فيهم • اذن فليس لدى الا هذا المكان على

حافة السرير أقدمه اليك ، وهو مكان غير رسمى خصصته للأحاديث الليلية دون ما سواها • ولكنك ساكن ساكت يا حضرة موظف المساحة ؟

فقال ك الذى ما كاد يتلقى الدعوة حتى جلس فى الحال بخشونة وبدون احترام على السرير واستند الى عموده :

— أنا أحسن بتعب شديد •

وقال بورجل ضاحكا :

— هذا شئ طبيعى • فكل انسان هنا تعب • وأنا على سبيل المثال لم أقم لا الأمس ولا اليوم بعمل ، ومع ذلك فانه من المحال أن أستطيع النوم الآن ، أما اذا تحقق أبعد الأشياء عن التصديق ونعست بينما أنت هنا ، فأرجوك أن تلزم السكون وألا تفتح الباب • ولكن لا تخف ، فأنا بكل تأكيد من أنعس الناس ، وحتى اذا نعست قلن يدوم نقاسى على أفضل الفروض الا لدقائق قليلة • والذى يحدث معى هو اننى ، على ما يبدو لأننى معتاد أشد الاعتياد على حركة الجمهور ، أنام بسهولة فائقة عندما يكون عندى بعض الناس •

وفرح ك بهذا الكلام وقال :

— نعم ، يا حضرة السكرتير ، أرجوك ، وسأنام أنا كذلك قليلا اذا سمحت لى •

وعاد بورجل يضحك ويقول :

— لا ، لا ، أنا لا أستطيع أن أنام اذا دعيت الى ذلك ، ولكن فرصة النوم تاتى من تلقاء ذاتها أثناء الحديث ، والحديث هو أنجع وسيلة لانعاسى ! نعم ، ان الأعصاب تعاني الكثير فى عملنا • وأنا على سبيل المثال ، سكرتير اتصال • وأنت لا تعرف ما هذا ، هه ؟ اننى أمثل أقوى اتصال ••

وهنا فرك يديه بسرعة فى نشوة من الفرح غير مقصودة ، وأكمل :

— •• بين فريدريش والقرية ، اننى أمثل الاتصال بين سكرتيريه فى القصر وسكرتيريه فى القرية ، وأنا أقيم غالبا فى القرية ، ولكنى لا أقيم فيها بصفة دائمة ، وعلى أن أكون فى كل لحظة مستعدا للسفر الى القصر ، وأنت ترى حقبة السفر • انها حياة قلقة لا تلائم كل انسان •

على أننى لا أستطيع الاستغناء عن هذا النوع من العمل ، وقد أصبحت
أجد كل نوع آخر تافها مجردا من الطعم • وكيف حال المساحة ؟
فقال ك :

— اننى لا أقوم بعمل يتصل بالمساحة ، لأنهم لم يكلفونى بعمل من
حيث أنا موظف مساحة • ولم يكن ك مركزا أفكاره على الموضوع ، بل
كان يتوق الى شىء واحد وهو أن ينعس بورجل ، وهو لم يقل هذا عندما
تكلم عن احساس بواجب ما حيال نفسه ، فقد كان يعتقد فى قرارة
نفسه أنه يعرف أن لحظة نعاس بورجل مازالت بعيدة لا يستطيع انسان
التنبؤ به • وقال بورجل وقد هز رأسه بشدة وأخرج كراسة المذكرات
من تحت الغطاء ليسجل فيها شيئا :

— هذا شىء عجيب ! أنت موظف مساحة وأنت لا تقوم بعمل
يتصل بالمساحة !

وهز ك رأسه بطريقة آلية ، وكان قد بسط ذراعه اليسرى على
شباك السرير وركن رأسه عليها ، وحاول محاولات مختلفة أن يجد
وضعا مريحا ، وكان هذا الوضع هو أكثرها راحة ، وكان يتيح له فى
الوقت نفسه أن ينتبه الى كلام بورجل على نحو أفضل • واستأنف
بورجل كلامه :

— أنا على استعداد لمتابعة هذا الموضوع • ومن المؤكد أن الأحوال
عندنا ليست بالتى تسمح بعلم الافادة من المتخصصين • هذا الى أن هذا
الوضع فيه جرح لكرامتك • ألا تعانى منه ؟

وقال ك :

— اننى أعانى منه •

قالها ك ببطء وهو يتسم بينه وبين نفسه لأنه لم يكن فى تلك
اللحظة بالذات يعانى منه أقل معاناة • هذا الى أن عرض بورجل لم
يحدث به أى أثر ، لقد كان عرضا على طريقة الهواة • انه دون علم
بالظروف التى تم فى ظلها استدعاء ك الى العمل ، ودون علم بالصعوبات
التي تعرض لها هذا الاستدعاء فى القصر وفى مجلس القرية ، ودون علم
بالاضطرابات التى حدثت أثناء اقامة ك هنا أو التى أوشكت أن تحدث،
دون علم بهذا كله ، ودون أن يظهر عليه أنه — وهذا شىء مقبول من
السكرتيرين — أحس على الأقل بما يشبه العلم بالموضوع ، يعرض أن

يصلح الأمر فى القصر بحجرة قلم مستعينا بكراسة المذكرات الصغيرة !
وقال بورجل :

يبدو انك تعرضت لضرب من خيبة الأمل .

وأثبت بورجل بهذا مرة أخرى أن لديه شيئاً من المعرفة بالناس
تلح على ك من حين لآخر منذ أن دخل الحجرة ألا يقلل من شأن بورجل ،
ولكن الحالة التى كان عليها لم تكن تسمح له بأن يحكم الحكم العادل
الا على التعب فقط . وعاد بورجل يقول :

— لا ...

وكأنما كان بذلك يجيب على فكرة خطرت ببال ك وكان يريد أن
يوفر على ك جهد الكلام اشفاقاً به . وأردف :

— ... لا ينبغي أن تدع خيبة الأمل تفرّك . ويبدو أن بعض
الأمر قد وضعت هنا بقصد الإفزاز ، وإذا وصل الانسان هنا لأول
مرة فإن العوائق تلوح له منيعة لا سبيل الى التغلب عليها بحال من
الأحوال . وأنا لا أريد أن ابحت مدى صحة هذا التصور ، وربما كان
الظاهر مطابقاً للواقع ، وأنا فى مكانى هذا أفترق الى البعد اللازم لتبيان
هذا الأمر ، ولكن عليك أن تلاحظ أن فرصاً تسنح أحياناً لا تكاد تتفق
مع الوضع العام ، فرصاً يصل الانسان فيها بكلمة ، بنظرة ، بإشارة
ثقة الى أشياء لا يصل اليها بجهود مضنية يبذلها طوال حياته . هذه
هى الحال بكل تأكيد . والحقيقة أن هذه الفرص تتفق مع الوضع العام
من حيث هى فرص لم تستغل مطلقاً . وافنى أسئال دائماً عن السبب
فى عدم استغلالها .

ولم يكن ك يعرف هذا السبب . والحقيقة أنه كان يحس بأن
الموضوع الذى يتحدث بورجل عنه يمسّه جداً على ما يبدو ، ولكنه كان
ينفر نفوراً شديداً من الموضوعات التى تمسه ، وحرك رأسه الى جانب
وكانه يفسح المكان لأسئلة بورجل أن تعبر عليه عبوراً دون أن تمسه
فى قليل أو كثير . واستأنف بورجل الحديث وهو يمط ذراعيه ويتشأب
على نحو يناقض ما فى كلامه من جد ويثير فى النفس الاضطراب :

— ان السكرتيرين يشكون دائماً من أنهم يضطرون الى اجراء غالبية
الاستجوابات بالقرية ليلاً . ولكن لماذا يشكون من ذلك ؟ هل لأنها
تجهدهم ؟ هل لأنهم يفضلون استخدام الليل للنوم ؟ لأنهم لا يشكون
من هذا بكل تأكيد . وهناك بطبيعة الحال بين السكرتيرين ، كما هى
الحال مع غيرهم ، من اشتد اجتهادهم وبينهم من قل اجتهادهم . ولكن

• - - - - - . - - - - - . - - - - - . - - - - - . - - - - - .
علنا • فليس هذا طبعنا • ونحن في هذه الناحية لا نعرف فرقا بين
وقت العمل والوقت العادي • ان هذه الفروق غريبة عنا • فما سبب
نفور السكرتيرين من الاستجابات الليلية ؟ هل الاشفاق على من يقومون
باستجوابهم ؟ لا ، لا ، ليس هذا هو السبب • ان السكرتيرين لا يعرفون
الشفقة مع من يستجوبونهم ، ولكنهم لا يعرفون كذلك الشفقة مع
أنفسهم ، وليس هناك فرق بين الضريين من التعسف • وليس هذا
التعسف الا الاتباع العنيف والتنفيذ الصارم للخدمة ، ولهذا فان هذا
التعسف هو في الحقيقة أعظم شفقة يرجوها أصحاب الحاجات • وهذا
شيء معترف به تماما ، ولكن المتسرع في الحكم لا يلاحظه بطبيعة الحال •
فالاستجابات الليلية هي على سبيل المثال في هذه الحالة الاستجابات
التي تلقى ترحيب المستجوبين ، وليست هناك شكاوى أساسية من
الاستجابات الليلية • فما هو اذن السبب في نفور السكرتيرين منها؟

ولم يكن هذا معروفا لـ ك • لقد كان ك يعرف القليل ، ولم يكن
يستطيع أن يتبين ما اذا كان بورجل يطلب منه الاجابة جادا أو يتظاهر
بطلبها • كان ك يفكر : لو تركتني أنام في سريرك فاني سأحضره لك
على كل أسنلتك غدا ظهرا أو مساء على أفضل نحو • ولكن بورجل لم
يكن يبدو عليه أنه ينتبه اليه لقرط انشغاله بالسؤال الذي وجهه هو
الى - - - - - • وأردف بورجل :

- ان السكرتيرين ، على قدر ما أعرف وعلى قدر ما علمتني الخبرة ،
يوجهون النقد التالي للاستجابات الليلية : ان الليل لا يناسب المفاوضات
مع أصحاب الحاجات لأنه من الصعب أو من المستحيل الاحتفاظ الكامل
للمفاوضات بالصفة الرسمية • وليس السبب هو المظاهر والشكليات ،
فهذه من الممكن مراعاتها بطبيعة الحال على نحو صارم بالليل والنهار على
السواء • ليس هذا اذن هو السبب الذي يؤثر على التقدير الرسمي
للأمور بالليل • ان السبب هو ان الانسان يميل بالليل الى النظر الى
الاشياء من ناحية أكثر خصوصية ، فاذا ادعاءات أصحاب الحاجات تتخذ
من الأهمية أكثر مما لها ، فتختلط بالأحكام اعتبارات لا تتصل بالموضوع
بل تتصل بوضع أصحاب الحاجات وآلامهم وهمومهم •• ان الحاجز
الضروري الفاصل بين أصحاب الحاجات والموظفين ، وان ظل في الظاهر
قائما لا عيب فيه ، يضعف ، ويتحول الوضع من أسئلة واجوبة - وهو
ما ينبغي أن يكون - الى ما يبدو على هيئة تبادل غريب غير لائق مطلقا

بين الأشخاص . وهذا هو على الأقل ما يقوله السكرتيرين ، وهم أناس أوتو بسبب الوظيفة احساسا فائقا خارقا للمألوف بالنسبة لهذه الأمور . ولكنهم - وكثيرا ما نوقش هذا الموضوع فى جلسائنا الخاصة - لا يتبينون أثناء الاستجابات الليلية من هذه المؤثرات غير المواتية الا القليل . بل على العكس ، انهم يجتهدون منذ البداية فى العمل على مجابتهها ويعتقدون انهم حققوا الكثير . أما اذا ما تناول الانسان المحاضر التى سجلوها واطلع عليها فانه كثيرا ما يدهش لما يبدو فيها من نواحي الضعف لديهم . وهذه أخطاء - وما هى فى الحقيقة الا مكاسب يحصل عليها المستجوبون بدون وجه حق - لا يمكن تصحيحها على الأقل طبقا للوائحنا بالطريق المباشر المعهود . والمؤكد أنها تصح فى وقت ما بواسطة ديوان من دواوين المراقبة ، ولكن هذا التصحيح لا يفيد الا القانون ولا يمكن أن يضر بمن شملهم الاستجواب بحال من الأحوال . أليست لشكاوى السكرتيرين والحال هذه ما يبررها ؟

كان ك قد أمضى هنيهة فيما يشبه النعاس ، وهاهوذا ينزعج من جديد . لماذا هذا كله ؟ لماذا هذا كله ؟ كان هذا هو السؤال الذى يتردد فى خاطره وهو يتأمل بجفون مسبلة بورجل لا من حيث هو موظف يناقش معه مسائل صعبة ، ولكن من حيث انه شئ يعوقه عن النوم ولا يفهم من كنهه غير هذا . أما بورجل فقد ابتسم وهو مندمج أشد الاندماج فى أفكاره ، وكأنما عبر بابتسامة عن نجاحه فى تضليل ك بعض الشئ . ولكنه كان مستعدا للعودة به الى الصراط المستقيم . فقال :

- ولا يمكن أن نقول ان هذه الشكاوى لها ما يبررها تماما . والحقيقة ان الاستجابات الليلية غير منصوص عليها فى أى موضع ، أى ان الانسان لا يخرق قانونا اذا هو حاول تجنبها ، ولكن الاستجابات الليلية أصبحت ضرورة لا سبيل الى تجاوزها نتيجة للظروف ولأمور مختلفة منها كثرة العمل مفردة ، وانشغال الموظفين فى القصر ، وصعوبة الوصول اليهم ، واللائحة الناصة على أن استجواب أصحاب الحاجات لا ينبغى أن يجرى الا بعد الفراغ تماما من بحث الموضوع من كل نواحيه . واذا كانت قد أصبحت ضرورة ، فاننى أقول ان هذا نتيجة على الأقل غير مباشرة للوائح ، ولهذا فان الغيب فى الاستجابات الليلية هو - وأنا أبالغ بطبيعة الحال شيئا ما ، ولكننى أسمح لنفسى بالتعبير على سبيل المبالغة - هو عيب اللوائح ذاتها . على أننا ينبغي أن نعرف

للسكرتيرين أنهم يحاولون على قدر استطاعتهم أن يحموا أنفسهم في نطاق اللوائح من الاستجابات الليلية ومن عيوبها التي قد لا تكون الا عيوباً ظاهرة . وهم بالفعل يتصرفون على هذا النحو ، وعلى أوسع نطاق . فهم لا يقبلون للاستجابات الا الموضوعات التي يعملون عنها أنها لا تحتل من أية ناحية أدنى خوف ، وهم يختبرون أنفسهم قبل الاستجابات اختباراً دقيقاً ويفرضون - اذا كانت نتيجة الاختبار تدعو الى ذلك - الاستجابات في آخر لحظة ، وهم يقولون أنفسهم باستدعائهم الشخص المطلوب استجوابه عشر مرات قبل أن يقوموا فعلاً باستجوابه ، وهم يولكون عنهم زملاءهم الذين لا يكون الموضوع من اختصاصهم والذين يكون في مقدورهم لهذا السبب معالجته بسهولة أكبر ، وهم يجعلون الاستجابات في بداية أو في نهاية الليل ويتجنبون الساعات الوسطى ، وما الى ذلك من الاجراءات الكثيرة ، فان السكرتيرين لا يستسلمون بسهولة ، وان مقاومتهم لشديدة كما ان اصابتهم يسيرة .

ونام ك ، ولم يكن نومه نوماً بمعنى الكلمة ، ولعله كان يسمع كلمات بورجل أسهل مما كان يسمعها خلال يقظته الواهنة السابقة ، كان يسمعها كلمة كلمة تترن في أذنه ، ولكن الوعي المؤرق كان قد اخفى ، وأصبح ك يحس أنه حر فلم يعد بورجل يمسكه ، وان كان من حين لآخر يحرك يديه ليتحسس ، فلم يكن ك في أعماق النوم ، وان كان قد انغمس فيه . ونم يكن لأحد ان يسلبه النوم . وكان يحس كأنه قد حقق بذلك انتصاراً عظيماً ، وكان جماعة أتت للاحتفال به ، وكأنه هو أو كان أحداً غيره يرفع كأس الشمبانيا تمجيذاً لهذا الانتصار . كان على الجماعة أن تعرف الموضوع ، ولهذا تكرر الكفاح وتكرر النصر مرة أخرى ، أو لعلهما لم يتكررا بل جريا الآن لأول مرة وكان الاحتفال بهما قد تم من قبل ، ولكنه لم يكن ينصرف عنه لأن النهاية كانت لحسن الحظ مؤكدة . كان هناك سكرتير عار يشبه تمثال اله اغريقي أكبر الشبه يضيق عليه الخناق في المعركة أمام ك . كان هذا شيئاً هزلياً جداً ، وابتسم ك ابتسامة رقيقة في نومه للسكرتير وهو يتعرض للفرز في موقفه المتكبر نتيجة لتقدم ك ، ثم وهو يضطر الى استعمال ذراعه الممدودة ويده المقبوضة بسرعة ليستريح عريه فلا يفلم لشدة بطئه . ولم تستمر المعركة طويلاً ، فقد كان ك يتقدم خطوة خطوة الى الأمام وكانت خطاه واسعة . فهل كانت تلك معركة فعلاً ؟ لم يكن هناك عائق بمعنى الكلمة ، ألا صيحات كالصفر يطلقها السكرتير من حين لآخر . لقد كان هذا الاله الاغريقي يصرخ كالبنث من أثر الدغدغة ، ثم انصرف

فى النهاية ، وأصبح ك بمفرده فى مكان كبير ، والتف حواله متهيئا
للقتال يبحث عن غريمه ، فلم يكن هناك أحد وكانت الجماعة قد أنقضت
هى الأخرى ، ولم يكن هناك سوى كأس الشمبانيا المحطمة على الأرض ،
فداسها ك حتى أتم تحطيمها • ولكن الحظام وخزه فصحا ، وثقل عليه
الصحو كما يثقل على الصغار عندما يوقظون • وعلى الرغم من ذلك ،
فقد خطرت بباله ، وهو يرى صدر بورجل العارى فكرة من الحلم :
هاهوذا الهك الاغريق ! انتزعه من الفراش !

وقال بورجل وقد رفع رأسه ، وهو مستغرق فى التفكير ، الى
السقف وكأنه اذ يتذكر يبحث عن أمثلة فلا يجدها :

— ومع ذلك فهناك على الرغم من كل القواعد المنصوص عليها فى
اللوائح امكانية استغلال أصحاب الحاجات لضعف السكرتيرين ليلا — على
فرض أن هذا الضعف ضعفا حقيقة — لصالحهم • هذه فى الواقع امكانية
نادرة جدا ، أو على الأصح امكانية لاتكاد تطرا بحال من الأحوال • وهذه
الامكانية تتلخص فى أن يأتى صاحب الحجة فى جوف الليل دون استدعاء
وقد تدهش لأن ذلك ، على الرغم من أنه يبدو ممكنا ، لايفترض فيه أن
يحدث الا نادرا جدا •

ولا غرو فانت لاتعرف الأحوال لدينا ، ولكن لابد أنك لاحظت أن
النظام الحكومى لدينا محكم لاتعتوره ثغرات • وهذا الاحكام يعنى أن
كل من لديه حاجة أو من لديه أسباب تستدعى أن يستجوب ، يتلقى حالا
ودون تردد — وغالبا دون أن يكون قد رتب موضوعه بدعوة للحضور الى
الديوان • وهو لا يستجوب فى هذه المرة ، لأن الموضوع لا يكون فى المعتاد
قد نضج بعد للاستجواب ، ولكنه يكون قد تلقى الدعوة ، ولا يمكن القول
بأنه عندما يحضر انه حضر بلا دعوة ، كل ما يمكن أن يحدث هو أنه يأتى
فى وقت ليس بوقت ، وهنا يلتفون نظرة الى تاريخ الدعوة وساعتها ،
فاذا أتى فى الوقت الصحيح ، فانهم فى المعتاد يصرفونه دون ما صعوبة •
فان الدعوة التى يحملها صاحب الحاجة والتأشيرة المثبتة فى الملفات تمثل
فى يدى السكرتيرين أسلحة وقائية قوية وان لم تكن كافية فى كل الأحوال
ولا ينطبق هذا الكلام الا على السكرتير المختص بالموضوع •

ولكل انسان الحرية فى أن يفاجئ من يريد بالليل • ولكن لايكاد
يكون هناك انسان يفعل هذا ، لأنه يوشك أن يكون عديم الجدوى والمغزى
ولو أن الانسان فعل ذلك ، فان أول نتيجة ستترتب على فعله ستكون
اغضاب السكرتير المختص ، فنحن جماعة السكرتيرين ، وان لم نعرف

فيما بيننا الغيرة حيال العمل لأن كل واحد منا يحمل - حقيقة ودون ما اسراف في التقدير - عبئا مسرفا في الضخامة ، لانقبيل بحال من الأحوال أى ازعاج من جانب أصحاب الحاجات . وكثيرا ما خسر أصحاب الحاجات قضاياهم لأنهم ظنوا أنهم لا يحرزون تقدما فى القسم المختص فحاولوا أن يتسللوا الى القسم غير المختص . هذا الى أن مثل هذه المحاولات لابد أن تفشل لأن السكرتير غير المختص - حتى اذا أمكن التأثير عليه بالليل وكان ينوى نية خالصة أن يقدم المساعدة - لن يستطيع ، نتيجة لعدم تخصصه ، أن يقدم من العون أكثر مما يستطيع أى محام ، بل ان ما يقدمه من مساعدة يقل فى الحقيقة كثيرا لأنه يفترق - حتى اذا كان فى مقدوره فعل شئ اعتمادا على أنه يعرف الطرق السرية للقانون أحسن مما يعرفها السادة المحامون - يفترق حتى بالنسبة للأشياء التى تدخل فى اختصاصه الى الوقت ، فليس لديه لحظة واحدة يضيعها فى مثل هذا المسعى . فأين هذا الذى يبدد ليلاليه ، والحال على هذا النحو ، فى الارتواء على سكرتيرين غير مختصين ؟ ! هذا الى أن أصحاب الحاجات يكونون مشغولين جدا اذا هم أرادوا . الى جانب قيامهم بأعمال مهنيهم ، أن يلبوا الدعوات والاشارات التى تصدر عن الاقسام المختصة ، « مشغولين جدا » من وجهة نظر أصحاب الحاجات بطبيعة الحال ، ومن البديهي أن وجهة النظر هذه لا تطابق نظر السكرتيرين .

وأوما ك برأسه مبتسما ، فقد كان فى تلك اللحظة يعتقد أنه يفهم كل شئ فهما دقيقا ، لا لأنه يهتم به ، ولكن لأنه كان مقتنعا بأنه سيستغرق فى اللحظات التالية فى نوم عميق لا يقضه حلم أو ازعاج . سيستغرق بين السكرتيرين المختصين والسكرتيرين غيرالمختصين وأمام جماعة أصحاب الأعمال المشغولين غاية الشغل فى سبات عميق وسيفلت من كل شئ على هذا النحو . ولقد ألفت الآن صوت بورجل الهادىء الخفيض الراضى عن نفسه الساعى فى غير جدوى الى النوم ، لدرجة أنه لم يعد يزعجه بل أصبح يجره الى النعاس . وقال ك فى نفسه : جعجعى أيتها الطاحونة جعجعى ، فأنت لا تجعجعين الا من أجلى !

وقال بورجل وهو يعيث بأصبعين فى شفته السفلى ويفتح عينيه على سعتها ويمد رقبتة الى الأمام وكأنه يصل بعد تجوال شاق الى هدف خلاب :

- وأين اذن هذه الامكانية النادرة التى لا يكاد يكون لها وجود ، التى أشرت اليها ؟ ان السر يكمن فى اللوائح الخاصة بالاختصاص .

فليس الأمر ، ولا يمكن أن يكون فى حالة جهاز ادارى كبير حى ، على ماقد يخطر بالبال من أن كل قضية توكل الى سكرتير مختص بعينه . وانما الحقيقة هى أن الاختصاص الأساسى يكون لسكرتير بعينه بينما يختص آخرون كثيرون بأجزاء معينة وان كان اختصاصهم بها اختصاصا صغيرا . فأين هذا الشخص الذى ، حتى اذا كان أعظم العاملين ، يستطيع وحده أن يجمع على مكتبه كل جوانب واقعة ما ولو كانت هى أصغر واقعة ؟ ان ما قلته حتى عن الاختصاص الرئيسى مبالغ فيه . وألا يتضمن أصغر اختصاص فى طياته كل الاختصاص ؟ وأليست العاطفة التى يتناول بها الانسان القضية هى التى تحسم أمرها ؟ وأليست العاطفة هى دائما هى وبكل قوتها ؟ ومن الممكن أن يكون هناك بين السكرتيرين اختلافات فى كل الأمور ، والحقيقة أن هناك اختلافات لا يحصرها العد ، أما العاطفة فلا يختلف فيها اثنان . ليس بين السكرتيرين من يستطيع أن يضبط نفسه اذا ما طولب بمعالجة قضية لا يختص بها الا أقل الاختصاص . ولكن ينبغى أن تكون هناك من الناحية الظاهرية امكانية منظمة للتفاوض ، وهنا يبرز أمام أصحاب الحاجات سكرتير معين يكون عليهم من الناحية الرسمية أن يتعاملوا معه . وليس من الضروري أن يكون هذا السكرتير هو صاحب الاختصاص الرئيسى بالنسبة للقضية ، انما الذى فى هذا هو الجهاز الادارى وحاجاته الطارئة الخاصة . ولك الآن ، يا حضرة موظف المساحة ، أن تتصور امكانية مباغنة أحد أصحاب الحاجات فى الليل البهيم نتيجة لظروف ما وعلى الرغم من العوائق التى وصفتها لك والتى تبتسم عامة بأنها عوائق كافية تماما امكانية مباغنة أحد أصحاب الحاجات لسكرتير يكون لديه اختصاص ما بالقضية المقصودة . يبدو انك لم تفكر فى امكانية من هذا النوع ؟ وأنا أصدقك عن طيب خاطر . ثم أنه ليس من الضروري أن تفكر فيها فانها امكانية لا تطراً مطلقا . لابد أن يكون صاحب الحاجة الذى يوفق الى هذه الامكانية حبة تشكلت وتحددت على نحو عجيب ، حبة صغيرة وماكرة ، حتى يستطيع أن ينفذ من هذا الغرابال العظيم الذى لا يفوقه غرابال آخر ؟ اذن فأنت تعتقد أن هذه الامكانية لا تطراً مطلقا ؟ نعم ، أنت على حق ، انها لا تطراً . ولكن أين هذا الذى يضمن هذه الاستحالة ؟ قد تطراً هذه الامكانية ذات ليلة - ولكننى لا أعرف سكرتيرا واحدا حدث له هذا ، على أن هذا لا يؤكد الا القليل فان من أعرفهم محدودون بالقياس الى العدد الكبير من السكرتيرين الذين يمكن أن يجرى عليهم مثل هذا ، ثم انه ليس من المؤكد أن يعترف سكرتير حدث له هذا ، لأن المسألة مسألة شخصية جدا ولأنها تمس الحياء الديوانى اذا صحت

هذه العبارة . ومهما يكن من أمر فإن خبرتى تؤكد أن هذه الامكانيه نادرة ولا وجود لها الا فيما تتناقله الشائعات ، ولا برهان عليها ، ولهذا فانه من السرف الخوف منها . واذا طرأت فى الواقع ، فإن الانسان يستطيع - وهو شئ يمكن للانسان أن يصدقه - أن يدرك أذاها بأن يثبت لها ، وهذا شئ يسير ليس له مكان فى الدنيا . ومهما يكن من أمر فإن الانسان يتصرف تصرفا مرضيا اذا ما توارى تحت الغطاء خوفا منها ولم يجرؤ على النظر من تحتها ، واذا حدث ان اتخذت الاستحالة الكاملة رجاءا سذلا . فهل معنى ذلك أن كل شئ ضاع بلا رجعة ؟ على العكس . أما أن كل شئ يضع فأمراً أكثر استحالة من أشد الأمور استحالة . ولكن عندما يكون صاحب الحاجة فى الحجرة فإن الوضع يكون فى غاية السوء . ان القلب ليحس نتيجة لهذا بالضيق . الى متى تستطيع أن تقاوم ؟ هذا هو السؤال الذى يوجهه الانسان الى نفسه . ولكن كل واحد يعرف أن المقاومة لن تكون مقاومة . وينبغى عليك أن تتصور الوضع كما ينبغى . ان صاحب الحاجة الذى لم تره من قبل والذى كنت دائما تتوقعه . تتوقعه بشغف حقيقى وتعتبره بالعقل شخصا لا سبيل الى لقياء يجلس هناك . انه يدعوك بوجوده الصامت الى أن تنفذ الى حياته المسكينة وأن تنقلب فيها كأنها ملك لك وان تشترك فى معاناة مطالبها التى لا جدوى منها . ان هذه الدعوة فى الليل الساكن خلافة ساحرة . والانسان قد يلبيها ، فلا يعود موظفا رسميا . انه وضع لا يلبث أن يتبين الانسان فيه أن رفض الرجاء من المحال . أو بعبارة أدق ان الانسان يحس بالحيرة ، أو بعبارة أكثر دقة ان الانسان يحس بالسعادة الشديدة . والانسان يحس بالحيرة لأن العجز الذى يلزم الانسان هو وينتظر رجاء صاحب الحاجة ويعلم أنه - اذا ما نط صاحب الحاجة برجائه - سيلبيه ، حتى اذا كان التنظيم الادارى الرسمى ، على ما يعلم ، سيضرب به عرض الحائط هو أسوأ ما يقابله فى حياته . والسبب هو قبل كل شئ آخر - وبغض النظر عن كل شئ - ارتقاء يفوق المفاهيم كلها ، ارتقاء يتشبه به الانسان عنوة لحظة من اللحظات . ونحن لم نخول ، حسب مركزنا ، صلاحية تلبية رجاءات من نوع الرجاءات التى نغنيها هنا ، ولكن قرب صاحب الحاجة منا فى الليل يؤدى الى نشأة مقومات حكومية لدينا اذا صح هذا التعبير ، والى التزامنا بأشياء خارجة على حدود صلاحيتنا ، بل والى تنفيذها . ان صاحب الحاجة يغصبنا فى الليل كما يغصبنا قاطع الطريق فى الغابة على اعطائه أشياء لا نستطيع فى الأحوال العادية أن نمنحه اياها . والأمر الآن على هذا النحو : صاحب الحاجة موجود يقوينا

ويغصبنا ويحفزنا ، والموضوع يسير طريقه ، بينما تجددت الأشياء كلها من الوعي فالألم تسير الحال بعد ذلك عندما يتغير الوضع ، عندما يتركنا صاحب الحاجة راضيا غير عابئ بنا ، ونقف هنا وحدنا عاجزين في مواجهة تهمة اساءة استخدام السلطة ؟ ! ان هذا شيء لا يتصوره الانسان ! ومع ذلك فنحن بالفعل سعداء . وهكذا يمكن أن تكون السعادة انتحارية . ونحن نستطيع أن نبذل الجهود من أجل اخفاء الوضع الحقيقي على صاحب الحاجة . ويكاد لا يكون هناك انسان يستطيع أن يتبين شيئا من وضعه الحقيقي وحده . ان صاحب الحاجة ، على ما تظن ، قد اندفع لأسباب مباغته تافهة - واهنا يائسا جريئا بليدا نتيجة للتعب المفرط والحياة - الى داخل حجرة أخرى غير تلك التي كان يريدنا ، فهو يجلس جاهلا مشغولا بأسكاره ، اذا كان مشغولا بشيء على الاطلاق ، مشغولا بضلاله أو بتعبه . فهل يمكن أن يتركه الانسان على هذه الحال ؟ لا ، لايمكن ، ان الانسان وهو يثرثر السعداء يشرح له كل شيء . والانسان لا يصون نفسه في كثير أو قليل اذ هو يشرح لصاحب الحاجة تفصيليا ما حدث وأسبابه ، وكيف أن المصادفة نادرة نادرة خارقة للمألوف ، عظيمة عظيمة فريدة ، ويشرح له كيف انه قد اندفع الى هذه الفرصة عاجزا كل العجز ، الذي لا يستطيعه الا أصحاب الحاجات ، وكيف أنه يستطيع - يا سيادة موظف المساحة - ان أراد أن يتحكم في كل شيء ، وألا يكون عليه أن يقدم لقاء ذلك شيئا آخر سوى رجاء على نحو ما قد جهزت تلبيته لعلاقاته . . يشرح له هذا كله ، تلك هي الساعة العصبية التي يواجهها الموظف . واذا ما فعل الانسان هذا ، يا حضرة موظف المساحة ، فان الجزء الضروري يكون قد جرى ، ويكون على الانسان أن يرضى ويقنع وينتظر .

ونام ك ، منقطعا عن كل شيء حدث . وتدل رأسه ، الذي كان في البداية يرتكن على ذراعة اليسرى فوق شباك السرير ، ومال في نومه لا يعتمد على شيء ، وأشد ميلا شيئا فشيئا . لم يعد الاستناد على الذراع يكفي ، فالتمسك سندا جديدا دون ما قصد ، بأن دس يده اليمنى في اللحاف ، فأمسك قدم بورجل التي كانت قد خرجت من تحت اللحاف مصادفة . وتطلع اليه بورجل وترك له القدم على الرغم من كرهه لذلك .

ودق بعضهم دقات شديدة على الجدار الجانبى . فزرع ك وتطلع الى الجدار ، فاذا هناك من يسأل :

- هل موظف المساحة هناك ؟

فقال بورجل :

- نعم .

وخلص قدمه من قبضة ك وتمطى فجأة بعنف وعناد كالضبية الصغار
وعاد الصوت يقول :

- اذن فليأت الى هنا وقد طال انتظاره له .

لم يرع صاحب الصوت بورجل ، ولم يرع خاصة ك ، وكم كانت
حاجته شديدة الى أن يرمى الآخرون حاله . وقال بورجل هامسا :

- انه ارلانجر .

ولم يبد عليه أنه فوجئ بأن ارلانجر فى الحجرة المجاورة . وأردف
بورجل :

- اذهب الآن اليه ، فقد تملكه الغضب ، وعليك أن تحاول تهدئته
وهو فى المعتاد ينام نوما عميقا ، ولكننا تكلمنا بصوت مرتفع ، فان
الانسان لا يستطيع أن يتحكم لا فى نفسه ولا فى صوته عندما يتكلم
فى موضوعات بعينها . فاذهب الآن ، وانثنى لأرى أنك لاتستطيع أن
تخرج بنفسك من النوم الذى يحتويك . اذهب ، فماذا تريد هنا ؟ لا ،
ليس عليك أن تعتذر عن نعاسك ، لماذا ؟ ان القوى البدنية لا تصل الا
الى حد معين . ومن هذا الذى يستطيع أن يضمن أن يكون هذا الحد عظيم
الاهمية ؟ لا ، لا يستطيع انسان أن يضمن هذا . وهكذا يصحح العالم
نفسك أثناء دورانه ، ويحافظ على توازنه . وان هذا لتدبير ممتاز ، ممتاز
امتيازا لا يمكن تصوره هو كذلك ، وان كان من وجهة نظر أخرى تدبيرا
مؤسفا . اذهب الآن ، اننى لا أعرف لماذا تطلع الى هكذا !! واذا لم تذهب
فسياتى ارلانجر ويغضب منى وهذا شئ أحب كل الحب أن أتجنبه .
اذهب ومن يعلم ماذا ينتظرك هناك . أما هذا فالفرص كثيرة . ولكن
هناك امكانيات يصح أن نقول انها كبيرة كبرا مفرطا لايسمح بالافادة
منها ، وهناك أشياء لا يرجع فشلها الا اليها هى . نعم ان هذا شئ
يثير العجب ! أما الآن فأنا أمل أن أستطيع النوم قليلا . ان الساعة الآن
الخامسة ، وسيبدأ الصخب عما قريب . ليتك تنصرف أنت على الأقل !

وظل ك وقتا طويلا ، وقد خدره الايقاظ المفاجئ من نوم عميق ، فى
وقت كان فيه يحتاج الى النوم حاجة لا حدود لها ، وكان جسمه فيه
يعانى كله الآلام نتيجة للوضع غير المريح الذى كان يتخذه ، لا يستطيع أن
يقرر النهوض ، فوضع يده على جبينه ، ونظر الى حجره . حتى العبارات

المتوترة التي أخذ بورجل يحثه بها على الانصراف لم تستطع أن تحمله على الانصراف • الى أن دفعه احساسه بعدم جدوى بقائه فى هذه الحجرة مطلقا الى التفكير تدريجيا فى مغادرة الحجرة • وبدت له الحجرة خربة على نحو لا سبيل الى وصفه • ولم يكن يعرف هل كانت الحجرة دائما هكذا ، أم هل قد صارت الى هذه الحالة • انه لن يستطيع أن يبلغ هنا شيئا حتى ولا العودة الى النعاس ! وكان اقتناعه بهذا هو الدافع الحاسم الذى دفعه الى مغادرة الحجرة ، وابتسم لهذا قليلا ، ونهض واتكأ على كل ما أمكنه الاتكاء عليه ، على السرير على الحائط ، على الباب ، وانصرف دون ما تحية وكأنما كان قد ودع بورجل منذ وقت طويل •

الفصل التاسع عشر

ولعله كان سيعبر على حجرة ارلانجر فى غير اكتراث ، لو لم يكن ارلانجر قد وقف بالباب مفتوحا وأشار اليه . وكانت اشارته اشارة قصيرة وحيدة بأصبع السبابة . كان ارلانجر قد تهيأ للانصراف تماما ، وكان يرتدى معطف فراء أسود له ياقة صغيرة مزررة الى أعلى . وكان هناك خادم يقدم اليه فى تلك اللحظة القفاز ويمسك فى يده القبعة المصنوعة من الفراء . وقال ارلانجر :

— كان ينبغي عليك أن تأتى الى منذ مدة .

وأراد أن يعتذر ، فأظهر له ارلانجر بأغمضة متعبة من عينيه أنه متنازل عن هذا الاعتذار . وقال ارلانجر :

— الموضوع هو الآتى . كانت هناك فى الحمارى بنت تعمل بالخدمة اسمها فريدا . وأنا لا أعرف عنها سوى اسمها ، أما هى فأنا لا أعرفها ، وأنا لا أهتم بمعرفتها . وكانت فريدة هذه تقدم الى كلم من حين لآخر البيرة . ويبدو أن هناك الآن بنتا أخرى . ولكن هذا التغير لا أهمية له بطبيعة الحال ، بالنسبة للجميع ، على ما يبدو وبالنسبة لكلم بكل تأكيد . وكلما كبر عمل المرء ، وعمل كلم هو بطبيعة الحال أكبر الأعمال ، كلما قل ما يبقى لديه من القوة لمقاومة العالم الخارجى ، ولهذا فان كل تغير تافه فى أكثر الأمور تفاهة يسبب للمرء ازعاجا شديدا . ان أقل تغير على منضدة الكتابة ، كازالة بقعة قذارة كانت عليها منذ الأزل على سبيل المثال ، يسبب للانسان ازعاجا ، وكذلك تعيين خادمة جديدة فى الحانة . على أن هذه الأشياء كلها وان كانت تسبب لكل انسان فى كل عمل من الأعمال ازعاجا ، لا تزعج كلم ، ان هذا شئ من قبيل المحال . ومع ذلك فاننا ملزمون بالسهر على راحة كلم بحيث نزيل كل المنغصات التى لا تعتبر بالنسبة اليه من المنغصات — ويبدو انه ليس هناك من الأمور ما يمكن أن يعتبر من المنغصات بالنسبة لكلم — اذا ما بدت لنا على هيئة

توحي بأنها يمكن أن تسبب ازعاجا . ونحن لا نزيل المنغصات من أجله ولكن من أجلنا نحن ، من أجل ضميرنا وراحتنا . ولهذا فلا بد أن تعود فريدا الى هذه الحمارية على الفور ، ولكن ربما سببت عودتها ازعاجا . وفي الحالة سنبعدها من جديد . أما الآن فينبغي أن تعود الى الحمارية مؤقتا .

وأنت ، على ما علمت ، تعيش معها فاجعلها تعود على الفور . ولا يمكن أن نقيم وزنا في مثل هذا الأمر للمشاعر الشخصية ، وهذا شيء بديهي ، ولهذا فأننا لا أقبل الدخول في أدنى مناقشة للموضوع . انني أفعل أكثر مما تستدعيه الصورة عندما أذكر لك انك اذا أثبتت جدارتك في هذا الموضوع المهين فقد تفيد من ذلك في معاشك . هذا هو كل ما أردت ان أقوله لك .

وأوماً الى ك برأسه مودعا ، ولبس القبة المصنوعة من الفراء التي قدمها إليه الخادم ، وسار في الممر المنحدر بسرعة ، وهو يعرج ، ومن خلفه الخادم .

كانت هناك أحيانا أوامر تصدر ويسهل تنفيذها جدا ، ولكن هذه السهولة لم تكن تفرحك ، لا لأن الأمر في هذه الحالة كان يتصل بفريدا فحسب ، ولا لأنه كان أمرا بدا لك كأنه استهزاء ، ولكن لأنك رأى فيه عدم جدوى الجهود التي يبذلها كلها . لقد كانت الأوامر التي في صالحه والأوامر التي في غير صالحه تمر من فوقه ، وحتى الأوامر التي في صالحه كانت تقسم نواة أخيرة في غير صالحه ، ومهما يكن من أمر فقد كانت الأوامر كلها تمر من فوق رأسه ولقد كانت درجته وضعية لا تسمح له بأن ينفذ فيها وأن يسكتها أو يجد لصوته آذانا تسمعه . اذ ما لوح لك ان لا تنجر أن تذهب فماذا تفعل ؟ واذا لم يلوح لك بأن تذهب فماذا يمكنك أن تقول له ؟ والحق أنك ظل تشعر بأن تعب قد أضرب به اليوم أكثر مما أضرب به اضطراب الأحوال - ولكن لم يستطع هو ، الذي كان يعتقد انه يمكنه أن يعتمد على جسمه والذي ما كان ليأتي الى هنا لولا هذا الاعتقاد ، أن يحتمل عدة ليال من النوم القلق ، وليلة بلا نوم مطلقا) ولماذا أحس هنا بالذات بتعب استحال عليه أن يتحكم فيه هنا حيث لا يشعر أحد بالتعب ، أو على الأحرى حيث يشعر الجميع بالتعب والتعب المستمر دون أن يفسد هذا التعب أعمالهم ، بل ان التعب ليبدو وكأنه ينشطها ، كان معنى هذا أن ذلك التعب من نوع آخر غير تعبك . لقد كان ذلك التعب تعباً وسط عمل سعيد ، لقد كان شيئاً يبدو في الظاهر تعباً وهو في الحقيقة راحة لا سبيل الى تبديدها ، وسلام لا سبيل الى

تخطيطه . فاذا ما أحس أحدكم ظهرا بشيء من التعب ، فقد كان ذلك جزءا من المسار الطبيعي لليوم . ولقد خطر ببالك أن الوقت بالنسبة للسادة هنا دائما ظهرا .

وكان مما يتطابق مع هذا الخاطر تمام التطابق ان الحياة انتشرت في جوانب الممر كلها الآن ، في الساعة الخامسة . وكان صخب الأصوات في الحجرات يتسم بسمة مرحلة الى أقصى حد . وكان هذا الصخب يلوح أحيانا كتهديل الأطفال الذين يستعدون للقيام برحلة ، ويلوح أحيانا أخرى كإطلاق الدجاج في الحظيرة صباحا ، كان كالفرحة التي تتفق تمام الاتفاق مع النهار الطالع ، بل لقد كان هناك رجل في مكان ما يقلد صياح الديكة . حقيقة أن الممر كان لا يزال خاليا ، ولكن الأبواب كانت تتحرك ، كان هناك من حين لآخر باب ينفرج ثم ينقل بسرعة ، وكان الممر يمتلئ بصوت انفراج الأبواب وانقغالها ، وكانك ترى في الفتحة التي تفصل بين الجدران والسقف رعوسا صباحية مضطربة الشعر تظهر ثم تتوارى . وأقبلت من بعيد عربة صغيرة محملة بالملفات يدفعها ببطء أحد الخدم . وكان هناك خادم آخر يسير بجوارها ويحمل قائمة في يده ويبدو أنه كان يقارن أرقام الحجرات وأرقام الملفات . وكانت العربة تقف عند غالبية الأبواب ، وكانت الأبواب في المعتاد تفتح عند ذلك ، وكانت الملفات الخاصة بها تدفع الى داخلها ، ولم يكن يخص بعض الحجرات في بعض الأحيان سوى ورقة صغيرة ، وكان حديث قصيرا يتصل في هذه الحالات بين الحجرة والممر ، لعله توييخ للخادم . فاذا لم يفتح الباب كوم الخادم الملفات على العتبة بدقة وعناية . وكانك في هذه الحالات يظن أن حركة الأبواب المحيطة لم تتوقف ، على الرغم من أن توزيع الملفات عليها قد تم ، بل ازدادت . ربما كان الآخرون ينظرون في شغف الى الملفات المكونة على العتبة دون ما سبب مفهوم ، ولا مفهوم كيف أن الانسان لا يحتاج لتناول الملفات الا الى فتح الباب ، وهو مع ذلك لا يفعل . ربما كان من الممكن أن توزع الملفات التي لا يتناولها أحد على السادة الآخرين الذين كرروا النظر الآن ليتأكدوا من أن الملفات ما زالت في مكانها ومن أن لهم أن يأملوا في الحصول عليها . هذا الى أن هذه الملفات المكونة كانت في غالبها حزما كبيرة . وفكرت في أن سبب ترك هذه الملفات على العتبة مؤقتا هو نوع من التخزل أو الشر أو الفخار الذي له ما يبرره والذي يشجع الزملاء ويزيدهم نشاطا . واستندت في هذا الرأي الى أن الحزمة كانت في بعض الأحيان - عندما يبعد عنها ببصره - بعد أن تظلل في مكانها أمام العين طويلا ، تجذب فجأة وبسرعة الى الحجرة ، ثم يظل الباب

كما كان جامدا لا يتحرك ، وكانت الأبواب المحيطة تهدأ هي الأخرى اما لأن الشيء الذي كان يثيرها قد زال ، ولكن الأبواب كانت بعد الهدوء تعود من جديد الى الحركة - تدريجيا -

وتأمل ك هذا كله وقد تملكه فضول وتملكه علاوة عليه اهتمام واندماج . كان يحس بشيء كالارتياح وسط هذا النشاط ، وكان ينظر هنا وهناك ويتابع - عن بعد مناسب - الخدم الذين كانوا يلتفون حولهم وينظرون اليه فى أحيان كثيرة نظرة عنيفة وقد خفضوا رؤوسهم ومطوا شفاههم ، وكان يتطلع هكذا الى قيامهم بتوزيع الملفات . وكانت عملية التوزيع تواجه المزيد من الصعوبات ، اما لأن انقائية تضم بعض الأخطاء واما لأن الخادم لا يستطيع أن يميز بسهولة بين الملفات واما أن السادة يعترضون اعتراضات أخرى . ومهما يكن من أمر فقد حدث اعتراض على توزيع بعض الملفات ، واضطرت العربية الصغيرة الى الرجوع ، ووجرت مفاوضات من خلال فتحة الباب بشأن إعادة الملفات . وكانت المفاوضات ذاتها تواجه صعوبات كبيرة ، وكان يحدث فى حالات كثيرة - اذا كان الأمر أمر إعادة الملفات - أن تنقفل أبواب كانت من قبل تتحرك أنشط حركة ، تنقل بشدة عنيفة وكأنها لا تريد أن تعرف شيئا عن الموضوع . ثم كانت الصعوبات الحقيقية تبدأ ، كان الذى يعتقد أنه صاحب الحق فى الملفات فارغ الصبر الى أقصى حد ، وكان يحدث فى حجرته صخباعظيما ، ويصفق ، ويخبط الأرض برجليه ، ويصيح من خلال فتحة الباب مكررا المرة تلو المرة رقما معيناً من أرقام الملفات . وكثيرا ما كان الخادمان يتركان العربية وحدها ، فيتنشغل أحدهما بتهدئة الثائر الذى فرغ صبره ، ويجتهد الآخر فى استعادة الملف من وراء الباب المقفل . وكانت مهمة الاثنين صعبة .

أما الثائر فكان يزداد ثورة نتيجة لمحاولات تهدئته ، ولم يعد يستطيع أن يسمح كلمات الخادم الفارغة ، فلم يكن يريد عزاء بل كان يريد الملفات ، ولقد أفرغ أحد هؤلاء السادة على رأس الخادم ذات مرة طست الغسيل من خلال فتحة عالية . أما الخادم الآخر ، ويبدو انه كان أعلى رتبة فقد كان يواجه صعوبة أكبر بكثير . كان ، اذا رضى السيد المقصود بالدخول فى مفاوضات معه ، يقوم بباحثات موضوعية ، يرجع فيها الخادم الى قائمته ، ويرجع فيها السيد الى مذكراته والى الملفات ذاتها التى يرجوه الخادم اعادتها ، والتى يظل ممسكا بها فى يده قابضا عليها بحيث لا تبقى منها قطعة صغيرة تقع عليها عين الخادم المتعطشة للرؤية . وكان الخادم مضطرا للعدو وراء العربية الصغيرة بحثا عن براهن جديدة ، وكانت العربية الصغيرة تسير من تلقاء ذاتها مسافة فى هذا الممر المنحدر ، وكان

عضطرا كذلك الى العدو الى السيد المطالب بالملفات وابلاغه اعتراضات السيد الذى وصلت الملفات اليه والحصول منه على اعتراضات لمواجهتها . وكانت تلك المفاوضات تدوم طويلا جدا ، وكانت فى بعض الحالات تنتهى بالاتفاق ، فكان السيد يعيد مثلا جزءا من الملفات أو يتلقى كتعويض ملفات أخرى ، لأن الخطأ كان يتمثل فى ابدال الملفات ؛ وكان يحدث أحيانا أن يتنازل البعض بدون مشاكل عن الملفات التى طالب بها ، اما لأن براهين الخادم قد افقدته الحيلة ، واما لأنه تعب من كثرة التفاوض ، وكان فى هذه الحالة لا يعيد الملفات الى الخادم ، بل يلقي بها ، عن تصميم مفاجئ ، بعيدا فى المر ، مما كان يؤدى الى تفكك الأربطة وتطاير الأوراق وكان الخادم عند ذلك يتعب كثيرا فى إعادة الملف الى حالته . ولكن هذه الأمور كلها تعتبر بسيطة نسبيا اذا قيست بامتناع السيد كلية من الرد على الخادم وهو يرجوه المرة بعد المرة أن يعيد اليه الملفات ، كان الخادم يقف أمام الباب المغلق ويرجوه ويتوسل ويتلو القائمة ويشير الى اللوائح دون أن يصل الى نتيجة ، ودون أن يسمع صوتا من الحجره ، ولم يكن للخادم ، على ما يبدو الحق فى دخول الحجره بدون اذن . وكان هذا الخادم الممتاز يفقد فى بعض الأحيان سيطرته على نفسه ويذهب الى عربته الصغيرة ويجلس على الملفات ، ويجفف العرق المتصبب على جبينه ، ويظل برهة لا يفعل شيئا سوى هز القدمين فى يأس . وكان الاهتمام بالموضوع عظيما فى المنطقة المحيطة ، وكان التهامس كثيرا فى كل مكان ، ولم يكن يكون هناك باب هادئ . وكانت هناك وجوه ملفوفة بأقمشة كثيرة لفا يوشك أن يكون كاملا تظهر أعلى حافة الحائط وتتابع على نحو عجيب دون أن تهدأ لحظة ، كل ما يجرى . ولاحظك وسط هذا الاضطراب أن باب بورجل ظل طوال الوقت مغلقا وأن الخادمين قد مرا على هذه المنطقة وفرغا منها دون أن يخصا بورجل بشيء من الملفات . لعله كان لا يزال نائما . ولو صح انه كان نائما فى وسط هذا الصخب ، فمعنى هذا انه سليم تمام السلامة . ولكن لماذا لم توضع له ملفات ؟ ان الخادمين لم يتركا الا القليل من الحجرات دون ملفات ويبدو أنها كانت حجرات خالية . أما حجره ارلانجر فقد شغلها ضيف جديد شديد القلق ولا بد أنه ارلانجر قد طرده بالليل طردا ، والحقيقة أن هذا لا يتفق مع شخصية ارلانجر الفاترة العائمة الا أقل الاتفاق ، ولكن انتظاره ك على العتبة كان يوحى بأن هذا هو ما حدث .

وكان ك بعد كل هذه الملاحظات الجانبية لا يفتأ يعود ببصره الى

الحادم • ولم يكن ما قيل لك عن الخدم عامة وعن كسلهم وحياتهم الناعمة وعجرفتهم ينطبق على هذا الحادم مطلقا ، ولابد أن هناك حالات استثنائية ، أو لابد - وهو الأرجح - أن هناك بين الخدم مجموعات مختلفة ، فقد كان هناك ، كما لاحظك تقسيمات كثيرة لم يكن يعلم عنها حتى هذا الوقت شيئا • وقد سر ك خاصة بما اتصف به الحادم من العناد • فلم يكن هذا الحادم يتراجع فى صراعه مع الحجرات ، فهو لم يكن يرى من فيها الا نادرا حقيقة أنه كان ينهار - وأين ذلك الذى لا ينهار فى مثل ظروفه ؟ - ولكنه كان لا يلبث أن يستعيد قواه ، فيتزلزل من فوق العربة الصغيرة ويذهب زاما أسنانه لمنطقة الباب الذى جاء دور غزوه • ولقد صده بعضهم مرتين أو ثلاث مرات ، بأبسط الوسائل ، بالضممت الشيطاني ، لكنه لم يهزم • كان عندما يرى انه لا يستطيع أن يبلغ مأربه بالهجوم الصريح ، يحاول بطريقة أخرى ، مثلا عن طريق الحيلة ، على قدر ما فهم ك • فكان يظهر بأنه يتبعد عن الباب ، ويتركه حتى يفرغ ما لديه من صمت - ان صح التعبير - ويتجه الى أبواب أخرى ، ثم يعود بعد برهة وينادى الحادم الآخر ، ويفعل هذا كله بشكل ملفت للنظر وبصوت عال ، ويشرع فى تكوين الملفات على عتبة الباب المغلق وكأنما قد غير رايه ، وكأنما لم يكن على حق فى أخذ شيء من هذا السيد ، بل كان ينبغي عليه أن يضيف اليه المزيد • وكان عند ذاك يستأنف السير ، ولكنه يظل مثبتا نظره على هذا الباب ، حتى اذا فتح السيد الباب فى حذر وتؤدة ، على النحو المألوف ، ليسحب الملفات الى داخل الحجرة اندفع الحادم الى هناك قافزا ودس قدمه بين الباب وإطاره وأرغم السيد على الأقل أن يتفاوض معه وجها لوجه ، وهو ما كان يؤدي فى المعتاد الى نتيجة لا بأس بها • واذا لم تنجح هذه الوسيلة ، أو اذا تصور أن هذه الوسيلة ليست هى الوسيلة المناسبة لباب معين ، فكان يجرب وسيلة أخرى • كان ينتقل مثلا الى السيد الذى يطالب بالملفات • ويبعد الحادم الآخر الذى لا يفتأ يعمل على نحو آلى ولا يزيد على أن يكون مساعدا عديم القيمة ويبدأ هو نفسه فى اقناع السيد هامسا متسترا داسا رأسه الى داخل الحجرة ، ولعله يعده بأشياء ويؤكد له أنه فى التوزيع التالى سيعاقب السيد الآخر عقابا مناسبا ، وكان على الأقل يشير الى باب الغريب مرارا ويضحك على قدر ما كان تبعه يسمح له • وكانت هناك حالات ، حالة واحدة أو حالتان ، تخلى فيها عن كل محاولة وكان رأى ك أن هذا التخلي ظاهرى فقط أو انه يعتمد على أسباب صحيحة ، لأن الحادم يسير هادئا فى طريقه ، ولا يلتفت حواليه ، راضيا بالضجة التى يحدثها السيد المجاور ، ولا يبين انه يعانى من

الضحية الا من حين لآخر باغماضة عينيه فترة طويلة . وكان السيد نفسه يهدأ تدريجيا وكان صياحه عند ذاك يشبه بكاء الأطفال عندما يستحيل الى بكاء متقطع ثم الى شهقات متفرقة تتباعد تدريجيا حتى تخفت . ولكنه كان حتى بعد أن يهدأ تمام الهدوء يعود فيصدر صرخة واحدة أو يفتح الباب بسرعة ويقفله عنوة . ومهما يكن من أمر فقد كان واضحا ان الخادم تصرف هنا تصرفا يلوح صحيحا تمام الصحة . وبقي في النهاية سيد واحد لم يهدأ ، بل صمت طويلا ، ولكنه لم يصمت الا ليسترد قواه ، ثم ليستأنف الجولة دون أن يضعف أو يلين . ولم يكن سبب صراخه وشكواه واضحا ، ولعله لم يكن يتصل بتوزيع الملفات . وفرغ الخادم في هذه الأثناء من عمله ، ولم يبق في العربة الصغيرة سوى ملف واحد ، أو على الأحرى ورقة صغيرة ، هي صفحة من كراسة ، بقيت نتيجة اهمال المساعد ، ولم يعرف الخادم الى من يحملها . وفكر ك : ربما كانت هذه الورقة ملفى أنا ! ولقد تحدث اليه رئيس مجلس القرية عن هذه الحالة الصغيرة المقرطة في الصغر . وحاول ك على الرغم من انه كان في قرارة نفسه يجد فكرته مضحكة سخيفة ، أن يقترب من الخادم الذي كان يتفحص الورقة مهتما . ولم يكن هذا بالعمل السهل ، فلم يكن الخادم يحتمل ميل ك اليه ، وكان حتى أثناء قيامه بأشق الأعمال يجد وقتا لينظر الى ك نظرة غاضبة أو متوترة يحرك لها رأسه حركة عصبية . أما الآن وقد فرغ من التوزيع فقد بدا عليه كأنه نسي ك قليلا ، هذا الى انه قد أصبح أشد بلادة ، وهذا شيء يدهى بعد أن أخذ منه الاعياء كل مأخذ ، كذلك لم يتعب نفسه كثيرا في الورقة ، ولعله لم يقرأ الورقة مطلقا ، بل تظاهر بذلك ، وعلى الرغم من أنه لو قدم الورقة لأى واحد من السادة هنا لأثلج صدره ، فقد قرأه ، وقد سئم التوزيع على شيء آخر ، فرفع أصبع السبابه الى شفتيه وأشار الى مرافقه أن يصمت ومزق - ولم يكن ك قد وصل اليه بعد - الورقة الى قطع صغيرة دسها في جيبه . وكان هذا ، على ما يبدو ، هو أول خروج على النظام يلاحظه ك هنا في عمل المكاتب . على أنه كان من المحتمل أن ك لم يفهم الأمر على الوجه الصحيح . وحتى لو كان هذا خروجا على النظام فلم يكن بد من غفرانه ، فلم يكن الخادم يستطيع في الظروف السائدة هنا أن يعمل على نحو لا يعتوره عيب ، وكان لابد للغضب المتراكم والقلق المتجمع أن انفجرا واذا لم يتخذ انفجارهما هيئة أخرى سوى تمزيق الورقة الصغيرة ، فما أقربه الى البراءة وكان صوت السيد الذى لم يكن هناك سبيل الى تهدئته لا يزال يدوى في الممر ، ويبدو أن الزملاء الذين لم يكونوا في الأمور الأخرى يتصرفون

بعضهم حيال البعض تصرفا يتسم بالود الشديد ، كانوا متفقين كل الاتفاق فيما يختص بالصخب . ولاح الأمر كأنما كان هذا السيد قد تولى مهمة احداث الصخب من أجل الجميع الذين كانوا يشجعونه بصيحات وإيماءات ليظل على صخبه . ولم يكن الخادم يهتم الآن لذلك فقد فرغ من عمله ، وأشار الى مقبض العربة الصغيرة حتى يسك به الخادم الآخر ، وانصرفا كما أتيا ، وقد ازداد رضاء وسرعة حتى ان العربة كانت تتراقص أمامهما . على أنهما انتقضا مرة واحدة ونظرا خلفهما عندما تبين السيد الصارخ الصاحب على ما يبدو - وكان ك يروح ويجيء أمام بابه لأنه كان يود أن يفهم ما كان السيد يريد - انه لا يبلغ بالصراخ ما يريد أن يبلغه ، واكتشف زر جرس كهربائي وفرح بأنه سيحمل عنه العبء فبدأ يدق الجرس بلا انقطاع بدلا من الاسترسال في الصراخ . ثم ثارت همهمة عظيمة في الحجرات الأخرى ، ويبدو انها كانت تعنى التأييد والموافقة ، ويبدو أن السيد كان يفعل شيئا كان الجميع يتمنون لو فعلوه منذ وقت طويل وانصرفوا عنه لسبب غير معروف . هل كان السيد يريد بدق الجرس أن يستدعى الخدم ؟ أو أن يستدعى فريدا ؟ إذن فعلية أن يدق طويلا . ان فريدا مشغولة بلف يريمياس في فوط مبيلة ، وحتى اذا كان قد تماثل للشفاء ، فلن يكون لديها وقت لأنها ستكون راقدة بين ذراعيه . ولكن دق الجرس أحدث في الحال أثرا . فقد أتى صاحب حان السادة بنفسه مسرعا يلبس حلة سوداء مزررة كالمعتاد ، ويبدو أنه نسي وقاره لأنه كان يعدو ، وقد بسط ذراعيه كأنما استدعى لمصيبة هائلة نزلت فعلية أن يمسكها وأن يضمها الى صدره حتى تختنق ، وكان كلما اضطرب دق الجرس يلوح كأنه ينتفض الى أعلى ويزيد من عدوه . وعلى مسافة غير قصيرة من خلفه ظهرت زوجته ، وكانت تجرى هي الأخرى باسطة ذراعيها ، ولكن خطواتها كانت قصيرة رقيقة ، وجال بفكرها انها ستصل متأخرة تأخرا مفرطا بعد أن يكون صاحب الحان قد فرغ من اجراء اللازم . والتصق ك بالحائط حتى يفسح لصاحب الحانة الطريق . ولكن صاحب الحانة وقف أمامه بالضبط وكأنما كان هو الهدف انذى سعى اليه ومالبثت صاحبة الحانة أن وصلت هي الأخرى ، وأخذ الاثنان يكيلان لـ ك اللوم والتوبيخ فلم يفهم ك من ذلك شيئا وقد أخذ على غرة ، خاصة وأن جرس السيد كان يندس وسط اللوم والتوبيخ ، بل ان أجراسا أخرى بدأت تدق ، لا عن حاجة ولكن للعبث وتعبيرا عن فيض من الفرح . وكان ك موافقا كل الموافقة ، من أجل الوصول الى فهم ذنبه فهما دقيقا ، على أن يأخذه صاحب الحانة تحت أبطه ويخرج به .

بعيدا عن هذا الصخب الذى كان يتزايد فقد انفتحت الأبواب على سعتها من خلفها - ولم يلتفت ك وراءه لأن صاحب الحان من ناحية وصاحبة الحان من الناحية الأخرى كانا يكلمانه - ودبت الحركة فى الممر واشتد النشاط فيه وانتشرت الاتصالات فأصبح كالحارة الصغيرة الضيقة التى تعج بالنشاط ، وكانت الأبواب التى أمامه تنتظر بشوق ظاهر ان يعبر ك عليها حتى يفتحها السادة ، وبين هذا وذاك كانت الاجراس تدق كأنها تحتفل بنصر . وأخيرا - وكانوا قد وصلوا الى الفناء الهادئ الأبيض الذى تنتظر فيه الزحافات - علم ك تدريجيا بالخبر . لم يكن صاحب الحان ولا صاحبة الحان يفهمان كيف جرؤ ك على فعل شيء من هذا القبيل . وكان ك لا يفتأ يسأل عما فعل . ولكنه ظل وقتا طويلا لا يسمع جوابا لأن الذنب كان يلوح للأنين واضحا يديهيا ولم يكونا يتصوران بحال من الأحوال حسن نيته . وعلم ك بكل شيء بسيط شديد . لقد كان فى وقوفه بالممر مخطئا ، فلم يكن له بصفة عامة أن يدخل مكانا سوى الخمارة ، وهذا على سبيل التفضل والامتنان ، وكان احتمال منعه من ذلك قائما فى كل وقت . فاذا كان أحد السادة قد استدعاه للحضور ، فعليه بطبيعة الحال أن يظهر فى مكان الدعوة ولكن عليه أن يعى دائما - فله على الأقل ما أوتى كل انسان من بدهة يعى بها مثل هذه الأمور - انه يظهر فى مكان لا ينتمى اليه ، استدعاه اليه ، كارها غاية الكره ، سيد من السادة لأمر رسمى ، فكان للاستدعاء عذره . ولهذا كان ينبغى عليه أن يعجل بالحضور ، فيمثل للاستجواب . ثم يختفى ان استطاع بسرعة أكبر . ألم يخالجه فى الممر شعور عنيف بعدم الانتماء ؟ واذا كان قد أحس بهذا فكيف أمكنه أن يروح ويحجى هناك كحيوان فى المرعى ؟ ألم يستدعى لاستجواب ليلي ؟ ألم يعلم بسبب الأخذ بنظام الاستجوابات الليلية ؟ لم يؤخذ بالاستجوابات الليلية - وهنا سمع ك تفسيراً جديداً لغزاها - الا لسبب واحد ، هو استجواب أصحاب المصالح ، الذين لا يحتمل السادة منظرهم بالنهار ، بسرعة ، فى الليل ، فى نور اصطناعي ، حيث يستطيع السيد بعد الاستجواب أن ينام وينسى كل ما عرض له من قبح وبشاعة . أما مسلك ك فلم يكن به أثر من أصول الحيلة والحذر . ان الأشباح نفسها تختفى عندما يقترب الصباح ، أما ك فقد بقى ، داسا يديه فى جيبه ، وكأنما كان يتوقع - نظرا لأنه لم يبتعد - أن يبتعد الممر بكل حجراته وساداته . ولو كانت هناك أقل امكانية ، لاختفى الممر بحجراته وساداته بكل تأكيد ، وعلى ك أن يوقن من ذلك، لأن السادة حساسين حساسية لا حدود

لها • وليس من بينهم من يمكن أن يطرد ك أو أن يقول له أكثر الأشياء
يدامة وهو أن عليه أن يتصرف • ليس من بينهم من يمكن أن يتصرف
على هذا النحو ، على الرغم من أنهم يرتعدون لوجود ك ولافساده عليهم
الصباح ، والصباح احب فترة اليهم • وهم يفضلون ، بدلا من اتخاذ
اجراء حيال ك ، أن يعانون ويتحملوا ، والأمل يداعبهم فى أن يتبين ك
تدريجيا هذا الشيء الواضح غاية الوضوح ، وأن يعانى من ذلك معاناة
مثل معاناة السادة حتى يستحيل عليه احتمال وقوفه هنا على نحو فطيع
يراه الجميع فى الممر صباحا • ولكن أملهم كان بلا جدوى • انهم
لا يعرفون ، أو لا يريدون أن يعرفوا ، فى غمرة رقتهم وتواضعهم ، ان
هناك قلوبا جامدة ، قاسية ، لا تلبى لاي اعتبار • الا تبحث العثة
الليلية ، هذا الحيوان المسكين ، عندما يأتى الصباح عن ركن هادى
ترقد فيه مكمومة تود لو توارت ، وتحزن لأنها لا تستطيع التوارى ؟
أما ك فعلى العكس ، انه يقف فى الوضع الذى يظهر فيه للأعين واضحا
أشد الوضوح ، ولو استطاع أن يمنع بوقوفه طلوع النهار ، لما تأخر •
وهو لا يستطيع أن يمنع طلوع النهار ، ولكنه يستطيع للأسف أن
يعطله ويصعبه • ألم يتطلع الى توزيع الملفات ؟ وهذا شيء لا يجوز أن
ينظر اليه الا أصحاب الشأن المقربون • شيء لم يكن لا لصاحب الحان
ولا لصاحبة الحان أن ينظرا اليه وهو يجرى فى دارهما ، شيء لم يسمعا
به الا تلميحا ، كما سمعا به اليوم من الخدم مثلا • ألم يلاحظ الصعوبات
التي اعترضت توزيع الملفات — وهذا شيء لا سبيل فى الحقيقة الى فهمه
— فكل واحد من السادة يخدم القضية العامة ولا يفكر فى فائدته
الخاصة ، وكان الأخرى به أن يعمل بكل قواه ، حتى تتم عملية توزيع
الملفات ، هذه العملية الهامة الأساسية ، بسرعة وبسهولة وبدون أخطاء ؟
والم يخطر ببال ك من بعيد ان السبب الرئيسى وراء كل الصعوبات
التي اعترضت توزيع الملفات أن التوزيع الذى تم بينما كانت الأبواب مغلقة
أو تكاد ، دون أن تكون هناك امكانية اتصال مباشر بين السادة ، الذين
كان يمكنهم التفاهم فى لمح البصر فى حين ضيعت وساطة الخدم الساعات
الطوال ؟ ألم يخطر بباله أن هذا الأمر لا يمكن أن يظل دون شكوى ،
وأن التعذيب الطويل الذى تعرض له السادة والخدم سيكون له على
الأزجج أثر ضار على العمل فيما بعد • ولماذا لم يستطع السادة أن يتصلوا
بعضهم البعض ؟ ألا يزال ك عاجز عن فهم السبب ؟ ان شيئا من هذا
القبيل لم يصادف صاحبة الحان من قبل ، وأكد صاحب الحان كلامها
بالنسبة لنفسه هو كذلك ، على كثرة من عرفا من الناس المعاندين •

ان هناك أشياء لم يكونا يجروان على النطق بها ، أصبح عليهما الآن أن يوضحاها له بصراحة والا فانه لن يفهم ما هو ضرورى . اذن مادام عليهما أن يتكلما فانهما يقولان : ان السادة لم يخرجوا من حجراتهم وذلك بسببه ، بسببه هو ، لأنهم فى الصباح ، ولما يمض على استيقاظهم وقت طويل ، يكونون شديدى الخجل ، شديدى الحساسية لا يستطيعون احتمال النظرات الغريبة . انهم يحسون حقا ، حتى وان كانوا يرتدون الملابس كامله ، كأنهم عارين لا يستطيعون الظهور أمام الأعين . ومن الصعب أن نذكر سبب خجلهم ، ولعلمهم يخجلون ، هؤلاء العمال النشيطين ، لأنهم تاموا . ولعلمهم يخجلون من النظر للغرباء أكثر مما يخجلون من الظهور أمامهم . انهم لا يريدون أن يدعوا ما قد تغلبوا عليه عن طريق الاستجابات الليلية ، أعنى منظر أصحاب الحاجات ، ذلك المنظر الذى لا قبل لهم على احتماله ، ينصب عليهم فيجأة على نحو مباشر وعلى هيئته الطبيعية وقد أصبح الصباح . انهم لم يبلغوا القدرة على احتمال ذلك . وأى انسان هذا الذى لا يحترم هذا الوضع ؟! لابد أن يكون انسانا مثل ك . لابد أن يكون انسانا يستهتر بكل شئ ، بالقانون وباكثر أنواع التحفظ الانسانى بساطة ، وقد تملكته بلادة جامدة وخمول جامد ، لا يهمه أن يحول دون توزيع الملفات ولا يتأثر باضراره بسمعة الدار ، انسانا يفعل ما لم يحدث من قبل ، بحيث يضطر السادة الذين أسقط فى أيديهم الى العمل على الدفاع عن أنفسهم ، والى الالتجاء فى تمالك للنفس لا يخطر ببال البشر العاديين الى الجرس ، والى طلب النجدة لتطرد ك الذى لم تفلح وسيلة أخرى فى هزه . انهم وهم السادة ، يطلبون النجدة . ولقد أسرع صاحب الحان وصاحبة الحان والعمال جميعا منذ وقت مبكر الى هنا ، وأوشكوا ، لو اسعفتهم الجراءة ، أن يظهروا أمام السادة فى الصباح دون استدعاء ، ليقدموا العون ولينصرفوا على الفور بعد ذلك . لقد انتظروا هنا على أول الممر يرتعدون من الغيظ ، ويحتارون أشد الحيرة لعجزهم ، وجاء الجرس - الذى ما كانوا ينتظرونه - بالخلاص . وهكذا انتهى أتيح ما فى الأمر . ليتهم يستطيعون أن يلقوا نظرة على تعبير السادة عن فرحهم بعد أن تم خلاصهم !! أما ك ، فلم ينته الأمر بالنسبة اليه . انه سيسأل بلا شك عن كل ما أحدثه هنا .

وكانوا قد وصلوا فى هذه الاثناء الى قاعة الشراب . ولم يكن من الواضح تماما لماذا اقتاد صاحب الحانة ك الى هناك على الرغم من غضبه

الشديد ، لعله قد تبين أن تعب ك يحول بينه الآن وبين مغادرة الدار وارتضى ك قاعدا على برميل من البراميل ذون أن يطلب اليه أحد أن يقعد أو أن ينتظر . وأخس في الظلمة بالارتياح . ولم يكن هناك في المكان الكبير سوى مصباح كهربائي واحد ضعيف يضيء فوق صنابير البيرة . كذلك كانت الحلقة مخيمة على الدنيا في الخارج وكان النشاط المتصل بالخارج يوحى بأن الثلوج متراكمة . فإذا كان الانسان هنا في الدفء فعليه أن يشكر وأن يعمل ما في وسعه حتى لا يطرده أحد . وكان صاحب الحان وصاحبة الحان لا يزالان يقفان أمامه ، وكأنما كان خطرا لم يتحول ، أو كأنما كان من الممكن أن يهب فجأة - وهو المستهتر المسرف في الاستهتار - ويحال العودة الى الممر . كذلك كان الاثنان متعبين من الرعب الذي أصابهما في الليل ومن الاستيقاظ قبل الموعد ، وبخاصة صاحبة الحان التي كانت ترتدى ثوبا بنيا من قماش يهفهف كالحرير نصفه السفلى واسع ، عقدته واقفلت أزراره على نحو مضطرب - من أين أخرجته يا ترى وهي على عجل ؟ - وكانت تسند رأسها التي بدت ملوية على كتف زوجها ، وتمسح عينيها بمنديل رقيق وتوجه بين ذلك نظرات صبيانية شريرة الى ك . وأراد ك أن يهديء من روع الزوجين فقال ان كل ما حكى له جديد عليه كل الجدة ، وانه على الرغم من جهله لم يبق بالممر طويلا ، فلم يكن لديه ما يفعله هناك ، ولم يكن بكل تأكيد يريد أن يعذب أحدا ، وان كل ما حدث انما يرجع الى شيء واحد هو تعب المفرط . وشكرهما على أنهما أنهيا المشهد الاليم ، وقال انه يرحب كل الترحيب بأن يسأل عما فعل ، فهذا هو السبيل الوحيد للحيلولة دون تاويل مسلكه تاويلا خاطئا . ان الذنب يرجع الى تعبته لا الى شيء آخر . وتعبه يرجع الى انه لم يألف مشقة الاستجابات بعد . فهو حديث عهد بالمكان . وعندما يجمع شيئا من الخبرة في هذه الناحية فلن يحدث شيء من هذا القليل مرة أخرى . وربما كان يسرف في الاهتمام بالاستجابات ، ولكن هذا شيء لا يمكن أن يعاب عليه . ولقد تحتم عليه أن يجتاز استجابتين الواحد تلو الآخر ، أولهما عند بورجل ، وثانيهما عند أرلانجر ، وكان الاستجواب الأول هو الذي أعياه أشد الاعياء ، فلم يطل الاستجواب الثاني في الحقيقة ولم يزد عن أن توجه اليه ارلانجر طالبا منه مكreme ، ولكن الاستجابتين كانا أكثر من طاقته ، ولعلهما يزيدان على طاقة الآخرين كذلك ، على طاقة السيد صاحب الحان مثلا . والحقيقة انه لم يخرج من الاستجواب الثاني الا مترنحا ، لقد أوشكت حاله أن تكون سكرة ، فقد رأى السيدين وسمعهما لأول مرة وكان

عليه فوق هذا وذاك أن يجيب عليهما . ولقد انتهى الأمر ، على قدر ما يعرف ، نهاية طيبة ، ثم حدثت تلك المصيبة التي لا يكاد يمكن لانسان أن يحمله ذنبها بعد كل ما سبقها ، ولقد تبين ارلانجر وبورجل وضعه ، وليس هناك شك في انهما كانا سيتوليان أمره وكانا سيردان عنه كل شئ ، ولكن ارلانجر كان مضطرا للانصراف بعد الاستجواب مباشرة ليذهب على ما يبدو الى القصر ، أما بورجل فيبدو أنه تعب من ذلك الاستجواب - وكيف يمكن أن يكون قد اجتاز الاستجواب دون أن يستبد به الضعف ؟ - واستغرق في النوم فلم يشهد توزيع الملفات . ولو أوتى ك هذه الامكانية - امكانية الاستغراق في النوم - لأفاد منها كل الفائدة مسرورا ، ولتنازل راضيا عن كل النظرات المحرمة ، خاصة وانه لم يكن في الحقيقة قادرا على أن يرى شيئا ، لو علم أكثر السادة حساسية بهذا ، لظهروا أمامه دون ما خجل .

وكان لاشارة ك الى الاستجوابين - وبخاصة الى استجواب ارلانجر - وللاحترام الذى تحدث به عن السيدين أثرهما فى استمالة صاحب الحان اليه ، فلما طلب ك لوحا من الخشب ليضعه على البراميل وبنام عليه على الأقل الى أن ينبلج الصباح بدا على صاحب الحان ميل الى تلبية هذا الرجاء ، ولكن صاحبة الحان عارضت معارضة واضحة لا ليس فيها ، وهزت رأسها مرارا فوق ثوبها الذى تبينت الآن اضطرابه وحاولت أن تصلحه هنا وهناك دون جدوى . وأوشك خلاف على نظافة البيت ، يبدو أنه كان خلافا قديما ، ان يعود الى الانفجار من جديد ، واتصل بين الزوجين حديث اتخذ فى نظرك لتعبه أهمية هائلة . ولاح له أن طرده من هنا سيكون مصيبة أضخم من كل ما شهدته حتى الآن . لا ينبغي أن يصل الأمر الى ذلك حتى اذا اتفق صاحب الحان وصاحبتها على الوقوف فى وجهه . وأخذ ينظر اليهما متربصا وهو مكوم على برميل . حتى انتحلت صاحبة الحان جانبا فجأة نتيجة لحساسيتها الفائقة التى لفتت نظر ك منذ وقت طويل - ويبدو أنها تحدثت مع صاحب الحانة عن أشياء أخرى - وصاحت :

... ما باله يتطلع الى هكذا ! اطرده !

وانتهز ك الفرصة فقال وكان موقنا يقينا تاما يوشك أن يصل الى حد البلادة من انه سيبقى :

... أنا لا أتطلع اليك ، بل أتطلع الى الثوب .

وسألت صاحبة الحانة نائرة :

- ولماذا تتطلع الى ثوبى ؟

فهزك كتفيه •

وقالت صاحبة الحان لزوجها :

- تعال ! انه سكران ! هذا الصعلوك ! دعه هنا ينام حتى يفيق

من سكره !

ونادت صاحبة الحان بيبي فظهرت من وسط الظلام مضطربة

الشعر ، متعبة ، تمسك بيدها فى افعال مقشاة ، وأمرتها بأن تلقى الى

ك مخلدة •

الفصل العشرون

فلما استيقظ ك ظن فى بداية الامر انه لم يكد ينام ، كانت الحجرة على حالها لم تتغير ، خالية ، دافئة ، وكانت الحيطان مظلمة ، وكان المصباح المتدل فوق صنابير البيرة قد انطفأ ، وكان الليل مخيما أمام النوافذ . فلما تمطى ، وقعت المخذة وقرقع اللوح والبراميل ، أتت ييبى من فورها ، وعلم أن الوقت مساء وأنه قد نام ما يزيد على اثنى عشرة ساعة . وكانت صاحبة الحان قد سألت عنه عدة مرات . وكذلك جيرشتيكر - الذى كان ينتظر هنا ويشرب البيرة فى الظلام عندما كان ك يتكلم مع صاحبة الحانة ، ولم يجرؤ آنذاك على ازعاج ك فقد أتى مرة الى هنا ليرى ك ، وكذلك أتت فريدا ، على حد قول ييبى ، ووقفت عنده لحظة ، ولكنها توشك ألا تكون قد أتت من أجل ك بل أتت لتعد بعض الأشياء فى قاعة الشراب اذ أنها ستستأنف عملها القديم عندما يحل المساء . وسألت ييبى وهى تحضر قهوة وفطيرا :

يبدو أنها لم تعد تحبك ؟

ولكنها لم تسأل فى هذه المرة بطريقتها الشريرة السابقة ، بل سألت حزينه وكأنها قد عرفت فى هذه الأثناء أن ما فى الدنيا من شر يضيع أمامه ما لديها من شر ويسخف . لقد كانت تتكلم الى ك وكأنها تحدث رفيقا لها فى الآلام ، فلما تذوق ك القهوة وظنت هى أنه يريد لها أكثر حلاوة ، أسرع وأحضرت له السكرية ملائنة . ويبدو أن حزنها حال بينها وبين أن تتزين أكثر من المرة الماضية . وكانت تضع فى شعرها الكثير من اللفائف والأربطة وقد أزالته من جبينها وفوديتها كل شعر زائد ، وعقدت حول رقبتها سلسلة صغيرة كانت تتدلى فى فتحة بلوزتها الواسعة . فلما مد ك يده ، وقد نعم بنوم مريح ونال قهوة طيبة ، الى احدى الأربطة سرا وحاول أن يفتحها ، قالت ييبى متعبة :

- دعنى !

ثم جلست بجواره على برميل . ولم يكن ب ك حاجة الى سؤالها

عما بها ، فقد بدأت على التو تروى حكايتها موجهة بصرها جامدا الى ابريق القهوة وكأنما كانت تحتاج الى تلهية حتى وهى تروى ، وكأنها كانت ، حتى وهى تشتغل بمحتتها ، لا تستطيع أن تندمج فيها كلية لأنها تتجاوز ما لديها من قوة • وعلم ك أول ما علم انه فى الحقيقة يحمل الذنب فى المحنة التى تتعرض بيبي لها ، وان بيبي ليست غاضبة عليه • ولقد أومأت برأسها فى همة أثناء الرواية حتى لا تفسح مجالا لاعتراض من جانب ك • فهو قد أخذ فريدا فى البداية من الخمارة ومكن بهذا لبيبي من أن تسلك مدارج الترقى • وليس هناك ، سبيل لتصوير الموضوع على نحو آخر ، فما هذا الذى يمكن أن يكون قد دفع بفريدا الى التخلي عن مركزها ؟ لقد كانت تجلس هناك فى الخمارة كالعنكبوت فى شبكتها ، وكانت تمد خيوطها الى كل ناحية ، وكانت هى وحدها التى تعرفها ، ولم يكن من الممكن بحال من الأحوال زحزحة فريدا عن مكانها لم يكن هناك غير شيء واحد يمكنه أن يتسبب فى عزلها ، ألا وهو حب رجل وضيع • وما شأن بيبي ؟ هل كانت فى ذلك الوقت تفكر فى الوصول الى هذا المركز ؟ لقد كانت خادمة تعمل فى تنظيف وتنظيم الحجرات ، أى كانت تشغل وظيفة تافهة ضعيفة المستقبل ، ولكن بيبي كانت تحلم كما تحلم كل فتاة بالمستقبل العظيم ، فليس هناك انسان يمكنه أن يتمتع نفسه من الحلم ، ولكنها لم تكن تفكر جديا فى امكانية الترقى ورضيت بما حققته • وفجأة اختفت فريدا من الخمارة • اختفت فجأة ، ولم يكن لدى صاحب الحان بديلة جاهزة لها • فأخذ يبحث حواليه ووقع بصره على بيبي التى كانت بطبيعة الحال قد دفعت بنفسها الى الامام • وكانت فى ذلك الوقت تحب ك كما لم يحبه انسان • كانت بيبي قد ظلت الشهور الطوال فى حجرتها السفلية المظلمة الضئيلة ، وكانت تعد نفسها لتمضية السنوات ، بل وعلى أسوأ الفروض ، حياتها كلها ، لا يلتفت اليها ملتفت • وظهر ك فجأة ، ك البطل محرر البنات ، وشق لها طريقا الى أعلى • حقيقة أنه لم يكن يعرف عنها شيئا ، ولم يكن قد فعل ما فعل من أجلها ، ولكن هذا لم يبدد امتنانها له ، ولقد أمضت فى الليلة السابقة على تعيينها - ولم يكن التعيين قد تأكد بعد ولكنه كان محتملا جدا - الساعات تراجو أن تهمس فى أذنه بالشكر • ولقد رفع من عمله فى نظرها أنه اختار فريدا بالذات لتكون الحمل الذى يضعه فوق ظهره ، لقد كان فى هذا التصرف شيء من الاثرة لا سبيل الى فهمه ، انه فى سبيل بيبي ، يتخذ فريدا عشيقه له ، فريدا البنت القبيحة المنظر ، المسنة ، النحيفة ، ذات الشعر القصير

المضطرب ، البنت الخبيثة التي تخفى دائما أسرارها .. وانها خبيثة خبثا يتفق مع منظرها ! واذا كان قبجها واضحا فى وجهها وجسمها وضوحا لا أسرار فيه ، فلا بد أن تتخذ على الأقل أسراراً أخرى لا يستطيع أحد أن يكشف أمرها ، من هذا علاقتها المدعاة بكلم . ولقد خطرت ببال بيبي فى ذلك الوقت مثل هذه الافكار : هل من الممكن أن يكون كلم عاشقا لفريدا ؟ ألا يخدع نفسه ؟ أو ألا يخدع فريدا ؟ وهل سيؤدى هذا كله الى ارتقاء بيبي فقط ؟ وهل سيتبين ك الخطأ ؟ وهل سيفرر ألا يغفره ؟ وألا يعود الى رؤية فريدا ؟ ألا يعود الى رؤية بيبي وحدها ؟ ولم يكن هذا خيالا مجنونا تورطت فيه بيبي ، فقد كان فى مقدورها أن تقف من فريدا موقف الند للند ، وهذا شيء لا يستطيع أحد انكاره . ولكن فريدا بهرت بصر ك أولا وقبل كل شيء آخر بمركزها وبالبريق الذى عرفت كيف تضيفه على هذا المركز . وتمنت بيبي فى أحلام استرسلت اليها أن يأتى اليها ، وبعد أن تكون قد نالت المركز ، فيتوجه اليها بالرجاء ، وسيكون عليها فى هذا الوقت أن تختار بين أمرين اما أن ترفع ك وتفقد المركز أو أن تصد ك وترتفع هى . ولقد رتبت أمرها على أن تتخلى عن كل شيء وتنزل اليه وأن تعلمه الحب الحقيقى الذى لا يمكنه أن يعرفه عند فريدا ، الحب الحقيقى الذى لا يرتبط بأى مركز من مراكز التشريف فى الدنيا . ولكن الامور تطورت على نحو آخر ، ومن الذى يحمل ذنب ذلك ؟ ك أولا وقبل كل شيء آخر ، ثم بعد ذلك خبث فريدا . ك أولا : فماذا يريد ؟ وما أغربه من انسان ؟ الام يطمح ؟ ماهى هذه الأشياء الهامة التى تشغله والتى تنسيه الأقرب والأحسن والأجمل ؟ ان بيبي هى الضحية ، وكل شيء قد أصابه السخف ، وكل شيء قد أصابه الضياع . ولو استطاع أحد أن يشعل النار فى حان السادة ويحرقها عن آخرها كما يحرق الانسان ورقة فى مدفأة ، لكان اليوم هو الرجل الذى تختاره بيبي وتصطفيه . نعم، لقد دخلت بيبي فى الحمار منذ أربعة أيام قبل الغداء بقليل . وليس العمل فى الخماره بالعمل السهل انه عمل يوشك أن يكون مهلكا ، ولكن ما يمكن أن يبلغه الانسان هنا ليس بالشئ الصغير . ولم تكن بيبي فيما مضى تعيش اليوم ولا تفكر فى الغد ، وهى اذا لم تكن قد تجرأت جرأة مفرطة للاستحواذ على هذا المركز فقد أكترت من الملاحظة وعلمت أمر هذا المركز ، فلم تكن اذ شغلت المركز تفتقر الى الاستعداد له . وما يمكن أن يشغل الانسان مثل هذا المنصب دون أن يكون مستعدا له ، والا فقدته فى الساعات الاولى . وخاصة اذا ما تصرف الانسان هنا على طريقة خادمت الحجرات : وخادمة

الحجرات نفسها بمضى الزمن ضائعة منسية . أن عملها هناك ، أو على الأقل عملها فى الممر ، يشبه العمل فى باطن المتجم . انها تظل الايام العديدة لا ترى باستثناء بعض أصحاب الحاجات الذين يتكثرون على أنفسهم ولا يجرون على رفع أبصارهم ، انسانا ، سوى خادمتين أو ثلاث من الزميلات اللاتي يعانين من المحنة ذاتها . ليس للخادمة أن تغادر حجرتها صباحا ، لأن السكرتيرين يريدون فى هذا الوقت أن يكونوا وحدهم والصبيان هم الذين يأتون اليهم بالطعام من المطبخ ، فليس للخادومات شأن بالطعام ، وليس للخادمة أن تظهر فى الممر فى وقت تناول الطعام . وليس للخادمة أن ترتب الحجرة الا أثناء قيام السادة بالعمل وعليها أن ترتب بطبيعة الحال الحجرات التى تصادف أن غادرها السادة ، وعليها أن تؤدي عملها فى سكون تام حتى لا تزعج السادة وهم يعملون ولكن كيف يمكن ترتيب الحجرة فى سكون تام . اذا كان السادة يقيمون فى الحجرة الايام المتتالية وكان الخدم الرجال ، هؤلاء الرعاى الأفذار ، يعيشون فيها فسادا ، واذا بالحجرة عندما تدخل الخادمة لترتيبها فى حالة من القذارة لا يمكن حتى للقيضان تنظيفها . والحقيقة أن السادة سادة عظام ، ولكن على الخادمة أن تقهر قرفها حتى تتمكن من ترتيب الحجرة . وليس عمل الخادمة عملا كثيرا مفرط الكثرة ولكنه دقيق . وهى لاتسمع مطلقا كلمة طيبة ، بل تسمع دائما اللوم والتوبيخ ، وخاصة هذا اللوم الضائع الفظيع : ان بعض الملفات ضاعت أثناء قيامها بتنظيف الحجرة . وليس هناك فى الحقيقة شئ يضيع ، فالخادمة تسلم أصغر قطعة من الورق تجدها الى صاحب الحان ، واذا كانت الملفات تضيع ، وهذا ما يحدث فان الخادومات لسن هن اللاتي يضيعنها . وتأتى اللجان للتحقيق ، وتضطر الخادومات الى مغادرة حجرتهن ، وتقلب اللجنة السرر رأسا على عقب . وليس لدى الخادومات من الممتلكات سوى أشياء قليلة يحتويها سبت ولكن اللجنة تستمر فى البحث ساعات وساعات . وهى بطبيعة الحال لا تعثر على ملفات ، فكيف يمكن أن تأتى الى هنا ؟ وماذا تعمل الخادومات بالملفات ؟ ومع ذلك فالنتيجة شتائم وتهديدات ينقلها صاحب الحان الى الخادومات عن اللجنة التى خاب رجاؤها . والخادمة لا تعيرف الراحة لا بالليل ولا بالنهار ، بل تعاني من الصخب آناء الليل ، وأطراف النهار . والخادومات يتمنين لو سمح لهن بالمبيت خارج الحان ، ولكن المبيت بالحان مفروض عليهن ، لأن عليهن اجابة الطلبات اذا ما طلب السادة أشياء بسيطة من المطبخ ، وبخاصة فى الليل . فجأة يأتى من يدق بلكمته على باب حجرة الخادومات ، ويميل الطلب على الخادمة ، فتجربى الخادمة الى

المطبخ ، وتهز صبي الطباخ فى المطبخ ليصحو ، وتضع الصينية بالطلب أمام باب حجرة الخادمت ، فيأتى الخدم الرجال ويحملونها . ما أسوأ هذا كله ! ولكن هذا ليس أقبح ما فى الامر . ان أسوأ ما فى الأمر هو عدم حضور من يطلب شيئا ، انه شروع بعضهم فى التلصص أمام الباب ، بالليل البهيم حيث يحب الجميع أن يناموا ويكون غالبيتهم مستغرقين فى النوم فعلا . عند ذاك تنزل الخادمت من السرر – فالسرر متخذة الواحد فوق الآخر لضيق المكان وليست حجرة الخادمت فى حقيقتها سوى دولا ب كبير له ثلاثة رفوف – وتتصتن على الباب ، وتركع عنده ، تعانق الواحدة الأخرى من فرط الخوف . وصوت المتلصص بالباب لا يفتأ يأتى الى السمع ولو أنه دخل لسعدت الخادمت بدخوله ، ولكن هذا لا يحدث ، فالتلصص لا يدخل اليهن . وينبغى أن يقول الانسان ان هذا التلصص لا ينطوى على خطر محقق ، فربما لم يكن المتلصص سوى شخص يروح ويبنى أمام الباب ويفكر هل يطلب شيئا ، ولا يستطيع أن يتخذ قرارا . ربما كان الأمر كذلك ، وربما لم يكن كذلك . والحقيقة أن الخادمت لا يعرفن السادة قط ، فهن لم يرونهم الا لاما . ومهما يكن من أمر فان الخادمت يذبن فى الحجرة من فرط الخوف ، واذا ما ساد السكون فى الخارج ، فانهن يستندن الى الحائط ، لأن قوتهن لا تمكنهن من العودة الى السرر . هذه الحياة تنظر ببى مرة أخرى ، فعليها أن تعود الليلة الى حجرة الخادمت وتتخذ فيها مكانها . ولماذا ؟ بسبب ك ، ولكن بعد جهود هائلة . ذلك ان الخادمت ، حتى اللاتى يهتمن بأنفسهن . عادة غاية الاهتمام ، يهملن أنفسهن هنا فى هذا العمل . فلماذا يتزين ؟ ليس هناك انسان يراهن ، فى أفضل الاحوال الا العاملون فى المطبخ ، فمن كان هذا يرضيها فلتتزين ان الخادمت دائما فى الحجرة الصغيرة أو فى حجرات السادة التى يعتبر دخولها بملابس نظيفة من الحماقة والتبذير . وان الخادمت يعشن دائما فى الضوء الصناعى والهواء العطن – لأن التدفئة لا تنقطع – وهن دائما متعبات . أما فترة الراحة التى يحصلن عليها ، وهى ساعات قليلة فى عصر أحد الايام أسبوعيا ، فهن يفضلن قضاءها فى مكان مققول بالمطبخ : حيث ينمن فى سكون وبلا خوف . فلماذا تتزين الخادمة اذن ؟ انها لاتكاد ترتدى شيئا . ولقد نقلوا ببى الى الحماة حيث يتطلب العمل منها ، ان أرادت أن تنجح فيه ، العكس على خط مستقيم . فخادمة الخمارة تحت أعين الناس دائما ومن بين الناس من اشتدت رقتهم وعظم انتباههم . وعليها أن تظهر

دائما بأحسن مظهر ما استطاعت الى ذلك سبيلا • لقد كان ذلك تحولا فى حياتها • ويمكن لبيبي أن تقول عن نفسها إنها لم تقصر فى شئ • فلم تقلق بالا على مستقبلها فى العمل • لقد كانت تعرف ان لديها الامكانيات اللازمة لهذه المهنة ، بل كانت متأكدة من ذلك تماما ، وما زالت الى الآن مقتنعة بهذا ، ولا يوجد انسان يستطيع أن يززع اقتناعها هذا حتى اليوم • هزيمتها • ولقد وجدت صعوبات فى فرض نفسها فى الفترة الأولى لأنها كانت بنتا فقيرة بلا ثياب وبلا حلى ، ولأن السادة ليس لديهم من الصبر ما يجعلهم ينتظرون ليروا كيف تتطور هذه البنت الجديدة ، بل هم يريدون خادمة للخمارة بمعنى الكلمة على الفور ودون مرحلة انتقال والا نفروا منها وقد يظن الانسان ان متطلباتهم ليست عالية لأن فريدا كانت تقى بها • ولكن هذا ليس صحيحا • ولقد فكرت بيبي فى هذا مليا ، واتصلت بفريدا مرارا بل ونامت معها فترة طويلة • وليس من السهل سبر أغوار فريدا ، ومن لا يتنبه - وأين هم السادة الذين يتنبهون ؟ - يقع فى غوايتها • وليس هناك انسان يعرف قبح منظر فريدا أدق من فريدا ذاتها ، ان الانسان عندما يراها لأول مرة وهى تحل شعرها ، يضرب يديه معا من الأسى • ان بنتا كهذه لا يصح أن تعمل ، اذا كانت الامور تسير فى طريق العدل والصواب ، حتى خادمة حجرات • وهى تعرف ذلك ، كثيرا ما باتت الليل تبكى ، وتضم نفسها الى بيبي وتلف شعر بيبي حول رأسها • ولكتها عندما تعمل فى الخمارة ، لا تحس بشئ من شكوكها ، وتعتبر نفسها أجمل المخلوقات ، وتعرف كيف تفرض ذلك على كل انسان • انها تعرف الناس ، وهذا هو فننا الحقيقى • وهى تكذب وتغش بسرعة حتى لا يكون لدى الناس من الوقت ما يكفى للنظر اليها بدقة • ومن الطبيعى أن هذا لا يكفى على مر الزمن ، فالناس لهم عيون ، والعيون ستكون فى النهاية صاحبة الحق ولكن فريدا لديها وسيلة جاهزة تستعملها اذا ما تبينت خطرا من هذا النوع ، انها فى هذه الحالة تستعمل ، على سبيل المثال كما حدث فى الفترة الاخيرة ، علاقتها بكلم • نعم علاقتها بكلم ! اذا لم تكن تصدق ان لها علاقة بكلم فالتمس لك طريقة تتأكد بها ! اذهب ان استطعت الى كلم واسأله ! ما أكثر حبثها ! واذا لم تجرؤ على الذهاب الى كلم لسؤاله عن شئ من هذا القبيل - فلن تستطيع الوصول اليه اذا كان لديك أسئلة أهم بكثير لأن كلم بعيد عنك كل البعد ••• عنك وعن أمثالك فقط ، لأن فريدا تذهب اليه عندما تشاء - فيمكنك والامر كذلك أن تنقصى ، أو عليك أن تنتظر ! وليس من المتصور أن يحتمل كلم اشاعة مزيفة مثل هذه طويلا ، ومن المؤكد أنه يتابع ما يحكى عنه فى الخمارة

وفى حجرات النزلاء ، ويعلق على ذلك أهمية كبيرة ، فادا كان ما يحكى عنه خطأ ، صححه على الفور .

ولكنه لا يصحح الخطأ فى حالتنا هذه . اذن فليس هناك ما ينبغى تصحيحه ، والأمر هو الحقيقة الخالصة ! أما ما يراه الناس فهو لا يتعدى حمل فريدا البيرة الى حجرة كلم وخروجها بالثمن . وأما ما لا يراه الناس فتحكيه فريدا ، وينبغى تصديقها . ثم هى لا تحكيه ، لأنها لا يمكن أن تكشف مثل هذه الأسرار . لا ! ان الأسرار تتكشف وحدها من حولها ! وعندما تتكشف ، فان فريدا لا تتردد هى نفسها فى الحديث عنها ، ولكن على نحو متواضع ، دون أن تجزم بشئ ، بل هى تعتمد فى حديثها على ما قد ذاع بالفعل . ولكنها لا تذكر كل شئ ، فهى لا تذكر على سبيل المثال ان كلم أصبح يشرب ، منذ عينت هى على المشاريب فى الحمار ، من البيرة أقل مما كان يشرب ، لا أقل كثيرا ، ولكن أقل بشكل واضح والناس يختلفون فى تحليل ذلك ، ولقد مر على كلم وقت كانت البيرة لاتسيغ له كثيرا ، أو لعل فريدا تلهيه عن شرب البيرة . ومهما يكن من أمر ، فان فريدا ، على الرغم مما فى الامر من غرابة ، عشيقة كلم . وليس من شك فى أن الآخرين عليهم أن يعجبوا بما يرضى به كلم . وهكذا أصبحت فريدا ، دون أن يتدبر الناس الامر ، بنتا رائعة الجمال ، وخادمة خلقت للخمار ، بل قد تكون مفرطة الجمال ، مفرطة القدرة فلا تكاد الحمار ترضيها . وهذا هو الواقع - فان الناس يعجبون بها لأنها لا تزال فى الخمار . والعمل خادمة فى خمار شئ عظيم ، ولهذا فان علاقتها بكلم تلوح قابلة للتصديق ، ولكن اذا أصبحت خادمة الخمار عشيقة لكلم فلماذا يدعها ، يدعها هذا الوقت الطويل ، فى الحمار ؟ لماذا لا يأخذ بيدها الى أعلى ؟ وفى استطاعة الانسان أن يقول للناس ألف مرة انه ليس فى هذا تناقض ، وان كلم لديه أسباب معينة للتصرف على هذا النحو ، أو أن ترقية فريدا ستحدث فجأة ربما فى أقرب وقت ، ولكن هذا الكلام لا يؤثر عليهم كثيرا . ان الناس يتصورون الامر على ما يبدو معرفة أفضل ، تعبوا تعباً حال بينهم وبين الشك . وقالوا فى أنفسهم ، كونى ان شئت عشيقة كلم ، ولكن اذا كنت قد أصبحت بالفعل عشيقة فدعينا نتبين ذلك من تقيك الى أعلى ! ولكنهم لم يتبينوا شيئاً ، وبقيت فريدا فى الحمار كما كانت ، وكانت بينها وبين نفسها مسرورة لأن الأحوال بقيت على هذا النحو . على أنها فقدت جانباً من هيبتها فى أعين الناس ، ولا بد أنها لاحظت ذلك ، فهى تلاحظ فى المعتاد الاشياء حتى قبل أن تحدث .

ولو أن بنتا جميلة لطيفة عملت فى الخمار ، ألفت شؤونها ، فلن يكون بها حاجة الى الالتجاء الى الأتانيين للاستمرار فى العمل ، فهى باقية فى مكانها ما دامت جميلة ، الا أن يطرأ طارئ مفاجئ مؤسف . أما اذا كانت البنت على شاكلة فريدا فانها تظل دائما قلقة على وظيفتها ، وهى بطبيعة الحال - وهذا شئ بديهي - لا تظهر قلقها ، بل على العكس تتظاهر بأنها تشكو من العمل وتلعنه . أما بينها وبين نفسها ، فهى تراقب انجو العام دون ما توقف . وهكذا تبينت أن الناس لا يكلفون بها ، وأن ظهور فريدا لم يعد يدفعهم حتى الى رفع عيونهم ، حتى الخدم كانوا لا يهتمون بها ، وكانوا يتعلقون - وهذا شئ بديهي - بأولجا وبمشيلاتها ، ولاحظت فريدا أن الاحتياج اليها أخذ يفتر فتورا متزايدا ، ولم يكن فى مقدورها ان تستمر فى اختراع حكايات جديدة ، فلكل شئ حدود ، وهكذا قررت فريدا الطيبة أن تفعل شيئا جديدا . وأين هو الانسان الذى كان يستطيع أن يكشف مكنونها ! أما يبيى فقد أحسست بما تدبره فريدا ، وان لم تتمكن من كشف مكنونه . لقد قررت فريدا أن تحدث فضيحة : هى ، عشيقة كلم ، ترتضى فى أحضان أى انسان ، ترتضى فى أحضان أوضاع انسان . لسوف يثير هذا الدهشة ، وسوف يتحدث الناس عنه طويلا ، ثم يتذكرون فى النهاية معنى أن تكون فريدا عشيقة كلم ، وأن تبذل هذا الشرف العظيم فى نشوة حب جديد . وكانت الصعوبة الوحيدة تتلخص فى العثور على الرجل المناسب لهذه اللعبة الماكرة . فلا ينبغي أن يكون هذا الرجل واحدا ممن تعرفهم فريدا ، ولا واحدا من الخدم لأنها لو حاولت أن تتخذ لذلك واحدا من الخدم ، فانه على الأرجح سينظر اليها بعينين واسعتين مدهوشتين وينصرف الى حال سبيله ، وهو لو رضى فلن يستطيع أن يتصنع ما يكفى من الجد ، ولن يكون من الممكن ، مهما أوتى الانسان من الفصاحة ، أن يشيع بين الناس انه تهجم على فريدا ، وانها لم تستطع أن تدافع عن نفسها ، وأنها خضعت له فى ساعة فقدت فيها وعيها . وحتى اذا وجدت شخصا وضيعا غاية الوضاعة ، فلا بد أن يكون شخصا يمكنه أن يوحى على نحو مقنع ، انه على الرغم من بلادته وغلظته لا يشتاق الى شئ شوقه الى فريدا والى - آه ، يا للعجب ! - الزواج بها . وينبغي أن يكون هذا الرجل الوضيع - ولا بد أن يكون على قدر الامكان أكثر وضاعة من الخدم ، أكثر وضاعة منهم جدا - على نحو لا تنفر منه كل البنات ، بل قد تجد فيه بنت صحيحة العقل شيئا جذابا . فأين تجد رجلا كهذا ؟ ولو أن بنتا غير فريدا بحثت عن هذا الرجل ، لما وجدته فى حياتها . أما فريدا فقد ساق اليها الحظ موظف مساحة الى الخمار

ربما فى نفس الليلة التى فكرت فيها فى هذه المخططة • موظف المساحة ! نعم ، نعم ، فقيم يفكر ك ؟ ما هى الاشياء الهامة الخاصة التى تجسول بخاطرهم ؟ هل سيصل الى شىء هام خاص ؟ الى مركز طيب ؟ الى مجد ؟ هل يريد هو شيئا من هذا القبيل ؟ لو كان الامر كذلك ، لكان قد تصرف منذ البداية على نحو آخر • وهو فى الحقيقة لا شىء ، ولكم يتحسر الانسان عندما ينظر الى حاله ! انه موظف مساحة ، وربما كان هذا شيئا ؟ ربما كان هذا يعنى أنه قد تعلم شيئا ، ولكن اذا لم يكن الانسان يستطيع أن يفعل شيئا بما تعلم ، فان ما تعلمه يكون لا شىء • وهو مع ذلك يطالب بحقوق دون أن يكون معتمدا على أدنى سند ، وهو فى الحقيقة لا يطالب بحقوق بمعنى الكلمة ، ولكن المثير فى الامر هو أن الانسان يلاحظ أنه يطالب بحقوق ألا يعلم أن الخادمة الوضيعة تفرط فى الكرم حياله ، اذا تكلمت معه طويلا ؟! واذا هو يطالبه العالية هذه يندفع فى الليلة الاولى الى داخل مصيدة بشعة • ألا يخجل ؟ ما هذا الذى أعجبه فى فريدا ؟ انه الآن يستطيع أن يقول الحقيقة • أيمكن أن تكون هذه المخلوقة الصفراء العجفاء قد أعجبت به ؟ آه ، لا ، انه لم يتطلع اليها ، كل ما فى الامر انها قالت له انها عشيقة كلم ، فأحدث ذلك فيه أثرا لأنه كان جديدا عليه • • وكان أن ضاع ! أما هى فقد أصبح عليها أن تترك الحان ، فلم يعد لها بطبيعة الحال مكان فى حان السادة • ولقد رأتها بيبي فى الصباح السابق على خروجها من الحانة ، وكان من يعملون بالحانة قد تجمعوا تواقين الى النظر اليها • كان نفوذها لا يزال عظيما لدرجة أنهم أسفوا عليها ، لقد أسف عليها الجميع ، ومن بينهم أعداؤها • لقد نجح تدبيرها الى هذا الحد • لقد صعب على الجميع أن يفهموا لماذا ألفت بنفسها الى مثل هذا الرجل لقد تصوروا أن نازنة أملت بها • وكانت خادمت المطبخ الصغيرات ، اللاتى يعجبجن بخادمة الحماره أيا ما اعجاب ، فى حالة يرثى لها • حتى بيبي كانت متأثرة ، ولم تكن تستطيع أن تسيطر على نفسها ، على الرغم من أن اهتمامها كان مركزا على شىء آخر • ولكنها لاحظت أن ما كان بفريدا من حزن قليل قلة ملفتة للنظر • لقد كان ذلك الذى حدث لها مصيبة بشعة ، ولقد تصنعت هى أيضا التعاسة ، ولكن تصنعها لم يكن كافيا ، فلم تنخدع بيبي بتمثيلها • فعلام كانت تعتمد ؟ يا ترى على سعادة الحب الجديد ؟ لقد كان هذا الاحتمال مستبعدا ، فعلام اذن ؟ وما هذا الذى أعطاهما القوة على أن تصطنع كالمعتاد الود البارد حتى حيال بيبي التى كانت فى ذلك الوقت تعتبر خليفة فريدا ؟ ولم يكن لدى بيبي فى ذلك وقتا كافيا للتفكير فى هذا ، فقد كانت مشغولة جدا بالاستعداد للوظيفة

الجديدة . وكان المفروض أن تبدأ العمل فيها بعد ساعات قليلة ، ولم تكن قد اتخذت تسريحة جميلة ، ولا لبست ثوبا أنيقا ، ولا ارتدت قميصا رقيقا ولا حذاء صالحا . وكان من الضروري تدبير كل هذه الاشياء في غضون ساعات قليلة . وإذا لم يكن تدبير هذه الاشياء في الامكان ، فالأفضل أن يتنازل الانسان عن الوظيفة ، لأنه سيفقدها بكل تأكيد في نصف الساعة الاول . ولقد تمكنت بيبي من تدبير هذه الاشياء جزئيا . أما تصفيف الشعر فلها فيه موهبة خاصة ، حتى ان صاحبة الحان ذاتها استدعتها ذات مرة اليها لتصفف لها شعرها ، ولقد تمكنت بيبي من تصفيف شعرها تصفيفا حسنا لأنها تحسن العمل بيدها ، ولأن شعرها الغزير يتشكل كما تريد . كذلك وجدت من يعينها على تدبير الثوب . فقد أخلصت زميلاتها لها ، وكانت تريان في اختيار بنت من مجموعتهن لتصبح خادمة الخمارة شرفا لهما ، وكانتا تعتقدان أن بيبي ستتعهما فيما بعد عندما تصل الى السلطة . وكان لدى إحدى البنتين منذ وقت طويل قطعة من القماش الغالي ، كانت كنزها ، وكانت تعرضها على الأخريات فيعجبن بها ، وكانت بطبيعة الحال تحلم بأن تستعملها ذات يوم في صناعة ثوب رائع . وما كان أحسن تدبيرها ، فلما احتاجته بيبي الآن ضحت به من أجلها . وساعدت البنتان بيبي عن طيب خاطر في حياكة الثوب ، ولو كانتا تحيكان لنفسهما ، لما أظهرتا مزيدا من الهمّة . بل لقد كان العمل في الثوب عملا مفرحا سعيدا . كانت كل واحدة تجلس في سريرها ، الواحدة فوق الأخرى ، وكانتا تخيطان وتغنيان وتقدمان الواحدة الى الأخرى الأجزاء الجاهزة وتبادلان الكلفة . ان بيبي عندما تفكر في هذا ، ينقبض قلبها ، لأن هذا الجهد راح هباء ، ولأنها تعود الى صديقتها خاوية اليدين . يا لها من محنة ! ويا له من دين تحملت به عن حق ! والذنب ذنب ك قبل غيره . ولقد أعجب الجميع بالثوب ، ولاح هذا الإعجاب به كأنه ضمان للنجاح ، وكان العثور في الثوب بعد أن تم على مكان لا يزال يحتاج الى شريط يحليه من الصعوبة بمكان . ثم ألم يكن الثوب جميلا بالفعل ؟ لقد أصابه الآن بعض الخلل واتسخ ، فليس لدى بيبي ثوب آخر ، ولهذا كانت مضطرة الى ارتدائه ليلا ونهارا ، ولكن الناظر اليه لا يزال يرى كم هو جميل ، وما كان يمكن حتى لأخت يرناباس اللعينة أن تصنع أفضل منه . انه ثوب يمكن تضيقه وتوسيعه من أعلى ومن أسفل حسب الرغبة ، فيظهر بأشكال مختلفة وهو الثوب الواحد . وهذه ميزة خاصة وهى من اختراع بيبي . وليست حياكة ثوب بيبي بالأمر الصعب بطبيعة الحال ، وبيبي لا تتفاخر بذلك ، وان البنات اذا

كانت صغيرة السن صحيحة البدن فكل شيء تلبسه يناسبها ويبدو جميلا أما تدبير الملابس الداخلية والحذاء فكان أمرا أكثر صعوبة ، وكان هو في الحقيقة بداية الفشل . ولقد ساعدت الصديقات هنا على قدر ما استطعن ، ولكنهن لم يستطعن فعل الكثير . فلم تحصل بيبي الا على ملابس داخلية خشنة مرقعة ، ولم تجد حذاء له كعب عال ، واضطرت الى الاكتفاء بحذاء بيبي كان الأخرى بالانسان أن يخفيه لا أن يظهره . وكان هناك من يواسي بيبي : فلم تكن فريدا تلبس الجميل من الثياب ، بل انها كانت أحيانا تلبس ملابس رثة حتى ان الناس كانوا يفضلون أن يقدم لهم المشروبات بدلا منها صبيان المخزن . هذا هو الواقع . ولكن فريدا كانت تسمح لنفسها بذلك لأنها كانت تنعم بالحظوة والتكريم ، واذا ظهرت سيدة أمام الناس بملابس قدرة مهملة فانها تستهويهم على نحو أشد ، أما اذا فعلت ذلك بنت جديدة مثل بيبي فما تكون العاقبة ؟ هذا الى أن فريدا لم تكن تستطيع أن تهتم بنفسها ، فهي مجردة من الذوق تماما ، واذا أوتي الانسان بشرة صفراء فهو لا يستطيع أن يغيرها ، ولكن ليس هناك ما يضطره مثل فريدا الى ارتداء بلوزة مفتوحة فتحة واسعة صفراء اللون ، حتى ان العين اذا نظرت اليها تضطرب لهذه الصفرة المفرطة ! وحتى اذا لم يكن هذا هو حالها ، فانها كانت بخيلة بخلا يمنعها من الانفاق على الملابس الجميل . لقد كانت تدخر كل ما تكسب ، وليس هناك من يعرف لماذا . وهي لم تكن تحتاج في العمل الى المال ، بل كانت تدبر أمرها بالكذب والحُبث ، ولم تكن بيبي تريد ولم تكن تستطيع أن تتخذ فريدا قدوة لها ، ولهذا كان لها أن تتزين حتى تظهر موهبتها كاملة وبخاصة في البداية . ولو انها أوتيت لذلك وسائل أقوى لكانت هي المنتصرة برغم مكر فريدا وغباءك . ولقد كانت البداية طيبة جدا . فقد أتت وهي مئمة بما يتطلبه العمل من نشاط ومعرفة ، وما كادت تدخل الخمارة حتى ألقت العمل فيها ولم يعد غريبا عليها . ولم يعتور العمل عيب يجعل كائنا من كان يفقد فريدا في اليوم الاول . أما في اليوم التالي فقد سأل بعض الحاضرين عن فريدا واثي أين ذهبت . ولم ترتكب بيبي خطأ واحدا ، وكان صاحب الحان راضيا ، وكان في اليوم الاول لا يبارح الخمارة من شدة خوفه ، فلما ارتاح باله قل حضوره ، وأخيرا ترك كل شيء لبيبي ، عندما وجد أن الحزينة مضبوطة بل وان الوارد زاد في المتوسط عما كان عليه أيام فريدا . وأدخلت بيبي بعض التجديدات . كانت فريدا تراقب الخدم مراقبة جزئية ، وبخاصة اذا كان هناك من ينظر اليها ، لا عن كلف بالعمل ، ولكن عن بخل ، وعن حب للسيطرة

وعن خوف من النزول عن شيء من حقوقها ، أما بيبي فقد تركت هذه المهمة كلها لصبيان المخزن الذين يصلحون لهذه المهمة أفضل منها . وكانت النتيجة أنها وجدت المزيد من الوقت لخدمة حجرات السادات فكان النزلاء يتلقون ما يطلبون بسرعة . وكانت مع ذلك تتكلم مع كل كلمتين على عكس فريدا التي كانت تدعى أنها حكر على ك وكانت تعتبر كل كلمة توجه إليها وكل محاولة للتقرب منها إساءة إلى نلم . ولقد كان ذلك تصرفا مأكرا منها ، لأنها عندما كانت تسمح لشخص بالتقرب إليها كان يعتبر هذا تفضلا من نوع لم تسمح به اذن . أما بيبي فكانت تكره هذه الأفاتين ، هذا إلى أن هذه الأفاتين لا تفيد في البداية . كانت بيبي تظهر الود لكل انسان ، وكان كل انسان يظهر لها الود . وكان يبدو على الجميع الفرح بالتغيير الذي طرأ على الخمارة . وكان السادة المتعبون إذا ما خلوا في النهاية إلى البيرة ، يتغيرون من حال إلى حال لكلمة من بيبي أو نظرة منها أو هزة من كتفيها . وهكذا كانت الأيدي تمتد تشيطة إلى خصائل شعرها ، مما كان يضطرها إلى اصلاح تسريحتها عشر مرات في اليوم الواحد . ولم يكن هناك من يستطيع أن يقاوم اغراء هذه الخصائل والجدائل ، حتى ك نفسه الذي كان يظهر في المعتاد مجردا من كل فكر . وهكذا انقضت أيام ، كانت مليئة بالعمل ، ولكنها كانت ناجحة . ليتهى لم تنقض بهذه السرعة ، وليلتها كانت أكبر مما كانت ! لقد كانت الأيام الأربعة قليلة جدا حتى إذا أنك الانسان نفسه إنها كا ! ولعلها لو زادت يوما لكفت ، أما أربعة أيام فقط فقد كانت قليلة . حقيقة أن بيبي اكتسبت في الأيام الأربعة المحاسيب والأصدقاء ، ان جاز لها أن تصدق النظرات ، لقد كانت تعوم ، عندما تأتي بأقداح البيرة ، في بحر من الصداقة ، ولقد هام بها إلى الجنون كاتب اسمه بارتماير فقدم إليها هذا العقد وهذه الدلاية هدية وأعطاها صورة في الدلاية . وانه لتصرف جسور ما في ذلك شك ! لقد جرى هذا وغير هذا في فترة لم تتجاوز أربعة أيام . وان في استطاعة بيبي ، عندما تبذل جهدها ، أن تدفع بفريدا إلى ظلام النسيان تقريبا في هذه الأيام الأربعة ، ولكنها لا تكفى لدفعها إلى ظلام النسيان كلية . وربما كان النسيان قد احتوى فريدا بالفعل ، إذا لم تكن قد حرصت على أن تجعل الأفواه تتحدث عنها وتوسلت إلى ذلك بفضيحتها الكبيرة التي جددتها في أذهان الناس حتى استبد بهم الفضول لرؤيتها . لقد تحولت هذه البنات التي ملوها وسثموها ، إلى شيء له سحره : والفضل في ذلك يرجع إلى ك الذي يتسهم عموما بالبلادة ! ولم يكونوا بطبيعة

الحال ليضحوا بببى من أجل هذا طالما كانت تقف فى الحماره وتؤثر عليهم بحضرتها • ولكن غالبيتهم من الشيوخ المسنين ، الجامدين فى عاداتهم ، الذين يحتاجون الى وقت طويل لكى يتعودوا على خادمة خماره جديده حتى وان كانت أفضل من سابقتها يحتاجون الى عدة أيام ، يحتاجون رغم ارادتهم الى عدة أيام ، ربما الى خمسة أيام فقط ، ولكن أربعة أيام لا تكفى •• ولم تكن ببى فى نظرهم الا خادمة مؤقتة • ثم جاءت المصيبة التى ربما كان هى المصيبة العظمى : فى تلك الأيام الأربعة لم ينزل كلم فى حجرته بالخان على الرغم من أنه كان فى اليومين الأولين فى القرية • ولو أنه أتى لثم لببى الامتحان الحاسم ، الامتحان الذى لم تكن تخشاه الا أقل خشية ، بل كانت ترحب به • ولعلها لم تكن ستصبح - وهذه أمور من الأفضل بطبيعة الحال الا يتعرض الانسان لها بكلام - عشيقه لكلم •• ولعلها لم تكن ستكذب وتدعى أنها قد أصبحت عشيقته •• ولكنها كانت ستعرف ، مثل فريدا ، كيف تضع قدح البيرة برقة على المائدة ، وكيف تلقى التحية مهذبة دون الحاح من نوع الحاح فريدا ، وكيف تستأذن مهذبة فى الانصراف •• ولو كان كلم يبحث فى عينى البنات عن شئ ، فلاشك انه كان سيجده وفيرا فى عينى ببى • ولكن لماذا لم يأت ؟ مصادفة ؟ لقد ظنت ببى آنذاك أنها مصادفة • وكانت طوال اليومين تنتظر مقدمه بين لحظة وأخرى ، وظلت تنتظر حتى فى الليل • وكانت لا تفتأ تقول فى نفسها ان كلم سيأتى حالا ، وتجرى هنا وهناك بلا سبب سوى قلق الانتظار والحرص على أن تكون أول من يراه عندما يدخل • ولقد أرهقتها هذه الخيبة المستمرة، ولعلها لهذا السبب لم تبذل من الجهد ما كانت تستطيع أن تبذله • وكانت اذا وجدت لديها شيئا من الوقت تصعد الى الممر الذى حظر دخوله على العاملين فى الحانة حظرا باتا ، وتختفى فى تجويف بالحائط وتنتظر • وكانت تقول فى نفسها : ليت كلم يأتى الآن ، وليتنى أستطيع أن أحمل السيد من حجرته على ذراعى الى قاعة الشراب ! اننى لن أنهار مهما كان الثقل من الضخامة ! ولكنه لم يأت • وهذا الممر يخيم عليه سكون هائل لا يستطيع من لم يعرفه أن يتصوره • ان السكون هناك لا يحتمل ، انه يدفع الانسان الى بعيد • ولقد دفع ببى الى بعيد المرة تلو مرة •• عشر مرات ، ولكنها عادت المرة تلو المرة •• عشر مرات • ولقد كان ذلك حمقا : فلو كان كلم يريد أن يأتى فانه سيأتى ، ولو لم يكن يريد أن يأتى فان ببى لن تستطيع اجتذابه حتى ولو اختنقت فى تجويف الحائط أو كادت أن تختنق لفرط دق قلبها • لقد كان ذلك حمقا ، ولكنه اذا

لم يأت فسيكون كل شيء تقريبا حقا . ولم يأت . وببى تعرف اليوم لماذا لم يأت . ولو رأت فريدا ببى فى تجويف الحائط واضعة يديها على قلبها ، لنعمت بمشهد طريف للغاية . ان كلم لم ينزل لأن فريدا لم تسمح بذلك . ولم يتحقق لها هذا بالالتماس ، فالتماساتها لاتصل الى كلم . ولكنها كالعنكبوت ، على صلات تمتد الى كل ناحية ، ولا يعلم الانسان عنها شيئا . فاذا قالت ببى لأحد رواد الحان شيئا ، فانها تقوله بصراحة ، ويمكن لمن يجلس الى المائدة المجاورة ان يسمعه . أما فريدا فليس لديها ما تقوله ، انها تضع البيرة على المنضدة وتنصرف ، ولا يسمع أحد منها الا ههههه قميصها الحريري ، وهو الشيء الوحيد الذى تدفع فيه مالا . واذا حدث أن قالت شيئا ، فانها لا تقوله بصراحة ، بل تهمس به ، وتميل على أذن الشخص فيلهف من يجلس الى المائدة المجاور السمع . ويبدو ان ما تقوله استخف ، ولكنه ليس سخفا كله . وفريدا لها اتصالاتها ، وهى تسند بعضها على البعض الآخر ، فاذا تخلى عنها هذا - وأين هذا الذى يمكن أن يهتم بفريدا الى الأبد ؟ - فانها تظل معتمدة على ذلك . ولقد تحركت بالفعل لتستغل هذه الاتصالات . وممكنها ك من ذلك ، فهو بدلا من أن يقعد لديها فى البيت وبدلا من أن يجرسها ، لا يمكث فى البيت الا لاما ، بل يتجول ويجرى مناقشات هنا وهناك ، وهو يلتفت الى كل شيء الا الى فريدا ، وهو ينتقل من حان الجسر الى المدرسة الخالية ليتيح لها مزيدا من وقت الفراغ . وكل هذا بداية جميلة لشهر العسل . وببى هى بكل تأكيد آخر من يلوم ك على أنه يحتفل الحياة مع فريدا ، فليس هناك انسان يحتمل الحياة معها . ولكن لماذا لم يهجرها كلية ؟ لماذا ظل يعود اليها المرة بعد المرة ؟ لماذا جعل جولاته توحى بأنه يناضل من أجلها ؟ لقد لاح الأمر كأنها قد تبين تفاهته الحقيقية على أثر اتصاله بفريدا ، وكأنه يريد أن يجعل نفسه جديرا بفريدا ، وكأنه يريد أن يرقى متعجلا الى شيء ، وهو لهذا يتخلى عن عشرتها الآن ويرجو أن يجد فى المستقبل تعويضا عن الحرمان . أما فريدا فهى لا تضيع فى هذه الأثناء الوقت ، انها تقعد فى المدرسة التى يبدو أن ك نقلها اليها ، وتتأمل حان السادة وتتأمل ك . ولديها من السعادة اثنان ممتازان تحت أمرها : انهما مساعدا ك وقد تركهما ك لها كلية . وان الانسان لا يفهم لماذا تركهما ك لها ، حتى اذا كان يعرف ك . وهى ترسلهما الى أصدقائها القدامى فتجدد ذكراهما لديهم ، وتشكو لهم من أن رجلا مثل ك يجلسها ، وتحرضهم على ببى ، وتعلن أنها ستعود من جديد عما قريب ، وترجو العون وتتوسل اليهم الا يكشفوا

أمرها لكم ، وتظاهر بأنها تخاف على كلم ، وترجو ألا يتركوه يذهب الى الخمارة بحال من الأحوال . وبينما تتظاهر أمام هؤلاء بأن بعد كلم عن الخمارة يرتجى حرصا عليه ، تستغل نجاحها هذا عند صاحب الحان فتلفت نظره الى أن كلم لم يعد يذهب الى الخمارة . وكيف يمكنه أن يذهب الى هناك بينما بنت كبيبي هي التي تقوم بالخدمة ؟ والحقيقة ان صاحب الحان ليس مذنبا ، فيبيبي هي أفضل بديل لها ، ولكنها لا تكفى حتى ولا لبضعة أيام . وك لا يعلم شيئا عن كل هذا التدبير الذي قامت به فريدا ، فهو ان لم يكن هائما فى جولاته ، يرقد خائى البالى الى قدميها بينما هي تعد الساعات التي لاتزال تفرق بينها وبين العودة الى الخمارة . ثم ان عمل الساعين لا يقف عن هذا الحد ، انه يهدف كذلك الى اثاره غير ك والابقاء على علاقته بفريدا . وفريدا تعرف المساعدين منذ طفولتها ، وليس لديها أسرار تخفيها عليهما ، وهما تكريما ل ك يشغفان بها على التوالى ، ويواجه ك خطر تحول هذا الشغف الى حب شديد . وك يفعل كل شيء ارضاء لفريدا ، ولا يتورع فى ذلك عن أنكر الأعمال . انه يدع المساعدين يثيران غيرته ، ويقبل مع ذلك ، أن يظل الثلاثة معا ، بينما يذهب هو الى جولاته وحده . وكأنما كانت فريدا المساعد الثالث ! وتقرر فريدا أخيرا اعتمادا على ملاحظاتها ، أن تضرب الضربة الكبرى : انها تقرر أن تعود . والحقيقة أن الوقت قد أزف ، وان الانسان ليدھش كيف تتبين فريدا ، الماكرة ، هذه الحقيقة وكيف تستغلها . ان القدرة على الملاحظة والتصميم هي فن فريدا الذى لا يستطيع غيرها أن يقلده . ولو أوتيت بيبي هذا الفن ، لتغيرت حياتها أيما تغير ! ولو ان فريدا قد بقيت فى المدرسة يوما آخر أو يومين ، لما أضحى فى امكانها أن تطرد بيبي ، ولأصبحت بيبي نهائيا خادمة الخمارة يحبها الجميع ويتمسكون بها ، ولربحت من المال ما يكفى لاستكمال هندامها على نحو مذهل . لو بقيت يوما أو يومين لما أمكن منع كلم عن قاعة الشراب مهما كانت الاحاييل . اذن لآتى كلم ولشرب ولأحس بالراحة والرضا ، فاذا ما لاحظ أن فريدا لم تعد هناك ، فانه سيسر للتغير . ولو بقيت يوما أو يومين لانطوت فريدا فى النسيان بفضيحتها وعلاقاتها ومساعدتها وبكل ما أوتيت ، ولما خرجت من ظلمات النسيان بعد ذلك أبدا . واذا وصلت الى هذه الحال فعليها أن تتعلق بك على نحو أشد ، وأن تتعلم كيف تحبه اذا كانت تستطيع ذلك ؟ لا ، انها لا تستطيع حتى هذا . لأن ك لا يحتاج لأكثر من يوم حتى يسأمها وحتى يتبين كيف تخدعه خداعا مزريا ، تخدعه بكل شيء ، بجمالها المزغوم واخلاصها المدعى

وخاصة بحبها المقتعل لكلم . انه لا يحتاج الا الى يوم واحد لكى يلقى بها الى الشارع ومعها أعمالها القذرة التى تعتمد فيها على المساعدين . ان الانسان لا يمكن أن يتصور ان ك يحتاج من الوقت الى أكثر من يوم واحد حتى يتصرف على هذا النحو . وبينما هى بين هذين الخطرين ، وقد أوشك القبر أن ينقل عليها ، وما يزال ك فى سذاجته يبقى على سبيل آخر مفوحا ، اذا بها تتأجج نارا ، على نحو لم يكن هناك انسان يتوقعه لأنه يجافى الطبيعة ، واذا بها تطرد ك الذى لا يزال يحبها ويجرى وراءها ، تظهر لصاحب الحان ، تحت ضغط الأصدقاء والمساعدين ، على هيئة المنقذة التى تأتى اليه بالخلاص والنجدة ، وقد أصبحت نتيجة لفضيختها أكثر جاذبية من ذى قبل ، وقد تأكد بالدليل أن الوضع والرفيع يشتهيانه ، فهى تغرم بالوضع الى حين ، ثم تنبذه بعد ذلك كما ينبغي وتترفع عليه كما كانت تترفع من قبل ، مع فارق واحد وهو أن الناس كانوا يشكون فى ذلك ، أما الآن فقد اقتنعوا . واذا بها تعود ، وينظر صاحب الحان نظرة تردد الى بيبي - هل يضحي بها بعد أن أثبتت جدارتها ؟ - ثم يتخذ قراره فى صالح فريدا ، فكفة فريدا رابحة لأنها أولا وقبل كل شيء آخر ستعيد كلم الى قاعة الشراب . وهذه هى الحال الآن ، فى هذا المساء . ولكن بيبي لن تنتظر حتى تأتى فريدا وتجعل من عودتها الى المنصب انتصارا . لقد سلمت بيبي الحزينة الى صاحبة الحان ، وفى استطاعتها أن تصرف . وستذهب الآن الى حجرة الخادومات حيث ينتظرها سريرها هناك ، وستحييها صديقتها بالدموع ، وستنتزع هى الثوب من فوق جسمها ، والأشرطة من شعرها وتلقى بها فى ركن بعيدة عن بصرها حتى لا تذكرها دون ما فائدة بأوقات من الخير أن تظل منسية . وسوف تتناول الدلو الكبير والمقشاة وتزم أسنانها وتستأنف عملها . ولكنها لابد أن تحكى كل شيء ل ك أولا ، حتى يتبين بوضوح مالم يتبينه حتى الآن وحده بدون مساعدة ، حتى يتبين بوضوح قبح ما فعله بيبي وكيف أتعسها . وان كان كذلك قد وقع بطبيعة الحال فريسة للاستغلال .

وانتهت بيبي من الكلام . وجففت وهى تلتقط نفسا عميقا شيئا من الدموع من عينيها وخديها ثم تطلعت الى ك وهى تومى برأسها ، وكأنها تريد أن تقول أن الأمر ليس فى الحقيقة أمر مصيبتها هى ، فهى وبخاصة من ك ، وهى على الرغم من صغر سنها تعرف الحياة ، تستطيع أن تتحملها ولا تحتاج لا الى مساعدة ولا الى عزاء من أحد وبخاصة من ك ، وهى على الرغم من صغر سنها تعرف الحياة ،

وما مصيبتها الا تأكيد لمعلوماتها السابقة ، وانما الأمر أمر مصيبة كـ ،
ولقد أردت أن تصور له الأشياء ، لأنها رأت من الضروري ان تفعل ذلك
قبل أن تنهار آمالها كلها • فقال كـ :

— ما أظن خيالك يا بيبي ! أما أنك لم تكتشفى هذه الأشياء
كلها الا الآن فأمر لا يمكن تصديقه • ان كل ما قلته لا يعدو أن يكون
أحلاما انطلقت من حجرتك ، حجرة الخادماة السفلية المظلمة الضيقة ،
وهي فى الحجرة السفلية المظلمة الضيقة فى مكانها الصحيح ، أما هنا ،
فى الحمار الطليقة ، فهى تبدو غريبة عجيبة • وأما أنك لم تتمكنى من
تثبيت أقدامك هنا بهذه الأفكار ، فشئ بديهي • وان ثوبك وتسريحة
شعرك اللذين تفخرين بهما لا يزيدان عن أن يكونا وليدى تلك الظلمة
وتلك السرر فى حجرتك وهما بلاشك جميلان جدا فى حجرتك ، أما هنا
فكل إنسان يضحك منهما فى سره أو علانيته • وما هذا الذى حكيت ؟
لقد قلت اننى وقعت فريسة للاستغلال والغش ؟ لا ، يا عزيزتى بيبي ،
اننى لم أقع فريسة للاستغلال والغش مثلك تماما • والحقيقة ان فريدا
قد هجرتنى الآن ، أو هى ، كما قلت قد هربت مع أحد المساعدين ، فأنت
اذن ترين بصيصا من الحقيقة ، ومن المستبعد جدا بالفعل أن تصبح
زوجتى بعد كل ما حدث ، وليس من الحقيقة فى شئ اننى سئمتها ،
أو اننى كنت سأطردهما فى اليوم التالى ، أو انها خائنتنى على النحو
الذى تخون الزوجة عليه زوجها • وأنتن ، أيتها الخادماة ، قد اعتدتن
على التجسس من خلال ثقب المفتاح ، واحتفظتن من التجسس على هذا
النحو بطريقة التفكير المرتبطة به ، فانتن تستنتجن من شئ صغير ترينه
بالفعل ، الشئ كله ، على نحو رائع ومزيف معا • والنتيجة فى هذه
الحالة مثلا اننى لا أعرف من الأمر الا أقل منك بكثير • وأنا لا أستطيع
— وقدرتى فى هذا لا تدانى قدرتك من قريب أو بعيد — أن أفسر بدقة
كدقتك سبب انصراف فريدا عنى • وأقرب تفسير الى الاحتمال يبدو
لى ما أشرت اليه أنت اشارة عابرة وهو اننى أهملتها • هذه هى
الحقيقة ، لقد أهملتها • ولكن اهمالى لها كان يقوم على أسباب ليس
هذا مكان الافاضة فيها • ولو عادت الى لسعدت بعودتها ، ولكننى
سأعود الى اهمالها من جديد • هذه هى الحقيقة • لقد كنت ، طالما كانت
فريدا عندي ، مشغولا دائما بجولاتى التى تسخرين منها • أما الآن ،
وقد هجرتنى فريدا فأننى غير مشغول بشئ تقريبا ، ومتعب ، وأحس
بحاجة الى مزيد من البطالة • ألا تنصحيننى بشئ يا بيبي ؟

وقالت ييبى وقد تملكها الحماس فجأة وأمسكت ك من كتفيه :

— بلى • اننا كلانا مخدوعان ، فلنبق معا ! تعال معى الى الحجرة السفلية الى الخادماٲ .

فقال ك :

— اننى لن أستطيع التفاهم معك طالما كنت تتحدثين عن أننا خدعنا • انك تريدان دائما أن تكونى قد خدعت ، لأن هذا يروق لك ويحرك وجدانك • أما الحقيقة فهى أنك لا تصلحين لهذه الوظيفة • وان عدم لياقتك لهذه الوظيفة لتتضح لك جلية اذا كنت أنا ، وأنا فى نظرك أجهل الناس ، أتبين ذلك • وأنت بنت طيبة يابيبى ، ولكن ليس من السهل على الانسان ان يتبين ذلك • فأنا على سبيل المثال عندما رأيتك لأول مرة ظننتك فظيعة ومتكبرة ، ولكنك فى الواقع لست كذلك •• ان الوظيفة هى التى تصيبك بالاضطراب لأنك غير لائقة لها • وأنا لا أعنى بذلك أن الوظيفة عالية جدا بالنسبة اليك ، وما هى بالوظيفة الفائقة للمألوف ، وقد تكون ، اذا ما دقق الانسان النظر فيها ، أرفع من وظيفتك السابقة ، وان كان الفرق فى مجموعه غير كبير ، فالوظيفتان متشابهتان تشابها يكاد الانسان معه أن يخلط بينهما ، بل ان الانسان ليكاد يقول ان العمل كخادمة حبرات يفضل العمل فى الخمارة ، لأن خادمة الحبرات تكون دائما مع السكرتيرين ، أما خادمة الخمارة فانها ، وان كانت تخدم رؤساء السكرتيرين أحيانا ، مضطرة للتنزل الى شعب وضعيع شديد الوضاعة من أمثالى • وأنا غير مسموح لى بأن أظهر فى مكان آخر سوى فى هذه الخمارة ، فهل تعتبرين امكانية مخالطتى شيئا مشرفا يفوق الحدود ؟ انك تظنين هذا . وربما كانت لديك أسبابك • ولكنك لهذه الأسباب بالضبط غير لائقة لهذه الوظيفة • وهذه الوظيفة مثل كل الوظائف الأخرى ، ولكنها بالنسبة اليك الجنة ، ولهذا فأنت تتناولين الأمور كلها بحماس مفرط ، فأنت تتزينين كما تتزين الملائكة — حسب تصورك •• والحقيقة انهم يختلفون عما تتصورين كل الاختلاف — وأنت ترتعدين خوفا على الوظيفة ، وتظنين ان هناك من يضطهدك ، وتبحثين عن كل من تظنين أنهم يستطيعون أن يساندوك وتحاولين اجتذابهم اليك بالمبالغة فى التودد اليهم ، ولكنك تسببين لهم بهذا فى الازعاج النفور ، لأنهم يريدون ، اذ يأتون الى الخمارة ، الراحة ، والهدوء ولا يريدون مشكلاتك ومشكلات خادماٲ الخمارة • ومن المحتمل ، ومن المحتمل فقط ، ألا يكون كبار رواد الخمارة قد لاحظوا انصراف قريدا ، أما اليوم فهم

يعرفونه ويشتاقون فعلا الى فريدا ، لأن فريدا كانت تدبر أمور العمل على نحو مختلف كل الاختلاف . ومهما يكن من أمرها ، ومهما يكن تصورها لمركزها ، فقد كانت فى العمل واسعة الخبرة ، فاترة ، مسيطرة على نفسها - وأنت تشيرين الى ذلك دون أن تتعلمى منه . هل تأملت مرة نظرتها ؟ لم تكن نظرتها نظرة خادمة خمارة ، لقد كانت أكثر من ذلك ، كانت نظرة صاحبة حان ، أو توشك أن تكون كذلك . لقد كانت ترى كل شيء ، وكانت ترى كل فرد على حدة ، وكانت النظرة التى تنبى للفرد ، قوية قوة تكفى للسيطرة عليه . وهل يعيبها أن تكون نحيفة قليلا ، ومتقدمة فى السن بعض الشيء ، أو أن يكون هناك شعر أفضل من شعرها ؟ ان هذه أشياء طفيفة اذا قيست بما هى عليه فى الحقيقة . وإن الانسان الذى تزعجه مثل هذه العيوب ليبن بانزعاجه منها انه لا يفهم فى الأشياء العظيمة . ولا يمكن أن يأخذ الانسان على كلم هذا بكل تأكيد . أما أنك لا تصدقين حب كلم لفريدا فيرجع الى وجهة نظر خاطئة تنظر بها بنت صغيرة غريبة الى الأمور . ان كلم يبدو لك - بحق - بعيد المنال ، ولهذا فانك تظنين أن فريدا لا تستطيع الوصول اليه . عندى براهين يقينية . ومهما لاح لك الأمر بعيدا عن التصديق ، مختلفا وأنت تخطئين . وأنا فى هذا أثق فى كلام فريدا وحده حتى ان لم يكن عن تصوراتك عن العالم والموظفين والعظمة وتأثير جمال النساء ، فانه حقيقى ، ولقد كان كلم وفريدا يجلسان كما نجلس نحن الآن الواحد بجوار الآخر ويدك فى يدي - ولقد كان هذا أكثر الأمور بداهة . . ولقد كان ينزل اليها ، من تلقاء ذاته ، بل لقد كان يعدو اليها ، ولم يكن هناك من يتربص به فى الممر ويهمل أثناء ذلك عمله ، لقد كان كلم مضطرا الى النزول الى فريدا ولم يكن ما يتحدثين عنه من نقائص فى هندام فريدا يزعجه . اذن فأنت تذهبين الى تكذيبها . وأنت لا تعرفين انك بهذا تكشفين نفسك وتظهرين قلة خبرتك . ان من لا يعرف شيئا عن علاقة فريدا بكلم يمكنه أن يتبين من كيانها أن الذى يحبها شخص أكبر منى ومنك ومن كل من فى القرية من شعب ، وان أحاديثها تتجاوز حدود المزاج الذى يتصل عادة بين خادمت الحانات والرواد والتى تلوح كأنها هى هدف حياتك . ولكننى أظلمك : فأنت فى الحقيقة تعرفين مميزات فريدا ، وتعرفين قدرتها على الملاحظة وقدرتها على التصميم ، وتأثيرها على الناس ، الا أنك بطبيعة الحال تفسرين الأشياء تفسيراً خاطئاً ، وتظنين انها تستخدم كل شيء استخداماً أنانياً لصالحها هى ولضرر الآخرين ، أو تستعمله كسلاح ضدك . لا يابيبى ، انها حتى اذا أوتيت هذه الرماح،

لا نستطيع أن تصيب أحدا يقف على هذا البعد الهين . أما الأنانية ؟ لا ، ان الأخرى بالإنسان أن يقول انها ضحت بما كان لديها وبما كان لها أن ترجوه ، لتتيح لنا كلانا فرصة الصعود الى مركز أعلى . أما نحن فأننا نشبت كفاءتنا وخيئنا رجاءها واضطروناها الى العودة الى هنا اضطرارا . وأنا لا أعرف هل الأمر فعلا على هذا النحو ، هذا الى اننى لا أحس بذنبى احساسا واضحا ، الا أننى ، عندما أقارن نفسى بك ، أحس شيئا من هذا القبيل يجول بخاطرى ، وكأنما اجتهدنا نحن كلانا على نحو صاحب صبيانى غرير الى أقصى حدود الصخب والصبيانىة والغرور للوصول الى شئ كان هدوء وموضوعية فريدا يوصلان اليه بسهولة ودون اثاره ، اجتهدنا نحن كلانا فى الوصول اليه بالبكاء والشمس والشد كما يشد الطفل الصغير فى ملاءة المنضدة فلا يصل الى شئ الا رمى العظمة كلها الى الأرض . فتنقلب بالنسبة اليه الى شئ من المحال الوصول اليه . وأنا لا أعرف هل الأمر فى الحقيقة على هذا النحو ، ولكن أعرف انه أقرب الى هذا منه الى ما تحكمين .

فقلت ييبى :

— هه ، أنت متيم بفريدا لأنها هجرتك ، وليس من الصعب ان يهيم بها الانسان عندما تكون غائبة . ولكن ربما كان الأمر على ما قلت ، وربما كنت على حق فى كل ما ذهبت اليه ، وفى سخريتك منى . وماذا تريد الآن أن تفعل ؟ لقد هجرتك فريدا ، وليس لديك أمل ، لا طبقا لتفسيرى ولا طبقا لتفسيرك أنت ، فى أن تعود اليك ، وحتى اذا كانت ستعود اليك ، فينبغى عليك حتى ذلك الحين ان تقيم فى مكان ما ، فالجو بارد وليس لديك فراش ، وليس لديك عمل ، فتعال الينا ، وستعجبك صديقتاى ، وسنعمل جميعا على راحتك وستساعدنا فى عملنا ، وهو فى الحقيقة صعب علينا وحدنا صعوبة مفرطة ، وهكذا لن نكون نحن البنات بلا سند ولن نحس خوفا بالليل . تعال الينا . وصديقتاى هما أيضا تعرفان فريدا وسنحكى لك عنها من الحكايات حتى تسأها . تعال . ولدينا صور لفريدا سنقدمها اليك لتراها ، لقد كانت فريدا فيما مضى أكثر تواضعا من الآن ، ولو رأيت صورها صغيرة لما تعرفت عليها بسهولة ، الا من عينيهما اللتين كانتا فيما مضى ترتبسان كما ترتبسان الآن . هه ، اذن ستأتى الينا ؟

وقال ك :

— وهل ذلك من المسموح به ؟ لقد حدثت بالأمس فضيحة كبيرة لأنهم قبضوا على فى الممر .

فقال بيبي :

— آه لأنهم قبضوا عليك ! ولكنهم لن يقبضوا عليك عندما تكون عندنا . لن يعلم عنك انسان شيئا عندما تكون عندنا . لن يعرف ذلك سوى ثلاثتنا . آه ، سيكون ذلك شيئا مفرحا بهيجا ! اننى أحس الآن بأن الحياة ستصبح أكثر احتمالا عنها قبل هنيهة . ولعلى لا أكون قد فقدت الكثير نتيجة لخروجى من الخمار . آنا ، نحن البنات الثلاثة ، لم نعان الملل لأننا كنا معا ، وما ينبغى على الانسان الا أن يحل الحياة المرة ، وهم يجعلون حياتنا من صغرنا مرة ، ولكننا نتكاتف نحن الثلاثة ، ونعيش حياة جميلة على قدر الامكان ، وستعجبك هنريته خاصة ، وكذلك ايميليه ، ولقد حكيت لهما عنك ، فسمعتا حكاياتى مكذبتين ، وكأننا لم يكن الممكن أن يجرى شيء فى خارج حدود الحجرة ، الحجرة الدافئة الضيقة التى تتلاصق فيها الواحدة بالأخرى تلاصقا شديدا . لا ، اننا لا نحس بالملل بعضنا من البعض على الرغم من ان كل واحدة منا تعتمد على الأخرى . بل على العكس . اننى عندما أفكر فى صديقتى ، أكاد أحس بالرضا لأننى أعود . ولماذا أتقدم وأعلو عليهما ؟ لقد كنا متكاتفات لسبب واحد وهو أن المستقبل موصد أمامنا نحن الثلاثة ، ولقد اندفعت أنا من خلال السد وانفصلت عنهما . ولكننى بطبيعة الحال لم أنسهما ، بل كان همى الأول هو فعل شيء من أجلهما . وعلى الرغم من أن اقدمى لم تكن قد رسخت فى الوظيفة بعد — ولم أكن أعرف ذلك آنذاك — فقد تكلمت مع صاحب الحان بشأن هنريته وايميليه . ولم يعترض على هنريته اعتراضا لا سبيل الى التغلب عليه ، أما ايميليه — وهى أكبرنا سنا ، وهى فى سن فريدا تقريبا — فقد اعترض عليها اعتراضا لا أمل فى التغلب عليه . ولكن تصور ! انهما لا تريدان الانصراف عن حياتهما الحالية ، انهما تعرفان انها حياة بائسة ، ولكنهما انطوتا لها ، وأظن أن البنيتين الطيبتين عندما بكتا عند توديعى ، كانتا حزبتين خاصه لانصرافى عن الحجرة المشتركة ، وذهابى الى البرودة — ونحن نتصور كل شيء خارج الحجرة باردا — واضطرابى فى الاماكن الكبيرة القريبة ومن فيها من أناس أغراب لا شيء الا لكسب معاشى ، ولقد كنت وأنا معها أكسب معاشى . ويبدو أنهما لن تدهشا عندما أعود الآن اليهما ، وسوف تبكيان وتندبان حظى لا شيء الا لتلينا لى بعد ذلك . ثم ستريانك وستتبينان أننى أحسنت صنعا عندما تركتهما وذهبت . وسوف تسعدان عندما تجدان أننا أوتينا رجلا يكون لنا عونا وسندا ودرعا ، وسوف تفرحان أشد الفرح عندما تعلمان أن الأمر لا بد أن يبقى سرا بيننا واننا سنتكاتف

بسبب هذا السر تكاتفنا أكبر وأمتن . تعال ، أرجوك ، تعال إلينا ! ولن يكون فى حضورك إلينا التزام بشئ ، فلن ترتبط بالحجرة أبدا مثلنا . فإذا أتى الربيع ووجدت فى مكان آخر مأوى ، ولم يعد المقام لدينا يحلو لك ، فلك أن تذهب . ولن يكون عليك إلا أن تحفظ السر حتى بعد أن تنصرف ، والا تفضحننا ، لأن ذلك سيكون معناه دنو ساعتنا الأخيرة فى حان السادة ، هذا الى أنه ينبغى عليك ، وأنت عندنا ، أن تلزم الحذر بطبيعة الحال ، وألا تظهر فى أى مكان لا يكون فى تقديرنا غير خطير ، وعليك بصفة عامة أن تتبع نصائحنا . هذا هو القيد الوحيد الذى يقيدك ، وينبغى أن تحرص عليه حرصنا نحن عليه ، أما فيما عدا ذلك فأنت حر تمام الحرية ، ولن يكون العمل الذى نكلفك به صعبا ، وأنا لا أخشى شيئا من هذه الناحية . هل ستأتى إلينا اذن ؟
وسألها ك :

— وكـم يمر من الوقت حتى الربيع ؟

وأعادت بيبي كلامه :

— حتى الربيع . . .

ثم أردفت :

— ان الشتاء لدينا طويل ، طويل جدا ، ورتيب . ونحن فى حجرتنا السفلية لا نشكو من ذلك ، فنحن فى مأمن منه . ولكن الربيع يأتى يوما ما ، وكذلك الصيف ، ولكل مواعده . وأنا عندما أعمل ذاكرتى أتصور الربيع والصيف قصيرين جدا وكأنهما لا يزيدان على يومين اثنين ، وحتى فى هذين اليومين يسقط أثناء الجو الجميل بعض الثلج أحيانا .

وهنا افتتح باب . وارتعد بيبي . لقد بعدت بأفكارها عن الحمارية بعدا شديدا ، ولم تكن فريدا هى التى أتت ، بل صاحبة الحان . وتظاهرت بالدهشة لرؤيتها ك هنا . واعتذرك قائلا انه كان ينتظر قدوم صاحبة الحان ليشكرها على السماح له بقضاء الليلة هنا . ولم تفهم صاحبة الحان سبب انتظارك لها . فقال ك لها ، انه كان يحس بأنها تريد أن تتكلم معه ، ورجاها أن تغفر له ان كان قد أخطأ فى هذا ، وقال ان عليه فى الواقع أن ينصرف الآن ، فقد طال اهماله المدرسة التى يعمل خادما بها ، والذنب هو قبل كل شئ آخر ذنب الدعوة التى تلقاها بالأمس ، وقال انه قليل الخبرة بهذه الموضوعات ، وانه لن يحدث مرة أخرى أن يسبب للسيدة صاحبة الحان منغصات كتلك التى حدثت بالأمس .

وانحنى وتأهب للانصراف . وتطلعت صاحبة الحان اليه بنظرة وكأنها تحلم ، وأدت هذه النظرة بك الى الانتظار أطول مما كان ينوى . ثم ابتسمت ابتسامة رقيقة ، ولم تفق لنفسها الا عندما رأت ك ينظر اليها نظرة مدهوشة . ويبدو أنها كانت تتوقع ردا على ابتسامتها وانها أفاق الآن عندما لم تتلق ردا . وقالت :

— لقد تجرأت بالأمس على ما أظن وقلت شيئا عن ثوبى .

ولم يستطع ك أن يتذكر . فقالت له :

— ألا تذكر ؟ هكذا يتبع الجبن الجرأة .

واعترضك بتعبه فى الأمس وقال انه من الممكن جدا أن يكون قد ثرثر بشيء ، ولكنه على أية حال لا يذكر . وماذا يمكن أن يكون قد قال فى ثياب السيدة صاحبة الحان ؟ الا أنها جميلة جمالا لم يسبق أن رأى له مثيلا ، أو على أنه لم يسبق أن رأى صاحبة حان تلبس هذه الثياب أثناء العمل . فقالت له صاحبة الحان بسرعة :

— دع هذه التعليقات . اننى لا أريد أن أسمع كلمة واحدة منك عن

ثيابى . وليس لك أن تهتم بثيابى . وأنا أمنعك من ذلك منعا باتا .

وانحنى ك مرة أخرى واتجه الى الباب . فصاحت صاحبة الحان من

خلفه قائلة :

— وما معنى قولك انك لم تر من قبل صاحبة حان تلبس مثل هذه

الثياب أثناء العمل ؟

ما معنى هذه التعليقات السخيفة ؟ انها سخيفة كل السخف . ماذا

تعنى بها ؟

فالتفت ك خلفه ورجا صاحبة الحان ألا تغضب ، وقال ان هذه التعليقات بطبيعة الحال سخيفة ، فهو لا يفهم شيئا فى الثياب ، وانه فى حالته هذه ، يرى كل ثوب نظيف غير مرقع ثوبا جميلا . كل ما فى الأمر انه اندهش عندما رأى السيدة صاحبة الحان بالليل تلبس ثوب سهرة جميل وسط رجال لا يكادون يرتدون شيئا . هذا هو كل ما فى الأمر .

فقالت صاحبة الحان :

— هانتذا تتذكر ، على ما يبدو ، تعليقاتك التى قلتها بالأمس ،

وتكلمها بسخف جديد . أما أنك لا تفهم فى الثياب فصحيح . ولكن

عليك فى هذه الحالة أن تمتنع — وأنا أرجوك فى هذا رجاءا حارا — عن

اصدار أحكام عن الثياب الثمينة والثياب التى لا تليق للسهرة وما الى ذلك . . . وعليك . . .

ويبدو انها أصيبت هنا برعدة . وأردفت :

— وعليك بصفة عامة ألا تنشغل بشيأى مطلقا ، هل سمعت ؟

فلما هم ك بالاتجاه الى الناحية الاخرى فى صمت ، سألته :

— ومن أين لك المعرفة بالثياب ؟

وهز ك كتفيه معبرا عن انه لا يعرف شيئا عن الثياب . فقالت له صاحبة الحان :

— ليست لديك معرفة بالثياب . ولا ينبغي أن تتجرأ على ادعاء معرفة بها . تعال الى المكتب وسوف أريك شيئا وأرجو أن يؤدى هذا بك الى أن تكف كلية ونهايا عن الجراءة والتهور .

وتقدمته الى الباب وخرجت قبله ، فقفزت بيبي الى ك متظاهرة بأنها تريد أن تأخذ منه الحساب ، وتقاهمت معه بسرعة ، وكان هذا أمرا سهلا ، لأن ك كان يعرف الفناء الذى تؤدى بوابته الى الشارع الجانبى ، وكانت بيبي تريد أن تنتظر ك بعد ساعة تقريبا عند الباب الصغير المجاور للبوابة ، وتفتح له عندما يندق ثلاث دقات .

كان المكتب الصغير فى الناحية المواجهة للخمارة ، ولم يكن الانسان يحتاج للوصول اليه الا الى اجتياز البهو ، وكانت صاحبة الحان تقف فى المكتب الصغير المضاء ، عندما وصل اليه ك ، وتنتظر مقدمه بفراغ الصبر . وكان ك قد تعطل لأنه وجد جيرشتيكر ينتظر فى الممر ويريد أن يتحدث اليه ، ولم يكن من السهل رده ، حتى تدخلت صاحبة الحان وساعدت ك ولامت جيرشتيكر على الحاحه .

وسمع ك صوت جيرشتيكر يقول حتى بعد أن انقفل الباب :

— الى أين ؟ الى أين ؟

وكانت كلماته تختلط اختلاطا قبيحا بتنهدياته وسعاله .

كان المكتب عبارة عن حجرة صغيرة ارتفعت درجة حرارتها ارتفاعا مفرطا ، وكان هناك عند الحائطين العرضيين قطر مرتفع للوقوف وخزينة حديدية ، وعند الحائطين الطويلين دولاى وأريكة . وكان الدولاى يشغل أغلب المساحة ، لا لأنه كان يبتلع الحائط الطولى فحسب ، بل لأنه كان علاوة على ذلك يمتد الى بعيد وسط الحجرة ، ويضيقها بحيث كان فتحه

على سعيته يتطلب ثلاثة أبواب منزلة • وأشارت صاحبة الحان الى الاريكة
ليجلس ك عليها ، أما هي فجلست على الكرسي الوثير الدوار الى القمطر •
«وسالت صاحبة الحان :

— وأنت لم تتعلم حتى الخياطة ؟

فقال ك :

— لا ، مطلقا •

— فماذا تكون ؟

— موظف مساحة •

— وما هذا ؟

وشرح لها ك • وأدى الشرح بها الى التثاؤب • فقالت :

— انت لا تقول الحقيقة • لماذا لا تقول الحقيقة ؟

— وكذلك أنت لا تقولين الحقيقة •

— اذن فأنت تعاود الوقاحة • وحتى اذا كنت لا أقول الحقيقة فهل

«أنا مسئولة أمامك ؟ وما هو موضع كذبي ؟

— أنت لست صاحبة حان فقط كما تدعين •

— هكذا ! ما أكثر اكتشافاتك ! فماذا أكون غير ذلك ؟ ان وفاحتك

تزداد فعلا ازديادا مفرطا •

— أنا لا أعرف ماذا تكونين غير ذلك ! كل ما فى الأمر اننى أرى أنك

صاحبة حان ، وانك مع ذلك تلبسين ثيابا لا تناسب صاحبة حان ، بل

• ولا تناسب امرأة قط فى القرية على ما أعلم •

— وهكذا نصل الى لب الموضوع • انك لا تستطيع أن تخفى ماتعلم،

ولعلك لست وقعا ، لعلك كالطفل الذى يعرف حماقة ما ، ولا يكون هناك

من سبيل الى منعه عن كشف سرها • فتكلم • ما هو الشئ الغريب فى

هذه الثياب ؟

— ستغضبين منى اذا تكلمت •

— بل سأضحك ، فلن يكون كلامك سوى ثرثرة صبيانية • فما

أمر ثيابي ؟

— اذن فأنت تريد أن تعرفى • انها من قماش جيد ، ثمين ،

ولكنها قديمة العهد ، كثيرة الزخرف ، كثيرة التعديل ومستهلكة ولا تلائم

لا سنك ولا قوامك ولا مركزك • ولقد لفتت نظرى على الفور عندما رأيتهما لأول مرة منذ نحو أسبوع هنا فى البهو •

— لقد وصلنا • انها قديمة العهد ، كثيرة الزخرف ، وماذا أيضا ؟ ومن أين لك هذه المعرفة كلها ؟

— هذا هو ما أراه ، ولا يحتاج الانسان فى ذلك الى تعليم •

— انت ترى هذا بكل بساطة • وأنت لا تحتاج الى الاستفسار من أى انسان ، بل تعرف من فورك الشكل اللائق • وما دام الأمر كذلك فلا غنى لى عنك ، لأننى أعشق الملابس الجميلة • وما تقول فى أن هذا الدولاب مليء بالثياب !؟

ودفعت الأبواب المنزلقة الى جانب ، فرأى ك الثياب متلاصقة فى الثوب ، تملأ الدولاب كله على عرضه ، وكانت الثياب معتمة الألوان فى غالبها ، رمادية وبنية وسوداء ، وكانت كلها معلقة ومنشورة بعناية • وقالت :

— هذه هى ثيابى ! كلها قديمة العهد ، كثيرة الزخرف والحشو ، كما تقول • وما هذه الثياب التى تراها هنا الا تلك التى لا أجد لها مكانا فى حجرتى العلوية ، فلدى بها دولابان كبيران مملوءان ، دولابان كل منهما فى حجم هذا الدولاب تقريبا • هل تدهش لذلك ؟

— لا ، لقد كنت أتوقع شيئا من هذا القبيل • لقد قلت لك انك لست صاحبة حان فقط ، انك تطمحين الى شىء آخر •

— اننى لا أطمح الا الى شىء واحد وهو أن ألبس ملابس جميلة ، أما أنت فمجنون أو طفل أو انسان شرير جدا خطير جدا • اذهب ! اذهب !

وعاد ك الى البهو ، وأمسك جيرشتيكر مرة أخرى بكمه ، وهنا صاحت صاحبة الحان :

— سأتلقي غدا ثوبا جديدا ، وربما استدعيتك •

فهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
الفصل الأول	٢١
الفصل الثاني	٤١
الفصل الثالث	٦٣
الفصل الرابع	٧٥
الفصل الخامس	٨٩
الفصل السادس	١٠٩
الفصل السابع	١٢٥
الفصل الثامن	١٣٧
الفصل التاسع	١٤٧
الفصل العاشر	١٥٩
الفصل الحادى عشر	١٦٧
الفصل الثانى عشر	١٧٣
الفصل الثالث عشر	١٨١
الفصل الرابع عشر	٢٠٩
الفصل الخامس عشر	٢١٩
الفصل السادس عشر	٢٧٥
الفصل السابع عشر	٢٨٣
الفصل الثامن عشر	٢٨٩
الفصل التاسع عشر	٣١٧
الفصل العشرون	٣٣١

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز

الإشراف الفنى: حسن كامل

ولد فرانتس كافكا فى الثالث من شهر يولية عام 1882 فى براغ التى كانت فى ذلك الوقت تجمع بين ثقافتين: الثقافة الألمانية من ناحية، والثقافة التشيكية من ناحية ثانية.

تقع أحداث رواية "القصر" فى قرية لا نعلم من اسمها إلا "القرية"، وهى تقع عند أسفل التل الذى ترتفع عليه مبانى القصر، حيث يصل فى وقت متأخر من مساء يوم من أيام الشتاء رجل اسمه "ك"، جاء بعد رحلة على الأقدام ليعمل موظفاً للمساحة بناء على دعوة يقول إنه تلقاها من أصحاب الشأن. و"ك" هذا لا يعرف من أمر القرية والقصر إلا القليل..

